طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الجزء الرابع

1417هـ - 1996م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبد الله

الجزء الرابع

1417هـ ـ 1996م

الباب السادس عشر :

وقف المياه.. حضارة إنسانية راقية

الثـروة دائما في العطـاء، لا في الأخـذ أبـدا، وهـي الباقيـة بعـد رحيل الإنسـان، لأنَّها الذكرى التي يحملها له الناس في قلوبهم، كلما رأوا أعماله...

لقد هـام الأعراب بمياه الـوطن، وافتتنوا بمشـاربها وبُرُودَتِهَـا، وزُلَالِهَا وَقَرَاحِها، وتـذكروا بها ديارَهم، والعـربيُّ معروفٌ بحبه لِوَطَنِـه، وقد ملأوا كتبهم بأحـاديثهم عن الغُربـة والاغتراب، ووقعهـا في نفُوسهم، فيـذكُرون ديارَهم، فإذا تذكـروها، كان أول ما يَحِنُّون إليه، وأول مـا يتشوقون إليه، ويتمنونه هو ماؤها وشرابُها..

في هذا الباب نتنـاول أحد عشر فصلا، تتمحور حَوْل الـوقوف المائية منذ العصر الجاهلي..

الفصل الأول : يتحدث عن هيام الأعراب بمياه الوطن.

الفصل الثاني : الوقوف للمياه في العصر الجاهلي.

الفصل الثالث : ارتباط الماء، بالشعائر الدينية.

الفصل الرابع : وقوف الآبار والعيون في المدينة المنورة.

الفصل الخامس : عمل إنساني نبيل.. عين زبيدة.

الفصل السادس : وقوف المياه في العهد الإسلامي.

الفصل السابع : توفير الماء، ووقوفه في طريق الحاج..

الفصل الثـامن : مؤسسة السقـايات، أنظمة اقتضتها فلسفـة المدينة الإسلامية...

الفصل التاسع : الإشراف على السقائين.. من اختصاص المحتسب.

الفصل العاشر : مؤسسة السقايات الوقفية في المملكة المغربية.

الفصل الحـادي عشـر : نظافـة الجسم بالمـاء، رقي صحي، ومظهر حضاري.

الفصل الأول :

هيام الأعراب بمياه الوطن

رغم ما قاله ابن الجوزي في تَذَمُّرِه من أهل بغداد، وَوَلَعِهم بكلّ ما هو طريفٌ وأجنبي، فإنه لم يستطع أن يخفيَ اعتزازه بأناقة حضارتها، وظرف أبنائها... روى عن عبيد الله بن محمد التميمي يقول : «سمعتُ ذا النُّون يقول بمصر : من أراد أن يتعلمَ المروءة والظَّرفَ، فعليه بِسَقَّاء الماء ببغداد، قيل له : «وكيف ذلك؟ قال : «لما حُمِلتُ إلى بغداد رُمِيَ بي على باب السُّلطان مُقَيَّداً، فمرَّ بي رجلٌ مُتَّزِرٌ بمنديل مِصري، مُعَتَّمٍ بمنديل ديبقي، بيده كِيزانٌ خزفٍ رِقاق، وزجاج مخروط، فسألت : «هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي : «لا، هذا ساقي العامة» فأومأت إليه أن اسقِنِي، فتقدَّم، فشممت من الكُوز رائحة المِسْك، فقلت لمن معي : «إدفع إليه ديناراً»، فأعطاه الدينار، فَأَبَى، وقال : «لستُ آخُذُ منك شيئاً» فقلت : وَلِمَ؟ فقال : «أنت أسير، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئا، فقلت : «كمُل الظرف في هذا»...

* * *

ولقد كان بعض السقائين في أحياء الكوفة ينشد، أثناء سيره في الطريق، وهو حاملٌ قِربته، قولَ الشاعر مفاخرا بمهنته ولو بشيء من الجَهْدِ اللّذ، والتعبِ المرُيح :

وأُكـرِمُ نفسي، إنَّني إن أهنتُها
وحقِّك، لم تُكْـرَم على أحـدٍ بَعْـدِي

فسمعه الأصمعي، وأراد المزاحَ معه، فقال له : «وعن أي شيء أكرمتَ نفسك، وهذه حِرفة دنيئة! فأجابه السقاء : إنني أكرمتها عن ذل السؤال،

وعن الـوقــوف علىِ بـاب لئيم مثلِك، وأستغني بهـــا عن السَّفَلَــة... فأراد الأصمعي أن يمضـي، وقد ظن أن الرجل لا يعرفـه، لكن ظنه خاب، لأنه ما أن ابتعد قليلا حتى قال السقّاء : يا أصمعي : احفظ عني هذا... ثم أنشد :

لَنَقْل الصخـــــــرِ مـن قُلَل الجبـــــال
أحـبُّ إلي مـن مِنَنِ الـــــــرجـــــــال
يقـــول النـــاس كسبٌ فيــه عـــارٌ
وكـلُّ العــــــار... فـي ذُلِّ السُّـــــؤَال

رحم اللـه سقاء الكـوفة، فقـد كان أكثـر دراية بقـوانين احترام الـذات، وحرمة الأدب من الكثيرين من معاصرينا!...

* * *

ولعل هـذا الإكرام للنفس هـو مـا حَذَا بـوالـد أبي الطيب المتنبيء، لأن يسقي المـاء لأهلِ المحلـة حتى عـرف بعبدان السقـاء... فـروايـات بعض المؤرخيــن تقول بـأن أبا الطيــب ووالـده كان سقّـاءً يسقي المـاء لأهل المحلة، !!؟ وقد هجاه ابن لنكك البصري لما سمع بقدومه بغداد راجعا من مِصرَ بعد سـتـة عشر عاما من استيلاء مُعِـز الدولة عليها، وأقام بـالكوفة التي هجرها، من قبلُ مرارا وتكرارا، فراراً من القرامطة والأعراب، فقال :

لكن بغـــداد جـاء الغيث ســـاكنهـا
نعـــالهـم في قفـا السَّقـــاء تـــزدحم

فكـان أبوه يسقي بـالكوفـة، وإلى هذا أشـار بعض الشعراء في هجـو المتنبي حيث قال :

أي فضل لشـــاعـــر يطلب الفضــــــ
ــــلَ، من النـــاس، بُكُـــرَةً وعشيـــا

عــاش حينــاً يبيــع في الكـــوفــة المـــا
ء، وحينـــــا يبيع مــــــاء المُحيـــــا(1)

* * *

وكان الشاعر أبو تمام، وقد نشأ بمصر يسقي الماء في جامع عمرو.

وبذلك نستطيع أن نقـول بأنه لم يُضيع حيـاته سُدى، ذاك الـذي حفر بئراً، أو غرس شجرة، أو رَبَّى ولداً...

ولكن... كم منا استطاع أن يجمع بين هذه الأعمال الثلاثة؟

إننا نشرب كل يوم من آبار لم نحفرها، ونستظل بأشجار لم نغرسها... وربما كنا بعد هذا آباء لا نشعر بأبنائنا، أو أبناء لا ندرك أننا آباء للغد...

وكما قال مالك بن نبي : «إننا نعرف في الجزائر، وفي البلاد الإسلامية الأخرى، ذلك الوجــه المألوف، وهو يشق طريقه بين الجمــاهير في أسواق المدينة وبطحائها، يوزع الماء، مجانا، غَدَقاً، يسكبه من قربة يحملها بجنبه، يمرّ وهو يكرر كلمته المعروفة لدى أجيال المسلمين :

في سبيل الله.. في سبيل الله... السبيل.. السبيل، إننا نعرف هذا الوجه الأصيل، بين وجوه وأخــرى... كذلك المــؤذن وهو يوزع في الــواقع زهده وطمأنينته وعقيدته وروحانيته العميقة في الأسواق...

* * *

إن مجموعــة الأعمال الطيبة التي يُقَدِّمهــا الإنسان في حياتــه لمجتمعه، وللأمة التي ينتمي إليهــا، هي ثروته الحقيقية، كما يقول فيلســوف فرنسا،

1) لقد جـارينا المـؤرخين والمتآمـرين على نسب المتنبي الذين كـان من أذكاهم القاضــي أبو علي التنـوخي الذي كـاد أن يكون هــو المصدر الـوحيـد للروايـات الموضـوعة عن المتنبي وأبيــه «السَقاء»؛ التنوخي هـذا، كان قد استدعاه الـوزير حسن بن محمد المُهَلَّبي لصداقـة كانت بينه وبين أبيه، بـالإضافة إلى أن أبـا الفرج الأصبهاني الـذي كان هو نفســه من أصحاب المهلبي، أنظـر «قامـوس المحيط» للفيروز آبـادى في شرحــه لمعنى كلمة «عُـود»، وجمعها «عيـدان»، فـالمتنبي شريف مـن ذرية علي، وأبـوه من زعمـاء البيت. وهكذا الكشـف يعود إلى الأستـاذ محمود محمد شاكر، وإبراهيم العريض، لأنهما أولُ من كشف النقاب عن نسب المتنبي، ورداه إلى أصله العلـوي، وانظر كتاب : «المتنبي، يَسْتَـرِدُّ أباه بعد ألف عـام»، لصديقنا الأستـاذ عبد الغني الملاّح.

وشاعرها الكبير : فولتير Voltaire فالثروة دائما في العطاء، لا في الأخذ أبدا... وهي الباقية بعد رحيله، لأنها الذكرى التي يحملها له الناس في قلوبهم كلما رأوا أعماله...

فكل حضارة تصنع هكذا نماذج اجتماعية، ووجوها تقليدية تتعاقب في الأجيال، تضع عليها طابعا، وترسم ملامحها ما يعبر عن رسالتها الخاصة...

* * *

لقد كان تزويد المدينة بالماء عنصراً هاما قامت عليه المدينة الإسلامية، وتكفّلت طوائف السّقائين بذلك منذ العصور القديمة التي تمتد جذورها في الزمن السحيق، ولم يقتصر الأمر على إمداد البيوت، ودور العبادة بالمياه، وإنما اقتضت فلسفة المدينة الإسلامية، وحضارة إنسانيتها الراقية توفير مياه الشرب لكل مخلوق حي، بحيث يكون الماء في متناول الجميع أينما ولّى الخَلْقُ وجوههم...

* * *

وفي السماء رزقكم :

العرب، قديما، كانوا يسمون الماء رزقا... وهو المعنى الذي أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في قوله : ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾(2) فالرزق ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبث به الزرع ويحيا به الخلق(3).

والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات، وبسط الرزق وتضييقه بيد الله، وِفْقَ الأوضاع والظواهر العامة المذكورة في الآيات... فموارد الرزق من ماء ينزِل، وأنهارٍ تجري، وبحارٍ تغذي، وزروع تنبت، وحيوان يتكاثر، ومِنّ معادن وفِلِزّات في جوف

2) سورة «الذاريات» رقم الآية : 22.

3) كما قال سعيد بن جبير والضحاك.

الأرض، وصيد في البَـرِّ والبحـر، إلى نهاية موارد الرزق العـامة تتبع كلها نواميس الأرض والسماوات وتسخير الشمس والقمر، تَبَعِيَّةً مباشرة ظاهرة، ولو تغيـرت تلك النواميس عما عليـه أيما تغييـر، لظهر أثرُ هـذا في الحياة كلِّها على سطح الأرض...

ولـذلك كـان الحسن إذا رأى السحاب، قـال لأصحـابـه : «فيه، واللـه، رزقُكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم...

وقال أهل المعـاني : «وفي السماء رزقكم» معنـاه، وفي المطر رزقكم، سمي المطر سماء، لأنه من السماء ينـزل... قال مُعَوّدُ الحكماء، معاوية بن مالك(4).

إذا سقط السمـــــاء بـأرض قـــــوم

رعينـــاه... وإن كـانـــوا غضـــابـــا(5)

وكـان من عادة العـرب في الجاهليـة، أنه إذا نـزل المطر في جهـة من الجهات، وأخصبت، انتقل إليها من لم تخصب منازلهم، فإن منعهم أهل تلك الناحية رَعَوْهُ رغماً عنهم، واقتتلوا عليه، وهذا هو معنى البيت السابق لمعوِّذ الحكماء...

فإن شاء أهلُ الخصب، ألا يقاتلوا، أذِنوا للقادمين أن يجاوِرُوهم، ويرعَوْا معهم، على أن يصنعوا ذاك معهم، إذا أخصبوا

* * *

من الذي أغضَبَ الجليل حتى حلف ؟

قـال الأصمعي : أقبلتُ ذات مَـرّة من مسجـد البصـرة، إذ طلع أعـرابي جِلفٌ جَافٌ على قعـوده، متقلّداً سيفه، وبيـده قوسُه، فدنـا وسلّم، وقال :

4) سمى معود الحكماء : لقوله في هذه القصيدة :

أعـــوِّد مثلهـــا الحكمـــاء بعــــدي

إذا مـــا الحق في الحــدثـــان نـابـــا

5) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ص : 41/ج : 17.

ممن الرجل؟.. قلت : من بني أصمع، قال : أنت الأصمعي؟ قلت : نعم قال : ومن أين أقبلت؟ قلت : من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن، قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت : نعم؛ قال : فاتلُ علي منه شيئا... فقرأت : ﴿**والذاريات ذروا**﴾ إلى قوله تعالى : ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ فقال : «يا أصمعي، حسبك..!! ثم قام إلى نَاقته، فنحرها وقطعها بجلدها، وقال : «أعني على توزيعها، ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عَمَدَ إلى سيفه وَقَوْسِهِ، فَكَسرَهما، ووضعهما تحت الرَّحل، وولّى نحو البادية، وهو يقول: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون**﴾ فمقتُّ نفسي ولمتُّها، ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذ أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي، وهو ناحل مصفر، فسلّم علي، وأخذ بيدي، وقال : «أتلُ علي كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام»، فقرأت : ﴿**والذاريات ذروا**﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى : ﴿**وفي السَّماء رزقكم، وما توعدون**﴾ فقال الأعرابي : «لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقا» وقال وهل غير هذا؟ قلت : نعم... يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**فَوَرَبِّ السماء والأرضِ، إنه لحَقٌّ مثلما أنكم تنطقون**﴾ قال : فصاح الأعرابي، وقال : يا سبحانَ الله!! مَن الذي أغضب الجليل حتى حلف!! ألم يصدقوه في قوله، حتى ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثا... وخرجت بها نفسه.(6)

* * *

وقد دأب بعض المفسرين على تفسير الرزق في الآيتين الكريمتين : ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ ﴿**وهو الذي يريكم آياته، وينزل لكم من السماء رزقاً**﴾ بالماء، إذ تمَّ تأويل الآية استنادا إلى ظاهرة بلاغية تفيد أن لفظة الرزق استعملت في غير معناها الحقيقي، حيث تم تعويض السبب

6) المصدر السابق ص : 42 / ج : 17.

بالنتيجة،(7) قال المتمسكون بظاهرية النص إن استعمال لفظة الرزق كان في معناه الحقيقي، إذ الأرزاق مقسمة ومقدرة، ولكل نصيبه الخاص.

ومن أسماء الرزق : «الرَّيحَان، أو هو الرزق بلُغَة حمير تقول : خرجتُ أطلب رَيْحَان الله»، أي رزقه، قال النِّمِرُ بن تَوْلب :

سلامُ اللهِ، وريحانُه
ورحمته وسماء دِرَرْ

[تفسير القرطبي ج : 17/ص : 157]

* * *

وقد تطلق الرحمة، أيضا، ويراد بها المطر، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿**ومن آياته أن يُرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته، ولتجري الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون**﴾ فالرياح في هذه الآية مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ومثل قوله في نفس السورة : ﴿**فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحي الموتى، وهو على كل شيء قدير**﴾(8) فالمطر نعمة كبرى، وهي من آثار رحمته التي وسعت كل شيًء...

* * *

وهكذا كان العربي يعرف معنى الرزق، ويسمى المطر والماء رزقاً، وقد أنشد فيه ابن خروف الأندلسي متحدثا عن النيل(9) :

ما أعجب النيلَ! ما أحلى شمائلَه
في ضفَّتَيْه من الأشجارِ أدواحُ

---

7) مجاز مرسل، علاقته السببية.

8) سورة الروم، الآية رقم 46 ـ والآيات : 48 ـ 49 ـ 50.

9) نفح الطيب، ص : 641/ ج : 2.

من جنـــةِ الخلـــد، فَيَّـــاضٌ على تُـــرَعِ
تهبّ فيهــــا هبــــوبَ الـــــريح أرواح

ليست زيــادتُـــه مـــاءً كمــا زعمــوا
وإنمـــــا هي «أرْزَاقٌ» وأربــــــــاح

* * *

لقد هـام الأعراب بمياه الـوطن، وافتتنوا بمشـاربها وبُرُودتهـا، وزُلَالها وقَرَاحِها، وتـذكروا بها ديارهم.. والعـربي معروف بحبه لـوطنه، وبحنينه إليـه، وقـد مـلأوا كتبهم بأحـاديثهم عن الغـربـة والاغتـراب ووقعهـا في نفوسهم، فيذكرون ديارهم، فإذا تذكروها كان أوَّلَ ما يحنون إليه، وأول ما يتشوقون إليه، ويتمنَّونه هو ماؤها وشرابُها.(10)

وقد قيل للأحنـف بن قيس، وهو مريض : ما تتمنى؟ قـال : شربة من ماء الغَزِين،(11) ومَاءُ الغزيز مُرّ، وإنمـا تمنّاه الأحنف لمحبته الوطن، ومات الأحنف بالكوفة : وهو على شـاطىء الفُرَات... وماء الفُرات عذب، فلم يتمَنّ منه شربة...

وقال أحمد بن الحسن بن حيدرة المعرف بابن الخراساني الطرابلسي :

وكيف التـــذَاذي مـــاء دجلـة معُــرِقـــاً
وأمــــواهُ لبْــــنَــــانَ، ألـــذّ وأعـــذبُ

فمــــالي، ولــــلأيـــامِ لا دَرَّ درُّهــــا
تُشَــــرِّق بي طــوراً، وطــوراً تغَــرِّب

---

10) أنظر بحثا للدكتور جميل سعيد في «مجلة المجمع العراقي» مج: 13 عام 1966.

11) ماء الغـزيز : منهل معـروف بهذا الإسم في الجاهليـة، وهو باقٍ إلـى هذا العهد، وفيـه يقول جرير:

فهيهــــات هيهــــات الغَــــزِيـــزَ ومَـن بِـــه
وهيهــــات خِلٌّ بــــالغَــزِيــــز نُــواصِلُـــه

وقال أبو جابر الكلابي :

أيـــا نخلتي وادي كتيفـــة،(12) حبـــذا
ظـــلالكمـا، لـــو كنت يـومـــاً أنـالُهـــا
ومـاؤكمـا العـذبُ الـــذي لـو شـربتُـه
شفـــاءٌ لنفسٍ كـــان، طـال اعتـــلالُهـــا
مُعَنًّى علـى طُـــول الهُيـــام غليلُـــه
بـــذكـــر ميـــاهٍ مـــا يُنـــال زلالُهـــا

بل حتى إنهم لفـرط استئثارهم بهـا كانـوا يمنعون غيرهم مـن القرب إليها، والكَرْعِ منهـا... ويتمنون لو استطاعـوا أن يحرِّموا مذاق مـا في حفر الجبال من مياه على اللئام...

فهذا الشاعر أبو القمقام الأسدِي يتحدث عن مياه الوطن، ويتذكر بلده، وأول ما يتـذكر منـه جبلهم، وإذا ما تذكـر الجبل، كانت صـورة الماء أول الصور التي تسـرع إلى خاطره، فتـراه يُـحِـسُّ لمائهم طعما خـاصا، لا يجده في غيره مـن المياه، حتى لتراه يرى أن كل المشـارب ذميمٌ بالقياس إليه... يرى الماء ويذوقه، فتسـرع إلى نفسه وإلى خاطره صورة الماء في بلده، فيذم المياه كلها بالقياس إليه، وتتلهف نفسه إلى جبله، فلا يجد أكثر من أن يدعوَ له «بالسُّقيا» ويَـخُـصُّ بهذه السقيا ظله بالعشِي وبالضحى، ثم يخصُّ بها ماء أيضـا، ذلك الماء الذي يكون بـاردا، حتى يكون غيره من المياه حميما...

وعنـدنا أن هـذا الإحساس إحسـاس الـروح، لا إحساس الجسم، وأنـه يتعلق بإحساس النفس والخاطر أكثر منه متعلقا بإحساس الفم واللسان...

---

12) كُتيفة : جبل صغير في أعلى مُيْهِل، قال امرؤ القيس :

وأضحـى يَسُحُّ المـــاء حـــول كُتيفـــةٍ
يكـب علـى الأذقـــان دَوْح الكنهبـل

وفي بلاد العرب ستة أجبل صغار يسمى كل واحد منها كتيفة.

يقول أبو القمقام الأسدي :

إقرأْ على «الوَشَل»(13) السلامَ، وقلْ له :

«كلُّ المشـــارِبِ، مُـــذْ، هجــرت، ذميمُ

سَقْيــاً لظِّلِـك، بــالعَشِيّ وبـــالضحى

ولِبَــــرْدِ مــــائك، والميــــاهُ حميم(14)

لــــو كنـتُ أملك منعَ مــــائك لـم يــــذُق

مــا في قـلاتك،(15) مـــا حييـتِ، لئيم

إن هذه الصورة الأخيرة صورة أبي القمقـام الأسدي يتعلق بماء الوَشَل هـذا التعلق، تــورد إلى النفس صــورة أبي نــواس يتعلق بــالخمـر حيث يقول(16):

أجـل عن اللِّئَــــــــام الـــــــــراحَ حتـى

كَـأَنَّ الـراحَ تَعْصِـــر من عظـامي

ويقول أبو الطَّمَحَـان الأسدي،(17) وكـان نديمـا لناس من بني الحـدّاء، وكانوا نصارى، فأَحْمد(18) نِدَامَهم(19) :

كأن لم يكن في القصــر، قَـصْـــرِ مقاتل(20)

وزُورَة،(21) ظلٌّ نـــــاعمٌ وصــــــديق

---

13) الوشل : ماء معروف، أنظر معجم ياقوت في كلمة : الوشل : وانظر كتاب : «الشوامخ» للدكتور محمد صبري، ص : 34.

14) حميم : حار.

15) قلاتك ج : قلة، حفرة في الجبل يقع فيها المطر.

16) تطور الخمريات في الشعر العربي، لجميل سعيد، ص : 109.

17) أنظر تحقيقا في اسمه في ج : 5/ص : 175، من كتاب : «الحيوان» للجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

18) الاحماد : مصدر أحمده، وجده مستحقا للحمد.

19) النِّدام : المنادمة على الشراب.

20) قصر مقاتل : قصر كان بين عين التمر والشام.

21) زورة : بلفظ واحد : الزيارة، موضع بين الكوفة والشام.

ولم أَرِدِ البطحـــــاء،(22)، امـزُج مـــاءهــا
بخمــر، من البَــرُّوقتينِ(23) عتيـق(24)

فالشاعر هنا يتشوق أول ما يتشوق إلى ماء البطحاء يمزجه بالخمر...

وقال طُخَيم بن أبـي الطخماء الأسدي يمـدح قوماً مـن أهل الحِيرَة من رهط عَدي ابن زيد العِبَادِي :

كأن لـم يكن يــومٌ بِـــزُورة(25) صــالحٌ
وبــــالقصـــر ظـلٌّ دائمٌ وصــــــديقُ
ولم أرِدِ البطحــــاءَ يمـــزُج مَــــاءَهَـــا
شـــــرابٌ من «البَـــــرُّوقتيـن» عتيق
معي كـل فضفـــاض القميص كـأنـــه
إذا مــــا سَــرَت فيـــه المــدام فنيق

وقال مطيـر، عبد بني قريط يتشـوق إلى أرضه، وإلى «صـداء» مائهم المعروف(26) :

ألا ليت شعـــري، هل أبيتَـــنَّ ليلـــة
و«صـــداء» مني، و«البيــاض» بعيــد
بـــوادٍ من اللعبـاء أعـــلاه عـــوسج
وأسفلـــــه رمث عليـــــه جهيـــــد

وقال آخر(27) :

ألا ليت شعـــري، هل أبيتَـــنَّ ليلـــة
بصحــــراء مــا بين الجثــوم إلى شعـــر

22) البطحاء : موضع بعينه قريب من ذي قار.
23) البروقتين : موضع قرب الكوفة، وقد ضبطت في الكامل بفتح الباء وتشديد الراء المضمومة، وقال ياقوت : ووجدته بخط بعض أئمة الأدب بواوين الأولى مضمومة جعلها : البَرْوُوقتين.
24) الحيوان، ص : 158/5. انظر : «ضحى الإسلام» لأحمد أمين ج : 1 / ص326.
25) قال البكري، ص : 706/2 موضع بالحرة.
26) «بلوغ الأرب» للألوسي، ص 429/3.
27) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وهــل أردنَّ العين، والشمــل جــــــامــع

مقيم النــوى قــد حــان ذاك على قــدري

وانظر أيضـا كيف تشتاق الإبل إلى وطنهـا، وماذا تتمنى منه حيث يعبر عن إحساسها أبو العلاء المعري فيقول(28) :

تمنت قُــوَيْقــاً، والصــراةُ حيــالهــا

تــــرابٌ لهــــا مــن أينق وَجِـــــمَال

أي أن هــذه الإبل تمنت قُوَيْقـاً، وهو نهـر على بـاب حَلَب، وأبو العــلاء يتعجب منها كيف تتمنى قُــوَيْقاً، وهي عند الصّراة، والصــراة مجتمع دجلة والفرات، ببغــداد، يعد أطيب مــاء، وأفضل من قــويق... وأبو العــلاء لا يجد أكثر من أن يدعــو عليها لجهلها في تفضيلها ذاك على هذا... وبعــد حديثه عن الإبل اللواتي طربْــنَ :

وأنشــدن من شعــر المطــايا قصيـدة

وأوْدَعْنَهَــــا في الشـــــوق كلَّ مَقــــال

نرى البرق يهيجه إلى وطنه، على نحو ما هاج الإبل إلى وطنها، فيقول، وكأنه يصيح، ويفغر :

فيـــا بــرقُ ليـس الكـرخ داري، وإنمــــا

رمــــاني إليــه الـــدَّهـــر منـــذ ليـــالي

فهل فيـك من مــــاء المعــــرة قطـــرة

تغيث بهــــا ظمـــآن ليس بســـــالي

وأبو العلاء هو الذي يقول أيضا في قصيدة أخرى :

ومـــاءُ بِـــلادي كـــان أنْجَعَ مَشْـــرَبــاً

ولــو أن مــاءَ الكــرخِ صـهبــاءُ جِــرْيـالُ

---

28) أنظر «سقط الزند» ط : دار الكتب المصرية : 1947/2/1162.

وفي أخرى :

يـــا مــــاءُ دجلـــة، مــــا أراكَ تَلَـــذُّ لي

شـــــوقـــاً، كمـــاء مَعَـــرَّةِ النُّعمَـــانِ

هذا كله، و«ماء المعرة» لا يقرن بماء دجلـة... ماء المعرَّة ماء آبار، وماء دجلة، مـاء النهر العـذب القراح السلبيل.. ولكنـه ذوق الروح، لا ذوق الفَمِ واللّسان...

* * *

إن هناك ميـاهاً في بلاد العـرب لا تسيغه الإبل، تَكْظِمُ عليـه، ثم تمجه، لأنهـا استأنست بمياه أَلِفَتْهَـا واعتادَتْهـا، فهي لا تسيغ مياهـاً بعيدةً عمـا دَرَجَت عليه، قال شاعر غطفاني في ماء المُرِير :

هـــذا المُـريـــر، فـــاشـربيـــه، أو ذري

إن المـــــريـــــرَ قطعـــــةٌ من أخْضَـــــرِ

والأخضر هنا؛ ماء البحر... وقيل بأن لقمـان بن عاد اختار طول عُمْرِه، فكان من دعائه حين سأل طول العمر :

اللهمَّ، يَا رَبَّ البِحَارِ الخُضْرِ   والأرضِ ذاتِ النبّتِ بعد القَطْرِ

أسألك عُمْراً فوق كلِّ عُمْرِ(29)

فنودي، أن أعطيتَ ما سألـت... إلى آخر القصة.

ويقول النابغة في وصف بحر :

يُمـــاشيهِنَّ «أخْــــضَـــــرُ» ذو ظِـــلاَلٍ

على حَـــــافَـــــاتِــــهِ، فِلَقُ الـــــدِّنـــــان

وانظر بيت أبي القاسم الزمخشري الـذي يتحدث عن نهر البَرَدان الذي يوجد بالشام :

29) ألف أبو حاتم سهل بن محمـد بن عثمان السجستاني كتاباً مستقلا في أخبـار المُعَمَّرين الذين عاشوا مائة وعشرين فما فوق.

ألا إن في قلبـي جـــوىً لا يبلُّــــه

قُــوَيقٌ، ولا العـاصي، ولا البَـــرَدان(30)

وقال جرير :

وقـد كـان في بقعـاء(31) ريّ لشـــائكم

وتلعــة... والجـوفـاء يجـري غـديـرُهـا

وماء بقعة مر، وهي لبني عبس... وقد تزوجت امرأة من بني عبس في بني أسد، ونقلها زوجهـا إلى «لِينة»، الماء المعروف اليوم، ومـاؤها عذب، وكان زوجها الأسدي عِنِّيناً، فَفَرِكته، واجتوت الماء، فاختلعت منه، ورجعت إلى بلادها، وتزوجها رجل من أهل بقعاء، فقالت :

فمن يُهـدِ لِـي من مـاء بقعـاءَ شــربـةً

فَإن لـــه مـــاء «لينــــة» أربَعَـــا

لقـــد زادنـي وجـــداً ببقعــــاء، أنني

وجــدتُ مطــايــانــا «بلينــة» ظُلَّعــا

فمن مبلـغ تـــربيّ بــــالـــرمـل أنني

بكيت، فلـم أتــرك لعيني مــــدمعـــا

فلذلك كانت الميـاهُ، من مختلف منابعها وعيونها، بـالنسبة لأبي العلاء المعري غيـرَ صـالحة، ولا تحمل أي مَـذَاقٍ، إذا لم تكن منابعُهـا من وطنِه، ومَدْرِجِ عُشِّـه... فماءُ بلاده كان أنجع مشرباً، وأفيدَ لصحة الجسم، رغم أن ماء المَعَرَّة لا يُقْرَنُ بالمياه العذبة الصافية، واسمعه يقول :

---

30) معجم البلدان 2/13 وما بعدها ــ والبَرَدان : مواضع كثيرة، كما قال يـاقوت، فَقُوَيْق والعاصي والبَرَدَان، هذه أنهار بالشام، والبَرَدَان بأعلى نخلة الشامية، وفيه أقوال كثيرة. [صحيح الأخبار، 2/32].

31) بقعاء المذكـورة، مسماة اليوم بقيعا، وقد جهز إليهـا أبو بكر(ض) جيوش المسلمين لقتـال أهل الرِّدة.

وماءُ بلادي، كان أنجعَ مَشْرَباً
ولو أن ماءَ الكرخ صَهْبَاءُ جِرْيالُ
فيا وطني، إن فاتَنِي بِكَ سابقٌ
مِن الدهر، فلينعَمْ لساكِنك البالُ

وقد شهر جرير الشاعر برقة حديثه أو غزله، وامتلأ شعره بالنسيب، والحديث عن النساء، وعراه يريد أن يتحدث عن شدة شوقه إلى الحبيبة، فلا يرى أكثر من أن يشبه شوقه إليها، بشوقه، وهو ظمآن، إلى الماء حيث يقول(32) :

منعت شفاء النفس ممن تركته
به كالجوى مما تجن الجوانح
تركت بنا لُوحا،(33) ولو شئت جادنا
بُعَيد الكرى، ثلج بكيزان ناصح

روينا عن البخاري(34) ومسلم في صحيحيهما، والإمام مالك في الموطأ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم النبي عليه السلام، وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما، فقلت : يا أبت؟ كيف تجدك؟ قالت : فكان أبو بكر، إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال يقول(35) :

ألا ليت شعري، هل أبيته ليلة
بوادٍ وحولي إِذْخِرٌ وجَليل

32) الديوان، ط : الصاوي، ص : 100.
33) اللوح : العطش أو شدته.
34) صحيح البخاري، ص 550 ـ 589/1.
35) قيل إن هذين البيتين لبكر بن غالب بن عامر بن الحارث ابن مضاض الجرهمي أنشدهما عند ما نفتهم خزاعة من مكة، وقيل لغيره كما في عمدة القاري.

وهل أرِدَنْ يَـوْمـاً ميـاهَ مَجَنـة(36)

وهل يَبْـدُوَنْ لِـي شـامـةٌ وطفيل(37)

قالت عـائشة رضـي الله عنها، فجئـت رسـول اللهﷺ، فأخبرتـه فقال : «اللهم حبِّب إلينا المـدينة كحبنا مكة، أو أشـد، اللهم بارك لنا في صَـاعِهَا وفي مُدِّها، وانقُل حماها، فاجعلها إلى الجحفة..

وفي «المشرع الـروي، في مناقب بني باعلوي» لسيـدي محمد بن أبي بكر باعلوي، بعد أن ذكر بيتي سيدنا بلال بن رباح ما نصه :

ألا ليت شعـري، هل أبيتَـنَّ ليلـة

بـواد، وحـولي عشـرق ونخيل

وهل أنظـرن يـوما قبـوراً لِسَـادة

وتبـدو لعينـي خيلـةٌ وسحيـل

وقال الإمام أبو بكر بن ا لعربي المعافري نزيل مراكش :

ألا ليت شعـري هل أبيتَـنَّ ليلـة

من الـدهـر، لا أخشى ولا أتـرقب

وبـي ظمـأٌ بـرح إلـى ورد منهـل

يطيب بـه صـرف الميـاه ويعـذب

بمشـرعـة الكـرخ التي لم تـزل بهـا

يلـذ لنـا شـرخ الشبـاب ويعجب

وكم شـارب للمـاء في غيـر أرضـه

وقـد غبت عنـه مـاء عيني أشـرب

36) قال أبو الفتح : يحتمل أن تسمى ببساتين تتصل بها، وهي الجنان.

37) شامة وطفيل : جبلان. ـ وهذه كلها من معالم مكة على الخلاف بين أهل العلم في أنها جبال أو عيون كمـا يقول الخطـابي في كتابه : الإعـلام في شرح البخـاري : كنت أظن شامـة وطفيلا جبلين حتى مررت بهما، ووقفت عليهما، فإذا هما عينان من ماء.

وهي قصيدة طويلة طنانة ذكر منها جملة صالحة في «بغية الملتمس» في تاريخ رجال الأندلس أبو العباس الضبي نزيل مراكش ..

وقال ابن عنين(38) (تـ 630هـ) في قصيدة مدح بها سيف الإسلام الملك العزيز ضغتكين أخ صلاح الدين الأيوبي، وقد رحل إليه في اليمن لما نفاه صلاح الدين لهجوه الناس :

حَنِينٌ إلى الأوطان ليس يزول
وقلبٌ عن الأشواق ليس يحول

ألا ليت شعري هل أبيته ليلة
وظلك يا مُقْرَى علي ظليل

دمشق، فبي شوق إليكِ مبرح
وإن لَجَّ واشٍ أو أَلَحَّ عذُول

بلادٌ بها الحصباءُ درٌّ، وتُربُها
عَسِيرٌ وأنفاس الشمال شَمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيمُ الروض، وهو عليل

ولعالم أهل البيت مولاي امحمد ابن السلطان(39) المولى إسماعيل العلوي قصيدة يمدح بها شيخه أبا عبد الله بن أحمد القسنطيني، ويتشوق إلى مدينة فاس في أبيات مؤثرة على بساطتها :

---

38) ابن عنين، أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الأنصاري الملقب شرف الدين كوفي الأصل دمشقي المولد، شاعر مجيد هجاء، نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في الناس، فتنقل في البلاد وبلغ الهند، نشر ديوانه الأستاذ خليل مردم (دمشق : 1946) «وهو صاحب مقراض الأعراض» [أنظر ترجمته في نفح الطيب، ص : 2/401].

39) ترجم له المختار السوسي في «المعسول» ص : ج/18، «وسوس العالمة» ص : 64 ـ 79، وابن زيدان في الاتحاف : ص : 78 ـ 4/79 وعبد الله كنون في النبوغ 1/275، وعبد السلام ابن سودة في دليله ص : 314. ـ وابن إبراهيم التعارجي في اعلامه ص 12 — 5/18، ومحمد الأخضر في «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية» ص : 83 — 147 — 155.

ألا ليت شعــري، هل أنــزه نــاظــري
وللنفس إقبــالٌ بــوادي الجــواهــر
امتع طـــرفي في ريـــاض أنيقـــة
وأقطف أزهـــاراً، بهــا كــالــزواهــر
بحيث نــرى أُسْدَ العَــرِين صـريعــة
وقــد فتكت فيهــا ظبــاءُ المقــاصــر
وحيث نـــرى غُلْبَ الحـــدائق سلسلت
حــديثــا صحيحــا عن نسيم الأزاهــر
وقـــد نسجت كـفُّ النسيم عشيـــةً
دُرُوع ميـــاهٍ بين تلك النـــواعـــر
وأصبحت الأطيــار فــوق غصــونهــا
فِصَــاحــاً تقُصُّ فــوق خُضْــر المنـابـر
سقى اللــه أَدواحــاً بفــاسٍ عهــدتهــا
تُغــازل أنـــواع الغيــوث المـــواطــر
ولا بـــرحت عيـنٌ تـــراهـــا قـــريــرةٌ
وأن قَـــذَفَــتْ بـــالقلب جَمْـــرة حـــائر
لكِ اللـــهُ من إلفٍ «بِـــدَرْعـــة» جسمُـــهُ
وقلبٌ بفـــاس في قُـــدَامـــة طـــائر
تُـــراوِحُـــهُ الأشـــواق في كل ليلـــة
فمـــا بين مـــزور هـــواه وزائر

وفي ديوان أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي الـذي جمعه ولده أبو عبد اللـه محمد نزيل مـدينة مراكش، قــال : وقد جرى ذكـر البيتين اللذين ينسبان لسيـدنا بلال، فهـاج له إلى الأوطـان اشتياق، فقال على نحـو هذا المساق، وهو إذ ذاك بمدينة مراكش عام 1090هـ.

ألا لَيْتَ شعـــــري هل أبيتَـــــــنَّ ليلـــــة
«بسَـهْبِ الشِّنين»(40)، أو بِسَـهْبِ «بَنِـي وَرَا»
وهل تَعْبُـــرَنْ نهـــرَ العَبِيـــد(41) ركـــائبي
وهل تَتْـرُكَـنْ «دَايـا»(42) وَأدْواءَهَـــا وَرَا
وهل أرِدَنْ عُسْلُـــوجَ يَـــومـــاً فأشـــربَنْ
ميـــاهـــاً بـــه تحكـي رحِيقـــاً وكـــوثـــرا
وهـل تمـــــرحَن خَيْلِـي بـــــذروة امنـــــا
وبطنـــانهـــا من قبـل أن يحفـــر الثـــرا
وهل أكحلـن يـــومـــا جفـــوني بنظـــرة
إلـــى الارزات(43) الفـــارعـــات فتبصـــرا
وهـل أدفعن جيـش الهمـــــوم ببسطـــــة
مع الحـيّ في تلك الـــديـــار فتقصـــرا

وقال الحسن اليوسي، أيضا يصف أيـام مقامـه بمراكش يَـحِـنُّ إلى وطنه وذلك في عام 1094هـ.

فأسألـــه أن يجمـــع الشمـــل والمـــنـــى
هنـاك بمن أهـــوى سـريعـا كمـــا أهـوى
فقـــد طـــال مـــا بيني، وبين معـــاهـــدي
ومـا أستطيع الصبـرَ عنهـــا، ومـا أقـوى
فللـــــه أرضٌ، لم يَسُـــؤْنِـي هـــواؤُهـــا
ولا مـاؤُهـا الأصفى لـذى الصـدفي الأروا

40) سهب الشنين، وسهب بني ورَا : منطقة معروفة ببلاد مراكش.
41) نهر العبيد : هو واد العبيد.
42) دَايْ : هي معروفة قرب الصومعة بتادلا، وكلتاهما قرب قصبة تادلا.
43) الأرزات الفارعات : شجر معروف بتلك الجبال في منطقة «فَازَاز».

ولا عيشهـــا الـــرغـــد المَـــرِيءُ، ولا تَقِس

بـــه المـنَّ، في ذكـــر النعيـم، ولا السَّلْــوَى(44)

وفي ديوان الـوزير أبي عبـد الله محمـد بن إدريس الزمـوري الفاسي نزيل مراكش، له رحمه الله يتشوق إلى مدينة مراكش :

ألا ليـت شعـــــري، هـل أبيتنَّ ليلــــــة

بمــــراكش حيث الغـــريبُ عـــزيـــز

وهـل أرِدَن من واد «صَبْـــــرة» منهـــــلا

وهل يبـدون لي، «رَمْـرَم» و«جليـز»(45)

وله أيضا، أي الوزيـر بن محمد إدريس العمراوي(46) (تـ 1296هـ) قوله متشوقا لمراكشة الحمراء، وأهلِها :

ألا ليـتَ شعـــــــري، هـل أبِيتَـنَّ ليلــــــةً

بمـــراكـش بين الأحبـــة ثـــاويـــا

وهـل أعْبُـــــرَنْ أمَّ الــــربيع، وأتـــرُكَنْ

مَهَـــامِـــهَ «تَـامَسْنَـــا» هـــواءً وَرَائيـــا

وهـل أرِدَن من وادِ «صَبْـــــرة» منهـــــلاً

ويَبْـــدُو مَنَـــارُ الكتبييـن أمَـــاميـــا(47)

---

44) الإعلام «للعباس بن إبراهيم ص 1/10.

45) «رمرم»، و«جليز» جبلان قرب مدينة مراكش يطلان عليها، أنظر تحقيق اسمه في كتاب الإعلام ص : 1/14، وقال بعض الفضلاء الراحلين إلى الحجاز رأى أن جبل جليـز ارتفاعه يكون قدر ارتقاع جبل عرفة.

46) ترجمه صـاحب «الاتحاف» ص 2/32، 189 ـ 4/239 ـ الإعـلام للمراكشي : 5/263 ـ وعبد السلام بن سـودة في دليله ص : 391 ـ محمد غـريط في «فواصل الجمان»، 40 ـ 60 ومحمد الكتاني في «سلوة الأنفاس»: 363 ـ 2/363. ـ والناصري في الاستقصا، ص : 4 ـ 14 ـ 9/15. ـ و«النبوغ المغـربي» لعبد الله كنـون.ـ وفي الحسام الشـرفي، للعربي المشرقي ص : 253 ـ 260.ـ و«الحياة الأدبية في المغرب، على عهد الدولة العلوية» ص : 409.

47) الاتحاف : ص 2/36.

وقد أنشد أبو زيد في «ابتهاج القلوب» لسيدي العربي الفاسي لما تغرب عن وطنه :

وظمآنُ حرّانُ الجوانح من أسى
يُسَاقُ إلى الوِرْدِ الزلالِ فَيَابَى

يُنكِّبُ عن عذب الفُرات لأنه
يَرَى كلَّ ما دُوَن الرُّضَاب سرابا

وأي بلاد غير فاس تروقه
وقد شبّ في أحضان فاسٍ وَشَابَا

يرى كلَّ تُربٍ دون تُربتها قذى
ويحسب ما فوق التراب، تُرَابا

ولبعضهم، كما في «رياض الورد» لقاضي مراكش أبي الفتح محمد الطالب ابن أبي الفيض حمدون بن الحاج(48) :

فاس لعمري، هي الدنيا بأجمعها
لو لم يكُ القلبُ فيها ضَيِّقاً حَرِجا

من حلّ ساحَتَها لم ينجُ من كَدَرٍ
كأنما همُّها، بمائها مُزجا

ولله عبد السلام بن يوسف(49) إذ قال يتشوق إلى العتيق :

ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودة
وهل لي بتلك البَانتَيْنِ لمَامُ

وهل نهلةٌ، من «بئر عُرْوَةَ» عذبة
أداوي بها قلباً بَرَاهُ أُوُامُ (50)

---

48) ونسبها أبو عبد الله محمد بن معطي السرغيني في فهرسته: «حدائق الأزهار، في ذكر معتمدى من الأخبار» لابن الخطيب السلماني، وهما أدون نفسا من شعر ابن الخطيب.

49) «مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت باشا ص : 1/438.

50) «ماء الموائد» لأبي سالم العياشي، ص : 1/271.ـ البان : ضرب من الشجر، واحدته بانه.ـ اللمام : الاجتماع في بعض الأحايين.ـ الاوام : حر العطش.

وقال العباس ابن إبراهيم(51) إنه أنشده بعض الأدباء للوزير ابن إدريس، أيضا، يتشوق إلى فاس :

ألا ليت شعري، هل أبيتنَّ ليلة
بفاسٍ، وحولي من مُناي ثَلاَثُ.
مغانٍ بها أغنى، وأهل، وجِلَّةٌ
أجل بهم بين الورى وأُغَاثُ
وهل أردن «وادي الجواهر» جهرةً
وهل يَبْدُوَنْ لي زالغ وتُغَاث

وليوسف محمد ابن النحوي(52) :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق
وساكنوك، أهنيهم بما رزقوا
هذا نسيمُك، أَمْ روحٌ لراحتنا،
ومـاؤُك السلسلُ الصافي أم الوَرَقُ
أرضٌ تخللها الأنهار داخلها
حتى المجالس والأسواق والطرق

ولعبد الله بن الشّين الديماني يتشوق إلى أوطانه وهو بمراكش :

ألا ليت شعري، هل أبيتنَّ ليلةً
وللنفس بين المأمنين(53) ثلوج
وهل لي بذات الحي عيش ألذه
منازلنا قِدما، وحيث نروج(54)

---

51) كتاب «الإعلام» للمراكشي، ص : 1/15.

52) جذوة الاقتباس، ص : 2/553.

53) المأمنين : بئرين «بنْياشِل وأكَتِنت بموريطانيا.

54) «إخبار الأخبار، بأخبار الآبار» لأحمد بن أحمد يُورَا الدِّيماني.

الدعاء بالسقيا :

بالنسبة لدعاء العرب لبعضهم البعض...فقد حفل الأدب العربي، في هذا الباب بالدعاء بالسقيا في أشعارٍ، هي في منتهى الرقة، وعلو النفس، ورشاقة الأسلوب، لا يأتي عليها الحصر والاستقصاء، فهم إذا أرادوا الدعاء لأحدٍ بالحياة، ولِينِ العيش، وسُبُوغ النعمة، قالوا : «سُقْيالة» و«سقاه الله»، كما يقولون : «طُوبَى له» و«حياه الله».

كما أدرك العربُ في أدبهم «نعمة الماء» فجعلوه في تحيتهم ودعائهم، ألا ترى أنهم قد أكثروا من قولهم «سقياً ورعياً في التحية والدعاء، وإذا كان سقيٌ، فلا بد أن يعقُبه خِصب، ترعاه إبلهم ودوابُهم، ومن هذا قول النابغة:

نُبِّئْتُ نُعماً على الهِجران عاتبةً
سَقْياً وَرَعْياً لذاك العاتِبِ الزّاري

ويقول علقمة :

فلا تَعْدِلِي بيني وبين مُغَمَّرٍ
سَقَتْكِ رَوَايَا المُزْنِ، حَيْثُ تَصُوبُ

والمُغَمَّرُ : الجاهل. ـ وَتَصُوبُ : بمعنى تنزِل.

* * *

كما رأينا العَرِبيّ يقولُ في دعائه على الإنسان : مالَهُ، أحرَّ الله صدره!!! أي أعطشه... وفي الدعاء : سلط الله عليه الحِرة تحت القِرة!! يريد العطش مع البرد؛ ورماه الله بالحرّة والقِرة، أي بالعطش والبرد... وقالوا : أحرّ الرجل، فهو : محر، عطشت إبله.(55) وأيُّ شيء أعظم مصيبةً وخطراً على الإنسان من العطش في أرض حارة؟!

55) اللسان ص : 178/4 وما بعدها «حر».

بل إنهم في مدائحهم يشبهون الممدوح بالمطر والسحاب وبالبحر، لأن المطر سر الحياة في الصحراء، وإن كان الرجل الحضري الذي يرتوي من الأنهار، ويعيش على التجارة، لا يدرك تمام الإدراك نعمة المطر والماء، بل لعله يتوقعه بشيء غير قليل من الضيق...

فالشاعر الجاهلي في شدة لهفته على الماء، وتأمله له ولآثاره في بلاده، قد كان يعكس نفسية العربي في صحراء شبه الجزيرة العربية، ذلك الإنسان الذي كان في شوق مقيم دائم إلى الماء، فنجده يكافح وينافح ويناضل من أجل قطرة الماء ينقَعُ بها الغُلة، ويَبَلُّ الصَّدَى، فيلاحقها أينما وجدت، فهو في تَرْحَال دائم، عينُه معلقةٌ بالسماء يتتبع مواقع القطْر، ويراقِبُ حركةَ السحاب، وهو لا يتبعه بعينه وجسمه وحسب، وإنما يخفق له قلبه خفق المحب الوَلْهَان، ويُسَخِّرُ له عقلَه من أجل استنباطه والمحافظة عليه، فكان يشعر بالغبطة والرضى والسعادة تَغْمُرُهُ عند ما يتأمل المطر نازلاً من السماء، أو متدافعاً على وجه الأرض...

فهذا ذو الرُّمة غيلان بن عقبة يقول في صاحبته «مية» ويدعو لدارها بأن تدوم لها السلامة على الزمان من طارق الحِدْثان، وأن يدوم نزول الأمطار بساحتها، وكنَّى بنزول الأمطار بساحتها عن الخصب والنماء، بما يستتبع من رفاهية أهلها، فقال :

ألاَ يا اسْلَمي، يا دارَ ميٍّ على البِلَى
ولا زال مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ(56)

لقد عجز نَقَدَةٌ قُدامَى، وقَصُرت بهم خطاهم عن الحكم الصائب، والتقدير السليم، لاعتمادهم على قِيَم فنية، ومعايير أدبية، انحدرت إليهم من أُممهم الأجنبية، إن كانوا من الموالي، أو من بيئة ا لمدينة المستقرة

56) «البِلَى» من بلي الثوب يبلى كرضِيَ يرضى : أي خلق ورث.ـ منهلا : مسكبا.ـ الجرعاء : رملة مستوية لا تنبت شيئاً.ـ القطر : المطر.

التي كانـوا يضطربون فيهـا، ويخضعون في ظـلالها إلى أعراف وتقـاليد؛ أنماط من العيش تختلف عما يضطرب فيه أبناء الصحراء اختلافاً كثيراً...

فمن ذلك نقدهم(57) لقول ذي الرمة السـابِق : «ألا يا اسلمى» فاحتجوا بأن في قـوله هـذا، إفساداً للـدار التي دعـا لها، وهي أن تغـرِقَ من دوام انهِلاَل القطر، وقالوا : الجيدُ في المعنى قولُ طرفة :

فَـسَـقَى ديـارَكِ - غـيـرَ مـفـسـديـها

صَـوْبُ الـربيـع، ودِيمـةٌ تَهْمِي

لأن قوله «غيـرَ مفسديها»، تتميم للمعنى، واحتراس للـديار من الفساد بكثرة المطر.(58)

وذكر صاحب «العُمدة» أن ناقد بيت ذي الـرّمة هو قدامة بن جعفر، ثم أورد ردّ بعضـهم عليه : «بأن الشـاعر قدم الـدعاء بالسلامـة للدار في أول البيت،(59) وعقب المؤلف بقوله : إن هذا الردَّ هو الصواب.(60)

ولما كتبت ولادة بنت المستكفي بـالله، إلى ابن زيدون قصيـدتَها : ألا، هلْ لنا من بعدِ هذا التفرق... إلى أن قالت :

سقى الله أرضا، قد غدت لك منزلاً

بكل سَكُـوبٍ هـاطلِ الـوَبْل مُغْـدقِ

كتب إليها ما يلي : «...ولما كنتِ ربما حثثني على أن أنبهَكِ على ما أجد فيه عليك نقداً... وإني انتقدتُ عليك قولك :

سقى الله، أرضا، قد غدت لك منزلاً...

فإن ذا الرّمة قد انتُقِد عليه قولُه، مع تقدير الدعاء بالسلامة :

---

57) قدامـة بن جعفر، نقد الشعر» تحقيق : كمـال مصطفى، مطبعة أنصار السنة المحمـدية، 1949، ص 137 ـ 138، والقيرواني الحسن بن رشيـد، العمدة، ط : السعـادة، مصر ط : 3/1383 ـ 1963، ص : 50 ـ 2/51.

58) العمدة : ص : 2/50.

59) المصدة السابق، ص 2/51.

60) المصدر السابق، ج : 2/ ص 51.

أَلا يــا اسلمي يـا دارَ «مَـيّ» على البِلَى
ولازال مُنْهَــــلاًّ بجـــرعــــائك القطْــــرُ

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول طرفـة بن العبد من قصيدة يمدح بهـا قتادة بنَ مَسْلَمَة الحَنَفي، وكـان قد أصاب قومَه سنة، فأتوه، فبذل لهم :

فسقى ديــــارِكِ غيــــرَ مفســــديــــا
صــوبُ الغمــام، وديمــة تهمي(61)

ولما كان المطر، قد يفضي بالديار إلى الفساد، تحرز على ذلك بقوله : «غير مفسديها»، ولم يقع فيما وقع فيه ذو الرمة.(62)

***

وقـد سأل الحافــظ الحجاري صاحب «المُسهِب» الوزيـر أبـا بكر بن عبد العزيز عن المعتمد بن عباد كيف يـراه؟ فقال : «قصدته، وهو مع أمير المسلمين يوسف بن تـاشفين في غزوته للنصارى المشهـورة؛ فرفع إليه قصيدةً منها هذا البيت :

ولا سقاهم على مـا كان من عطشٍ
إلا بِبعْضِ نَــدَى كَـفٍّ ابْنِ عَبّــاد

قال الوزيـر أبو بكر بن عبد العـزيز : ثم أخذ المعتمد البطـاقة، وجعل يجيل النظر والفكر في القصيـدة، وأنا مترقب لنقده، لكـونه في هذا الشأن من أئمته، وكثيـرا ما كان الشعراء يتحـامونه لذلك، إلا من عـرف من نفسه التبريز، ووثق بها، إلى أن انتهى إلى قولي :

ولا سقاهم على ما كان من عطشٍ

---

61) نفح الطيب، ص : 207/4. «مواقف في الأدب والنقد» د. عبد الجبار المطلبي.

62) أنظـر : التلخيص في علوم البـلاغـة «للإمـام جـلال الدين محمـد بن عبـد الرحمن القـزويني الخطيب، شرح : عبد الرحمن البرقوقي، ص : 229.

فقـال : «لأي شـيء بخلـتَ عليهم أن يُسقَـوا بِكَفِّـه؟ فقلـت : إذَن، كـان يلحقني من النقد ما لحِّق ذا الرمة في قوله :
«ولا زال منهلا، بجرعائك القصر...» وكان طوفان نوح أهونَ عليهم من ذلك، فتألقت غُرتُه، وبدت مَـسـرتُه، وقـال : إنا لِلهِ على إن لم يُعناً الزمان على مكافأةٍ مثلِك.(63)

* * *

وعود على بدء...
أو كقول الآخر يَدْعُو لها بالسقيا :

أسقى طلــولَهم أجشٌّ (64) هَزيمُ
وغَـــدَتْ عليهم نضـــــرة ونعيمُ

أو سؤاله السقيا لها من البرق، كقوله :

يـا بـرقُ، طـالـعْ منـزلاً بـالأَبْـرقِ
وَاحْـدُ السحـابَ لهـا حـداء الأينُق

ويقول جرير بن عطية يدعو بالسقيا للخيام :

متى كــان الخيـامُ بــذي طُلُّـوحٍ
سقيتِ الغيثَ أيَّـتُـــهَـــا الخيـامُ

[صحيح الأخبار ج : 1/ 209]

* * *

ولما كانـوا يتأثرون به من اليبس والجفاف، وندرة المطـر، وقلة الماء، حتى إنهم كانوا يدعون لقبور موتاهم بالسقيا، والتعهد بالحَيَا؛ وذلك كقول الشاعر العربي أبي تَمّام :

---

63) «نفح الطيب» ص : 3/571.
64) مطر أجش : شـديد الصـوت، غيث هزيم : لا يستمسك.. تهزمت السحـابة بـالماء : تشققت مع صوت.

أرسى النسيمُ بـــواديكم، ولا بَـــرِحتْ
حَـوَامِلُ المُـزْنِ، فـي أجـداثكم تَضَـعُ(65)
ولا يـــزال بَـــرِيضُ النبـت تُـــرضِعُـه
على قبـــوركم، العَـــرَّاصَـــةُ الهَمَع

بل إنهم توسعوا في دعائهم بالماء للغير حتى خاطبوا ما لا يعقل، كقول لسان الدين ابن الخطيب السلماني في موشَّحِهِ المشهور يدعو للزمان وهو يذكر أيام صباه، ومراتع شبابه، حيث يدعو لها بالسقيا، ويقول :

جَـــــــــادَكَ الغيـثُ، إذا الغيـثُ هَمَـى
يـــا زمـــانَ الـــوصـلِ، بـــالأنـــدلسِ
لـم يكـن وصلُـك إلا حُلُمـــــــــــا
في الكَـــــرَى، أو خِلسَـــــةَ المختلِس

* * *

كان العـربي يضن، على الغيـر، إذا امتلك مورداً للمـاء، باعتبـاره مادة الحياة، وأصل البـركات، وعلى غـزارته وجودتـه تتوقف صحـة الأجسام، وَرَفَاغَةِ العيش، وطيب الإقامة...

فقد يهلك عددٌ من النـاس قبل بلوغهم موضـع ماء... إمـا من شدة الحر والعطش والجوع... وإمـا من السيف الذي لا بد لهم من استعمالـه لإجبار أهل المـاء على السمـاح لهم بمشـاركتهم لهم إيـاه، أو بالاستحـواذ عليـه، ونزولهم بـه، وطردهم أصحابه عنـد أماكن أخرى... أو بهـروبهم من هذا الموضـع لقوة أصحابه، ولتمكنهم من رد الطامعين عنه...

فكانت الحروبُ لا تنقطع بَتَاتاً، بين القبائل العربية بحكم الظروف التي فرضت على الجزيرة العربية القاحلة الجدباء من أجل الاستيلاء على مواطن الماء والكلأ والعشب، ويصدق عليهم قول الشاعر :

---

65) الجدث : القبر.

وأحيـــانـــا علـى بكـــرٍ أخينـــا

إذا مـــا لم نَجـــدْ إلا أخـــانـــا

فكان لكل قبيلـة، نظرا لهذه الظروف، فـارسٌ مِغْوار، به تَحْمي الـذمار، وتمنع العار، وتسود الكـرامة والعزة لهذه القبيلـة... وتهيمن أعراف معينة، قسـراً وعنـوة، من حيث الأسْـــرُ والمـنّ والفِـداء، وكـانت القبيلـة القـويـة والمنتصـرة تفتخر بأن لهـا الكلمـة العليا، وأن القبـائل الأخـرى، ترهبهـا، وتخشاهـا... بل إن شاعـرها عمرو بن كلثـوم يقول مفتخـرا على غيره من القبائل :

ونشـــرَبُ، إن وردنـــا المـــاءَ صفـــوا

ويشـــربُ غيـــرُنـــا كَـــدِراً وطينـــا(66)

* * *

ولم تعمَّر مـدينة من مدن البشـر، أو يستبحر عمرانُها، إلا لأنهـا كانت مبنيـة على نهـر متـدفـق، أو يَنبـوع مُغْـدَوْدِق... ولا سيمـا مُـدُنُ العـرب الضـاربين في البـوادي، فإن المنـاهل والغُـدْرَان غَـرَضُـهم الأسمى الـذي يطمحون إليه، ويحرصون عليه، ويكثـر بينهم التحاسد والتنافس فيه؛ وكم من غـارة شَنَّت، ونار حـرب شبَّتْ، من أجل غديـر، أو اغتصاب بيـر؛ فقد كانت الآبار ثروة ورأسَ مال كبير في جزيرة العرب، تحي الأرض وتميتها، وتفني الناس وتميتهـم، فمن يملك الماء، يملك مـالاً بقدر سعة تلـك البئر، ومقدار نـاتِجِهَا من الماء... ولذلـك كانوا إذا حفروا بئـرا، أو إذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الحمد والشكر والنذور...

وقد أقـامت الآبار الكبيـرة العميقة العذبـة مدنـا، وأماتت مـدنا، بسبب نضوب مياهها وجفافها، وهي على هذه الأهمية الخطيرة إلى الآن...

وطالمـا كانت الآبار مصـدرَ نزاع خطيـر مُدَمِّرٍ بين القبـائل، وسببا في إثارة الحرب...

---

66) المعلقات السبع، معلقة عمرو بن كلتوم، ص :118.

فالآبار مصدرٌ مهم من مصادر الثروة لمالكيها، ولا سيما إذا كانت في الأماكن المسكونة بصورة خاصة... فقد كان أصحابها يبيعون الماء للناس... يبيعونه قِرَباً لاستعمالها في الشرب... فقد كان صاحب «بئر رومة»، وهو يهودي يبيع الماء منها للناس... فإذا غاب قَفَلَ عليها بقُفْل، فلا يستطيع أحدٌ أخذ الماء منها... فشكا المسلمون ذلك إلى الرسول، فقال : «ومن يشتريها ويمنحها للمسلمين، ويكون نصيبُه كنصيب أحدهم، فله الجنة؟ فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم... فَوَقَفَها... وذكروا أن اليهودي كان يبيع كل قربة من الماء بدرهم.(67)

* * *

والآبار أسطوانات تفجر الينابيع تحت الأرض عن طريق ثقب الطبقات التي سوف تحمل الماء... ويتراوح عمق البئر المائي بين بضع بُوصَات وستة آلاف قدم... وهو أقصى عمق حالي... أما آبار النفط، فقد نقب عنها إلى عمق يزيد على ثلاثة أميال... وتتفاوت قوة تَدَفُّق الآبار بقدر ما يتفاوت عمقها... فكلما اتسعت الثقوب أو المسافات الموجودة في طبقات الأرض، ازدادت سرعة تدفق الماء في البئر...

وعند ما تكون كمية الماء في الطبقة الحاملة للماء كبيرة، ومنبعها وفيرا، وكذلك عندما تكون الظروف مواتية للتدفق، يمكن الحصول من البئر على كمية وفيرة من الماء... وأفضل الطبقات الحاملة للماء هي المكونة من الحصى...

وليكون البئر صالحاً بالمعنى الحديث، ينبغي أن يهيء موردا كافيا من الماء اليُسْر غير الملوث أو الكريه الطعم أو الرائحة... كما ينبغي أن لا يتوقف عن الإنتاج في الطقس الجاف... والماء المستخرج من الآبار العميقة

67) عمدة القاري، ص : 190/11 وما بعدها.

يكون نظيفاً وخاليا من الجراثيم عادة، ولكنه، كثيرا، ما يكون عسرا، أو مختلطا بمركبات الحديد أو الكبريت التي تكسبه طعما منفرا...

وفي أغلب الآبار، لا بد من جلب الماء إلى السطح بواسطة الدلاء قديما.. أو المضخات حديثا... ولكن «الآبار الارتوازية» تتدفق باستمرار، لأن الضغط الواقع على الطبقات الحاملة للماء يكفي لرفع الماء فوق مستوى سطح الأرض...

وللأهمية المذكورة للآبار في حياة العرب كَثُرَتْ في لغتهم المصطلحاتُ الخاصةُ بها من أسماء لأنواع الآبار... ومن مصطلحات للحفر، ولوسائل الحفر، ومن ألفاظ للمواد التي تستعمل في بناء البئر، وفي استخراج الماء منها، ومن كلمات تشير إلى أبعاد البئر، ومقدار ما فيها من ماء، وأبعاد أفواهها(68). كما قدمنا ذلك في موضعه...

* * *

ويعبر عن البئر بألفاظ أخرى، منها الرَّكِيّة، وتجمع على رَكِي ورَكَايا، وقد وردت اللفظة في حديث الرسول، وكان الناس يتبردون أحيانا في الركايا من شدة حر الصيف.(69) وعرفت البئر بالحجارة بالطوى، والطوية، وقد ذكر الإخباريون أن عبد شمس بن عبد مناف بنى بئرا بأعلى مكة عرفت بطوى،(70) أما الجُبّ، فهو البئر، وذكر بعض علماء اللغة، أنه البئر

---

68) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي، ص : 183/ 7.

69) شرح القاموس، ص : 155/ 15.

70) شرح القاموس، ص : 239/ 10 ـ ذو طوى : بئر معروفة بهذا الاسم إلى هذا العهد، وموقعها الآن بين بيت الوزير العام للمالية السابق الشيخ عبد الله السليمان، وبيت أخيه وكيل وزارة المالية السابق الشيخ محمد السليمان، قال الشاعر وهو من هذيل :

إذا جئت أعلى ذي طوى.قف، ونادها
عليك سلام الله ياربة الخدر
هل العين ريامنكِ أم أنا راجع
بهَمٍّ مقيمٍ، لا يريم من الصدر =

الكثيرة الماء ا لبعيدة القعر،(71) وقيل : الجب : الـرَّكية التي لم تطـوَ، فإذا طويت فهي بئر، قال الأعشـى :

لئن كنـتَ في جبٍّ ثمـــانين قـــامـــةً
ورقيت أسبـــابَ السمـــاء بِسُلّم

وسُمِّيتْ جُباً، لأنها قطعت في الأرض قطعا.(72)

* * *

والعربي، كان، لا يجود بجرعة ماء، إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال، لأنه كان يعتبر البئر التي في حيازته مِلكـا خالصا له، فلا يقربها أحد، ولا يمتح منها إنســان، ولا ينقع غلته منها خَلْق، ولعل هـذا ما صوره الشــاعر العربي البخيل سِنَان ابن الفَحْل الطَّائي الذي يقول :

وقـــالــــو : جُنِنـتَ؟ فقلتُ : كـــــلا
وربـي مـــــــــــا جننـتُ، ولا انتشيـتُ
ولكنــي ظلمـت، فكـــــــــــدت أبكـي
مـــــن الظلــــم المُبَيـــــن أو بكيـــت
فـإن المــــــاء مـــــاءُ أبـي وجــــــدي
وبئــــر «ذو حفــرت»، وذو طـــويت(73)

* * *

= وقال أبو خراش الهُذَلي :

وقتلت الـــرجــــالَ بــــذي طـــــواء
وهــــدمت القـــواعــــد والعــــروشــــا

[صحيح الأخبار، ص : 2/140].

71) شرح القاموس، ص 10/229.

72) ج : الجب : جباب، وجببة، وأجباب.

73) ذو طويت : بنيت حـافته بـالحجارة، وقد استعمـل الشاعر هنـا «ذو» في المفرد المـؤنث غير العاقل، إذ لا فرق بين أن يكون ما تستعمل فيه «ذو» الموصولـة عاقلا أو غير عاقل، فالشاعر يريد : وبئر التي حفـرتها والتي طويتها؛ لأن البئر مؤنثة بدون عـلامة تأنيث. [أنظر دراسة في المؤنثـات السماعية المشهورة في قصيدة لجمـال الدين عثمان المعروف بابن الحاجب (تــ : =

وأشرب فأتقنح :

ولا يفهم من هذا أن العرب كانوا لا يستعملون إلا الماء لشرابهم.. فقد كانت لهم أنواع من الأشربة المختلفة كاللبن والخمر والنبيذ والسويق وسائرِ أنواع الشراب الذي كانوا يَسْتَحْلُونَهُ ويستعملونه...

وقد قالت أمُّ زرع بنتُ أكَيْحِل بن ساعدة، وهي الزوجة الحادية عشرة التي تصف زوجها : «وأشرَبُ، فَأَتَقَنَّحُ» وهي بمعنى الري بعد، أي تشرب حتى لا تجد مساغا... كذا ذكره السيوطي في تفسير «حديث أم زرع» في تعليقه على البخاري...

وقال شمّر عن أبي زيد : التَّقَنُّحُ الشُّرْبُ فوق الري... قال أبو عبيد : ولا أراها قالت ذلك إلا من عزة الماء عند العرب، يعني قول أم زرع : «أشرب فأتقنح»...

وقد علَّق عليه القاضي أبو الفضل عياض تعليقاً طريفا وجديدا، إذ أنه يَعجَب من قول صاحبه بفخر هذه المرأة بشرب الماء لكونه عزيزا عندهم، ولقلته، معتمداً على أدلة عقلية ونقلية، ذلك أن المؤلف يورد رواياتٍ وأشعاراً تبين بأن ا لماء لم يكن شراب العرب الوحيد، بل هو على العكس من ذلك، لم يكن عندهم مفخرة، لأنهم يشربون اللبن، ويفخرون به، والفقير المعوز منهم من يكتفي بشرب الماء... قال القاضي عياض : «عنى أبو عبيد

= 646هـ) للدكتور إحسان جعفر من سوريا نشرها في العدد 21 من مجلة «اللسان العربي» عام 1983، في قوله :

والقوس، ثم المنجنيق، وارنب
والخمر، ثم البئر، والفخذان

وكان «لويس شيخو» مدير مجلة المشرق قد نشر هذه القصيدة بدون اعتناء عام 1908 في بيروت، وأعاد طبعها في كتاب : «البلغة، في شذور اللغة» عام 1914. كما أن عصام نور الدين نقل هذه القصيدة في كتاب : «شيخو»، وضمنها كتابه : «أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب» الصادر في بيروت وهو عبارة عن رسالة دكتوراة.

رحمه الله أنها لا تفخر بالري من الماء، إلا وهو عزيز، والعجب منه، وما اضطره إلى هذا التأويل؟ وكأنه لا شراب إلا الماء... فأين أنواع اللبن والخمر، والنبيذ، والسويق، وسائر أشربة العرب التي كانوا يَسْتَحْلُونَها ويستعملونها من صريف، وضريب، وصريح، ورحيق، ونبيذ، ومزر، وجعة، وبتع، وفضيخ، وطلاء، وباذق، وسُوَيْف، بل كانوا يذمون بشرب الماء، ويهجون به، كما قال بعض الهذليين :

ومن تَقْلُلْ حَلُوبتُه، وينكَل عن الأعداء، يغبقه القراح

أي مَن قل ماله، وَجَبُن عن الغارات، ولم يصب المغانم، رجع إلى الماء القراح، لإعوازه اللبن

وقال عروة ابن الورد :

أقسِّم جسمي، في جُسُوم كثيرةٍ
وأحْسُو قَراحَ الماء.. والماءُ بارِدُ

أي أوثر أضيافي وجيرتي بمطعومي وبمشروبِي، وأقنع بشظف العيش وشرب الماء القراح البارد، بل الذي أرادت اللبن وشبهه...

* * *

أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء :

وقد أنتج الشاعر الجاهلي أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء في أحواله المختلفة، وكان أدق ملاحظة، وأكثر تنبها إلى أسرار الجمال في الطبيعة، ومن أهم ظواهرها الماء... فالشاعر الجاهلي كان ملتحما مع طبيعة بلاده، دائمَ الملاحظة لِدَقَائِقَها... ومن هنا كان العربي البسيط يبدو تعلُّقُه الواضح بالماء في لغته وأساليبه وأمثاله وقصصه الشعبية...

لقد كانت للعرب في جاهليتهم أماكنُ للسقاية، وهذا ما دفعهم، في جاهليتهم، وقبل أن يأتيَ الإسلام بتشريعاته المائية المفصلة أن يسرفوا في حدودهم الضيقة على تنظيم هذا العنصر الحيوي للحياة... فقد كانت قريش حَضَراً، وأهل تجارة... وتجارتهم قائمٌ أكثرُها على الحجّاج الذين

يرِدُون مكة في المواسم، فكان لمقتضيات مصلحتهم، تسهيلُ طرق القدوم، وترغيب الناس في الحج، ووقف المياه...

* * *

ونظرا لعلاقة الكعبة بأسباب معاشهم، بذلو العناية بالقيام على شؤونها، وسهَّلُوا على أكثر الناس القدومَ إليها، فأنشأوا فيها أماكن للسقاية، وأخرى لِلرِّفادة، وأخرى لغير ذلك... وما زالت تلك المناصبُ تتعدد حتى أصبحت قبيل الإسلام، بضعة عشر منصبا، هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد، اقتسمتها قريش في بطونها، وصاحب السقاية يتولى سقاية الحجاج لقلة الماء في مكة، فينشىء حِياضاً من الجلد توضع في فناء الكعبة، تنقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل في القِرَب والمَزاَود...

لقد كان ا لماء في «أمِّ القرى»، من أيام الجاهلية، آبار نبع ومصانع مما يجتمع من مياه المطر... ومن هذه الآبار «اليسيرة» التي حفرها لُؤَيْ ابن غالب، «والروي» التي حفرها مُرة بن كعب، و«خُمّ ورُمّ»، وهما من حفر كلاب بن مرة، و«الجفر» و«العَجُول» و«بذَّر» التي حفرها هاشم بن عبد مناف، و«سَجْلة» و«خُم»، و«قم» أخريان حفرهما عبد شمس بن عبد مناف و«أم أحراد»، و«السُّنبُلة»، وهي من حفر بني جمح، و«الغَمْر» لبني سهم، والحفير لبني عدي، وهي اسم من عشرين بئرا، أو منزلا في بلاد العرب؛ قال الحفصي : إذا خرجت من البصرة تريد مكة، فتأخذ «بطن فَلْجٍ، فأول ماء ترد الحَفِير، قال بعضهم :

ولقد ذهبت مُراغما
أرجُو السلامة «بالحَفِيرْ»
فرجعت منه سالِما
ومع السلامة كلُّ خير

وكذلك «بئر السقيا» لبني مخـزوم، و«الثريا» لبني تميم، و«النقع» لبني عامر بن لؤي، وبئر «حويطب»، لحويطب بن عبد العزى من بني عامر بن لؤى، و«بئر أبي موسى الأشعري» بالمَعْلاَة، و«بئر شوْذب»، و«بئر بكار»، و«بئر وردان»، و«سقايـة سراج»، و«بئر الأسود» لـلأسود ابن سفيان من مخزوم، وغيرها... ومن هذه الآبار ما هو معروف إلى اليوم باسمه ومكانه، ومنها ما قـد طوي اسمه أو ردم مكانه، فإذا سألت علماء مكـة لم يعرفوه، والظاهر أن جميع هذه الآبـار لم تكن لتكفي مكة في الجاهلية إلى أن وَسَّعَ عبد المطلب «بئر زمزم»، فكثر الماء، وارتوى الحجيج (74)..

***

كان عبد المطلب، جَدُّ الرسول عليه السلام، يُطعم ا لناس، ويَسقيهم، إذا حَجُّوا البيت، يجمع لهم المـاء في أحواضٍ من الأَدَم، وكـان يجد في جمع هذا الماء لسقـاية الحجيج جَهْداً وعُسْراً... وهكذا كانت السقـاية لبني عبد المطلب، فأقـرهـا النبي عليـه السـلام في الإسـلام، حتى قـال لهم عليـه السلام، وقـد أتى على بني عبد المطلب يسقـون على زمزم، «انـزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس، على سقايتكم لنزعت عنكم، فَنَاوَلُوهُ، فَشَرِب...

***

بلد أجرد، جرد من زخارف الطبيعة ...

تحدثنـا سابقا عن آبار مكـة، وأفردنا الحديث عـن مياه أم القرى لِشَرَفها ومَقامِهـا عند الله، وعند رسول الله، والنـاس أجمعين... وبالرغم عن طبيعة هذا البلد الأمين، الإسلامـي المقدس، الذي جرد من كل زخارف الطبيعة وبهائها ورُوائها، حتى تكاد تكـون أجْرَدَ بلدة عرفها البشر، وأقحلَ بُقعة رأتها العين... ولكنهـا جنةٌ للعبادة، وفردوسٌ مُقيم لِرِحَـابِ الله... إنه وادٍ تحيط به جبال جـرداء، صخرية صماء، قاتمة اللـون، ليس في شِعابها

74) «الارتسامات اللِّطاف» للأمير شكيب أرسلان، ص : 16.

أشجـار ولا أنهار، ولا مـروجٌ تلطف من حـرارتها، وشـدة وَقْدَةِ شمسـهـا، وتحدث أهل الأخبار عن «سقاية» عرفت «بسقـاية عديّ»، زعموا أنها كانت بالمشعرين بين «الصفا والمروة»، وأن مَطْرُود الخزاعي ذكرها حين قال :

وما النيل يأتـي بـالسفين يكفّـه
بأجـودَ سَيْباً من عديٍّ بـن نَوْفَـلِ
وأنبطت بين المشعـريـن سقـايـة
لحجـاج بيت اللـه أفضل مَنْهَل

وذكر أن هذه السقاية، كانت بسقاية اللبن والعسل(75).

***

وموضوع السقاية موضوع غامض، فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون السقـاية بإسقـاء المحتـاجين من الحجاج بـالماء مجـانـاً ووقفاً، نجـدهم يتحدثون عن السقاية على أنها إسْقَاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء... وذكر أن العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام(76).

***

وإذا تتبعنا مـواضع المياه على خارطة الجـزيرة العربية، عمـوما، التي تبلغ مساحتها حوالي مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة، نجد أنها قليلةٌ لا يتناسـب توزيعُها ووجودُها مـع هذه المساحة الشاسعـة، ثم إنها مياهٌ ضيقة العين، لا يتسع صدرها لإرواء بقـاع واسعة على نحو ما نجده في مياه الأنهار الضخمة العظيمة الكبيرة في أقطار أخرى...

وكأن الله سبحانه وتعـالى، لما قضى بأن تكون مكة(77) محلا للعبادة، ومثابة للناس وأمنا، قضى، أيضا، بتجريدها من كل زخارف الطبيعة حتى

75) نسب قريش، ص : 179.

76) تاج العروس، ص : 181/10 ـ مادة سقى.

77) إن التسمية بمكة إنما جاءت لقلة الماء بها، فكان المكيون يمكون الماء : أي يمتصون.

لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله بخضرة أو غدير، وحتى يكون قصدُه إلى مكة خالصـا لوجه ربه الكريم، لا يشوبُـه تطلع إلى جِنان أو رياض، ولا حنين إلى حياض أو غياض(78)...

ويبدو وفق ما ذكر هيكل أن وادي مكة كـان موئلا لراحة رجال القوافل بسبب ما كـان فيه من بعض العيـون، ثم اتخذت فيه بعض المستـودعات للتجارة، وأقيمت فيه بعض الدكاكين لا لتماس العون منها(79).

* * *

إن الطبيعة غيـر عادلـة في توزيع المطر، فـالمؤسف أن تـوزيعه على كوكبنـا ليس عادلا... فغـالبا ما تمطـر السماء، حيث لا ينتفع بـه الإنسان، ففي بعض المناطق من جبال الألب، مثـلا، يصل المتوسط السنوي لغزارة الأمطار إلى أكثر من 2,500 ملم، في الوقت الـذي يقل فيه نصيب الـوديان «البافارية» المجاورة إلى اسْتيراد الميـاه من مناطق بعيدة عَبْرَ أنابيب، يبلغ طولُها أكثر من 120 كلم، لتأمين حاجتها إلى الماء...

والـرزقُ كـالمـاء، بين النـاس مُنْقَسِمٌ
هـذا غـريقٌ، وهـذا يشتهي المطَـرا

وفي هذا المعنى أشار أبو تمام، بقوله :

وإذا تأملـتَ البـلادَ رأيتَهـا
تَـثْـرِي كما تَثْـرى الرجالُ وَتُعْدِم
حظ تَعَـاوَرُه البِقَـاع لـوقتـه
وادٍ بـه صِفْـرٌ ، وآخـر مُفْعَم

وفي العصـور السالفـة السابقـة السحيقـة كان وضـع شبـه الجزيـرة العربية أفضل مما عليه الآن... فهناك إشارات ودراسات تبين أن أرض شبه

78) «الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» شكيب أرسلان : ص : 14.
79) «حياة محمد» محمد حسين هيكل، ص : 85، مكتبة النهضة المصرية، ص : 1965.

الجزيرة العـربية كانت أكثر أمطـارا، وأوفر نباتا، وأكثر خضـرة مما عليه الآن، «فديودورس»(80) الصقلي في القـرن الأول قبل الميلاد، يتحـدث عن بلاد العرب الواقعة شمال العربية السعيدة، والتي تمتد حتى تجاور سوريا بأنه يتخللها الكثيـر من الأنهار، وتهطل عليها الأمطار الغـزيرة في الصيف حتى يكون لسكانها بذلك موسمان زراعيان في السنة الواحدة(81).

ولقد أتى على الإنسان العربي حِينٌ من الدهر، كان له مع الماء في شبه الجزيرة العربية قصةٌ وصِـراع، وهو صراعٌ من أجل البقاء والحياة... صراع الإنسان مع الطبيعة، وصـراع الإنسان مع أخيه الإنسان على مـوارد مائية شحيحة في بلاد تكوّن جزءاً من النطاق الصحراوي العالمي الجاف، وفي منطقة كميات الأمطـار فيها عن 200 ملم سنويـا في معظم الجهات مـا عدا الجنوب الغربي منها(82).

وإن فترات ا لجفاف التام كثيرا ما تمتد في هذه البلاد إلى أربع سنوات متتاليـة في الجزيـرة العربيـة، وتصل إلى الحد الـذي وصفه أميـر البيان شكيب أرسلان رحمـه الله بقوله : «إذا مَـرَّ عليها الإنسان يومـاً من أيام الصيف في هَاجِـرة، ظَنّ نفسَه يَدُوسُ بَلاَطَ فُرْن، وإن تَـرَكَ على الصخور لحماً يُشْوَى بلا نار، أو ماءً كَادَ يغلي بلا وقود...

80) ديودوروس الصقلي Diodore ولد في أجيريون، أحد الكتبـة اليونان، نبغ في أيام أوغسطوس، له «المكتبة التاريخية، وهي تاريخ عام من الخليقة إلى موت يوليوس قيصر (45. ق.م).

81) Diodorus Siculus 54/2.

82) الشريـف عبد الرحمـــن : جغرافية المملكة العربيـة السعودية ـ الريـاض.. دار المريخ ـ 1977، ص : 82.

الفصل الثاني :

الوقوف للمياه في العصر الجاهلي

درج العرب في العصر الجاهلي، على إنباط المياه، واستخراجها من باطن الأرض، أو نَثْلِ الأتربة التي غطت بعض الآبار لفائدة العَطْشي من السابلة والمارة والمسافرين الذين يجدون في مياهها رُوحاً للأرواح، وشِفاءً لِلمُلْتَاح، فيشفون بها أُوامَهم، في بوارِحِ القيظ، ويتبردون بها بالعلِّ والنَّهْل، والغَسْل والمُجاورة...

وكانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من الثمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.(83)

إن في العصر الجاهلي كانت توجد سقايا في المعابد، يستقى فيها الماء للشرب وللتطهر، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية، ويُعَدُّ الماء ماءً مقدساً، لأنه من أرض مقدسة، ولذلك يتبرد به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه.

وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أدائهم الشعائر الدينية... وبئر زمزم هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية...

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء، وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب(84)... وكان بعضهم يسقى الحاج اللبن والعسل(85).

---

83) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، للخضري، ص : 1/36.

84) «اللسان» ص : 14/392 (سقى) الإصابة، ص : 2/263.

85) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جولد علي، ص : 6/419.

وقد عُنيَ قصي بسقاية الحجاج، فاتخذ لها حياضا من أدم، توضع بفناء الكعبة، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار، محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة، كما عُنِيَ بتتبع مَظَانٍّ الماء العذب في مكة، فحفر بئر العَجُول، وهي في المكان الذي يمتدُّ فيه رِواقُ المسجد اليوم بجانب مسجد الراية، وهي البئر الموجودة اليوم في «الجُودْرية» في الزقاق الواقع أمام قصر «الجفالي» وسمي بئر جُبَيْر بن مُطعَم، لأن جُبَيراً هذا نَثَلَهُ بعد أن اندَثر؛ واتخذ العناية بآبار بعد قصي سُنةً لأولاده، فكانوا يتتبعون مَظَانّ المياه العذبة، ويحتفرون فيها الآبار(86)...

ويتوخى الواقف المحسان للماء السبيل، أن يكون إنباطه، وحفر آباره من مال حلال، لأن هذه الجهة تخص بأفضل الأموال وأطيبها...

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمالٍ حرام، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهم : «لا تُدخِلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا تُدخلوا فيه مَهْرَ بَغَي، ولا بيَعَ رِبا، ولا مظلمة أحدٍ من الناس(87).

* * *

وقد حفرت السيدة أم البنين فاطمة الفهرية القيروانية البئر التي في صحن جامع القرويين، فكان البناؤون يسقون منها الماء لبناء الجامع المكرم، حتى فرغ من بنائه، ولم تصرف فيه سواه احتياطا منها، وَتَحَرِّياً من الشبهة...

وقد احتاطت فاطمة في أن يكون الماءل من إرث حلال طاهر، حيث أنبط البُنَاتُ البئر داخل حرمها، حتى لا يستعمل الناس في المسجد جرعة

86) «تاريخ مكة» للعلامة الحجازي أحمد السباعي، ص : 50/ 1.
87) «الروض الأنف» ص : 130/ 1.

مـاء مجهـول النبع... لأن هـذه الجهـة يجب أن تخص بأفضـل الأمـوال وأطيبها(88)...

* * *

فكرة وقوف المياه، من أهم ما يعنى به العرب وسراتهم...

كـانت فكرة وقف الميـاه، في العصـر الجاهلـي من أهم ما يُعنَى بـه العرب وسَراتُهم، ويتبارى في إنباطها كـرماؤهم، فقد حفر هاشم بن عبد مناف «بَذَّر»، وهي البئر التي عنـد المستنذر، خَطَم الخَندمة على فم شِعْبِ أبي طالب، وزعموا أنه قال حين حفرهـا : «لأجعلنها بلاغاً للناس» قال ابن هشام : وقال الشاعر :

سقى اللـه أمـواهـاً عــرفتُ مكـانهـا
جُرَابا،(89) ومَلْكُوماً،(90) وبَذّر،(91) والغَمْرا(92)

---

88) ذكر ابن رشـد نقلا عن : «منتقى البـاجي» أنه لـو حبّس ذمي دارا، مثلا، على مسجـد، فإنه لا يصح، لأن هذه الجهة، يجب أن تخص بأفضل الأموال وأطيبها... وأموال الكفار أبعد الأموال من ذلك فيجب أن تنزه عنها المساجد.

89) جُراب : قـال البكري في معجمه ص : 273 / 2، بضم أوله، إسم ماء قـد تقـدم ذكره في رسم بذّر : قال محمد بن عبد الله بن بَلِيهُد النجدي في صحيح الأخبار، ص : 131/4. جُراب : منهل معروف يقـال له : جـراب، وهي في شمالي (جبل مجزل) وقد كـان عنده معـارك عظيمة في القرن الثاني عشر والرابع عشر، وهو يحمل هذا الإسم إلى هذا العهد ... فجُراب : بئر، ويحتمل أن يكون بمعنى جريب.

ومنهم من ينطقها «جُـراماً»، وذلك أنـه لما حَصَل المتنبي ببغـاد نزل رَبَض حُميـد، فركب إلى المهلّبي، فأذن لـه، فدخل، وجلس إلى جنبـه، وصـاعد خليفتـه دونه، وأبـو الفرج الأصبهـاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت : سقى الله أمواهـا... وقال المتنبي : هو جُراباً، وهذه أمكنة قتلتها علما وإنما الخطأ وقع من النقلة!! فأنكره أبو الفرج، قال الشيخ : هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيبويه في كتابه جرما، بالميم، وهو الصحيح وعليه علماء اللغة.

90) وملكوم قـال ابن هشـام : وأما ملكوم، فهـو عهدي مقلوب، والأصل ممكـول من مكلت البئر، إذا استخرجت مـاءها، والمُكلة : مـاء الركية، وقـد قالوا بئـر عميقة ومعيقة، والمكلـوم في اللغة : المظلوم، إذا لم يكن مقلوبا.

91) بذر : من التبذيـر، وهو التفريق، ولعل ماء كان يخـرج متفرقا من غير مكان واحـد، وهذا البناء في الأسماء قليلة.

92) الغمر : حفرته بنو سهم [الروض الأنف : للسهيلي، ص 172/1].

كما أن قبيلة بني سهم وقفت بئرا، وأسمتها الغَمر، واحتسبتها للحجيج، وقفاً في سبيل الله حتى قال بعضهم :

نحن حفرنا «الغَمر للحجيج

تثج ماءً، أيما ثجيج(93)

ولا ننسى «بئر سُنبُلة»، وهي بئر بني جمع، بئر بني خلف بن وهب، والتي كان الناس تستقي منها متى أرادوا، وبدون انقطاع، ومن غير سؤال ولا طلب حتى قال فيها شاعرهم :

نحن حفرنا للحجيج «سُنبُلهْ»

صَوبَ سَحَابٍ، ذو الجلال أَنْزَلَه

ثم تركناها برأس القُنبُلَه

تصب ماءً مثل ماء المَعْبَله

نحن سقينا الناس قبل المسأله(94)

هكذا، كان العربي قديما في تاريخه ينظر إلى المياه نظرة تقديس وإجلال، لأنها مورد الخصب والنماء، وواهبةُ البركة والخير، وقد كان ينشد الأراجير في أثناء حفر الآبار، أو نثل الأتربة التي غطّت بعضها، ويتبين من الأراجيز التي وصلت إلينا، أن نار المنافسة اشتعلت في بطون قريش المختلفة، كي يحفر كل بطن منها بئراً خاصة به، ويسقي منها حجاج مكة، ويقفها حبساً في سبيل الله... فقد حفر قصي بن كلاب أبو القبيلة كلها بئراً سماها العَجُول في دار أم هانىء بنت أبي طالب، وهي أول سقاية احتفرت بمكة، وكانت العربُ إذا استقوا منها ارتجزوا، وفيها يقول بعض رجاز الحاج(95) :

---

93) الروض الأنف، ص : 1/175.

94) الروض الأنف، ص : 1/175.

95) «فتوح البلدان»، للبلاذري، ص : 48.

نــروي على العَجــول ثم ننطلقْ
قبل صــدور الحـــاج من كل أُفُقْ
إن قُصِيّــاً قـد وَفَــى، وقـد صَــدَقْ
بـــالشبع للنـــــاس، وَرَيّ مُغْتَبَقْ

فلم تزل بئــر العَجول قائمــة حياة قصـي، وبعـد موته حتى كبـر عبد منــاف بن قصـي، فسقط فيهــا لـرجـل من بني جُعَيل، فعطلـوا العجـول، واندفنت(96).

كما حفــر بنو هــاشم، «زمزما»، وسجْلــة»، و«بذّراً، قــال ابن إسحاق : «وقـد سمعت من يحـدِّث عن عبـد المطلب أنــه قيل لــه حين أمــر بحفـر «زمزم«(97) :

ثم ادع بـــالمــاء الـــرويّ غيـر الكـــدر
يسقي حجيـج اللـــــه في كـل مَبَــــرّ
ليس يُخَـــافُ منــه شـيء مـــا عَمَـر(98)

وهكذا أقام عبد المطلب «سقاية زمزم» للحجاج(99)، صَدَقةً موقوفة في سبيل الله، لفـائدة العطشـى الذين يَجـدُون في شربها راحــة للأرواح، من فرط الظمأ والصَّاخه، وجعلها موردا عذبا قَراحا مباحا لكل وارد...

* * *

سقاية الحجاج...

كان عبد المطلب يتولى شرف سقاية الحجاج، وروي عنه، كما تقدم، أنــه كان يخلط مــاء زمزم بـالزبيب حتى يُكَسِّـرَ غِلْظَتَه، إذ كـانت في ذلك

96) «الروض الأنف»، ص : 172/1.
97) سيرة ابن هشام، ص 156- 1.
98) الماء الـروي : يقال ماء روي بالكســر والقصر، وراء، بالفتح والمد، في كل مَبَـرّ، هو مفعل من البِر، يريد : في مناسك الحج ومواضـع الطاعة، وما عَمرَ : أي ما عَمَر هذا الماء، فإنه لا يؤذي، ولا يخاف منه مـا يخاف من المياه إذا أفرط في شــربها، بل هو بركـة على كل حال [الروض الأنف : 1/ 168].
99) «الروض الأنف» ص : 171/ 1.

الـوقت غليظة جـدا... وظل يسقي عبد المطلب النـاس حتى توفي، وتـولى السقـاية بعـده العبـاس بن عبد المطلـب رضـي الله عنـه، وكـان له كَـرْمٌ بالطـائف وكان يحمل زبيبه إليها، واستمـر العباس في السقايـة حتى بعد فتح مكة...

وقد وصف التقي الفـاسـي «سقايـة العباس»(100) بن عبـد المطلب في وقته، فقال : إنها بيت مربع في أعـلاه قبة كبيرة... وفي جهاتها الأربع عدا الجنوبي منها شبـابيك من حديد، وفي جانب الخالي من الخـارج حوضان بينهما الباب، وفي وسط البيت بركة كبيرة تمـلأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية عن زمزم إلى جـدار البيت، ثم يسلك قناة أرضية إلى البركة، فيخرج منها الماء على شكل فوّارة... وقال : إنها عمرت في عام 809هـ.

وكان العباس بـن عبـد المطلـب يسقي فيها الحجيـج، وذكـر الفاسـي : أن مقدار ما بين السقاية والحجر الأسود ثمانون دراعاً بالدراع الحديد.

* * *

شرف من يشرب من ماء زمزم :

وقد افتخرت بمـاء زمزم، بنو عبد مناف على قـريش كلِّها، وعلى سائر العرب، لأنها وَقَفَتْه للحجاج الواردين، وحبّسته في سبيل الله، فهذا مُسَافر ابن أبي عمـرو بن أميـة بن عبد شمـس بن عبد منـاف، يفخر على قريش، بمـا ولوا عليهم من السقـاية والـرفـادة، وما أقـاموا النـاس من ذلك حيث يقول(101) :

ورثنـــــا المجـــــــد مـن آبـــــا
ئنـــــا فَنَمَـى بنـــــا صُعـــــدا

100) هي حجرة كبيرة شرقي الكعبـة، وجنوبي زمزم، ذات نوافذ، وسقفها جمـالي بارز عن جُدُرها ليستظِلّ به الناس.
لابن علان المكي البكري الصـديقي الشاوفعي (تـ : 1057هـ) «دار القلائد، فيما يتعلـق بزمزم وسقاية العباس من العوائد» [هدية ج : 6/ص :283].

101) «سيرة ابن هشام» ص : 164/1 ـ «الروض الأنف» ص 174/1.

ألـم نسـقِ الحجيـجَ وننحــــــــــــــــ
ــــــر، الـــــدَّلأفَـــــةَ الــــرُّفُـــــدا

وزمـــــــــــــــزم في أرومتنـــــــــــــا
وَنَفْقَـــــــــــأُ عَيْنَ مَـن حَسَـــــــــــــدا

قال ابن إسحاق(102) : وقال حـذيفة بن غانم أخـو بني عدي بن كعب ابن لؤى :

وســاقــي الحجيج، ثم للخبـز هـــاشم
وعبـــد منـــاف ذلـك السيــد الفِهـــري
طـوى زمـزمـاً، عنـد المقـام، فأصبحت
سقـــايتُـــه فخـــراً على كل ذي فخـــر

بل إنه قد بلغت منزلة من يشرب من بئر زمزم درجة الشرف والفخر، حتى قال الأعشى يهجو رَجُلاً ويُؤَنِّبه، ويخبره أنه مع شرفه، لم يبلغ مبلغَ قريش الذين هم سكانُ حَرَم الله، ولهم حظٌّ الشرب من زمزم :

فمــــا أنت مِـن أهل الحَجُـــون، ولا الصَّفـــا
ولا لَكَ حَقُّ الشُـــرب من «مَـــاء زمـــزم»(103)

* * *

102) سيرة ابن هشام : 1/164، الروض الأنف : ص : 1/175.

103) الأعشى الديوان، ص : 123، والحَجُون : الواقع في أعلى مكة مما يلي مقابرها، ولا زال معروفا بهذا الإسم إلى الآن... وهو الذي عناه مضاض بن عمر الجُرهمي حين قال :

كـــــان لم يكـن بين الحجـــــون إلى الصفــــا
أنيـس، ولم يسمُــــــر بمكـــــة ســـــــامـــــر
بلــى، نحن كنـــــا أهلهـــــا فـأزالنـــــا
صُـــــروف الليـــــالي والجـــدود العـــواثـــــر

[صحيح الأخبـار، ص : 1/156] وبهـذا الجبل اليوم ثَنِيّـة يسلك فيها السـائر بين المعايـدة وجرول، وتقع، مقابر أهل مكة القديمة والحديثة في منتصف هذا الطريق : [المصدر السابق : ص 2/74، و ص : 2/140.

وقد طغى ماء «بئر زمزم» على آبار مكة الأخرى، فهو، أولا ماء مقدس، لأنه في أرض مقدسة، وفي المسجد الحرام، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدِّلاَء منه، ثم إنه ألطفُ مذاقاً من مياه آبار مكة الأخـرى... وقد استفاد عبد المطَلب من هذه البئر، مـاديا وأدبيـا، وصارت ملكـا خالصـة له، على الرغـم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حقِّ هذه البئر، لأنها في أرض الحَـرَم، والحَرَم حَـرَم اللـه، وهـو مشاع بين كل أهل مكـة، وصَـارَ يسقي الحجاج من هذه البئر، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عند مـوضع «بئـر زمـزم»، وصار يحمل المـاء من زمـزم إلى عـرفـة فيسقي الحاج(104).

وكان أبناء «قصي» قبل حفر «بئر زمزم» ياتون بالماء من خارج مكة، ـ كما يقول الإخباريون ـ ثم يمـلأون بها حِياضاً من أَدَم، ويسقون الحجاج، جَـرَوا، بذلك، على سُّنـة قُصَي، فلمـا حفرت «بئـر زمـزم»، تركـو السقي بالحياض من المياه المستوردة من خـارج مكة، وأخذوا يسقونهم من «ماء زمزم» (105).

* * *

وَلِنُـدرَة الماء وشُحّـهِ في مكة، واضطـرارِ النـاس إلى جلبه من جهـات بعيدة، فعل «هـاشم»، ما فعلـه قصّي حين حفر بئـراً عرفت بـــ : «بَذَّرٍ»، وهي البئـر التي في حق : «المقـوم بن عبد المطلـب في ظهر دار الطَّلّـوب مولاة زبيـدة بالبطحاء في أصل المستنـذر، وحفر بئراً أخـرى، وهـي البئر

104) الـروض الأنف، ص : 1/79.ـ السيـرة الحلبية، ص : 1/37.ـ شرح نهج البـلاغة، لابن أبي الحديد. ص : 1/83.ـ سيرة ابن هشام، ص : 1/89

105) «الطبقـات» لابـن سعـد، ص : 1/83. الأزرقي، أخبـــار مكـة، ص : 1/67 ـ تابع العـروس مادة بذر.

التي يقال لها بئر : «جُبَير بن مطعم» ودخلت في دار «القوارير»(106)، فَيَسَّرَ بذلك لمكة الماء، وساعد على إكثاره عندهم(107)...

ولقد كان من آثار النبي عليه السلام مَسْجِدُه بأعلى مكة عند «بئر جُبير بن مُطعَم» بن عدي بن نوفل بن عبد مناف... وأصل هذه البئر في الحقيقة أنه قد وهب بنو هاشم بئرهم، وتسمى «سَجْلة» للمطعم بن عدي ابن نوفل بن عبد مناف... ويزعم «بنو نوفل» أن المطعم ابتاعها من أسد ابن هاشم، وقد وجدتْ خالدةُ بنتُ هاشم الفرصة مواتية لتجلوَ محاسنها، فذكرت أنها محفورة في أرض طيبة سهلة، وأن ماءها غزيرٌ يروي الحجيج دفعةً دفعةً.(108)

نحن وهبنا لعدّي سجْلَه
في تربةٍ ذاتِ غَدَاةٍ سَهْلَه
تروي الحجيج زغلة... فزغلة(109)

ونقل القطبي في الإعلام عن الفاكهي : أن الناس كانوا لا يتجاوزون في منازلهم في قديم الزمان هذا البئر، وما فوق ذلك خالٍ من الناس....

وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة :

نزلتُ بمكةَ من قبائل نوفل
ونزلتُ خلف «البئرِ أبعد منزلِ
حَذِراً عليها من مقالة كَاشِحٍ
ذَرِبِ اللِّسَان يقول ما لم يَفْعَلِ

---

106) ابن سعد ـ الطبقات، ص : 75/ 1.

107) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي، ص : 65/ 4.

108) «فتوح البلوان» للبلاذري، ص : 49.

109) زغلة : جرعة، وقد احتفرت كل قبيلة بئرا، واحتفر قصي «سجلة»، وقال حين حفرها :

أنا قصي، وحفرتُ سجْله
تروي الحجيجَ، زغلةٌ فَزَغْلَهْ

وقديم الزمان الذي يشير إليه الفاكهي هو عهد بني أمية، وقد حقق الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، رحمه الله، مكان البئر والمسجد، وانتهى في ذلك إلى أن مسجد الراية، هو المسجد الموجود في «الجودرية» وتقع عمارة شركة الكهرباء، الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبير بن مطعم(110)....

* * *

جود العربي، وإيثاره رفيقه بالماء...

عرف عن العربي جوده وإيثاره رفيقه بالماء على نفسه، فيبْذُلُ جُرعة الماء، وهو في أمَسِّ الحاجة إليها، لمن كان بحاجة إليها، ويكاد يشفى على التلف والهلاك... وقصة كعب بن مَامَة الإيادي(111) التي آثر فيها رفيقه النَّمِري بالماء على نفسه، فمات عطشا، مما يدور في كتبهم، ويضرب بها المثل عندهم، وإليها يشير أبو تمام(112) في قوله :

يجودُ بالنفس، إذْ ضنّ البخيلُ بها

والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

وكعب بن مامة من النفر الذي انتهى إليهم الجود، وهم حاتم الطائي، وهَرِمُ بن سِنَان، ويروُون عن كل منهم قَصَصا تَقْرُب من الخيال(113).

---

110) «تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، ص : 1/25.

111) «بلوغ الأرب» للألوسي، ص : 1/81 ـ السمط : ص : 840؛ وفصل المقال : ص : 278.

112) الديوان، ص : 1/293.ـ قال أبو زبيد في رثاء ابن أخته الذي كان يوثر صديقه، ويقدمه على نفسه، وكان مات عطشا في طريق مكة :

صاديا يستغيث غير مُغاث

ولقد كان عُصْرةَ المنجود

[تفسير القرطبي. ص : 9/205، وص : 173 ـ 19/174] العُصرة : الملجأ.

113) ومن هنا زعم بعض القدماء: أن أبلغ ما قيل في الجود، قول صريع الغواني، مسلم بن الوليد:

فلو لم يكن في كفّه غير روحه

لجاد بها.. فليتق الله سائله

وقد سبقه إلى مثل هذا، بكر بن النطاح، فقال مادحاً :

فلو خذلت أمواله جود كفه

لقاسم من يرجوه شطر حياته

أي لو قصر ما له عما اعتاده من الكرم، ولم يكن عنده ما يفي بحاجة السائل. لقاسمه حياته.

وكعب هذا هو الذي هلك عطشاً في بعض أسفاره ليسقي رفيقه وإليه يشير أبو العلاء المعري حيث قال :

وَرَدَ القَومُ، بعد ما مَات كعبٌ

فَارْتَوَى بالنمير، وفْدٌ ظِمَاءَ

وبقي الإيثار خلقا إسلاميا نبيلا، وقد حببه القرآن إلى النفوس المومنة، وفسح له بين الضمائر... وجعل له قنوات تمده بالعطاء الدائم، وترفده بالحياة المتجددة... وما هذه القنوات إلا الإيمان والأخوة والرحمة والمودة والتعارف والتآلف.

* * *

وقد اشتدت الحرب، يوم اليرموك، فكسر عمر سيف عِكْرمة بنِ أبي جهل الذي أسلم في النهاية، وأراد أن يكفّر... حارب مع المسلمين، وأوغل في صفوف الروم... وما انجلى غبار المعركة المظفرة إلا وعكرمة وصحابيان آخران طريحوا الأرض بسهام الأعداء... ويأتيهم من يسقيهم شربة ماء، فيدفعها كل منهم إلى صاحبه إيثارا وصحبة... لكن تفيض أرواحهم، قبل أن يبلل أيٌّ منهم شفتيه إلا بالشهادتين!!

* * *

لقد كان يضرب، بكعب بن مَامَة الإيادي، المثل في الجود، ومن حديثه أنه خرج في ركب فيهم رجلٌ من النَّمَر بن قاسط في شهر ناجِر،(114) فضلو، فَتَصَافَنُوا ماءَهُم،(115) فقعدوا للشرب، فلما دار القَعْب،(116) فانتهى إلى كعب، أبصر النَّمَرِي يُحَدِّدُ النظر إليه، فآثره بمائه، وقال للساقي : «إسقِ أخاك النَّمَرِي، فشرب النَّمَرِي نصيب كعب ذلك اليوم من الماء.... ثم

114) هو رجب أوصفر، وكل شهر من شهور الصيف : «القاموس».

115) التَّصَافُن : هو أن يطرح في القعب حصاة، ثم يصب فيه الماء بقدر ما يغمر الحصاة، وتلك الحصاة هي المَقْلَة، فيشرب كل إنسان بقدر واحد.

116) القعب : إناء ضخم كالقصعة، والجمع : قعاب وأقعب.

نزلوا من غـدهم، المنزلَ الآخر، فَتَصَافَنُوا بقيةَ مائهـم، فنظر إليه النَّمري، كنظرة أمسه، فقـال كعب كقوله له أمسِ، وارتحل القوم، وقـالوا : يا كعب : من المـاء، فقيل هل : رِدْ، كعبُ، إنك ورّاد، فعجز عن الجـواب، فلما يئسـوا منـه، خيلـوا عليـه بثـوب بمنعه مـن السبع أن يـاكله، وتـركـوه مكـانـه، ففاض.!!(117).

فقال أبوه مامة يرثيه :

ما كان من سـوقةٍ اسقى على ظمأ
خمراً بماء إذا نَـاجُودُها(118) بَرَدَا
من ابن مـــامـةَ كعب ثم ًعــيَّ بــه
زوّ(119) المنيـــة الاحـــرة وقـــدا
أوفَى على المـاء كعبٌ، ثم قيل لـه
رِدْه َكعبُ، أنـك ورَّادٌ فمـــــا وردا

وله يقول حبيب :

يجودُ بالنفس إذ ضَـنَّ الجوادُ بها
والجـودُ بـالنفس، أقصى غايـةِ الجُـودِ

وله وحاتم الطائي يقول القائل :

كعبٌ وحـــاتمٌ اللَّـــذانِ تَـــقَـــسَّــــما
خِططَ العُــــلا من طـــارف وتليـــد
هــذا الـذي خَلَـفَ السحـابَ...ومـاتَ ذَا
في الجهــدِ ميتـةَ خِضِـــرم صِنـدِيــدِ

---

117) بلوغ الأرب، ص : 81/1.

118) الناجود : أول ما يخرج من الخمر إذ بزل عنها الدن قاله الأصمعي، واحْتجَّ بقول الأخطل :

كـأنهـــــــــــا المسـك نهبـى بيـن أرجلنـــــــــــــا
ممـــا تضـــوع من نَـــاجُـــودِهـــا الجـــاري

119) زوّ المنية: قدرها ـ عيَّ به: أي عيت الأحداث إلا أن تقتله عطشا.ـ قال الأصمعي : زوّ المنية : ما يحدث من هلاك المنية، ويقال : الزوّ: القدر.

أن لا يكن فيها الشهيدَ، فقومُه
لا يسمحون به بألف شهِيدِ

* * *

وكان العربي، أيضا، في الجاهلية، يوثر أصحابه حتى في شرب الحيوان، فلا يضجر إذا وردت إبل صاحبه، حيث يزاحمه في المورد، بل يُخلِّيه ويتركه انتظاراً حتى لا يزاحمه...

قال الأصمعي : وسميت مكة، بكة، لأن الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيها، أي يدفع، وأنشد قول الراجز :

إذا الشِّرِيب، أخذتْه أكَّهْ
فَخَلِّهِ حَتىَّ يَبَكَّ بَكَّهْ(120)

* * *

النساء ... يقمن بسقي الجنود والجرحى في الحرب :

وإننا لنجد النساء في غزوات الرسول يقمن بسقي الجنود والجرحى وَيُغِثْنَ اللَّهَافَى والعطشى، فعن أمِّ سلمة قالت : كان رسول اللهﷺ يغزو بنا نسوة من الأنصار نسقي الماء، ونداوي الجرحى...

وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : «كانت النساء تشهدن مع النبي عليه السلام المشاهد، ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى...

وقد بوّب البخاري في كتابه المغازي : «بابُ حمل النساء القِرب إلى الناس في الغزو...

عن أنس، لما كان يومُ أحد، انهزم الناس عن النبيﷺ قال : «ولقد رأيت عائشة وأمَّ سليم مشمرتين أرى خدم خلاخل سوقها، تنغزان(121) القرب

120) الشريب : الذي يسقي إبله مع إبلك، يقول : فَخَلّه يورد إبله الحوضَ، فتباكُ عليه، أي تزدحم، فيسقي إبله سقيه ـ والأكّة : الضيق والزحمة... والمعنى : إذا ضجر الذي يورد إبله مع إبلك لشدة الحر، انتظارا، فخله حتى يزاحمك.. [بلوغ الأرب، ص : 1/227].

121) تنغزان : تنقلان.

على متونهما، ثم ترجعان، فتملآنهما، ثم تجيئان، فتفرغانه في أفواه القوم...

وفي العتبية، قال مالك : كان النساء يخرجن مع رسول الله ﷺ في غزوه يسقين الماء، ويداوين الجرحى...

قالت الربيع بنت معوذ بن عمراء : كنا نغزو مع النبي عليه السلام، فكنا نسقي القوم ونخدمهم(122)...

وفي الإصابة : في ترجمة أمِّ أَيْمَن مولاة النبي عليه السلام وحاضنته عن الواقدي : حضرت أمُّ أيمن أحداً، وكانت تسقي الماء.. وشهدت خيبر...

وفي طبقات ابن سعد في ترجمة أم سِنان الأسلمية، قالت : لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، جئته، قلت يا رسول الله : أخرج معك، أخرز السقاء، وأداوي المريضَ والجرحى إن كانت جراح، وأبصر الرَّحْل، فقال رسول الله ﷺ : «أخرجى على بركة الله، فإن لك صواحب قد كَلَّمْنَنِي، وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم، فإن شئت، فمع قومك، وإن شئت، فمعنا... قلت : «معك».. قال : فكوني مع أم سلمة زوجتي... قلت : فكنت معها...

* * *

يا قيم الماء.. فدتك نفسي..

إذا كنا نرى في الشعر السابق فخرا، وتسابقا في وقف الماء وتسبيله، فإن أشعار السقاة أو الماتحين تختلف وتتنوع، فمنهم من يفتخر بقوته وقدرته على العمل... ومنهم من يمدح صاحب البئر وحافرها(123)..

بل إننا نجد بعض الأعراب، لندرة الماء، يتلطفون في طلبه، ويَرْشُون مشاعر وأحاسيس صاحب البئر أو العين، بأقوال وأشعار تنم عن الشفقة

122) أخرجه البخاري والنسائي.

123) أمالي القالي، ـ ص : 244/ 2.

والاستجداء... فهذا شاعر آخر يقول، في توسل وضراعة، وفي تعلق سافر، ودغدغة للأحاسيس، وارتشاء لعاطفة صاحب الماء الذي يقدمه للواردين :

يـــا أيهـــا المـــائح،(124) دلـــوي دونكــــا

إنـــي رأيتُ القـــــــوم يحمـــــــــدونكـــــا

قال أبــو جعفر النحــاس : أصل «الجائزة» أن يعطــي الرجل مــا يُجيزُه، ليذهب إلى وجهــه... وكان الرجـل إذا وَرَدَ ماءً، قال لقيمــه : «أجِزْني»، أي : أعطني ماءً حتى أذهبَ لــوجهتي، وأجُوزَ عنك، فكثُــر، حتى جُعِلت الجائزة عطية.. قال الراجز :

يـــــا قيِمَ المــــــاء، فــــدتـك نفسي

أحسِنْ جـــــــوازي، وأقِـلّ حبسي(125)

وقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو شاعرا هَجَا قبيلة بقوله :

قبيلتُـــــه لا يغــــدِرُون بــــــذمــــةٍ

ولا يظلمـــون النـــاس حَبَّــــة خَـــرْدَل

ولا يَـــــرِدُون المــــــاءَ إلا عشيـــــةً

إذا صَــــــدرَ الـــــوُرَّادُ عن كُـلِّ منهَل

فقال لــه الفاروق : ما هجــا هذا الشاعــر قومَك، وإنمــا مَدَحَهم، ولنعم القومُ قومُك، إذ لا يغدِرون بذمة، ولا يظلمون الناس حَبّةَ خردل...

ونعم القوم قــومك إذ يتجنبون المــزاحمة على المــاء، وينتظـرون حتى يخف الزحام، ويكون الوقت أبرد لهم، والماء أصفى...

---

124) المائح : هو الذي ينزل إلى قرار البئر، إذا قلّ ماؤها، فيملأ الدلوَ.

125) «العمدة» لابن رشيـق القيرواني، ص 2/297 تحقيق محمد محي الـدين عبد الصمد ــ «بلوغ الأرب» للألوسي، ص : 2/191.

«الرجز في كفاية الطالب» ص : 49، وهو في اللسان : جَوَّز، برواية : يا صاحب الماء.ــ ورواية اللسان : «عجل جوازي» والجواز : السقي.

وما كان الفاروق رضي الله عنه غافلا عما في هذين البيتين من هجاء مر مقذع، حسب نزوات الجاهلية وتقاليدها، ولكنه رحمه الله، قاس مضمون البيتين بمقاييس الإسلام الداعية إلى مكارم الأخلاق، فلم ير فيهما إلا مدحا وثناء...

وكان الجاهلي يرى الغدر والظلم صفتين دالتين على القوة والعزة، ويرى التخلي عنها دليلا على الضعف والهوان... يرى الإسلام أنهما رذيلتان ممجوجتان متنافيان للقيم الدينية، وأن تجنبهما مأثرة كريمة تتفق مع روح الإسلام، ومبادئه السمحة...

ذلك أن التقدم في وِرود الماء لسقي الماشية إنما يكون لأولي القوة.. وأما أهل الضعف، فحظُّهم التأخر، حتى إذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم، أوْرَدُوا ماشِيَتَهم...

أنظر إلى قول الشاعر :

إذا الله جَازَى قومَ سوء بفعلِهم
فجازَى بَني العَجْلَان رهطَ بنِ مُقْبِل

أولئك قومٌ، لم يكونوا أعِزَّةً
ولا يظلمون الناس حَبَّة خردل

ولا يردون الماء إلا عشيةً
إذا صدر الورّاء عن كل مَنْهَل

يريد أنه لضعف قوتهم وذلتهم يتأخرون عن الناس في وُرود الماء، حتى إذا صدر الوارد، ولم تبق لأحد حاجة إلى الماء، أوردوا... وإنما يطلب أهل القوة والعزة الورد أوّلاً، لأن الماء في هذه الحال يكون صافيا، والذي يَرِدُ آخرا، إنما يَرِدُ بعد نُضُوب الماء، وحينئذٍ لا تخرج منه الدِّلاء إلا ما كَدُر، بما خالطه من طين البئر، كما قال عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشربُ غيرُنا كَدِراً وَطِينَا

الفصل الثالث :

تقديس المياه لدى الشعوب

ارتباط الماء بالشعائر الدينية :

اعتُبِر الماءُ، خلال عصور طويلة ينبوع الحياة، وسر الوجود، ومعجزة الطبيعة... كما ارتبط، منذ عصور، ما قبل التاريخ حتى الآن، بالشعائر الدينية، وأساطير الآلهة والأبطال...

ويحدثنا التاريخ أن الأفارقة القدماء قدسوا البحار والأنهار والآبار... والسلافيين اعتقدوا بوجود الأرواح في الينابيع والعيون، والهنود الحمر، والمتوحشين في مناطق «كلومبيا» «ماياس»، و«أكناس» وقبيلة «سيو» كانوا يقدمون قرابين لآلهة المطر والبحيرات، وما زال الهنود يتطهرون بمياه «الكانج» Gange، وهو نهر في الهند (3100 كيل) مقدس عند الهندوس، ينحدر من جبال هملايا، ويصب في خليج بنغال، يختار مدينتي «الله أباد» و«بنارس» مما يدل دلالة قطعية على رسوخ عبادة المياه في نفوسهم... فهذا النهر هو أقدسُ الأنهار بالنسبة إلى الهنود، وفي كل عام يذهب آلاف الحجاج منهم إلى «الله آباد» «وبيناريس» لإزالة خطاياهم بالاستحمام في مياهه المقدسة...

وهذا النهر يخترق الجزء الشمالي من الهند، والجزء الشرقي من الباكستان، وهو أكثر الأنهار الهندية قداسة، خاصة في «الله أباد»، وبناريس حيث تكثر فيهما أماكن الاستحمام المقدسة...

* * *

وكان الإغريق والرومان مغرمين إلى أبعد حد «بالنافورات» التي كانوا يزينونها، ويزخرفونها بالتماثيل المتقنة، والفسيفساء المبدعة، وكان

يفترض أن الماء النابع من كثير من الينـابيع والعيون والبرك القديمة، مثل بركة «سيلوم» بالقرب من بيت المقدس، له تأثير خاص في شفاء كثير من الأمراض...

وكان هذا الاعتقـاد واسع الانتشار، كما أثبت مقدرة عجيبـة على البقاء، بل لايزال له أنصار ومؤيدون حتى اليوم.

وقد كانت أسطورة نافورة إعـادة الشباب من القوة في القرن السـادس عشـر، بحيث إنها أغـرت «بُونْسْ دى ليـون(1) على استكشـاف «فلوريدا»، Florida ولا زالت هذه الأسطورة قوية حتـى اليوم، إذ تجذب إليها الألوف في كل عام ممن يلتمسون الصحة، ويسعون إلى استعادة الحيوية في الينابيع الحارة، والمياه المعدنية والعيون، وربما كـان العامل الذي يساعد الكثيرين منهم أكثر من الحرارة، أو الكبـريتَ الموجود في الماء، هـو اعتقاد فطري، راسخ متغلغل في أذهانهم دون أن يشعروا به.(2)

* * *

وفي الصين يـزور موكب من النـاس إحدى الينابيع فـي عيد منتصف الخـريف، ويـركعـون حـولـه في دائرة، شـاكـرين المــاء على إحيـائه لمحصولهم...

ويقول صاحب «تحفة الغرائب» حسبما نقلـه زكريا القزويني في كتابه: «عجائب المخلوقات» : «إن هنـاك عينا تسمى بعين «بَاذْحَانِي» إذا أراد أهل الضيعة هبـوب الريح عند الـدِّيَّاس لتنقيـة الحبوب، أخذوا خـرقة الحيض، ورموها في تلك العين، فيتحرك الهواء، ومـن شرب من مائها، ينتفخ بطنه، ومن حمل معه شيئا من ذلك الماء إذا فارق منبعه يصير حجرا...(3)

---

1) مستكشف إسباني (1460 ـ 1521).

2) «الماء معجزة الطبيعة» ص : 222 ـ «طومسون كينج».

3) ص : 295.

ونجد في تـاريخ العبرانيين القـديم أسماء آبار عـديدة نظر إليهـا نظر تقـديس، كما كـانـوا يُعَمِّدُون المُنْضَمِّين إلـى دينهم قبل ظهور المسيحيـة بوقت طويل، كما اتبعت كثيرٌ من الديانات الأخرى طقوسا مشابهة...

وقد كـان القدماء يـرون في أعماق الآبار والينـابيع قوى خفية مـؤثرة تمنح مياه تلك المواضـع قدسية خاصـة..

وقد أدّت قُدرة الماء على تنظيف الأجسام البشرية والأشياء المادية منذ أقدم العصـور، إلى جعله رمزا عامـا، ووسيلة شائعة للتطهيـر، وللطقوس الدينية الخاصة بغسل الذنوب.

* * *

وقد أخبرنا «تيرتوليون» (4) Tertullien إن اتباع «إيزيس» و«متراس» كانوا يبدأون الانضمام إلى عقيدتهم بالتعميد من ينبوع، وإن الناس، في عبادات «أبولـو» واليوزيـس الخاصة، كـانوا يعمـدون، وهم يفكرون فـي الخلاص والتحرر من وزر الحنث في إيمانهم» ويقـول أيضا : «كان أي شخص من القدماء يلطخ يديه بـالقتل يذهب للبحث عن الماء الذي يمكن أن يطهره من ذنبه».

* * *

والواقع أننـا لانزال، نـرى هذا التقديس، بـاقيا حتى الآن عنـد كثير من الشعوب من الأنـهار... منها أنهار مقدسة يحج إليها ليغتسل فيها، وليتطهر أصحـابها، ويـدفعوا عنهم النجـاسات، وليس هـذا التقديس للميـاه.. ولكن

4) مدافع عن العقيدة النصرانية، أول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية (155 ـ 222) له مكانة مهمة في علم اللاهوت، إلا أن شدة نزعته الأخلاقيـة حوله نحو بدعة المنطانية Montanione وهي ديانة في القرن الثاني، تريد تمثيل الكنيسة الجديدة. وتنذر بقرب نهاية العالم، وتفرط في الزهد كان له أثـر كبير في تكـوين وتطويـر اللغة الدينيـة اللاتينيـة، «وإيزيس Izis زوجة «أوزيـرس»، ومعبودة المصـريين الأقدمين، نَسَبُوا إليها حـراسة الموتى والطب، والعنـاية بالزواج وبـزراعة القمح.

للقوى الخفية التي كـان القومُ يتصورون وجودهـا في هذه الحياة... والتي تظهر في بعث الحيـاة للأرض الميتة، ولـلإنسان نفسه، فلولا المـاءُ لمات بالطبع كل مخلوق حي...(5)

* * *

وإننا لنرى كثيرا من الأماكن المقدسـة قد أقيمت في جزيرة العرب عند اليَنَابيع والأنهار، حيث تُروى الأرض بالماء، فتنمو به المزروعات ويستقى منه الناس، وقد صَوّر هذا الخصبَ لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين، كانت السبب في نظـرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض.(6)

وفي الأخبـار المرويـة عن الجاهلين وغيـرهم من تقديس بعض الآبـار والعيـون والجداول، والتبـرك بشرب المـاء، دليل على نظرة التقـديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها إلى الماء...

ولابد أن تكـون هذه النظرة التقديسيـة، هي التي حملت الجاهليين على تقديس «بئـر زمزم» ولا يقدر أهميـة البئر، حق قَـدْرها إلا قُطّان هـذا البلد الكائن في واد غير ذي زرع وماء...

ومـا تلك النظـرة التي نظـرها أهـل مكة إلى السقـايـة إلا صفحـة من صفحات ذلك التقديس الجاهلي للماء، فقد كـانت «للسقاية» منزلة محترمة في مجتمع مكة...

وليس الاعتقاد في مثل «زمزم» خاصاً بالمسلمين... فإن للهنود اعتقاداً عظيما فـي نهر «الكانـج» وبحيرة «مـادن»... والنصارى يعتقدون فـي ماء الأردن الذي يبعـد بنحو 20 كلم، إلى شرق بيت المقـدس، ويسمونـه «نهر الشريعة»، لذلك تـرى حجاجهم يذهبون إليه، ويتبركـون بالاستحمام به(7)

---

5) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي ص : 167/5.
6) المصدر السابق : ص : 406/6.
7) لايستحب الاغتسال من ماء زمزم «الفتاوي لابن تيمية» ص : 144/26.

في المكان الذي تعمد فيه المسيح، ويأخذون من مائه في آنية من الصفيح، يتهادون به عند عودتهم إلى بلادهم، وأكثر النصارى اعتقادا في ذلك الأقباط والروسيون..

فنهر الأردن ينساب من «بحر الجليل» حتى البحر الميت مسافة طولُها سبعون ميلا، ولكن مجراه المتعرج يزيد هذه المسافة إلى حوالي المائة ميل، وهو نهر صغير جدا، ولكنه النهر الوحيد في فلسطين الذي يستحق هذا الاسم...

وقد نظر المسيحيون المخلصون إلى ماء هذا النهر، طَوَال قرون عديدة، على أنه يتميز بقدرة خالصة على التطهر والشّفاء.. وذلك لأنه كان في الأراضي المقدسة، ولأنه ذكر في الإنجيل كثيرا.. وخاصة لأن السيد المسيح عمد فيه.. وقد ظل الحجاج، كما ذكرنا سابقا، يحملون مياه الأردن في الزجاجات والقوارير إلى جميع أرجاء العالم..

* * *

ويطلق الصابئة المندائيون على الماء اسم «يردنا»، إشارة إلى التعميد الأصيل بِمَاء الأردن، ويرددون - في الوقت نفسه - ذكر الفرات، ويسمونه: الفُرات النورَاني، أو مرات النور «فراش زيو».

وتمت ترتيلة ترددها العَرُوس الصابئية، أثناء مراسم الزواج، تشير إلى أنها ؛ أصبحت عظيمة، وكبرت، لأنها شربت ماء الفرات.

* * *

أما الأفرنج فاعتقادُهم في ماء لورده Lourdes (8) في جنوب فرنسا لايقل عن اعتقادهم في ماء الأردن...

---

8) لورد Lourdes في جبال البرانس العالية Hauts Pyrenneés قرب «بو» يسكنها : 17.619، مركز مهم لحج العذراء منذ 1858 حيث كانت فتاة من «لورد» تعتقد أنها تحظى بوحي العذراء مريم؛ المدينة معروفة بكنائسها الممتازة : «بازليك» Basilique، ورئيس بلدية اللورد، اليوم : وزير الثقافة الفرنسي في حكومة السيد جاك شيراك، السيد فيليب دوست بلازي.

فالماء يعد مقدسا، لاسيما، إن كانت ينابيعُه من أرض مقدسة، لذلك يتبرك به ويستشفى بالشرب منه...

وكانت في المعابد سقايات يستقى منها للشرب والتطهر، كانت تغسل الأوجه والأيدي بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية...

وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أداء الشعائر الدينية، «وبئر زمزم» هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية...(9)

قال الشيخ شهاب الدين الحموي في كتابه : «عجائب المخلوقات» للقبط أربعة عشر عيداً، سبعة يسمونها كباراً، وسبعة يسمونها صغارا؛ ومن الأعياد الكبار : الغطاس، ويعمل في الحادي عشر، من طوبة من شهورهم، يقولون : إن «يوحنا»، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام غمس بالمعمدان، وفيه غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن... ويزعمون أنه لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم، ووقته شديد البرد، ورأيتُ في بعض الكتب هذه الأعياد، وذكر فيه يوم ظهور المجوس، وأنهم أهدوا له دقيقاً وَلَبَناً وتمرا، وهو يوم النجم(10)...

ومن أعيادهم الصغار : «خميس العهد»، ويعمل قبل الفطر بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أنهم يأخذون إناءً، ويملأونه ماءً، ويزمزمون عليه، ثم يغسل «البطريك» أرجل سائر الناس، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه، في هذا اليوم، يعلمهم التواضع، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا،

---

9) «تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 418 ـ 419 / 6.

10) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ص : 358/1.

وأن يتواضع بعضهم لبعض، والعامة من النصارى يسمون هذا الخميس : «خميس العدس»، لأنهم يطبخون فيه العدس على ألوان شَتَّى، ويسميه أهل الشام : «خميس الرزوكان»، ويسميه أهل الأندلس : «خميس ابريل»، وهو اسم شهر من شهور الروم(11)...

* * *

ويذكر ابن جبير احتفال الناس في مكة بليلة النصف من شعبان، فيقول: إن مراكبهم تزدحم في كل مكان في المسجد، والجهلة يعتقدون أن «زمزم» تفيض في هذه الليلة حتى تطفح، فيزدحمون على التبرك بمائها(12)...

وقد قضي على هذا التخريف الذي ظل سائدا، وساريا في مكة، يعتقده عوامُّها طوال الأجيال، ولم ينفع فيه إلا إنكار جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في العهد الأخير(13).

أهم ما تمتاز به عيون مكة.. مياه زمزم :

ليس في المملكة العربية السعودية، على اتساع رقعتها، نهر جار باستمرار، وإنما هناك ينابيع على شيء من الغزارة، في مواضع شتى، وأودية في كثير من أنحاء المملكة، تسيل أحيانا، وتجف في أكثر فصول السنة، وآبار هي المصدر الأول لسقيا الناس.

وكان الحجاز، ولا سيما، مكة وَجُدّة، من أقل المواطن المعمورة في الجزيرة مَاء، وأكثرها اْزدحاماً ونماء.

كان أهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها، مثل «بئر زمزم» أو التي في ضواحيها كالزّاهر، والعسقلاني، والجِعِرَّانة وغيرها، أو من

11) نفس المصدر ص : 1/358.

12) ص : 115.

13) «تاريخ مكة» لأحمد السباعي ص : 1/247.

الصهاريج التي تملأ من مياه المطر، أو ماء الينابيع، أو من «عين زُبيدة» التي يجري ماؤها إلى المدينة في قنوات تحت الأرض، لها خزانات في شوارعها يملأ منها السقاؤون قِرَبَهم... وهذه العين لها أهمية عظيمة تاريخية جدا، وهي من أجل الآثار التي تنسب إلى السيدة «زبيدة» زوجة هرون الرشيد التي كانت أولَ من أجرى ماءَها إلى مكة، كما سياتي وبتفصيل في فصل لاحق... إلا أن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي كان قد سبقها إلى هذه المأثرة... ففي إحدى زياراته، لمكة حاجا، لأخذ البيعة لابنه يزيد، سمع شكوى أهلها في جفاف الآبار التي كانوا يستقون منها، فأمر بالبحث عن العيون والينابيع في أعاليها، فظفر بعشر عيون أجراها إلى جوار بيت الله الحرامِ، فكان هذا مبدأ سقاية مكة بماء العيون...

* * *

وأهم ما تمتاز به عيون مكة وآبارها «مياه زمزم» الذي يعد سيد الشراب، وأجلها وأشرفها قدرا، وأحبها إلى النفوس، وأغلاها ثمنا، وأنفسها عند الناس... وهو هزمة جبريل، وسقيا إسماعيل... وهو طعام طُعم، وشفاء سُقم(14)...

و«زمزم» اسم بئر بمكة حفرها سيدنا إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام، حين أسكنه مكة مع والدته هاجر...

وقد أجمعت التواريخ العربية أن مبدأ ظهور هذه العين من عهد قُدُوم هَاجَر مع ولدها إسماعيل إلى مكة، فكان سببا لِعِمارتها...

قال ياقوت : من الناس من يقول إن إسماعيل حفره بالمعاول والمعالجة كسائر المحفورات وفيه يقول خُوَيلد بن أسد بن عبد العزى :

أقول، وما قولي عليكم بسبةٍ
إليك ابنَ سلمَى أنتَ حافرُ زمزم

14) رواه ابن أبي شيبة والبزار عن أبي ذر رضي الله عنه، ورجاله رجال الصحيح.

حَفِيــرَةَ إبــراهيم يـــوم ابن هـــاجَـــر
وركضـــــة جبـــريـل على عهـــد آدم

وفي هذا البيت ما يدل على أن زمزم أقدم من إسماعيل عليه السلام.

وقد غاضت مياهها زمنا طويلا... ولذلك يسمونها «المضغوطة» وبقيت هكذا إلى زمن عبد المطلب فحفرها... واهتم بتـوسيعها وتعميقها أبو جعفر المنصور والمامون وغيرهما... ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين إلى الآن...

ولزمزم عند المسلمين أسمــاء كثيرة... فهي : طعام طعم، وشفاء سقم، ومضنونة، وهزمة(15) جبريل، وسقيـا الله، وهي بـركة، وسيدة، ونـافعة، وعونة، وطافية، وعافية، ومؤنســة، وبَرَّة، وبشرى، وطيبة، وشباعة العيال، وشراب الأبرار، وحفيرة العباس، وقرية النمل(16)...

وسميت «بئر زمزم» لأن هـاجر زمت ماءها، أي جمعته عنـدا انفجارها لِيَلاًّ يَسِيل...

قال الحربي : سميت «زمزم» بزمـزمة الماء، وهي صوته، وقيل بل من زمزمة جبـريل عليه السلام، وكلامه عليهـا... وقيل لأن الفرس كانت تحج إليها قديما في الزمن الأول، وتَزمزم عليها، أي تصلى بلغتها، ويعتقدون أن روح «هُرْمُز» حلت فيها، وكانوا يحجون إليها من زمن بعيد جدا.

ويقول المـؤرخون إن ملوك الفرس يـزعمون أنهم من أولاد الخليل من سبي بني إسرائيل، وكانوا يحجون البيت، ويطوفون به تعظيما لجدهم...

---

15) انظر «مستفـاد الرحلة والاغتـراب»، لأبي القاسم التجيبي السبتي، وياقـوت، وما ذكره مـؤرخو مكة، ـ ومن أسماء «زمزم» همزة جبريل، بتقديم الميم على الزاي، ذكر هذا الاسم السهيلي، لأنه قال : وذكر أن جبريل همز بعقبه في موضع زمزم، فنبع الماء.

16) الهزمة : المنخفض من الأرض ـ والغمزة بالعَقِب في الأرض يقال لها هزمة.. قال شراح الحديث: أي ضرب بـرجله فانخفض المكان فنبـع الماء، وقيل : معناه إن هزم الأرض، أي كسـر وجهها عن عينهـا.. حتى فاضت بـالماء الـرّواء وبئر هـزيمة إذا حسِفَتْ وكُسِـر جَبَلها ففـاضَ الماء... والهزائم.. البئار الكثيرة الماء، وذلك لِتَطَامُنِهَا..

وكان آخـر من حج منهم «أَرْدَشِير» بن بَابك، طاف بـالبيت وزمزم على البئر.

وزمزمة المجوس، قراءتُهم عند صلواتهم وطعامهم(17)...

وفي ذلك يقول شاعرهم بعد الإسلام :

ومـــا زلنـــا نحج البيتَ قِـــدْمـــاً
ونلقـى بـــالأبـــاطـح آمِنينـــا
وســـاســـانُ بنُ بَـابَك، ســـار حتى
إلى البيـتِ العتيقِ يَطُـــوفُ حِينـــا
فَطَـــافَ بـــه، وزمـــزم عنـــد بئـــر
لإسمـــاعيل، تـــروي الشـــاربينـــا

فالزمزمة : صلاة المجوس، وإلى هذا المعنى أشار أبو العلاء المعَرِّي :

والخيرُ أفضـلُ ما اعتقدت، فَـلاَ تَكُنْ(18)
هَمَـــلاً.. وَصَلِّ لِقِبْلَـــةٍ أو زَمْـــزِمِ

فأفضل مـا تعتقد عملُ الخيـر... فلا تكن هَمَـلاً سـائِبـاً سـادِراً، فـاعتقد الخير وافْعَلْه، واعتَنِقْ ما شئت من الأديان، هكذا يقول أبو العلاء...

وأن الملك «سـابور» لمـا حج البيت أشرف على «بئـر زمزم» وزمـزم فيها، فقيل لها «زمزم»(19).

وهكذا جعلـوا «سابور» من المـومنين الحجاج للبيت الحـرام المتبركين بماء زمزم...

وقيل الزمـزمة صوت تخرجه الفـرس من خياشيمها عنـد شرب الماء، وبذلك كتب عمر إلى عماله : «إن أنهوا الفرس عن الزمزمة» وقال بعضـهم :

---

17) «عجائب المخلوقات والحيوانات، وغرائب الموجودات» لأبي زكريا محمد القزويني ص : 1/308.

18) «اللزوميات»، ج : 2/ص : 361.

19) معجم البلدان ص : 3/147. ـ الصحاح ص 5/1945، اللسان ص 12/275 البكري ـ معجم ص: 2/700 ـــ عمدة القـاري ص : 277/ 9ـ1. ويقـول ابن المقفـع على لسـان برزويـه الطبيب : «وكانـت أمي من بنات عظمـاء الزمـازمة» أي علمـــاء دين المجوس. [كليلـة ودمنة] ص: 79، تحقيق نائل المرصفي.

زمـــزمت الفــــرس، على زمـــزم
وذاك في ســـــالفهـــا الأقـــدم

وقيل سميت «زمزم» لكثرة مائها، يقـال : ماء زمزم، وزُمَازِم، وقيل هو اسم لها، وعلم مرتجل... وقيل غير ذلك...

فضائل بئر زمزم :

وردت في ماء زمزم عدة أحاديث وكتبت في فضائله عدة كتب...

أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال : قـال رسول الله ﷺ : «ماء زمزم لمـا شُرب لـه، إن شربتَـه تشتفى بـه، شفاك اللـه، وإن شربتـه ليشبعك، أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك، قطعه الله، وهي هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل...

وقد تحدث ابن القيم عن(20) فضائل ماء زمزم، فقـال : «وشاهدت من يتغذى بـه الأيام ذوات العـدد، قريبـا من نصف الشهر، أو أكثـر، ولا يجد جوعاً، ويطـوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني : أنـه ربما بقي عليه أربعين يوما، وكان له قوة يجامع به أهله، ويصوم ويطوف مِرَارا».

وعن أبي جريج أنه قال : «خيرُ مَـاء في الأرض «ماءُ زمزم»، وشرُّ ماء في الأرض، ماء بَرَهُوت،(21) وشر بقاع الأرض الأسواق، وخير بقاع الأرض المساجد».

وعن عبد الله ابن مُلِيكة قال : «جاء رجل إلى ابن عباس، فقال له : «من أين جئت ؟ قال : شـــربت من زمزم.. فقـال ابن عباس : أشربت منهـا كما ينبغي؟، قـال : «وكيف يا أبـا عباس ؟ قـال : «إذا شـــربت منها، فـاستقبل القِبلة، واذكـر اسمَ الله تعالى، وتنفس، وتضلـع منها، فإذا فرغت، فـاحمد

---

20) الطب النبوي ص : 22.

21) برهوت : بئر عتيقة بحضرموت، شعب من شعاب حضرموت.

الله، فإن رسول الله ﷺ قال : «إن بيننا وبين الناس، أنهم لايَتَضَلَّعُون من زمزم».

وقد كان رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة يطلب ماء زمزم من مكة، ويحرض على التعجيل بإحضاره كما يفهم من «الإصابة» التي ترجمت لأثيلة الخزاعي،. فذكر عن أبي قرة موسى ابن طارق، أن النبي عليه السلام كتب إلى سهيل بن عمرو : «إن جاءك كتابي، ليلا، فلا تصبحن، أو نهاراً، فلا تمسين، حتى تبعثَ إلي من ماء زمزم».

قال : فاستعان سهيل بأتيلة الخزاعي حتى جعل مزادتين ملأهما سهيل من ماء زمزم، وبعث بهما على بعيره ورواه الفضل بن محمد الجنوي...

ثم ترجم في الإصابة، أيضا، أُزَيْهِر مولى سهيل بن عمرو لهُ صحبة أرسله إلى مولاه سُهيل إلى النبي ﷺ بماء زمزم.

وروى الفاكهي من طريق محمد بن سليمان عن حرام بن هشام بن أبيه عن أم معبد، قال : «مرّ بخيمتي غلام سهيل أُزيهر، ومعه قربتا ماء، فقلت : ماذا ؟... فقال : إن النبي ﷺ كتب إلى مولاه سُهيل يستهديه ماء زمزم، فإني أعجل السير لكيلا تَنْشِفَ القرب...(22)

* * *

وتوجد بالمدينة المنورة البئر المعروفة «بزمزم» وهي من الأماكن التي زارها أبو سالم العياشي، وتحدث عنها في رحلته «ماء الموائد»(23) وقال بأنها إحدى الآبار المتبرك بها بالمدينة المنسوبة إلى النبي عليه السلام، واشتهرت بزمزم، تشبيها لها بزمزم المكية المشهورة لبركتها، واستشفاء الناس بها، وكانت هذه البئر، إذ ذاك بيد رجلٍ من المغاربة، فخرج معه إليها وأطعمه من تَمْر حَدِيقَتِهَا، وسقاه من مائها، وهذه البئر في غربي

22) «التراتيب الإدارية» للشيخ عبد الحي الكتاني ص : 1/101.
23) الرحلة العياشية ص : 2/288، وص : 1/270.

المدينة مما يلي الحَرّة، ومَاؤها عذبٌ، وهي قريبة من بئر السقيا على يمين الطريق، حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا... وهي بئر مليحة في حديقة نخل حَوْلَهَا بركة وبناء...

وهكذا جرت العادة، قديما، بنقل الناس هذا الماء إلى الجهات النائية تبركاً به، قال التقى الفاسي : «والأصل في جواز نقله ما رويناه في جامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها حملت من ماء زمزم في القوارير، وقالت: حمل رسول الله ﷺ في الأدَاوِي والقِرب، وكان يصب على المرضى ويسقيهم ومن حمل شيئا من ماء زمزم، جاز، فقد كان السلف يحملونه.(24)

وقد سئل عطاء عن حمله ؟... فقال : حمله النبي ﷺ والحسن والحسين.(25)

ويذكر على بعض الألسنة أن فضيلة «ماء زمزم» في محلِّه، فإذا انتقل تغير، وهو شيء لا أصل له...

فقد بعث سُهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ بمزادتين، وكان بالمدينة، قبل أن تفتح مكة.. وهو حديث حسَن لشواهده، وكذا كانت عائشة تحمله، وتخبر أنه ﷺ كان يفعله ويحمله في الأدَاوِي والقِرب، فيصب منه على المرضى ويسقيهم...(26)

وكان ابن عباس إذا نزل به ضيفٌ أتحفهُ من «ماء زمزم»...

ومما أنشده الشيخ الإمام العالِم العلامة الحافظ شمس الدين محمد الشهير بابن ناصر الدين، رحمه الله تعالى :

خَيْرُ المِيَاه بِلاَ نِزَاع «زَمْزَمٌ»
لاَ السَلْسَبِيلُ وكَوثَراً يَتَقَدَّمُ

24) مجموع فتاوي ابن تيمية ص : 26/154. ولا يجوز للحاج أن ينقل شيئا معه إلى دياره غير ماء زمزم، ومن البدع أن بعض الحجاج يأخذه معه إلى دياره شيئا من حصى الحرام وترابه. وهذا غير جائز شرعاً.

25) «كشف الخفا» ص : 2/248.

26) المصدر السابق ونفس الصفحة.

عَلِم النَّبِــيُّ مِيـــاهَ جَنَّـــةِ رَبِّـــهِ
وَيَقُولُ زَمْزَمُ : «خَيْر مَـاء» فَافْهَمُوا
لاَ يَلْتَقِي أَبَـــــداً ونـــــارَ جَهَنَّم
فِي جَوْفِ مَنْ هُـوَ فِي الحَقِيقَةِ مُسْلِمُ
يَنْفِي النِّفَـاق «تَضَلُّعٌ» مِنْ شُـرْبِـهِ
«يَشْفِي السَّقَامَ» «طَعَامُ طُعْم» يُعْلَمُ
بِيــرٌ «مُبَـارَكَـــةٌ» وبِيـرٌ «طَيْبَـــةٌ»
شَيَّـــاعَـــةٌ أُمُّ العِيَـــالِ» وَزَمْـــزَمُ
وَكَـذَا الـدَّوَاءُ وَهَمْـزَةٌ «مَظْنُـونَـةٌ»
«وَشَـرَابُ أَبْــرَارٍ» بـذاك تُتَــرجَمُ
«وتَضَلُّع» مِنْهَـــا يَكُـــونُ عِبَــادَةً
وَجَـلاَ العُيُـونِ ولِلخَطَـايَـا يَهْـدِمُ
تَسْقِي الحَجِيجَ وَلاَ تُـــذَمُّ بِخَلَّـــةٍ
تَفْنَى المِيَـــاهُ وَمَــاؤُهَـــا لاَ يُعْـدَمُ
وَمِنَ الجِنَـــانِ الله أَخْـرَجَ مَـــاءَهَـا
سُقْيَـا «لِهَـاجَـرَ» حَيْثُ لاهِيَ تَعْلَمُ
وَبِمَـــائِهَـا جِبْــرِيلُ، قَلْبَ مُحَمَّـــدٍ
غَسْـلاً أَجَـادَ، فَعَـــادَ وهُـو مُكَـرَّم
مَـــلاَنَ إِيمَـــانـــاً يُجَلُّ وحِكْمَـــةً
يَـدْعُـو بِهَـا، يـا سَعْـدَ مَنْ يَتَقَـدَّمُ
لإجَــابَـــةِ الــدَّاعِي النَّبيّ مُحَمّـــدٍ
خَيْـرِ الـوَرَى عِنْـــدَ العظِيم معظم
وعَلَى الأكَـارِمِ : آلِـــهِ وَصِحَـابِـهِ
أزْكَى السَّـلاَم يعُـودُ إذْ هُـوَ يُخْتَمُ

وقد صـرَّحَ الشيخ في نظمه هذا بأن زمـزم خير من الكوثر. وقـد ذكر الشيخ شمس الدين ابن ناصر الدين، أيضا، حديثاً في كتابه «الدراية» فيما جاء في زمزم من الرواية» بسنده إلى جـابر بن عبد الله رضـي الله عنهما، قـال، قال رسـول الله ﷺ «من طـاف بـالبيت سبعا، وصلى خلف المقـام ركعتين، وشرب من ماء زمزم، غفر الله له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت.

هل الماء غذاء ؟..

اختلف الأطباء في الماء، هل يغذي البدن ؟

فهنـاك من يرى أن المـاء لايغذو، وإنمـا هو مَـرْكَبٌ ومِعبرَ ومـوصل للغذاء..(27)

فهذه طـائفة تنكـر حصول التغذيـة بالمـاء وقد احتجت بأمـور، يرجع حاصلُها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لايقوم مقام الطعام، وأنه لايزيد في نموّ الأعضاء، ولا يخلِّف عليهـا بَدَلَ ما حللتـه الحرارة، ونحو ذلك ممـا لاينكره أصحـاب التغذيـة، فإنهم يجعلون تغـذيته بحب جـوهره ولطـافته ورقتـه وتغذية كل شـيء بِحَسَبِه.(28)

وهناك أحاديث شريفة تقـول : «اِئتَدِمُوا ولو بالماء»(29) و«اثردوا. ولو بالماء».(30)

قال مجاهد : «مـاء زمزم إن شربتَ منه تريدُ شفـاءً شفاك الله تعالى.. وإن شربته لظمأ، أرواك الله، وإن شربته لجوع، أشبعك الله..(31)

---

27) الحيوان للجاحظ. ص : 89/ 5.

28) محمد شكري الألوسي «الماء وما ورد في شربه من الآداب» ص : 6.

29) رواه الطبراني في الأوسط، وأبـو نعيم، والخطيب، وتمّام عن عبد الله بن عمـرو بن العاص، قال ابن الجـوزي، لايصح، فيه مجهـول، وآخر ضعيف، وقـال البيهقي : فيـه عُريك بن سنـان، لم أعرفه.. وبقية رجاله ثقات..

30) رواه الطبراني في الأوسط، وابن حبان عن أنس، ورمز السيوطي لضعفه..

31) عجائب المخلوقات للقزويني.

ثم البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر، وكثرةُ من يقيم عليه يجد فيه الشفـاءَ بعد إن لم يَدَع في الأرض حَـمَّـةً إلا أتاها، وأقام عندها، وشرب منها، واستنقع فيها..(32)

فهل المـاء طعام ؟ فالطعـام يطلق على ما يطعـم ويشرب، قال تعـالى: ﴿**ومن لم يطعمه، فإنه مني**﴾؛ وقال : ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ أي ماشربوه من الخمر...

وقد طعِم يطعَم فهو طاعم، إذا أكل وذاق، ومنـه قوله تعالى: ﴿**ومَن لم يَطْعَمْه، فإني مِنِّي**﴾ أي من لم يذقه.. وقال رسـول الله ﷺ : «إنها طعَامُ طُعم وشِفَاءُ سقم». (33)

وأطعمتـه المـاءَ، أي أذقتـه، ولم يَقُلْ، ومَن لم يشـربـه، لأن في عـادة العرب، إذا كرروا شيئـا، أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القـرآن أفصح اللغات، فـلا عبـرة بقدح من يقـول : لا يقـال : طعمت المـاء..(34) وقولـه تعالى : «طعموا»، أصل هذه اللفظة في الأكل، يقـال : طَعِمَ الطعام، وشرب الشراب، لكن قد تجوز في ذلك، فيقال : لم أطعم خبزا، ولا ماء، ولا نوما..(35)

قال الشاعر :

نَعَـامـاً بِـوَجْـرَةَ صُعْـر الخـدو

د، لا تطعَمُ النـومَ إلا صيـامـا(36)

---

32) الحيوان.. للجاحظ.. استنقع : نزل واغتسل.

33) تفسير القرطبي ص : 1/422، ومعنى طعم : أي يشبع الإنسان إذا شرب مـاءها كما يشبع من الطعام. والطُعم بالضم، مايوكل، وبالفتح : مايشتهَى.

34) المصدر السابق : ص : 3/252.

35) المصدر السابق : ص : 3/296.

36) وَجْرة : موضع بين مكة والبصرة ـ يقول الشاعر : هي صائمة منه لاتطعمه، وروي في اللسان: لاتطعم الماء، وقال : وذلك لأن النعام لاترد الماء. ولا تطعمه، وقبله :

فأما بنو عامر بالنسار غداة لَقُونَا فَكَانُوا نَعَاما

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : **﴿ومن لم يطعمه﴾** دل على أن الماء طعام، وإذا كان طعاما، كان قوتا لبقائه واقتياتِ الأبدان به، فوجب أن يجرى فيه الربا.. قال ابن العربي : وهو الصحيح من المذهب...

قال أبو عمر : قال مالك : «لابأس ببيع الماء على الشط بالماء، متفاضلا وإلى أجل... وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف..

وقال محمد بن الحسن : هو ما يُكَال ويوزَن، فعلى هذا القول لايجوز عنده التفاضل، وذلك عنده فيه ربا، لأن علتَه في الربا الكيل والوزن.

وقال الشافعي : لايجوز بيع الماء متفاضلا، ولا يجوز فيه الأجل، وعلته في الربا أن يكون مأكولا جنسا.(37)

ولما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرّم، أرسل الملك، فبحث عن الماء، وأقامه مقام الغذاء.. وفي الصحيح:(38) «أن أبا ذر رضي الله عنه اجتزأ به ثلاثين، بين يوم وليلة قال أبو ذر : «ما كان لي طعام، إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عُكَنِي،(39) وما أجد على كبدي سَخْفة(40) جوع» وذكر الحديث..

---

37) تفسير القرطبي : ص 3/252.

38) رواه البخاري في كتاب المناقب في باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري ص : 6/400، وفي باب قصة زمزم، ص : 6/400، وفي باب إسلام أبى ذر في قصة طويلة.

39) العُكن والأعكان : الأطواء في البطن من السِّمَن، والتثنى من كم البطن مفرده عكنة قال النابغة في خَمص البطون من جهة ضُمره :

والبطن ذو عُكَنٌ خميصٌ لينٌ والنحر تنفُجُه بثدي مقعد

ونَفَجَ ثديُ المرأة قميصَها : إذا رفعه قال ابن صارة : [قلائد العقيان ص : 270]

والنهر قد رقّت غِلالَـةُ صبغه
وعليه من ذهب الأصيل طِرَازُ
تترقرق الأمواجُ فيه كأنها
عُكَنٌ الخُصور تَضُمُّها الأعْجَازُ

[نفح الطيب ص : 3/600]

40) سخفة الجوع : رقته وهزاله [انظر جامع البيان ص : 9/370].

وقد سئل سائل عن حديث : «ماء زمزم لما شرب له» مامدى صحته ؟ وما معناه ؟

فكان الجواب : إن الحديث له روايات مختلفة، وهذه الجملة : حديث صحيح، وما زاد عليها... قال الشيخ ناصر : إنه ضعيف.. أما معناه فليس على عموم معنى «ما» فلو شربه شيخ ليرتد شابا، أو شربه جاهل ليصير عالما بلا تعلم، أو شربه مغترب ليعود إلى بلده بغير الوسائل المعروفة، لم يحصل له ما أراده، ولكن معناه أنه إن شربه العطشان، روى، وإن شربه الجائع لذع الجوع عنه، وأغناه موقتا عن الطعام.. والذي أعرفه – ولست بطبيب – أن الجوع جوعان – أولهما اشتهاء قوي للطعام، ورغبة شديدة فيه، وهذا ناشئ في تصوري عن إفراز المعدة لعصاراتها، وليس فيها ما تهضمه هذه العصارات، وهذا جوع ظاهري، يكون غالبا في وقت الطعام، فإن مر الوقت وجسر على الجوع أحس أنه زال، وهذا يفيد فيه شرب الماء، ولا سيما ماء زمزم.

وجوعٌ حقيقي هو نقص السكر في الدم ـــ فإذا لم يأكل يشعر بالدوار – أو أعني عليه، وهذا لاينفع فيه الماء وحده، بل الطعام، وأفضله المواد السكرية الطبيعية ـ لذلك سن للصائم أن يفطر على التمر.

وهو لما شرب له :

لقد شرب جماعة من العلماء «ماء زمزم» لمقاصد وغايات، فحصلت بإذن الله، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشافعي الذي شربه للرمي، فكان يصيبُ بدقة.. وشربه الحاكم، لحسن التصنيف، فكان أحسن أهل عصره تصنيفاً...(41)

41) فتح القدير ص : 190/3.

وعن سويد بن سعيد قال : «رأيتُ عبد الله بن المبارك(42) دخل زمزم، فقال: «اللهم إن ابن المؤمل،(43) حدثني عن أبي الزبير عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال : «ماء زمزم لما شرب له» فإنه شربه لعطش يوم القيامة»(44) وأنا أشربه لظمأ يوم القيامة.

ويحكى أن الخطيب البغدادي،(45) لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات، أخذا بقول النبي ﷺ : «ماء زمزم لما شرب له».

فالحاجة الأولى أن يحدّث بتاريخ بغداد.

والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور.

والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي(46)

ومما تحدث به القاضي أبو بكر ابن العربي عن مكة قوله : «كنت بمكة مقيما في ذي الحجة عام 489هـ، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يَسَّره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدّر، فكان صَغْوي أكثر منه للعمل، واسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته...(47)

---

42) قال ابن الجوزي في «المدهش» : «المسمون بعبد الله ابن المبارك ستة : أحدهم مروزي والثاني خراساني، والثالث بخاري، والرابع جوهري والباقيان بغداديان» وأشهرهم الأول، إذا أطلق اسمُه انصرف القصْدُ إليه، [الأعلام ص : 4/256، وللشيخ علي الطنطاوي رسالة فيه مطبوعة بدمشق.

43) عبد الله بن المؤمل بن وهب الله القرشي المخزومي العابدي المدني، ويقال : المكي قالوا بأنه كان قاضيا بمكة، وليس بذاك، ومات بها سنة 50 بِفَخ [انظر : تهذيب التهذيب ص : 6/46].

44) المصدر السابق ونفس الصفحة.

45) الإرشاد، لياقوت ص : 1/246.

46) الحضارة الإسلامية، لأدم ميتز ص : 1/322، وبشر أبو نصر الحافي (767 ـ 841) ولد في «مترسام» من قُرى «مَرْو»، متصوف، عاش في بغداد، وجمع حوله جماعة من أصحاب الورع.

47) «فهرس الفهارس». ج : 1/312.

وقد تحدث الجلال السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة»، وهو يترجم ذاته حيث قال : «وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز، واليمن والهند والمغرب والتكرور، ولما حججت شربت من «ماء زمزم» لأمور منها : أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني،(48) وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر.(49)

قال ابن حجر : «ولا يحصى كم شربه من الأئمة لأمور نَالُوها.. قال : «وأنا شربته في بداية طلب الحديث أن يرزقني الله حالة الذهبي في حفظ الحديث... ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة، وأنا أجد في نفسي المزيد على تلك الرتبة... فسألت رتبة أعلى منها، وأرجو الله أن أنال ذلك منه».

وقال الكمال ابن الهمام : «والعبد الضعيف ـ يعني نفسه ـ يرجو الله سبحانه وتعالى شربة الاستقامة، والوفاة على حقيقة الإسلام معها.(50)

وقد أخرج الفاكهي عن ابن الزبير قال : لما حج معاوية، حججنا معه، فلما طاف بالبيت صلى عند المقام ركعتين، ثم مرّ بزمزم، وهو خارج إلى الصفا، فقال : «انزِعْ لي منها دلواً ياغلام، قال : فنزع له منها دلواً، فأُتِي به، فَشرِب وصبّ على وجهه ورأسه، وهو يقول : «زمزم، شفاء، وهو ماشرب له..».

وقد أفرد الحافظ بن حجر جزءاً في هذا الحديث، واستشهد له في موضع آخر بحديث أبي ذر رفعه : «إنها طعام طُعْم، وشِفَاء سقم» وأصله في مسلم، وهذا اللفظ عند الطيالسي... وقال : «ومرتبة هذا الحديث أنه باجتماع هذه الطرق، يصلح للاحتجاج به».

---

48) للسيوطي كتاب : ترجمة البلقيني، الملتقط في الدرر الكامنة.

49) حسن المحاضرة ج : 1/141.

50) فتح القدير ج : 3 / ص : 191.

وقد جربه جماعة من الكبار، فذكروا أنه صحَّ... بل صححه من المتقدمين ابن عُيَيْنَةَ، ومن المتأخرين المُنذِري والدمياطي، وضعفه النووي وأخرجه الديلمي بسندٍ واهٍ عن صفية وابن عمرو مرفوعا : ماء زمزم...(51)

* * *

وقد شوش بعض الزنادقة، ووضع أهل الطغيان والافتراء حديثا يوهي الحديث المحكم الثابث في ماء زمزم، فقالوا : «الباذنجان، لما أكل له».

وهو حديث باطل لا أصل له.. وقد لَهِجَ به العوام حتى قال قائلهم : هو أصحُّ من حديث : «ماء زمزم لما شرب له» وهذا خطأ قبيح..

وقال بعض الحفاظ : إنه من وضع الزنادقة... وقد أطال الناجي في كتابه: «قلائد المرجان، في الحديث الوارد كذبا عن الباذنجان»(52) الكلامَ فيه، وقال إنه باطل موضوع كذب.. وقد نبه على ذلك الذهبي وابن الجوزي وغيرهما..(53)

قال الشيخ ابن غازي : حدثني محمد القوري اللخمي المكناسي [الإتحاف ج : 3/ ص 595] عن شيخه أبي عبد الله بن عبد العزيز، أنه قال : سمعت العالم المحدث الحافظ الرباني البلالي بمصر يقول : حديث «الباذنجان لما أكل له»، أمتن إسناداً، من حديث : «ماء زمزم لما شرب له»، قال شيخنا القوري : وهذا عكس المعروف.

---

51) «كشف الخفا» ص : 2/248.

52) للشيخ الحافظ إبراهيم بن محمد الناجي الشافعي (تـ 900هـ) [كشف الظنون : ص 2/1350].

53) المصدر السابق ص : 1/327.. وقد قال بعض شعراء الأندلس في الباذنجان :

ومستحسن عند الطعام مُدَحْرَج
غذاه «نميرُ الماء» في كل بُستانِ
تطلع في أقماعه، فكأنه
قلوبُ نِعَاجٍ في مخاليب عِقْبَانِ

[النفح ص : 4/88].

ولعل النقل انقلب على ناقله سهوا، وإلا، فالذي نقل البلالي المذكور في مختصر الإحياء خلافه، بل صرح بأن حديث الباذنجان موضوع، وضعته الزنادقة، وإن حديث : «ماء زمزم» صحيح، وقد استوفى كلامَه وكَلاَمَ غيره، في تقييده على المختصر في كتاب الحج..

* * *

تآليف ومصنفات في بئر زمزم :

قام الدكتور «سائد بكداش» بجامعة أم القرى في مكة المكرمة بتحقيق مخطوطة للحافظ «شهاب الدين بن حجر العسقلاني» (تـ:852هـ)، ويتحدث فيها عن الحديث النبوي الشريف : «ماء زمزم لما شرب له» في جزء اقتطعه من كتابه : فضل ماء زمزم» الذي صَدَرَ عن دار الثقافة للطباعة في مكة المكرمة..

والمخطوطة موجودة ضمن مجموع في دار الكتب المصرية تحت رقم : 144 مجاميع في سبع ورقات مع صفحة العنوان، وفي كل صفحة 19 سطرا، ولم يكتب في آخرها تاريخ النسخ... ورغم وجود تحقيق سابقٍ لهذه المخطوطة، فإن الدكتور البكداش شَكَّك في جودة وإتقان العمل الذي قام به المحقق السابق لها، وهو : كيلاني محمد خليفة، واعتمد فيه على نسخة دار الكتب المصرية، واعتبر تحقيقه مليئاً «بالإسقاط والتحريفات الغريبة العجيبة التي بلغت 31 خطأ، ومن أعجبها وأطرفها ما جاء عنده في صفحة 30 قوله: «لأن ذلك ليس عند أئمة الحديث : علي وسفيان وأحمد، بل المدار...!!)، وصواب العبارة، وكما هو واضحٌ في الأصل : «أئمة الحديث على سنن واحد، بل المدار...» وقد قدم المحقق قائمة بإسقاطات سَلَفِه الكِيلانِي، وقام بتصويبها، ثم أفْرَدَ سِتّ عشرة صفحة لتحقيق المخطوطة من جديد، والتي تكلم فيها العسقلاني عن طريق الحديث : «ماء زمزم لما

شرب له»، واعتبره يصلح للاحتجاج به في الفائدة العظيمة لهذا الماء، ثم أورد الدكتور سائد بكداش أدلة تثبت صحة نسبة المخطوطة إلى العسقلاني... ومما يجدر بالذكر أن سائد بكداش حصل على الدكتورة في الفقه المقارن، بعد تحقيقه لجزء من مخطوطة شرح مختصر الطحاوي».

* * *

لقد ورد ذكر «بئر زمزم» كثيرا في شعر الجاهلية والإسلام، كما صدرت عدة دراسات عن مائها قديما وحديثا.. وألفت عدة كتب في مائها، منها : كتاب حفر بئر زمزم» للإخباري توفي بمدينة بخارى (ت : 206هـ)،(54) وكتاب «حفر بئر زمزم» للعطار، ابن إسحاق البغدادي (ت : 372هـ)،(55) و«نشر الأنفاس، في فضائل زمزم وسقاية العباس» لخليفة ابن أبي الفرج بن محمد الزمزمي الشافعي المكي (ت : 106هـ)(56) و«دُرَرُ القلائد، فيما يتعلق بزمزم، وسقاية العباس من العوائد» لابن علان المكي (ت : 1057)(57) وأخيرا صدر كتاب : «زمزم، طعام طعم، وشفاء سقم» للمهندس «يحيى حمزة كوشك»، الذي تحدث في هذا الكتاب عن علاقته الروحية الخاصة بهذه البئر المقدسة، والذي قال في مقدمة كتابه الذي صدر في جدة، وكان عبارة عن وثيقة تاريخية وعلمية فريدة مدعومة بالصور والحقائق والمعلومات الدقيقة، يقول : «إن بيته يقع أمام باب الصفا، وكان من السهل عليه رؤية البئر من نوافذ هذا المنزل، ورؤية الناس وهم يشربون منها ويتوضأون، فارتبطت هذه الصورة في ذهنه طوال الوقت، وحمل عشقه لزمزم في كل مكان ذهب إليه...

---

54) «هدية العارفين» ص : 196/ 5.

55) المصدر السابق، ص : 207/ 5.

56) المصدر السابق، ص : 350/ 5

57) المصدر السابق، ص 283/ 6.

وانظر : «خلاصة الأثر» «للمحبي»، ترجمة ابن علان الصديقي ج : 4/ ص: 187.

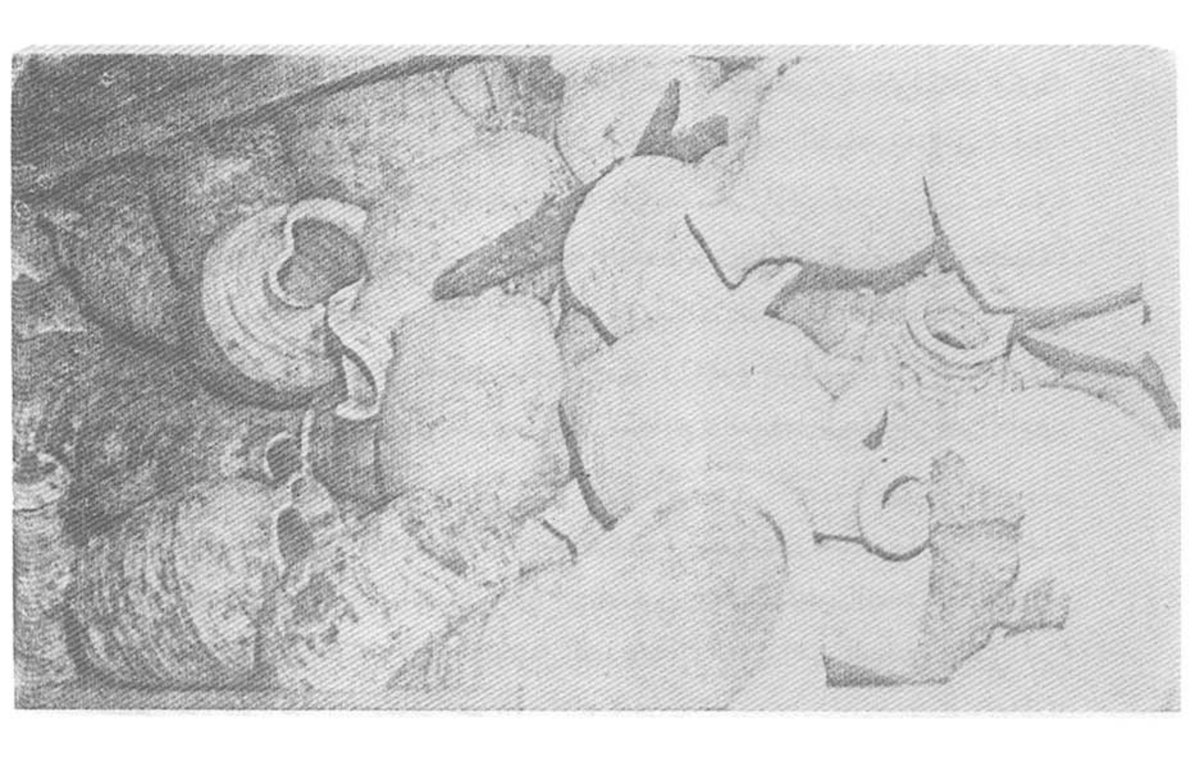
ويقول المـؤلف إن والده كان أول من اقترح على وزارة الأوقـاف فكرة ضخ مياه زمزم بالمضخات مما أدى إلى تحسين طعم المياه، بعد أن كانت تستخرج بالدلو الذي يأخذ الماء من السطح.

ويضيف الكـاتب أنه واصل عمليـة الاهتمام بهـذه البئر عنـدما جعلهـا موضوع رسالة ماجستير تقدم بها إلى كلية الهندسة جامعة القاهرة وكان موضـوعها حـول كيفية تطهير بئـر زمزم، وتعقيم مياههـا بالأشعـة فوق البنفسجيـة، باعتبـارها أفضل وسـائل التعقيم وأنسبها للحفـاظ على طعم المياه..

وقد استعرض الكاتـب تاريخ «بئر زمزم» منذ ظهورهـا، وما طرأ عليها من طم وحفر وتحسينـات على مرّ العصـور، وقد تضمن البحث مكـونات هذه الميـاه وفق التحليلات العلميـة الحديثـة، والعديد من الصـور التي لم تظهر من قبل في أي كتاب آخر...

وخصص المؤلف فصـلا كاملا عن إفضـال ماء زمزم وبـركتها وأورد أحاديث كثيـرة وأخباراً متعددة أجمعها كلهـا على طهارة ماء زمـزم وشفاء من يشربها، وكونها شراب الأبرار..

وقد صدر، قبل هذا الكتاب، للأستـاذ المرحوم عبد القدوس الأنصاري كتابان جـديدان بعنوان : «وَاحَاتٌ عن مصـادر الميـاه في المملكة» و«تاريخ العين العزيزية بجدة «نسبة إلى الملك عبد العزيز الذي أمر بعد عودته من زيارة مصـر عام 1946 بجلب المـاء إلى جـدة من عيون : «مَـرّ الظهـران» المعروف «بوادي فاطمة» وقد احتفلت جدة في يوم 20 نونبر 1947 المبارك حقـا على هذه المـدينة، وشـاركها بعض سـراة مكة، مع رجـال الحكومـة بـوصول أنـابيب من المـاء العذب النقـي إلى البلدة الظـامئـة المحرومـة، وضوعفت فيما بعـد مقادير المياه المستوردة من «مـر الظهران» إلى جدة، فتحولت أطراف دُورها القاحلة، إلى حـدائق غلب، وشق شوارعها بالأزهار، فعادت جدة اليوم جنة الخلد وغيرها بالأمس، والماء عنصر الحياة..



الأواني الفخارية السليمة عند حفظها بداخل الصناديق

اعتقاد الناس في بئر زمزم :

للحجيج اعتقاد كبير في «ماء زمـزم»، يتهادون به في آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة.. وكم يلقى فيها من المـواد النفيسة كالذهب الخالص والأواني الغالية، بـل إن بعض المجاذيب في بعض الفترات التاريخيـة كانوا يلقون أنفسهم فيهـا ليموتوا فـداء حَسَبَ تصورهم...(58) وقد وضع بـأمر السلطـان أحمد خـان، في عـام 1020هـ شبكـة من الحديـد بداخـل البئر، ومنخفضة عن سطح الماء بمتر، حتى تقي كل من سَوّلت له نفسه الارتماء فيها..

58) «مرآة الحرمين» ج : 1/ ص : 257.

ويقول أهـل مكة إن «ماء زمـزم» نافعٌ لكل شـيء بدليل حديـث : «ماء زمزم لما شرب له».

وكان مكتوبا على بئر زمزم في عام 1318هـ، على الشباك الشمالي من جهة الباب «ماء زمزم شفاء من كل داءة»(59) «آية ما بيننا وبين المنافقين انهم لايتضلعون مـن زمزم»(60) السلطـان عبد الحميـد خان عـام 1201هـ وتجد مكتوبا على بابها ما ياتي :

سـرور لسلطـان البسيطـة والـورا
عبـد الحميـد البـر بَحْـر المكـارم
ونصـر لـه، أيضـا، وفتح ورفعـة
بتعميـر هـذا المـأثـر المتقـادم
حفيـرة إبـراهيم يـوم أبى هـاجـر
وركضـة جبـريل على عهـد آدم

* * *

ولما حفـر عبد المطلب زمـزم وجد فيه الأشيـاء التي دفنها الجـراهمة، حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والـدروع، والغزالين من ذهب، فضرب الأسيـاف بابـا للكعبة، وضـرب في البـاب الغزالين، وأقـام سقـاية زمـزم للحجاج.(61)

وقد نقل أن التبابعـة كانت تحج البيت وتعظمه، وتعتقـد فيه، وأن تبعا كساها الملاء، والوصائل، وأمر بتطهيـرها، وجعل لها مفتاحا.. ونقل أيضا، أن الفرس كانت تحجه، وتقرب إليه وأن غـزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين حفر زمزم كانا من قرابينهم...(62)

---

59) رواه الديلمي في مسند الفردوس، وهو حديث ضعيف.

60) رواه الحاكم وابن ماجه والبخاري في تاريخه.

61) ابن هشام : ص 142 إلى : 1477. ـ مقدمة ابن خلدون ص : 3/842.

62) مقدمة ابن خلدون ص : 3/842. ـ الطبري ص : 2/251. ـ البداية ص : 216 ـ 225، 2/245 ـ أخبار مكة ص : 1/282. ابن الأثير ص: 7 ـ 2/8 ـ ابن سعد، الطبقات ص : 1/85.

ومن الطريف أن بعض الكتاب خصصوا دراسة كاملة لإحصاء جميع ما تم العثور عليه في بئر زمزم مــن أدوات وقطع معدنية، وأواني، أثناء عملية التنظيف والتطهير، وسجل ذلك بالكلمــة والصورة، ومن الملفت أن العملات المعدنية التي تم العثور عليها كانت عملات من بلدان إسلامية مختلفة على مر العصور، وبعضها نــادر للغاية، ولا يوجد مثله فــي أي مكان آخر، كما تنوعت الأواني الفخـارية، وتعددت حسب العصــور والسنوات التي صنعت فيها...

* * *

ومن الآبار المقــدسة التي تحظى بإقبــال الزوار عليهــا، ورمي العملات المعدنية بقصــد التبرك، وفتح أبواب الآمال : «بئر السلطــان منصور شاه» التي أقامها اتباع الأميرة «هونج ليم» «بمالقــا» جنوب شرق آسيا بالملايو، وهي تمتــاز بمــاء غايــة في العــذوبــة والنقاء لايغيض أبــدا حتى في أيــام الجفاف الشــديد، فتــوجد أسطورة مشـهـورة تقول: إن من يشــرب من بئر السلطان لابــد أن يعود مرة أخرى إلى مــالقا..(63) وتحكى الأسطــورة بأن الأميرال «شينج هو» الذي شرب من ماء تلك البئر، قد عاد في أيامه الأخيرة أكثر من مرة إلى «مالقا» التي تعتبر مدينة الأساطير القديمة...

وحول البئــر، اليوم، يرى الكثير من الصينيين والــزوّار يقفون من وراء الأسـلاك، ويرمــون فيه العملات المعدنية علــى أمل أن تتحقق رغباتهم بعد أن تحول بئر السلطان إلى بئر أسطوري لتلبية الرغبات والأمنيات...(64)

وهناك خـرافة مــن أكثر الخــرافات المتعلقــة بالمــاء انتشارا، وأكثــرها تأصلا، مــازالت باقية في صورة : «بئــر الأماني»، ففي أيام الوثنيــة عندما

63) مالقــا : اسم لمدينتيــن.. تبعد كل منهما عــن الأخرى عشرات الآلاف مــن الأميال، إحداهمــا في جنوب شــرق آسيا، والثانيــة في جنوب شرق إسبانيــا.. «ومالقا» مينــاء هام في ماليــزيا على مضيق «مالقــا»، عاصمة دولة مــالقا، يقطنها 86 ألف نسمــة، ويفصلها عــن سومطــرا، مضيق «مالقا» وهي بين بحر الصين الشمالية، والمحيط الهندي يربطها بالقارة قناة «كرا»، وقد زرتها عام 69، صحبة الأستاذ المرحوم عبد الله كَنون.

64) انظر : استطلاعاً عن «مالقا» وصراع تحت الشمس، مجلة «العربي» ع : 317، أبريل عام : 1985.

كانت البئـر مملوكا لحورية أو لجنيـة، كانت الهدايا تقـذف في داخله، أو توضـع بالقـرب منه، وكان مقدم الهدية يصلي لجنيـة الماء من أجل قضاء خدمة أو مساعـدة في مقابل هديته.. ومع تناقض الإيمان بـالآلهة القديمة أصبحت الهـديـة منحـة رمـزية درهمـا أو فلسـا، وتحـولت الصــلاة إلى أمنية.(65)

تنظيف بئـر زمـزم :

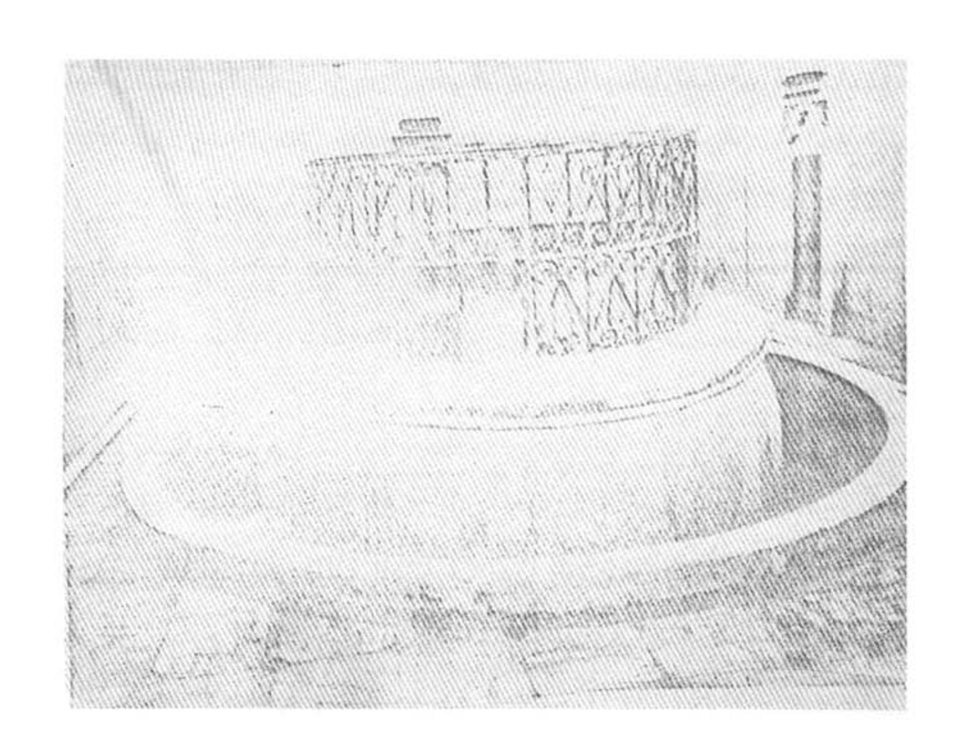
كانت البئر تنظف على مر العصــور لاستخراج مابها من أدواتٍ وأشياء وقعت فيها، وقد جـرت عملية التنظيف لهذا البئر في مطلــع القرن الهجري عقب احتلال الحرم المكي من قبل الطغمــة الظالمة الفاجرة البـاغية، كما أن عمليـة التنظيف الأخيـرة بـــدأت يـوم السبت 1399/5/17هــ عنـدما تمت الاستعانـة بغواصين من مينـاء جدة أحـدهما مصــري والآخر بـاكستاني؛ وبدأت بعملية قياس البئر التي بلغ عمقها عشرين مترا...

وقد تحدثوا بأن المفـاجأة الأولى في عملية التنظيف أن الغواصين مكثا في المرة الأولى نصف ســاعة، وخـرجا بعدهــا لأن البوصلــة التي معهما تــوقفت عن العمل، رغم أنها كـانت جديـدة وسليمة.. ولمــا تم استبدالهــا بأخرى توقفت الأخرى أيضـا... وتبين بعد ذلك أن سبب هذا التوقف وجود قطع حديـد وصفيح في قاع البئـر، وهذا أثر على إبـرة البوصلــة، وجعلها لاتلتزم مكانا واحدا، وأصبح من العسير تحديد منابع البئر.

* * *

---

65) الماء : معجزة الطبيعة، تأليف طومسون كينج. ترجمة : زكريا فهمي.



صورة قديمة لبئر زمزم

وقد كتب عن بئر زمزم الفاضل لبيب البتنوني كلمة في رحلته جاء فيها: «...ويدعي بعضهم أنه يشرب ماء زمزم اتقاء الجوع فيشبع، وأظن أن خَدَمَة العين يبالغون في فوائده يتجسم معها الوهم عند شاربيه، ومن ذلك يقع طعمه من أذواق الناس على شبه اعتقادهم فيه، فمنهم من يقول : إنه لايعادله شيء في لذته، ومنهم من يرى أنه أحلى من العسل، وألذُّ من اللبن، ويرى غيرهم خلاف ذلك كما ذهب إلى ذلك أبو العلاء المعري الذي قال بأن مياه الأنهار في البلدان عذبة، وماء زمزم في أقدس البلدان مالح حيث قال :

تباركت، أنهار البلاد سوائح بعذب، وخُصَّت بالملوحة زمزمُ

فقال «تبـاركت» لينفي قصد اللوم، ويقتصر على السـؤال والاستغراب، ولابن علان الصديقي في ماء زمزم.(66)

وزمـزم، قالـوا فيـه بعض ملوحـة
ومنـــه ميـــاه العيـن أحلى وأملح
فقلت لهم : قلبي يـــراهـا مـلاحـة
فـــلا بـرحت تحلـــو لقلبي وتملح

وهي كما قال الآخر :

كمـاء طـريق الحج في كل منـزل
يـذم، على ما كـان منه، ويشـرب

ويظهر أن ملوحة ماء زمزم كان سببهـا كما يقول جعفر الصادق : إنها كانت من أطيب المياه وأعذبها وألذها وأبردها، فبغت على المياه، فانبط الله فيها عينا من الصفـا فأفسدتها... وقال أحمد الهمـذاني كان ذرع زمزم من أعلاهـا إلى أسفلها ستين ذراعـا،، وفي قعرها ثـلاثون : عين حـذاء الركن الأسـود، وأخرى حـذاء كانـت تجم، وذلك في نحو سنـة : 224، لأن البئر أهملت، وهدم كثير من جوانبها، فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد بن بشيـر يعمل فيها ثم جـر فيهـا محمد بن الضحـاك تسعة أذرع، فـزاد ماؤها واتسع، ثم كثرت الأمطار والسيول عام 225هـ فكثر ماؤها...

ولما ولي المنصور الخلافة عمل فيها الرخام، وفرش به أرضها، وعليه قبة مبنية وسط الحرام تجاه باب الكعبة..

وذكر المـؤرخون أنـه في عام 822هـ، أجـري إصلاح كبيـر، بل عمارة جديدة في هذا البيت وأحواضه والظلـة التي فوقه للمؤذنين، وإن ذلك كان على نفقة الشيخ علي بن محمد بن عبد الكريم الجيلاني نزيل مكة..

---

66) له : «درر القلائد، فيما يتعلق بزمـزم وسقاية العباس من الفوائد» ص: 187/4، «خلاصة الآثر» للمحبي.

وقد عمل السلطـان الملك المظفر نخبـة آل عثمان لهذه البئـر خرزة من الرخـام مرتفعـة على الأرض نحو متـر ونصف، وبجـانبها حـوض يملأه الخـدم للواردين، فيمـلأون منـه الأسقيـة والمزاود، أمـا إذا قصـدها أحـد الخاصـة، فيملأ له من العين رأسا...

* * *

تحليل ماء زمزم :

فصل العلماء الكـلام عن تحليل ماء زمزم ومكـوناته، وقـد أورد محمد لبيب البتنوني في كتابه «الرحلة الحجارية» رأيا مفصلا عن زمزم والمعادن التي يحتويها.

وحقيقة مـاء زمزم أنه مـاء قلوي تكثـر فيه الصودا والكلـور، والجير، والحامض الكبريتـي، وحمض الأزوتيك، والبوتاسا ممـا يجعله أشبه شـيء بالمياه المعدنية الصحية في تأثيرها، ويفيد قليله، ولا تخلو الكثرة منه من الضرر، خصوصـا في غير موسم الحج، حيث تكون بئـرها مهجورة، لأن أهل مكة لايشربـون منها لملوحتها، وفي هـذه الحالة يزيـد فيها الحامض الأزوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب..

وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع منهـا بعد طواف القدوم لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينظفه من المواد التي تكـون قد انفرزت إليه مدة هذا السفـر الشاق ممـا يكون نتيجتـه رد فعل تنشط به الأعضـاء، وتصح الجسم، وقـد قـال الأطبـاء : أن هـذا المـاء نـافع لِلْكلَى والمعـدة. والكبـد، والأمعاء..

فهو ماء معالِج ونافع لما شرب له من الأدواء التي من طبيعته شفاؤها، ويفسره بذلك حديث : «إنها شفاء سقم».

وقد جــرب ابن القيم الجوزية وغيــره من الاستشفاء بماء زمــزم أموراً عجيبة، واستشفى به من عدة أمراض، فبرأ بإذن الله.(67)

ويقول القــزويني في عجائب المخلوقــات : «وماء زمــزم صالح لجميع الأمراض.. قالوا : لو جمع جميع من داواه الأطباء، لايكون شطرا ممن عافاه الله تعالى بشرب ماء زمزم...

وقد أورد مؤلف كتاب : ماء زمزم الأستاذ المهندس يحيى حمزة كوشك بحماسة وإيمان وغيرة الرد على مــا كتبه محمد لبيب البتنوني وغيره ممن يقول بعــدم صلاحية مــاء زمزم للشرب في كل المــواسم، ونقل عن العالم الكردي رده على كل هــذه الآراء وغيرهــا خاصة تلــك التي تقول إنْ بعض الأطباء حللوا الماء فوجدوا به جراثيم..!

وقد قام الدكتور رجا حسين أبو السمن(68) بإعداد بحث عن مياه بئر مياه زمزم، حيث إنه أخــذ عينات من بئر زمزم بالطريقــة الصحية وبعناية لكي تمثل البئر حقيقيا من أجل هذه الــدراسة، والبحث، وكانت كمية العينة المأخوذة 3 ليترات فــي الفترة من شــهر أبــريل 1986م وحتى شــهر يــوليو 1986م وذلك عينة مقدارها لتر واحد خلال عام 1977م، وآخر عينة تم أخذها في اليوم الثاني من شــهر دجنبر 1977م، أما عين زبيدة في عرفات، فكانت لترين، وبتاريخ 23/ 4/ 1976م.

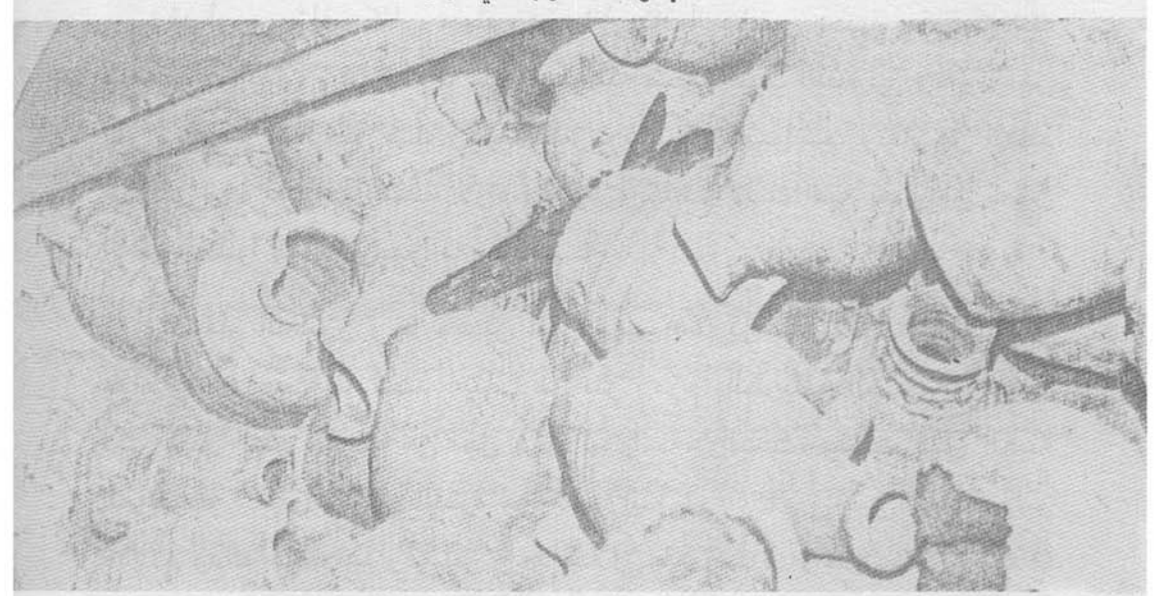
---

67) الطب النبوي ص : 307.

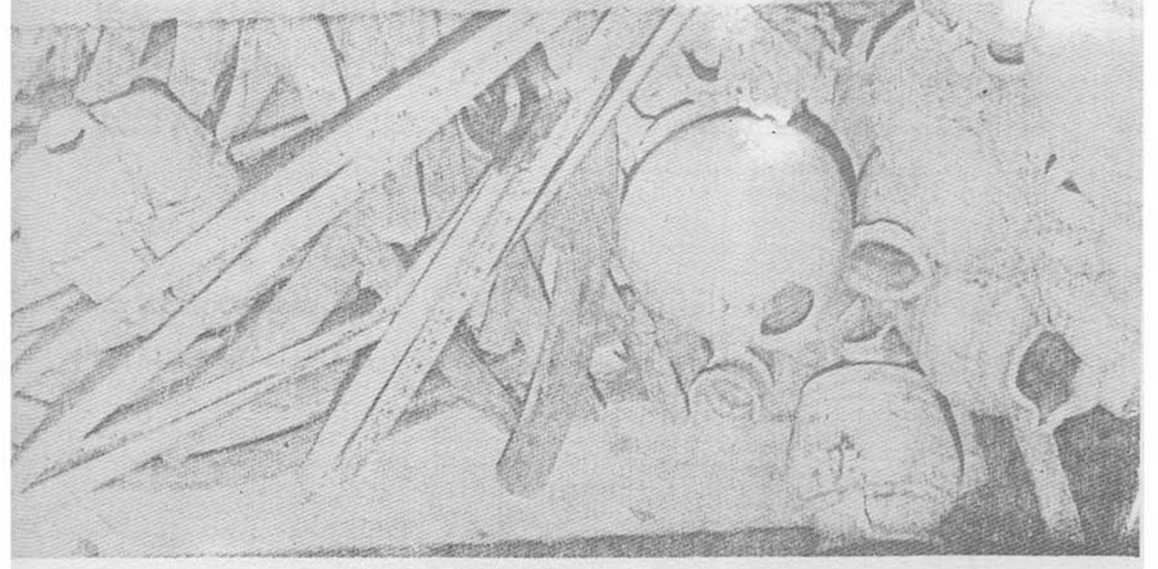
68) أستاذ الصناعــات الكيماوية، بقسم الهندسة الكيمائيــة بكلية هندسة البترول والتعــدين، بجامعة الفاتح بطرابلس ـ ليبيا.



مجموعة مما وجد في البئر



أواني فخارية مختلفة بعد وضعها بداخل الصندوق لحفظها



بعض الأواني الفخارية والأخشاب التي تم حفظها...

ونورد فيما يلي التحاليل التي وردت في هذا البحث :

الرقم الهيدروجيني	كمية الأملاح الذائبة جزء في المليون	الكلوريدات جزء في المليون	الكربونات جزء في المليون	الكبريتات جزء في المليون	الكالسيوم	المغنسيوم	الحديد	الكبريتيدات النترات
609	1620	234	365	190	موجود	موجود	آثار	غير موجودغير موجود

التحليل الكيماوي لآبار مكة المكرمة

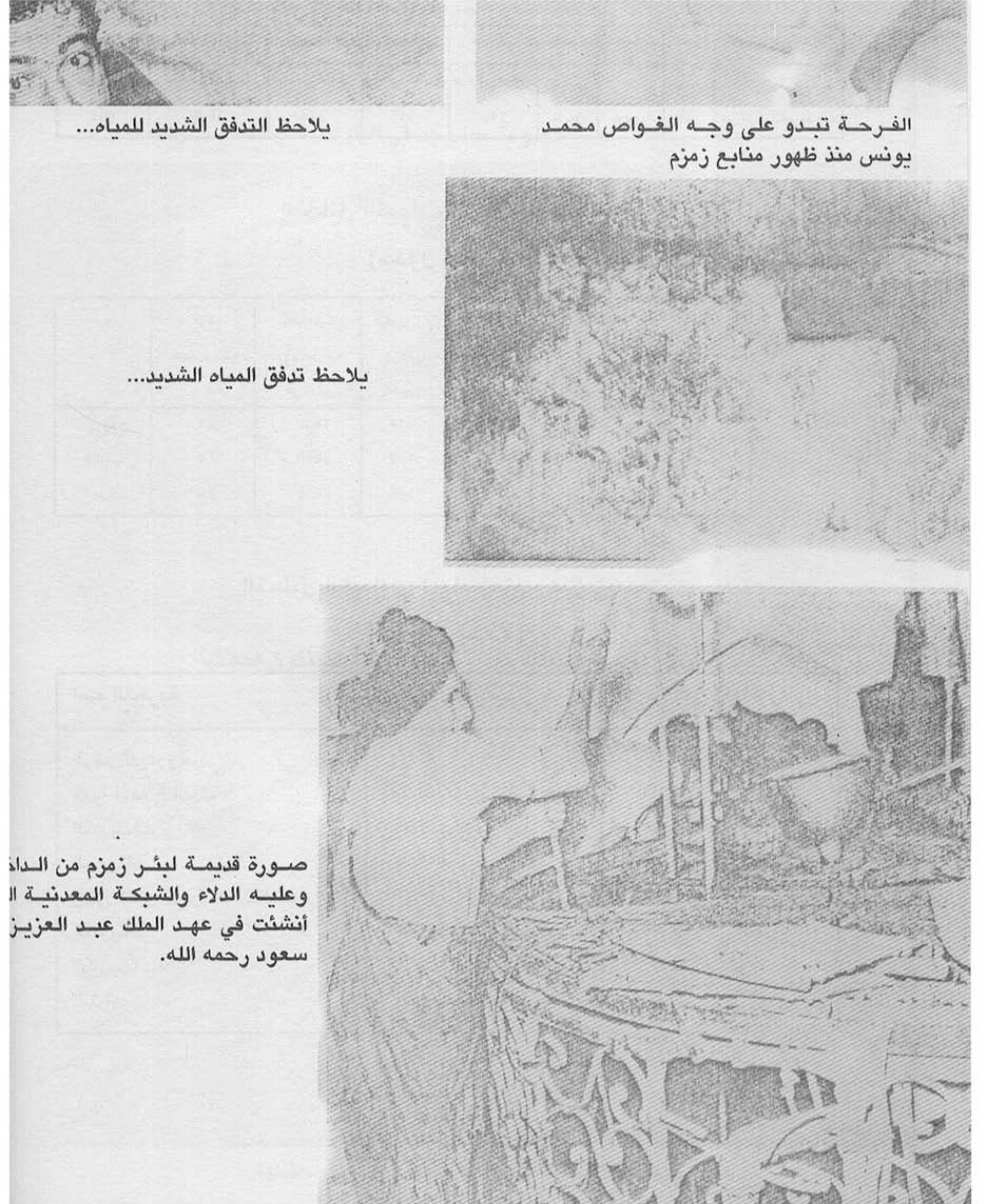
(جدول رقم 42)

البئر	الرقم الهيدروجيني	كمية الأملاح الذائبة جزء في المليون	الكلوريدات جزء في الميون	الكربونات جزء في المليون	الكبريتات الكبريتيدات النترات المليون
زمزم	6,9	1620	234	365	190 غير موجودغير موجود
الداودية	7,2	2000	190	450	300 غير موجو غير موجود
المسفلة	6,8	2050	140	500	350 غير موجود

التحليل الكيماوي لمياه زمزم وعين زبيدة

(جدول رقم 25)

اسم التجربة	بئر زمزم	عين زبيدة
الرقم الهيدروجيني	9.6	0.7
كمية الأملاح الذائبة	1620 جزء في المليون	500 جزء في المليون
الكبريتدات	234 جزء في المليون	80 جزء في المليون
الربيونات (على شكل كربونات الكالسيوم)	365 جزء في المليون	130 جزء في المليون
الكبريتات	190 جزء في المليون	96 جزء في المليون
الكبريتدات	غير موجودة	غير موجودة
النترات	غير موجودة	غير موجودة



الفرحة تبدو على وجه الغواص محمد يونس منذ ظهور منابع زمزم

يلاحظ التدفق الشديد للمياه...

يلاحظ تدفق المياه الشديد...

صورة قديمة لبئر زمزم من الداخ
وعليه الدلاء والشبكة المعدنية ال
أنشئت في عهد الملك عبد العزيز
سعود رحمه الله.

تحاليل مخبرية :

أكدت تحاليل مخبرية خلو مــاء زمزم من أي تلوث، فقد وضـع الدكتور يوسف عبـد المنان رئيس قسـم الكيمياء بكلية التـربية بمكة المكرمــة بحثا خاصا عن ماء زمزم، مستندا على التحاليـل المخبرية التي أجراها، وأكدبها خلــو ماء زمــزم من أي تلوث، وكـانت تلك التحاليل افتـراء أعداء الإســلام والمسلمين وتؤكد بلا شك نظافة ماء زمزم..

وقد نشرت جريدة «الشهــاب» البيروتيــة(69) مقالا في تحليل ماء زمزم من طـرف علماء قــاموا مــن المــغرب وباكـــستان، والســودان وســـوريا وتركـيا وأنــدونيسا بتحليل مــاء زمزم في معمل تابع للشــركة الفــرنسية بجدة في شهـــــر يـونيو 1972 موافق 20 ربيـــع الأول عـام 1392 فكانت النتيجــة :

1 – التحليل البكترولوجي.

2 – المحتويــات المعدنيــة.. وبه نسبة عــالية من البــوتاسيــوم، نسبة الصوديوم منخفضة، أمــلاح الكلوريدات منخفضة، كما توجـد به محتويات أخرى هائلة غير معروفة في المياه الأخرى.

ويقول الدكتور «لو باخ إيل استنــان» من ترجمة السيدة إصلاح سهيل في كتابه : «رحلاتي إلى المشرق». "My travels to the east". hou don 1969. p. 209

«إن مــاء زمزم يختلف عن جميع أنــواع الميــاه في العالم، نحن يمكننــا أن نحلله جـزئيا، أي معـرفة اليسير عنـه، ولكنا نعجـز عن تحليله كـاملا، إن معاملنا العالمية بلا شك متقدمة، ومتطورة جدا، ولكن يجب أن أعترف بأنه

69) ع : 6/س : 6 بتاريخ جمادى الأخيرة عام 1392/15 يوليوز عام 1972.

كما وأننــا لانستطيع تحليل كُنهِ الروح في الإنسان في معــاملنا، لانستطيع تحليل ماء زمزم فــي هذه المعامل، وكل من يحاول ذلك فهــو يهزأ ويسخر من نفسه، لأنه يـوجد بهذا الماء الآلاف من المـواد الأصلية التي تدخل في تركيبه، والتي هي غير معروفة لنا على الإطلاق...

فلماذا التكلم عن ماء زمـزم ؟

وأعترف أنــا شخصيا أنــه قد قدر لي أن استعملت الآتــي من مكة على بعض مـرضــاي ذوي الأمـراض المـزمنـــة، وكــان أن تمَّ لهم الشفــاء من أمراضهم. والتــي كانت تحتاج إلى إجــراء العمليات الجـراحية، وأنــه لرائع جـدا. ومشـرف لي أن أتعـرف على مثل هـذا المــاء الـذي يهب الحيـويـة والصحــة.

الفصل الرابع :

وقوف الآبار والعيون في المدينة المنورة...

لقد مَنَحت طبيعة يثـرب، وهي بركانية التربـة، أراضيَها خصبا زائدا... وهي ذات وِديـان كثيرة، تفيض بميـاه السيـول، فتروي أرضَـهـا، وتسقي النخل والزرع، اشتـهر منهـا «وادي العقيق» الذي كان منتزه المـدينة، وكان يتدفق بـالمياه، ويزهو بالبســاتين... وكانت الأرض صـالحــة لحفر الآبار... وقـد كَثُرتْ في البســاتين، ومنها مــا هــو مُسَوَّر، ويسميـه أهل المدينـة : «الحَائط».. واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته، وكانت لهم شراج،(1) وكانوا يحولون الماء بالمساحي إلى حدائقهم...

* * *

ويثرب، مثل مكـة من شعاب، تسكنها بطـون الأوس والخزرج : الأوسُ في شعاب، والخزرج في شعاب، واليهُود في شِعَاب، وفي الشعاب حَوائط، وبســاتين صغيـرة وفي الحــوائط آبـار يستقـون منهـا للشــرب وللسقي وللغسل.(2)

وقد احتفـر اليهود آبـاراً، كانـوا يبيعون المـاء منها بـالدِّلاء، مثـل «بئر أرُومة» وكـانت ليهودي، وقد أمـر الرسول بشرائهـا فاشتراهـا عثمان...(3)

1) الأشراج : مجاري الماء التي تهبط من الجبال، وتصُبُّ في الحِرار، وتشق بطون الأرض..
قال النابغة :

فمُجتمع الأشـــراج عـفَّ رُسُـــومُهـــا
مَصَـــايفُ مَـــرّتْ بعـدنـــا، ومـــرابع

ومنه قوله :

أنهلتُ مِن شـــــــرج، فَمَن يَعِـلِ
يـــا شــــرجُ لا فـــاء عليـك الظلُّ
في قعــرِ شـــرج حَجَـــرٌ يَصِل

2) الطبري : ص : 357 ـ اللسان : ص : 279/ 7.
3) المعارف : ص : 83.

ومن آبار المدينة : «بئـر ذروان» وهـي البئر التي ذكر أن لبيدا بن الأعصم اليهودي سَحَرَ بها الرسول.(4)

* * *

في المدينة المنورة آبــار وحدائــق وبساتيــن ...

ففي المدينــة آبار وحدائق وبساتيــن، وأهلها يشربون، اليـوم، من آبار كثيرة، منها بئر الأعـواف، وبئر القويم، وبئر العَبّاسيــة، وبئر صَفية، وبئر البدِيرة، وبئر فاطمة، وبئر عُرْوة؛ وكان أهل المدينة في الماضـي يهدون من ماء البئرين الأخيرتين للملوك وكبار المسلمين.

* * *

في الجهة الغربية من المدينة المنورة حيث الطريق إلى مكة، ترى أطلال قصر عتيق مترامي الأطراف، يبدو للناظر كمعلم ينتظر زائراً يحكي له قصة تاريخ غابر عاشه القصر..

والحقيقة أن هذه الأطلال ليست سوى شواهدَ قصرٍ عامِر، الذي يعرف لدى البعض باسم «قصر عُروة» بن الزبير، نسبة إلى البئر التي يطل عليها القصر، والذي يعود تاريخ بنائه للقرن الأول الهجري..

«فقصــر عروة» بن الـزبير يقع في الطـريق القـديم الموصل إلى مكـة المكرمة، ولعل أبرز مــايُمَيِّزُ القصر حاليا، بقاء كثير من معــالمه الواضـحة، بما في ذلك الأسوار المحيطة، والغُرف الملحقة به، بل كذلك المنصة الكبيرة التي كانت تعد للحفلات والولائم...

ومن المعالم التي اشتهر بها القصر(5) سابقا بئره التي تفوق شـهرتها شـهرة القصــر ذاته، وتقع هذه البئر في مـواجهة القصر وتشتـهِرُ بعـذوبة مائها الذي كان يهدى إلى الخليفة هرون الرشيد...

---

4) نزهة الجليس : ص : 61/1.

5) أوضح المهندس سعيد الرحيلي مدير إدارة التسمية والترقيم في الأمــانة العامة بالمدينة المنورة، أن القصر الآن يقع محمل اهتمام الأمانة العامة بالتنسيق مع الجهات المختصة.

و«بئر عروة» قال فيه الزبير بن بكار : «كان يخرج من مكة وغيرها، إذا مـر بالعقيق، تـزود من مـاء «بئـر عروة»، وكـانـوا يهدونـه إلى أهـاليهم، ويشربونه في منازلهم...».

قال الزبير : ورأيت أبي يأمر به، فيغلـى، ثم يجعله في القوارير ويهديه إلى الرشيد، وهو بالرقة..

قال السري بن عبد الرحمن الأنصاري :

ولهـــا مـــربع ببـــرقـــة خـــاخٍ[6]
ومَصِيف بـــالقصـــر، قصـــرِ قُبـــاء

كفِّنُــــــونِـي، إن مِتّ فـي درْع أرْوَى
واجعلــوا لي من «بئــر عـروة» مـــائي

سَخْنَــةٌ في الشتــاء، بــاردة الصيـــ
ــــف، ســراج فـي الليلــة الظلمـــاء

قال الأميـر شكيب أرسلان : «وقد قسم اللـه لي النزهة، أو القيِلَـة كما يقول أهل الحجاز، عند هذا البئر منـذ خمس عشرة سنة قبل الحرب العامة بقليل، ووجدت من خفة مـائها وحلاوته، مـاتذكرته هذه المـرة عند شربي من «بئر جِعِرَّانة» التي في ضواحي مكة...

وهذه البئـر موجودة بهـذا الاسم إلى هذا العهـد، وقد رأيت في بعض الكتب أنها نسبت إلى عروة ابن حزام، وقبره عندها.. وقال ياقوت : «بعقيق المدينة تنسب إلى عروة بن العوام.. قال علي بن الجهم :

هـــذا العقيف، فَعَـــدِّ أيـــدي
العيِس من غلـــــــوائهـــــا

---

6) خـاخ : روضة خـاخ بقرب حمـراء الأسد من المـدينـة، كانت من الأحمـاء التي حماهـا النبيﷺ والخلفاء الـراشدون، ويقـال إنها في حـدود العقيق بين «الشوطى» و«النـاصفة» وقـد أكثر من ذكرها الشعراء، وكانت فيها منازل لأئمة من آل البيت وغيرهم من أعيان المدينة، وانظر ما قيل عن «ماء الناصفة» صحيح الأخبار» ص : 104/ 3.

وإذا أطَفْتَ ببئـــرِ عـــــرو
ة، فَــــاسقِني مِـن مَـــائِهـــا
إنـــا وعيشك مـــاذَمَمْنَـــا
العيـشَ في أفنـــــائهـــــا

ومنذ عهد قـديم جدا(7) توجـد في المدينـة المنورة آبـار كثيرة تـركز الاهتمام على الاستقاء منها، وتغذية حاجات سكانها...

وفي «الوفا» للسيـد السَّمْهُودِي : أنه كان بـالمدينة، وما حـولها عيون كثيرة، تجـددت بعد النبي عليه السلام، وكـان لمعاوية اهتمام بهـذا الباب، ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة.

ونقل الواقدي(8) أنه كان بالمدينـة في زمن معاوية صوافي كثيرة، وأن معاويـة كان يحـرث بالمـدينة وأعْـراصها مـائة ألف وست وخمسين ألف وسق، ويحصد مائة ألف وسق حنطة.(9)

وفي فتح البـاري : أصناف التمـر في المدينـة كثيرة جـدا.. فقد ذكـر الشيخ أبو محمد الجـويني في الفُروق، أنه كان بالمدينـة، فبلغه أنهم عَدُّوا عند أميرهـا صنوف التمر الأسود خاصة، فـزاد على الستين، قال : والتمر الأحمر، أكثر من الأسود عندهم.(10)

***

شبح العطش كان يلاحق سكان شبه الجزيرة العربية :

ويظهر أن المياه في المـدينة المنورة كانت تتكـون من الآبار من مسيل الأودية التي تنحدر فروعها من الحِرار(11) والجبال..

7) عندمـا يتحدث الدارس عن حالـة شبه الجزيرة، فإنـه يعتمد على ما وصله من تـراث مكتوب عن أهلها الأقدميـن... وهذا التراث المكتوب لا يزيـد عمره عن 1600 عام، على أكبـر تقديـر، أي منذ العصر الجاهلي الذي سبق الإسلام وإلى العصر الحاضر.

8) كتاب الحرة، ج : 2/ص : 152.

9) «التراتيب الإدارية» ج : 21/50.

10) الحكومة النبوية للشيخ عبد الحي الكتاني، ج : 2/ص : 35.

11) تقع المدينـة المنورة بين حـرتين شـهيرتين، غربيـة تدعى «الوبـرة»، وشرقيـة، وتدعى «واقم»، ويعود الاسم الأخير إلى حصن كان قائما في المنطقة أيام الرسول عليه السلام.

والسيول تختلف، قوة وضعفا، باختــلاف الأزمنة، ولهذا نَضَبَ كثيرٌ من الآبار القديمــة، أو قل ماؤها، وكان من أقــوى الأسباب في ذلك في العهود الأخيرة حفر الآبــار العميقة، وتركيب مضخات آليــه تمتص المياه، فتنحدر إلى أجواف الأرض، وهذا ماسبب الجهل لكثير من الآبار القديمة..(12)

إن شبح العطش كــان دائمــا يلاحق سكــان شبــه الجــزيرة العــربيــة، ويطاردهم حتى في الأحوال العادية،(13) لذلك فإن سقي الماء والتصدق به أصبح من أهم الأعمال الخيرية المطلوبة التي يقوم بها الأهالي فيما بينهم.. وفي سجلات الأوقاف كثير من الصكوك التي يوقف بها أصحابها عقارات وأموالا على مشاريــع تقديم المياه للمصلين في المساجد، أو العــابرين في الطرقــات، ويحظى مسجد الرســول الأعظم عليه الســلام، والمسجد المكي الشريف بأكثر هذه الوقوف.

* * *

وقد وصــف المدينــة المنورة في حــرارتها، وَحَمَارَّةِ قَيْظِهَــا أبو ســالم العياشي في رحلته التاريخية الرائعة، حينما زارها في القرن الحادي عشر،

---

12) أنظر : «المغانم ا لمطابــة، في معالم طابة» لمجد الدين الفيروز آبــادي، تحقيق : حمد الجاسر.ـ وطابة: موضع في أرض طيء [ياقوت : ج : 3/ج:6] قال زيد الخيل :

سقى اللـــه مـا بيـن القفيل، فطـابــةٍ

فمــا دون إرمــام، فمــا فــوق مُنشِـدِ

قال بَلْبيهُد : «تحمل هذا الإسم من العهد الجــاهلي حتى هذا العهد، وهي من قرى ا لجبلين أجَا وَسَلْمَى، وهي معروفة عند جميع أهل نجد [صحيح الأخبار. ج : 3/131].

13) أثبتت دراسة لوزارة الكهــرباء والماء في دولة الإمــارات العربية المتحدة أن غالــون الماء العذب، الصالح للشرب، يكلف خزينة الدولة 4 دراهم، بينما لا تتعدى تكلفة غــالون البنزين سوى 7.3 دراهم فقط... وجاء في هذه الدراسة أن توصيل المياه لعشرين منزلا يكلف مجموعة 510 ألف درهم... أما تمديد شبكــة ماء حديثة، فتكلف 200 ألف درهم، بينما يكلف حفــر بئر ناجح 200 درهم، على حين تصل تكلفــة بنــاء الخــزان إلى 80 ألف درهم. وأوضحت الــدراسة أنــه نظرا للأهميــة القصوى التي تتمتــع بها ميــاه الشرب في الإمــارات، فقد وضعتها الــدولة علــى قمة أهدافها الاستراتيجية وقد قامت الوزارة بتكليف أحد المكاتب الاستثمارية المتخصصة في إجراء دراسة فنية اقتصاديــة، ووضع إطار عام لخطة رئسية لأمراء دولة الإمــارات بمياه الشرب لمدة ثلاثين عاما مقبلة...

وصفاً دقيقا، يقرب إلى الوصف الذي كتبهُ عنها أمير البيان شكيب أرسلان، حيث أقام فيها شهورا، وكتب في وصف حرارتها ما ياتي: «وكنا مدة نزولنا بمحل إقامتنا في أرغد عيش، وألذه، لايزاحمنا فيه غيرنا، لولا بُعْدٌ من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر، في أيام الحر تكاد الرمضاء تحْرِقنا، إنما نتقي ببقايا الظلال، ومبادىء الفَيْء تحت الجُدران، ومع ذلك يلفحنا الحر لفحا، فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة، ولا كنا نحتسب في ذلك خطانا..».

وقد وصف أبو خالد البلوي في رحلته العامرة : «تاج المفرق» أيضا حَرَّ المدينة بقوله : «وَهَجِيرُ تلك الأودية يلفح، وزفيرها لايكف ولا يصفح..»

قال المبرد : رأيت أحمد بن المعذل بعرفات مُضْحِياً للشمس لايستظل فقلت «ما هذا يا أبا الفضل ؟».

فقال :

ضحيت لكيما أستظل بظله
إذا الظِلُّ أضحى في القيامة قَالِصَا
فيا أسفا إن كان أجرك حابطا
ويا حزنا إن كان حجُّك ناقصا

وحكى الدينوري قال : «كان أحمد بن المعذل إذا حج لايستظل، فلقيه بعض أصحابه بين مكة والمدينة، وهو في يوم صائف شديد الحر، ليس له مظلة، وقد أحرقته الشمس، فقال له : لو سترت نفسك من الحر..

فأنشأ يقول :

ضحيت له كي استظل بظله
إذا الظل أضحى في القيامة قالصا

وعـــادت نفـــوس النـــاس عنـــد حلـــوقهم
يـــريقـــون ريقـــا غـــائر المـــاء شـــاخصـــا
ومـــا كنت تـــرجـــو أن ينـــالك حـــرهـــا
وقـــد كنـت من حـــر الظهيـــرة حـــائصـــا
لعمـــري لقـــد ضـــاعـت أمـــور لأهلهـــا
ليغتبطن بـــالسبـق من كـــان خـــالصـــا(14)

* * *

آبار المدينة المنورة ..

تحدث الشيخ علي نـور الدين السمهودي،(15) عالم المدينـة، عن الآبار المباركـة، والعين التي هي للنبي منســوبات إليــه بتفصيل كبير، فذكـر من الآبار، بئر أرِيس، وبئر الأعْوَاف، أحد الصدقات النبوية، «وبئر أُنَا» كَهُنَا،(16) «وبئر أنَس» بن مالك بن النضر، وبئـر إهَاب.. قال المصري : لم يزل أهل المدينة، قـديما وحديثا، يتبـركون بهـا، وينقل إلى الآفـاق مـن مائها، كما ينقل من زمـــزم، يسمونهـا، أيضـا : «زعـزم» لبـركتهـا، وهـي قريبـة من

---

14) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ص : 8 ـ 9/4.

15) في كتـابه : «خـلاصة الـوفا، بأخبـار المصطفى» لنور الـدين علي بن أحمد السمهـودي (تـ : 911هـ) [كشف الظنـون، ص : 2/2016]. وهو شـافعي، من سمهود، بلـدة غربي نيـل مصر، حسني، نزيل ا لمـدينة المنورة، مفتي بها، ولـد عام 844 ـ وتـ : 911هـ، لـه من التصانيف : «خلاصة الوفا، بأخبار المصطفى» في تاريخ المدينة المنورة مطبوع بمصر، وله أيضا : «ذروة الوفـا، بأخبار المصطفى» و «الـوفا، بأخبـار دار المصطفى» في تاريخه الكبيـر، و «وبالـوفا، متخصر ذلك [هدية العارفين ص : 5/740، ـ وللشيخ إبراهيم بن أبي الحـرم المدني قوله في تاريخ المدينة للسمهودي:

مـن رام يستقصي معـــــــالم طيبـــــــة
ويشـــاهـــد المعـــدوم بـــالمـــوجـــود
فعليـــه بـــاستقصـــاء تـــاريـخ الـــوفـــا
تـأليـف عـــــــالـم طيبـــــــة السمهـــــــودي

[خلاصة الأثر، للمحبي، ص :43/1].

16) هذه البئر هي التي ضرب رسول الله عليه السلام قبته عندها حينما حاصر بني قريظة، وشرب منها، وهذه البئر غيـر معروفة الآن، وربما كانت في المدينة باسم آخـر، غير هذا الاسم [مرآة الحرمين : ص : 428/1].

السقيا، على يميـن الطريق، حتى زعم بعضهم، أنهـا بئر السقيـا وهي بئر مليحة في حـديقة نخل حولهـا بركـة وبناء، وسميت «زمزم» تشبيهـا لها «ببئر زمزم» في التبرك بها، ونقل مائها للآفاق»

قـال المقري في النفـح : ثم قصدنـا بعـد قضاء تلـك الأوطار، لطيبَـةَ الشريفة التي لهـا الفضل على الأقطار، واستشعرت قولَ مَـن أنشد، وَطَيْرُ عزمه عن أوكاره قد طار :

حمِـــــدتُ مَـــــرَادي، إذا بلغتُ مُــــــرَادِي
بأمِّ القُــــرى مستمسكـــــا بعمــــادي
ومُـــــذْ رَوِيـتْ من مــــاء زمــــزم غُلَّتي
فلسـت بمحتــــاج لمــــــاء ثمــــاد(17)

وقـد زارها أبـو سالم العيـاشي، وقال بأنهـا كانت إذذاك ملكـا لبعض أصحابنا المغـاربة المجاورين؛(18) وبئر «البُصَّــة» وبئر بُضَــاعة»، و«بئـر جَاسُـوم» أي بئر أبي الهيتم بن التِّيهـان، و«بئر جَمَل»، سميت بجمـل مات فيها، أو برجل اسمُه جَمَل حفرها، و«بئر حاء»، و«بئر حلوة»، و«بئر ذرع» و«بئـر رُومــة»، و«بئر السُّقيـا» و«بئـر العَقَبـة» و«بئر أبي عنبـة»، و«بئـر العِهن»،(19) و«بئـر الغِـرس»، و«بئر القُـرَاضــة» و«بئـر القريضــة» و«بئـر اليسيرة».

---

17) نفح الطيب، ج : 1/41.

18) «ماء الموائد» للعياشي، ص : 270/1. ـ وذكر العلامة الشيخ أحمد بن عبد الحميد بن هرون بن كرام الله العباسي السندي في كتابه : «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» أن زمزم بئر بالمدينة على يمين السالك إلى بئر على ا لمحـرم بعيدة عن الجادة قليلا في سند الحـرة... وحوط عليها ببناء مجصص، وكـان على شفيرها حوض من حجـارة تكسر، ولم يزل أهل المدينـة يشربون منها، وينقل مـاؤها، كمـا ينقل من زمزم مكـة، ولا يعرف فيها أثـر... قال : ولعلهـا البئر التي احتفرتها فاطمـة بنت الحسين بن علي زوج الحسن بن الحسن بن علي، حين أخرجت من بيت جدتها فـاطمة الكبرى، وأمرت بحفـر بئر فيها، فطلع لهم جبل، فذكـروه لها، فتوضأت وصلت، ودعت، ورشت موضـع البئر بفضل مائها، وأمرتهم، فحفروا، فبلغوا الماء بسرعة.. ص : 290.

19) كانت قريبا لأولاد السيد علي بن حسن الشدقمي الحسيني المدني [عمدة الأخبار، ص : 229].

فتكون هذه الأبار الموقوفة المأثورة تسع عشر بئرا، فحصرها في سبع مردود، ولكن الـذي اشتهر، معرفـة، من ذلك سبع، ولذا قـال في الإحياء، وهي سبعة آبـار.. قال الحـافظ العراقي في تخـريج أحاديثهـا، وهـي «بئر أريس»، و«بئر حاء»، و«بئـر رومة»، و«بئر غَرْس»، و«بئر بضـاعة»، و«بئر البصـة» و«بئـر السقيا» أو «بئـر العهن»، أو بئر الجمل،(20) فجعل السابعة مترددة بين الآبار فيهـا، إنما هو باسمها الآخـر.. والمشهور اليوم عن أهل المدينة أن السابعة هي العهن، ولذا قال أبو اليمن الزين المراغي فيما أنشد فيه عنه أخوه الشيخ العلامة :

إذا رمـت آبــــــار النبـي بطيبـــــــة
فعـــــدتهـــا : سبع، مَقَـــالاً بـــــلا وهن

أريس. وغُـــــرس. رُومــــة، وبُضَــــاعـــة
كـــذا، بُصــــةً قل : «بيـــر حـــاء» بـــلا وهن

* * *

وفي المدينة آبار أخرى، مثل «بئر القويم»، وهي من أكبر آبار المدينة، وبئر العباسيـة، وبئر الصفية، وبئر البـويرة، وبئر فاطمـة، وكل هذه الآبار جنوبي المدينة المنورة...

هذه الآبـار ورد أن النبي ﷺ تَفَلَ فيها، أو شـرب، أو تـوضأ، فاكتسبت بذلك فضلاً، فصارت مقصودة بالزيارة، والاستشفاء بمائها...(21)

وناهيك «ببئـر عروة» بوادي العقيق الـذي كان أهل المدينـة فيما سلف يهدون من مياهها لأمراء الشام.

فهذا عُروة بن الزبير بن العوام ابن أسماء بنت أبى بكر الصديق، وأخُو عبد الله بن الـزبير حاكم الحجاز والعـراق.. وتلميذ عائشة خـالته، وحامل

(20) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» أحمد بن عبد الحميد العباسي، ص: 226.
(21) الرحلة العياشية، ص : 264/1.

فقه الصحابة، وقارئ القرآن، وراوي الحديث، ومرشد الناس بالمدينة، وصاحب الصِّيت المدَوِّي بمكة والعراق ومصر والشام كانت مكارمه جهيرة.. ومنها وقفه وبناؤه للبئر الشهيرة «ببئر عروة»، وجعلها موردا عذبا للظامئين، باذلا في ذلك ما تطلبه العمل من فضة وذهب ليجد المسلمون الظمأى ما ينقع غليلهم، ويبل عطشهم حين تغيض الينابيع، وتَشِحُّ السماء، وتمتسك السقيا، ويتوقف الحيا؛ إذا أضيفت إلى مكرمة البستان الذي كان يملكه بالمدينة حيث تَفِدُ إليه التجار حينما يثمر في إبانه، فيفتح أبوابه الواسعة لمن شاء الدخول كي يجني من الخير ما يريد، دون أن يشعر بخجل واتضاع.. فإن عروة بن الزبير حري أن يذكر مع كبار الأجواد من أمثال كعب بن مامة، وحاتم، ممن ضربت بآثارهم الأمثال...

وقد اشتهرت بئر عروة(22) بالمدينة كما اشتهرت «عين زبيدة» بمكة، وتقاطر الناهلون على مائها العذب صيفا وشتاء حتى كان من أمنيات بعض الشعراء المغتربين من المدينة نهلةٌ من بئر عروة إذ هي كما يقول :

سخنة في الشتاء، باردة في
الصيف، تشفي حرارة الظمآن(23)

قال ياقوت(24) بعقيق المدينة تنسب إلى عروة بن الزبير بن العوام (ض).

وهي موجودة بهذا الاسم إلى هذا العهد.(25)

وذكر أن إبراهيم بن المهدي حج مع أخيه الرشيد، وورد «بئر عُروة» وقد فاته الركب، وعليها عبد يستقى، فقال للعبد : «املأ قربة ماء، فأبى

---

22) قال الزبير بن بكار : ورأيت أبي يأمر به، فيغلى، ويجعله في القوارير، ويهديه إلى الرشيد، وهو بالرقة... ولا تزال هذه البئر تعرف حتى اليوم بهذا الإسم المشهور،وكذا يتزود من مائها العذب الفُرات القادمون والمسافرون، ويقال بأن له فائدة طبية في إدرار البول.

23) أنظر ياقوت، ص : 2/5. ـ والرحلة العياشية، ص : 271/1.

24) ج : 2 ـ ص : 5.

25) صحيح الأخبار» ج : 3/ص : 75.

عليه، وأخذ الدلوَ منه، فتغنى، وهو يجذب الدلو، ويقول «كفنوني..»(26) فأعجب العبد بغنائه، وأخذ الدلو منه، فقال : غن لي، وأنا أستقي، فلما ملأ قربته، قال : إن أحببت أن ألحقك الحاج، فتغنى لي حتى ألحقهم، فقلت له : نعم، فركبت، وأنا أغني، وهو معي على أقدامه، حتى لحقنا الحاج..(27)

وفي هذه البئر يقول عروة :

وبكراتٍ ليس فيهن قَلَلْ
بكل مجدول مُمَرٍّ قد فُتِلْ
يغرُفْنَ من جَمَّاتِ بحرٍ ذي مَقَلْ
حَفِيرة الشيخ الذي كان اعْتَمَلْ
يرجو ثوابَ الله فيما قد فَعَلْ
إن الكريمَ للمعالي مُعْتَمِلْ
ولا ينال المجدَ رخوٌ مُشْتَمِلْ
يَرْضَى بأدنى سَعْيِهِ وَيَعْتَزِلْ
إني على بنيان مجدٍ لن يَضِلْ
بنيان آبائي، وأبني ما فَضَلْ

وقرب هذه البئر، بنى عروة قصره المشهور، قال ياقوت : هو بالعقيق منسوب إلى عروة ابن الزبير بن العوَّام ابن خويلد... روى عروة ابن الزبير، أن رسول الله ﷺ قال : «يكون في أمتي خسف وقذف» وذلك عند ظهور عمل قوم لوط فيهم» قال عروة : فبلغني أنه قد ظهر ذلك، فتنحيت

26) قال عمر بن أبي ربيعة :

كفناني إن مُت في درع أروى
وامتِحَالِي من بئر عروة مائي

27) صحيح الأخبار، لابن بَلِيهِد النجدي، ص 75/3.
أنظر ياقوت، ص : 106/7.

عن المدينة، وخشيت أن يقع، وأنَابِهَا، فنزلت العقيق وبنى به قصرَه المشهور عند بئره.. وقال لما فرغ منه :

بنيناه، فأحسَنَّا بِناه
بحمد الله، في وسط العقيق
تراهم ينظرون إليه شَزْراً
يلوح لهم، على وَضح الطريق
يراه كل مختلفٍ وسارٍ
ومعتمدٍ إلى البيت العتيق
فساء الكاشحين، وكان غيظا
لأعدائي، وسُرَّ به صديقي

وأقام عبد الله بن عروة بالعقيق في قصر أبيه، فقيل : لِمَ تركت المدينة؟ فقال : لأنّي كنتُ بين رجلين : حاسدٍ على نعمة، وشامتٍ بنكبة،! وقال عامر بن صالح في قصر عروة وبئره :

حبَّذا القصر ذو الطهارة والبئـ
ـرُ ببطن العقيق ذات الشِّبَاتِ
ماءُ مُزنٍ لم يبغ عروة فيها
غير تقوى الإلاه في المقطعات
بمكان من العَقيق أنيس
بارد الظل، طيب الغدوات

وقصر عروة معروف عند أهل المدينة، وآثاره باقية، إلى هذا العهد، وهو في وادي العقيق على سفحه الشمالي، ويحمل هذا الاسم إلى هذا العهد.(28)

* * *

---

28) «صحيح الأخبار، عما في بلاد العرب من الآثار» ص : 108/ 3.

إن من أشهر أودية المدينة على الإطلاق وادي العقيق، الذي قال عنه الرسول عليه السلام : «أتاني آتٍ من ربي عز وجل، فقال : صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجة».

وقد أطلق على الوادي اسمه الحالي مِلك تُبَّع أثناء زيارته له للمدينة، وإن كانت هناك رواية أخرى تُرجع أصل التسمية إلى عقوق الوادي في حرة المدينة حيث يقسمها من الوسط، ويمتلئ وادي العقيق بالعديد من القصور، مثل قصر المراجل، وبعض القصور الأخرى...

وتشير بعض المراجع إلى أن الوادي سَكَنَهُ أيامَ عمرو بن العاص قرابةُ أربعين ألف نسمة.

وينتهي الوادي بمكان يقال له الجرف : وقد أطلق عليه هذا الاسم »ملك تُبّع» أيضا، وفي الجرف عَسْكَر جيش أسامة بن زيد الذي أخرجه الرسول عليه السلام قبل وفاته...

ويطل على الوادي بعض الجبال الشهيرة في المدينة مثل جبال : «الجمَّارات» وبعض الجبال والتلال الأخرى.

* * *

آبار موقوفة في المدينة :

هذه معلومات مختصرة عن بعض هذه الآبار الموقوفة والمسبّلة والتي كانت خاصة بالواردين وأبناء السبيل على المدينة المنورة.

بئر أريس :(29)

وتسمى بئر الخاتم، وبئر التفلة، وهي داخل حديقة غربي مسجد قباء وماؤها غزير، ويقولون إن النبي عليه السلام تفل فيها، فَعَذبَ ماؤها بعد أن كان أجاجا، وقد ذكر الغزالي هذا في إحيائه؛ وقال العراقي مخرج

29) كجليس، نسبة إلى رجل من اليهود، إسمه : أريس، وهو الفلاح بلغة أهل الشام [عمدة الأخبار، ص : 26 ـ 27 ـ 228.

أحاديثه إنه لم يقف على أصل حديث تفله عليه السلام في بئر أريس، قال السيد السمهودي : ومن الغريب قول الغـزالي جماعة في منسكه: قد صح أن النبي عليه السلام تفل فيها.. وقد جعل لمائها نفقاً من أسفلها على وجه الماء، حتى يتصل مـاؤها بالبئر التـي يقال لها «العين الزرقـاء» ومن هذه ألعين كل الـوقوف المائيـة والتسبيلات المـوقوفـة بالمـدينة، ومنهـا تملأ الدوارق التي توضـع في الحرم الشريف للشرب وهـي لا تكاد تحصـى كثرة، قال أبو سالم العياشـي:(30) «ما أعظم بركتها، وَأوْسَعَ نفعَها، ولقد شاهدتُ من يستشفى بمائها، فيشفى، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء..

وقد جـدد أبو بكر بن أحمـد السلامي درجـا لهذه البئر ينـزل منه إلى قاعها من يريد الشرب أو الوضوء، وذلك في سنة 714هـ(31).

ويسقى منهـا البستـان المسمى «بستـان النبي» عليـه السـلام، وقف المرحوم محمد باشا العثماني الصدر الأعظم..

بئر غُرس :(32)

هي بئر بقبـاء في شرقي مسجدها على نصف ميل من جهـة الشمال، وقد ورد أن رباحـا غلاما للنبي ﷺ كان يستقي من بئـر غُرس مرة، ومن بئر السقيا مرة، ولابن حبان في الثقـة عن أنس أنه قال : «إيتوني بماء من بئر غرس، فإني رأيت رسول الله ﷺ يشـرب منها، ويتوضـأ» ولابن ماجه بسند جيـد عن علي قال : قـال رسول اللـه ﷺ : «إذا أنا مِتّ، فـاغسلوني بسبع قِرب من بئر غُرس وكانت بقبا، وكان يشرب منـها..

وكـانت البئر لسعـد بن خيتمة، وروي أنـه عليه السـلام توضـأ منهـا، وأهرق بقية وضوئه فيها.. وروي، أيضا، أنه قال : رأيت الليلة أنى أصبحت

30) الرحلة العياشية، ص : 165/ 1.

31).مرآة الحرمين، ج : 1/ص : 298.

32) غرس : بضم فسكون، وقال المجد : بفتح فسكون، وضبطه بعضهم بالتحريك...

على «بئر» من الجنـة، فأصبح على بئر غـرس، فتوضأ منها، وبـزق فيها، وأهدي له عسل فصبه فيها».

وقد جعل لها درج ينـزل إليها منها، وحولها حديقـة، وبجانبها مسجد، وقد زارها، أيضا، مرة أبو سالم العياشي(33)

بئر بضاعة :

هذه البئر توجـد في حديقة كبيرة ذات نخل. أقرب أبـواب المدينة إليها، باب الشامي عن يمين الخارج منه قليلا، وحولها مسجد وبركة ماء.

وعن أبى سعيـد الخدري رضـي اللـه عنه، قيل لـرسـول اللـه ﷺ، «إنه يستقى لك من بئر بضاعة، وهي يطرح فيها مايكره من النتّن. فقال : «الماء لاينجسه شيء إلا ما غلب على طعمه وريحه ولونه.

قالت أسماء بنت أبى بكـر : كنا نغسل المرضى من بئر بضاعـة ثلاثة أيام، فَيُعَافون...(34)

وبئر بُضاعة واقعة معروفة في شرقي المدينة باقية إلى اليوم..

ومن قـال إن بئر بضـاعـة جاريـة، فقد أخطأ، فـإنه لم يكن على عهـد رسول الله ﷺ بالمدينة عين جارية، بـل الزرقاء وعيون حمزة، حدثتا بعد موته..(35)

وبئر بضاعة، باتفاق العلماء، وأهل العلم بها، هي بئر ليست جارية، وما يذكر عن الواقدي من أنها جارية، أمر باطل، فإن الواقدي لايحتج به باتفاق أهل العلم، ولا ريب أنه لم يكن بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ ماء جار.. وعيون حمزة وعين الزرقاء محدثة بعد النبي عليه السلام.(36)

---

33) الرحلة العياشية، ص : 1/269، عمدة الأخبار، ص : 230.

34) قال أبو سالم العيـاشي في رحلته : «وقد كنت أيام مرضي بالمـدينة أبعث إلى مائها، فأغتسل به، فأجد الراحة. ـ ص : 1/168 ص : 232.

35) فتاوي أبي تيمية، ص : 37 ـ 21/38.

36) المصدر السابق، ص : 21/41.

وقد ثبت عن أبى سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قيل له : يارسول الله : «إنك تتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب، والنتن، فقال : «الماء طهور، لاينجسه شي» قال الإمام أحمد: حديث بئر بضاعة صحيح، ولم يكن بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ إلا الآبار، منها يتوضأون، ويغتسلون، ويشربون، مثل بئر «أريس» التي بقباء، أو البئر التي «ببير حاء» (حديقة طلحة) والبئر التي اشتراها عثمان، وحبّسها على المسلمين، وغير هذه الآبار.

وكان سقيهم للنخل والزرع من الآبار بالنواضح والسواني ونحو ذلك أو بماء السماء، وما ياتي من السيول، فأما عين جارية فلم تكن لهم(37)...

بئر البُصة(38) :

هذه البئر قريبة من البقيع على طريق «قُبا» في حديقة نخلٍ على طرف بطحان، وماؤها أخضر... واتخذ لهذه البئر درج ينزل بها إليها...

وقد روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأتي الشهداء وأبناءهم، ويتعاهد عِيَالَهم، فقال : فجاءني يوما، فقال: «هل عندك من سدر، أغسل به رأسي، فإني اليوم الجمعة»، قلت : نعم، فأخرجت له سِدْراً، وخرجت معه إلى البُصة، فغسل رسول الله ﷺ رأسَه، وصبّ غَسَالَة رأسه، ومراقة شعره في البصة.

قال أبو سالم العياشي في رحلته(39) : وقد شربنا من مائها مِرَاراً، وتوضأنا واغتسلنا...

---

37) المصدر السابق، ص : 60 ـ 21/61.

38) البصة : بضم الموحدة، وتخفيف الصاد المهملة، كما هو ا لدائر على السنة أهل البلد... وفي القاموس : إنه بالتشديد... كأنه من بص الماء بصا : رشح، وقد أوقفها شيخ الخدم بالحضرة الشريفة النبوية ريحان البدي الشهابي قبل وفاته بعامين أو ثلاثة في سنة 697هـ [عمدة الأخبار، ص : 231].

39) الرحلة العياشية، ص : 1/267.

بئر حاء(40) :

كان رسول اللهﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، وهي شمالي المدينة يعد سورها شرقي بئر بضاعة ولكن يفصل بينها بئر بضيعة...

قال المطري : تعرف هذه البئر، الآن، بالنويرة، اشتراها بعض النساء النويريين، أي خطباء مكة.

وكان رسول اللهﷺ يستعذب ماءها، وكانت في بستان لأبي طلحة، وقفه على أقاربه وبني عمه كما دل على ذلك حديث البخاري في كتاب الأشربة في باب : «استعذاب الماء»، روي عن أنس بن مالك أنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحبّ ماله إليه «بئر حاء»، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللهﷺ يدخلها فيشرب ماءً فيها طيبا، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**،(41) قام أبو طلحة إلى رسول اللهﷺ : وقال : «يا رسول الله، إن الله يقول : **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** وإنَّ أحبّ أموالي إليّ «بئر حاء»، وإنها صدقة لله أرجو بِرّها وذُخْرَهَا عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله»، فقال رسول اللهﷺ : بَخٍ... ذلك مال رابح، أو رايح، ـ شكٌّ من الراوي ـ قد قبلناه منك، ورددناه عليك، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة : «إفعل يا رسول

40) بفتح الموحدة وكسرها، وفتح الراء وضمها، وبالمد فيهما، وبفتحهما وقيصر فيعلى من البراح، وهي الأرض المنكشفة، وقيل : بئر أضيف إلى «حاء» من حروف الهجاء، وهو اسم رجل أو امرأة أو مكان...

41) سورة آل عمران، رقم الآية : 92، قال أبو طلحة : إن ربنا ليسأ لنا عن أموالنا، فأشهدك يا رسول الله أني جعلت أرضي لله... فقال رسول اللهﷺ : «إجعلها في قرابتك، في حسان بن ثابت، وأبي بن كعب... وكذا فعل زيد بن حارثة عمد مما يحب إلى فرس، يقال له «سَبَل» وقال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه، فجاء بها إلى النبيﷺ فقال : هذه في سبيل الله... فقال لأسامة بن زيد : «إقبضه فكأنّ زيدا وجد من ذلك في نفسه، فقال رسول اللهﷺ : «إن الله قد قبلها منك، ذكره أسد بن موسى [تفسير القرطبي، ج : 4/ص : 132].

اللــه، فقسمهــا أبــو طلحــة في أقــاربــه، وفــي بني عمــه، وكــان منهم أبي وحسـان.(42)

وكانت هــذه البئر حديقة يــدخلها رسول اللهﷺ، ويتظلل بهــا، ويشرب من مائهــا، وكانت في عهــد أبي سالم العياشي حــديقة صغيــرة من سور المدينة شمالية، بينهما الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي.(43)

قال السيــد السمهودي في «وفــاء الوفا» : «والظــاهر أن بعضـهــا اليوم داخل السور، وقــد دخلتها، والحمد للــه، مراراً واستصحبنــا شيئا من زرع تلك الحديقة المسقى بمائها»...

بئر اليسيرة(44) :

وهي في عــوالي المدينــة قــريب من مسجد بني قــريظــة، وعلى بابهــا حديقة حسنة ملك لبعض المغاربة...

وقد روي أن رســول اللهﷺ، جاء بني أميــة ابن زيد، فــوقف على بئر لهم، فقال : «ما اسمها»؟ فقالوا : عسيرة، فقال : «لا، ولكن اسمها اليَسيرة، وبصق فيهــا وبرك فيهــا... وروى ابن سعد في طبقــاته عن عمــر بن أبي سلمة أن النبيﷺ سَمَّاها، اليسيرة، وأن أباه أبــا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها...

وقــد زارها أبــو سالم العيــاشي وذكــرها في رحلتــه،(45) وشــرب من مائها...

---

42) مرآة الحرمين، ج : 1/ص : 429.

43) الرحلة العياشية، ص : 1/268.

44) اليسيرة من اليســر ضد العسر، وتعــرف الآن ببئر العِهن بكســر فسكون، وهو لغــةً : الصوف الملون، وهي معروفة بالعوالي مليحة جدا، منقورة في الجبل، وعندها سِدرة،

45) ص : 1/269.

بئر رُومة :

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، أن النبيﷺ، قال : «من حفر بئرا، فله أربعون ذراعا عِطْناً لماشيته».

وترجم صاحب «الإصابة» رومة الغفاري، صاحب «بئر رومة» فذكر أنه روى عبد الله بن عمر، وابن أبان أنه لما قدم المهاجرون المدينة، أنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار، عين يقال لها : «رومة» فكان يبيع القربة منها بالمد... فاشترى عثمان بن عفان بئر رومة، وتصدق بها على المسلمين... وكان ركية،(46) يملكها يهودي يبيع للمسلمين ماءها، فقال رسول اللهﷺ : «من يشتري بئر رومة، فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائهم، وله مشرب في الجنة، فأتى عثمان اليهودي، فساومه بها، فأبى أن يبيعا كلها، فاشترى عثمان، نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعله وَقْفاً خالصا للمسلمين، متفقا مع اليهودي على أن يستغل المسلمون البئر يوما، ويستغلها اليهودي يوما آخر، ثم جاء اليهودي بعد مدة عند عثمان، واقترح عليه شِراء النصف الآخر، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم، وجعل تلك البئر خالصة للمسلمين، فكان رشاؤه كَرِشاء واحدٍ منهم... وقد قال رسول اللهﷺ : «من حفر بئر رومة فله الجنة».

قال ابن جابر من قصيدة في فضائل الصحابة العشرة، وأهل البيت :

وقال رسولُ الله في بئر رومةٍ
أما مشترٍ يبغي بها الأجْرَ في غَدِ
له الجنة العليا بذلك فاشترى
وتجهيز جيش العسرة اذكر وعدِّد

[النفح : ج : 7/ص : 262]

46) أي بئر ذات ماء...

بئر فاطمة(47) :

فاطمـة بنت الحسين رضـي الله عنهـا، احتفرتهـا بالحـرة القريبـة عند انتقالها من بيت جدتها، فاطمة الكبرى عليها السلام، لإدخالها في المسجد، حفرتها بيدها حين عجز الحفار، فصلت في موضع بئرها ركعتين، ثم دعت الله، وأخذت المسحاة، فحفرت بيدها، وأمرت العمال، وهذه البئر مشهورة، اليوم، عند أهل المدينة باسم بئر زمزم...

بئر بَيْسان(48) :

موضـع في جهة خيبر، قـريب من المـدينة، وفي الحديـث أن رسـول اللـهﷺ نزل في غـزوة ذي قرد، على مـاء، يقـال له : بَيْسَـان، فسأل عن اسمه، فقالوا: إسمه بَيْسان، وهـو ملح، فقال رسول اللهﷺ، بل هو نعمان، وهو طيب، فغيـر رسول اللهﷺ، الاسْـمَ وغيَّـر الله الماء، فاشتـراه طلحة، وتصدق به، وجاء إلى رسول اللهﷺ، فأخبره به، فقال رسول اللهﷺ : ما أنت يا طلحة إلا فياض، تسمى طلحة الفياض». (49)

ولابن شبة(50) عن عبيد الملك بن جابر بن عتيك أن النبيﷺ توضـأ من العُيَيْنَة التـي عند كهفِ بني حـرام، قال : وسمعت بعض مشيختنـا يقول : «قد دخـل النبيﷺ ذلك الكهف... ولابن زبالـة، قال : كـانوا أيـام ا لخندق، يخرجـون برسول اللـهﷺ ويخافون البيـات فيه، خلوتـه كهف بني حرام، فيبيت فيه حتى أصبـح هبط. قال : وبقر رسـول اللهﷺ العيينـة التي عند الكهف، فلم تزل تجري حتى اليوم...

---

47) عمدة الأخبار، في مدينة المختار «للعلامة الشيخ أحمد عبد الحميد العباسي» ص : 236.

48) بالفتح وسكون المثناة تحت، ثم سين مهمله، وألف ونون.

49) «عمدة الأخبار» ص : 244.

50) عمر بن شبة يزيد بن عبيدة بن رابطة النميري البغدادي الأديب الإخباري الشهير بابن شبة (تـ: 262 «بِسُرَّ مَنْ رَأى» له من التصانيف : «أخبار المدينة» و «أخبار أمراء المدينة»، و«أخبار أمراء مكة» ـ [هدية، ج : 5/ص : 780].

قال ابن النجـاري، وهذه العين في ظـاهر المـدينة، وعليهـا بناء، وهي مقابلة المصلى..

وهـذا سيدُنـا الحسين، يثقله الـدَّين، وهـو يملك «عين أبي نيزر» فـلا يبيعها.. لأن فقراء المسلمين يستقون منها، فهي وقف عليهم، وليحتمل ثقلة الدين، وهو الكريم بن الكرام من ذرية بني هاشم...

بئر السُّقيا :

قال الأسدي(51) : وبالسقيا مسجد لرسول اللهﷺ إلى ا لجبل، وبه عين عذبة... ذكر السيد السمهودي في تاريخه : «وفاء الوفا» : أن بالسقيا أزيد من عشرة آبار، وإن عند بعضها بركـة... ثم قال : وفيها عين غزيرة الماء، ومصبها في بركة المنزل، وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد، عليها نَخْلٌ وشجر كثير، وكانت قد انقطعت، ثم عادت في عام 253...، قال : وعلى ميل من المنزل مـوضع فيه نخل وزرع وصـدقات للحسين بن زيـد، فيها من الآبار التي يزرع عليها ثلاثون بئـرا، وفيها مما أحدث في أيام المتوكل خمسون بئرا، وماؤها عذب، وطـول رشائهن قامة وبسطة، وأقل وأكثر، ثم وصف ما بعد السقيا، فقال : وعلى ثلاثـة أميال من السقيا عين يقال لها : «تعهن».(52)

قال السيـد ابن حسين الشدقمي المـدني مؤرخ المـدينة في تـاريخه : السقيا بئـر بدار مـالك بن النضر والـد أنس رضـي اللـه عنه، ويقـال لها : «سبيل قاسم» كان يستعذب له عليه ا لسلام، الماء...

---

51) عمدة الأخبار، ص : 190.

52) تعهن : مضمومة التاء، مفتوحة العين، مكسورة الهاء... وفي «وفاء» تُعاهِن بالضم وكسر الهاء، ويقـال فيـه تِعهِن بكسرهمـا، وقيل مثلثـة... وقيل: تعهن كـان اسـم «عين مـاء»، ثم سمى بـه الموضع، وقيل عين بالقاحه والسقيا... قال السهيلي : وتعهن : صخرة يقال لها : أم عفى، روى أن إمرأة كانت تسكن تعهن، يقال لها أم عفى، فحين مر رسول اللهﷺ استسقاها ماء في سفر الهجرة! فلم تسقه! فدعا عليها، فمسخت صخرة فهي تلك الصخرة [عمدة الأخبار، ص : 246.

وقد عمَّـــر المرحـوم قاسم أغا، شيخ الحـرم الشريف على هـذه البئر المشار إليها في حدود سِنَّه عمارة حسنة وسبيل، وبركة، وحوض، وديوان لطيف لنفع الصادرين والـواردين لزيـارة سيد المرسلين، وجعل لعمـارته، والقيام عليه غلة حوش بابين بخط ذروان، وواجهة الدكانين الكائنين بسوق الحدرة، على يمين الخارج من باب المَيْضَأَة، وقد أصبح بعد ذلك تحت نظر السيد زين العابدين الأزهري... وقد خربت تلك العمارة، وتعطلت، ولم يبق ما ينتفع به...

قال السيد أحمـد عبد الحيمد العباسـي السندي معلقاً(53) : واليـوم في زماننا عليها عمارة وبـركة كبيرة، وحوض وسبيل(54) للواردين من فضل الله، ثم مـن فضل أبي القاسم عليه السـلام... وماؤهـا عذب فُـرات سائغ للشاربين، سقـانا الله من حوضـه يوم الدين، وكـان ناظر هذه البئـر مجد الدين سِنان محتسب المدينة المنورة مهاجر سيد المرسلين...

العين الزرقاء(55) :

عيون المدينة... وعيـون حمزة بها... وكذلك عين الزرقـاء محدثة وإنما أحدثها معاوية، وأمر الناس بنقل الشهداء من موضعها فصاروا ينبشونهم، وهم رضاب لم ينتنوا، حتى أصابت المسحاة رِجْل أحَدِهم، فانبعثت دماً!!

ويقول ابن تيمية في فتاوية : لا أدري متى حدثت؟(56) وفي القرب من مسجد قُبَا، رحبـة فيها بئر، وهي منبع «عين الأزرق» التي تسميهـا العامة

---

53) «عمدة الأخبار» ص : 218.

54) تطلق كلمة السبيل، ويراد بها للعموم مجانا، وبدون مقابل، وأهل المغرب يضيفون كلمة السبيل لكل مرفق من المرافق العامة، أو لكل شيء معد للعموم، يقال : «ماء السبيل» أو «جنان السبيل» للحديقة العمومة.

55) للأستـاذ عبيد المـدني، بحث فى : «العين الزرقـاء» نشرتـه جريـدة : «المدينـة المنورة» في : 1379/1/4، يرجع إليه.

56) الفتاوي، لابن تيمية، ص : 21/61.

«العين الزرقاء»، وعليها حديقة أنيقــة، وإلى جانبها على مقدار رمية بحجر «بئر أريس» التي تفل فيها رســول الله عليه السلام، فَعَــذُبت بعد أن كان ماؤها أُجَاجا(57)...

والعين الزرقاء بئــر في المدينة، في حديقة قــريبة من بئر أريس، وهي بئر كبيــرة، قد أمــدت بمياه آبار متعــددة، فيها ميــزابان عظيمــان من مياه غيــرها من الآبــار، فاتخــذت لهــا أسراب تحت الأرض إلى أن خــرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة، فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه، فأظهرت داخل المدينة فــي مناهل متعددة، وبنى لها بناء متقن يهبط إليها فــي نحو ثلاثين درجــة محكمة البنــاء، متقنة الــوصف، واسعة الممشى، منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم...

وهــذه العين المباركــة تحدث عنهــا أبو ســالم العياشي المغــربي في رحلته، فقال : «والذي رأيتُ منها ثلاثــة مواضيع : أحدها : شرقي المسجد بينه، وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحرة...

والثاني : خــارج باب الســلام في الناحيــة الغربية عنــد سوق المــدينة بالبلاط...

والثالث : شامي المسجد بعيدا منه إلى نــاحية باب الشامي وأما خارج المدينــة، فأخرجت في محــال متعددة، أيضــا، ثم لم تزل تقــرب من وجه الأرض قليــلا، كلما انحــدرت في أرض المدينــة إلى أن خرجت على وجــه الأرض قريبــا من الغابــة شرقي مسجــد رومة ــ بينه وبين أُحــد، وعليها هنالك مزارع...

قال أبــو سالم العياشي في رحلتــه : «وقد رأيت جدولا منها قــريبا من مسجد الراية، في طرق ذباب، يهبط إليه في نحو ثلاث درج...»

57) عمد الأخبار، ص : 138.

هذه العين المباركة من أغزر العيون، وأحلاها ماءً وألذه، بها جل انتفاع أهل المدينة... ومنها كل التسبيلات الموقوفة بالمدينة، ومنها تملأ الدَّوَارق التي توضع في الحرم الشريف للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة... فما أعظم بركتها، وأوسع نفعها...

وقال أبو سالم العياشي أيضا، هذه العين المباركة، لقد شاهدت من يشتفي بمائها، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء...

ولله در القائل :

لئن قِيل في زُرْق العيونِ شآمةٌ
فعنديَ أن اليُمْن في عَيْنِهَا الزرقا(58)

وفي قصيدة نبوية خماسية للمقري يشير إلى أنه لولا تعلق حقوقه ببلاد المغرب لأقام في رحاب النبيﷺ حتى يتاح له أن يموت هناك، ويدفن في أرض البقيع الطاهرة :

ومن هذه الخماسية يقول المقري(59) :

لولا حقوقٌ عُيِّنَت بمغاربِ
لمكثتُ عندك كي تُتَاح مآربي
ويكون في «الزرقاء» عذبُ مشاربي
حتى أحليَ من ثراك ترائبي
وأنال دفناً في بقيع الغرقد

ولكن أمنية المقري لم يكتب الله تحقيقَها، فقد مات بالقاهرة ودفن فيها.(60)

* * *

58) الرحلة العياشية، ص : 1/265.

59) «نفح الطيب» للمقري، ص : 1/53، تحقيق إحسان عباس.

60) المقري صاحب «نفح الطيب» سلسلة «اعلام العرب» للأستاذ المرحوم محمد عبد الغني حسن، ص : 132.

دخل أبو القاسم ابن عبد المنعم، وكان أزرق وسيماً، ومعه أبو عبد الله الشاطبي، وأبـو عثمان سعيد بن قوشتـره، على صاحب كتاب : «مشـاحذ الأفكار، في مآخذ النظار»، فقال ابن قوشترة :

عـابـوه بـالـزّرَق الـذي بجفـونـه
والمـاء أزرق، والسِّنـــان كـذلكـــا

فقال الشاطبي :

والمـاء يُهـدي للنفـــوس حيـاتَهـا
والـرمحُ يشـرِعُ للمنون مســالكـا

فقال أبو بكر بن طاهر صاحب كتاب «المشاحذ» :

وكـذاك في أجفـانــه سببُ الـردى
لكن أرى طيب الحيــاة هنـــالكـــا

وهـذا من بـارع الإجـازه؛ وكم لأهل الأنـــدلس من مثل هـذا الـديبـاج الخُسْرُوَاني، رحمهم الله تعالى وسامحهم.(61)

سبب تسميتها بالعين الزرقاء...

إن سبب تسميتها بـالعين الزرقاء هـو من لحن العامة، وصـوابه «عين الأزرق» لأن مـروان الـذي أجـراها لمعـاويـة بن أبي سفيـان، كـان أزرق العينين، فلقب بالأزرق...

وكان إجراؤه لهـذه العين بأمر معاويـة لما ولاه المدينة، وكـان لمعاوية رضي الله عنـه اهتمام بذلك، فأجرى بـالمدينة، ومـا حولها عيونـا كثيرة، دثرت كلهـا، ولم يبق إلا هذه العين المباركـة، وقد أضيفت إليها الـزيادات والتحسينـات عبـر العصور الإســلاميـة، وقـد اعتنى بهـذه العين من قبل الملوك، فلهـا أوقاف معلومة، وجـرايات تأتي من عند السلطان، ولهـا أمير

61) النفح، ج : 4 ص : 22.

معلوم، وله خـدام يتفقدون أحوالها على ممر الأزمنـة، ويصلحون ما وَهَى منها، حيث قام بعمارتها(62) وتعهدها بالإصلاح من بعد، خلفاء وسلاطين وحكام كثيرون(63) ولولا ذلك لـدثرت كغيـرها من ا لعيـون... حتى إذا ما أطل العصر الحديث، أخذت المدينة تشرب من عيونها المستصلحة، وآبارها الحديثة العميقـة، إلى جانب مصدر تحلية المياه التي تـرد إلى المدينة من مدينـة «ينبع» على بُعْد حوالي مـائتي كيل، وبذلك حَلّت مشكلـة المياه في المدينة المنورة حلا جذريا.(64)

وقد مدح العين الزرقاء يوسف النبهاني في قصيدة يعارض بها قصيدة كعب بن زهير :

بـانت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول
مُتَيَّمٌ، إثـرهـا لم يُفْـدَ مكبـول

فقال :

هـواي «طيبة» لا بيضـاء عُطبُـولُ
ومُنيتي عينُهـا «الزرقـاء» لا النيل

قال الجـزيري : «كان للمدينـة أربعة أودية، تجتمع مياهـا في موضع يقال له : «الغابة» وتخرج إلى وادي : «إضـم»(65).

62) العياشي، ج : 1/ص : 266.
63) شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج : 4/ص : 946، للمرحوم خير الدين الزركلي.
64) أحمد الضبيب، بحث مقدم إلى الأكاديميـة الملكية المغـربية في دورتها حـول المياه والتغـذية والإنسـان.
65) «درر الفوائد» ص : 260/عمدة الأخبار : للعباسي : ص : 207 ـ وإضَم : هذا الاسم يطلق على مواضع يسمى كل واحد منها بهذا الاسم... يطلق هـذا الإسم على موضع بالعراق معروف بهذا الإسم. والموضع الثـاني: بطن كبير من الأرض في جهة النبـاج، وهو حنيظل وأبو الـدود، وبه قصور ونخيل ومـزارع، وهو من قرى الاسياج... والمـوضع الثالث، وهو الذي يهمنـا في هذه الـدراسة... إضم : واد يصب من الجبـال المجاورة للمـدينة حتى ينتهي إلى البحـر، يقال لـه : إضم: وهو الذي عناه سلامة بن جندل : [معجم البلدان 1/281].

يـا دار أسمـاء بـالعليـاء من إضَـم
مـن الـدَّكَـادِكِ مـن قَـوٍّ فمعصـوب
كـانت لهـا مـرةً داراً، فغَيَّـرهـا
مـرُّ الـريـاح بسـاقي التُّـرب مجلـوب

[صحيح الأخبار، لابن بليهد. ج/2، ص : 48].

وقال ابن رسته : «لما عمرت العين الزرقاء، صار شرب أهل المدينة، واستعمالهم منها.(66)

وقد جعل ابن أبي الهيجاء مصرفاً للعين الزرقاء يبتدىء من المنهل الذي دون باب السلام، ويسري في مكان يعرف، الآن، بسوق الخراز... وقد أنشأ لها في المدينة مناهل أخرى، منها منهلان بالساحة عند القلعة يواجهان بابَها، ومنهلان داخلها... ومنها بحارة «الأغوات» شرقي المسجد النبوي في مكان يقال له : الحرة... وكل المساقي الموقوفة بالمدينة تستمد مياهها من هذه العين... وتسقى منها بساتين عدة في داخل المدينة... منها بُستان العينية، وقف الإمام العيني شارح الإمام البخاري، وهو في شارع باب السلام...

ومن هذه العين تملأ الدوارق التي بالمسجد، والتي لا تحصى كثرة، ويشرب منها الناس، ويطوف ببعضها طائفون.(67)

وهذه العين موضع عناية كل الملوك والسلاطين والرؤساء، ويقوم بتعميرها أمراء المسلمين، وقد تخربت في أوائل الحكم العثماني، ومكث أهل المدينة زمنا طويلا، وهم في ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان عام 932هـ؛ ثم جرفها السيل عام 990هـ. فأمر السلطان مراد خان بتعميرها، واشترى «بئر الغربالي»، وألحقها بها، وفي عام 1111هـ أمر السلطان مصطفى عثمان، فاشتريت «بئر العقد» والحقت بها، أيضا، وما زالت حتى بناها السلطان سليم عام 1212هـ... ولما حاصر الوهابيون المدينة ضاعت.! فأصلحها محمد علي باشا، ثم جددها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عظيمة الفائدة كبيرة المنفعة... وهناك كتاب مجهول

66) «الأعلاق النفسية» لابن رستة، تحقيق دى خوية ط : ليدن : 1892. وفيات الأعيان.

67) مرآة الحرمين، ص : 432/1.

في وصف ما كان في 1152هـ على عهد المنصور حسين من الشدة ونضوب آبار الروضة.(68)

* * *

لعين الزرقاء، إدارة خاصة :

وقد تم في عهد العزيز تبليط مجرى العين من المنبع في قُباء، حتى «منهل خرز عيسى» في داخل البلدة، إلا مواضع صخرية تركت كما هي، لأنها في غنى عن التبليط...

وأحدثت في عهده عدة ممرات لماء العين في الأرض، وظهر الماء في أماكن صخرية في كهف طبيعي مساحته، ستة عشر مترا مربعا، وارتفاعه سبعة أمتار، فضم إلى مجرى العين؛ ومستوى الماء فيه ينخفض في زمن الصيف عن مستوى مجرى العين، فيرفع بآلة، ويعرف هذا الكهف الآن بالبدع الجديد.

و«لعين الزرقاء» إدارة خاصة، نيط بأعضائها تعهُّدها والتجديد فيها.(69)

لقد وضع عبد العزيز الأساس، وأرسى الدعائم، وجاء أولاده الأمراء، يعلون الجدران، ويقومون الأركان، ويحملون البنيان، مهتدين بإذن الله بهدي القرآن. فالمملكة العربية السعودية التي كانت خفيفة الوزن في ميزان الدول، صارت من أثقلها وزنا، وأعلاها صوتا، وأرجحها رأيا... كما صارت مثابة العظماء من الأمم من الشرق ومن الغرب، كل يزورها ليتلقى ـ كما قال نيكسون في كلمة له ألقاها في تلفزة المملكة ـ الحكمة والمال، أما ريالات ودولارات، وأما ذهبا أسود إسمه النفط : كما قال الأول :

نَشُدُّ أحْمَالَنا إلى مالِكٍ

نأخذ من ماله ومن أدبه

68) مجلة المورد، ص : 262/ عام 1979.

69) «شبة الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز»، ص : 947.

وفي ضواحي المدينة، عـدا العين الزرقاء، عين كهف، غربي جبل سلع، وعين ا لخيف، وتجري من حوالي المدينة، وعين الوادي، بجوار قبر حمزة، ثم عين السلطـان وهي مـالحـة، وتجـري من قبـاء إلى المـدينـة، فتطهـر بالوعاتها ومجاريها ثم تسير إلى بساتين المدينة من خارجها...

* * *

إدارة الأوقاف في المدينة المنـورة :

تقوم الأوقـاف، في المدينـة المنورة بـدور كبير ومهم في تـوفير(70) السكن وإبقاء الأراضي الخضـراء في المدينة، وتشـرف إدارة الأوقاف في المدينة المنـورة على مساحات كبيرة من الأراضي والمباني المـوقوفة على المؤسسات الدينية كالحرم والمساجد....

ويدخل، ضمن الأوقاف الخيرية عدة أنواع من الأوقاف، فهناك ما يسمى بأوقاف الخدمات مثل الأوقاف المخصصـة لخدمة العين الزرقاء، وأوقاف الرؤساء المؤذنين، وأوقاف القَلْعَجِية.(71)

وقد انتهت نشاطـات بعض هذه الخدمات في المدينـة مثل خدمة العين الزرقـاء والقلعجية بعـد ذهاب أسبـابها بسبب انتشـار شبكات الميـاه إلى داخل المنازل، وانتشـار الأمن في المنطقة، وهـدم القلاع القديمـة، فعمدت السلطـات إلى تنفيذ شـروط مثل هذه الأوقـاف في ذرية آخـر طائفـة من منسوبي هذه الخدمات.(72)

---

70) قد عرفت إدارة الأوقاف في العهـد التركي باسم الخزينة الجليلة النبويـة. وقد تحول اسمها في العهد السعودي إلى «مديرية الأوقاف»، ثم إلى وزارة الحج والأوقاف.

71) أي العاملين في قلاع المدينة المنورة.

72) الأراضي الـوقف في المدينـة المنورة. د. محمـد شوقي إبـراهيم، مجلة : «الـدارة» ع : 2/ص: 10/محرم 1405 ـ سبتمر 1984.

الفصل الخامس :

عملٌ إنسانيّ نبيل...

عين زبيدة زوجة هرون الرشيد :

ما برحت الأوقاف في بلاد المسلمين تنمو بنمو الثروة، والتَّبَسُّط في مناحي المُلك، واستبحار العمران، وامتداد السلطة، بامتداد الفتوح، حتى تكاملت أجزاؤها، وتنوعت أنماطُها، وتكاثرت موادُّها في صدر الدولة العباسية، ولا سيما في عهد الخليفتين... هرون الرشيد، وابنِه المامون الذي وقف الأوقاف الكثيرة في العراق وغيرها على الطلبة ودور العلم، والمَبَرَّات العامة والمؤسسات الخيرية، كي تبقى دائمة الانتفاع على مر الدهور، وتكفي العلماء مؤونة قرع أبواب ذوي الجاه والنفوذ، وتكفي، أيضا، الماويج والزمنى والمعاتية، وذوي العاهات من التكفف والاستجداء!..

* * *

ونسوق بين يدي نجوى هذه الدراسة، قصةً رائعةً للعمل الإنساني النبيل الذي قامت به امرأة عربية شريفة هي السيدة زبيدة بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور زوجة هرون الرشيد، عندما وجدت هدفها عظيما، وهو وقفُ المياه لفائدة المسافرين والحجاج الفقراء، فقد أخذ هذا الوقف كل اهتمامها، في عصر امتاز بقوة ونضج الحضارة العربية، وفي مرحلة تاريخية مزدهرة بالمعرفة والثقافة، وقد كنا إذذاك نحمل مِشكاة التقدم والحضارة، ونتربع على رَابِيَّةِ المجد وقِمَّة الشَّرف.

* * *

يقول الأمير فهد بن خالد نائب رئيس مجلس الآثار السعودي : «إن دربَ «زبيدة» بالغ الأهمية ليس بوصفه أثراً قيما فحسب، بل كعلم، وفق

معماري وهندسي يكشــف عن براعة الأساليب المستخدمــة في نقل المياه وتوزيعها..».

ولاشك بأن «درب زبيدة» يحكي الدور الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في ميـدان وقف الميـاه لتوفيـرهـا بواسطـة حفـر الآبار والقنـوات، ورصدها على المحاويج وأبناء السبيل...

إن عمل «زبيدة» لإجـراء هذه المياه، ووقفهـا في سبيل الله، يعـد عملا عظيما جـدا، استنطق الألسن بالتـرحم عليها كلمـا روى حاجٌّ ظمأه، ونقع غلته، أو أسبغ وضوءه..

ويحـدثنا التـاريخ، أن السيـدة «زبيدة» أنفقـت على هذه العين مليـون دينار، وأنها لما انتهت من العمل، جيء إليها بِدَفَـاتِرِ الحسابات لمراجعتها، فأَمَـرَت بِطيِّها، وبإلغـاء السجِّل في نهـر دجلة، وقـالت : «إنمـا عملنا مـا عملناه، فـي سبيل الله، فـلا فرق بين أن تكـون النفقة أكثر، أو أقـل، ولقد تركنا الحِسَابَ، ليومِ الحِسَاب، فمن بقي عنده شيء من بقية المال، فهُوَ لَهُ، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه».

وهذه القصــة الفريدة تشبه مـوقف أبى الحسن المريني المسمى بأبي الحَسَنَـات، لما بنى بمـدينة مكنـاس مـرافق كثيرة من جملتهـا السقايـات والقنـاطر، والمـدرســة الجـديدة التي كـانت تعـرف بمـدرسة العطـارين، والمنسوبة خطأ إلى السلطان أبي عنان، قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينـة المذكور أبا محمـد عبد الله بن أبي الغمر، قـال ابن غازي:(1) لقد حدثني والدي رحمه الله أنه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعالى، لما أخبر بتمـام بنائها، جاء إليها ليراها، فقعد على كـرسي من كـراسي الـوضوء حـول صهـريجهـا، وجيء بالـرســوم المتضمنة للتنفيذات الـلازمة فيها، فغرقها في الصهـريج قبل أن يطالع ما فيها، وأنشد :

---

1) «الروض الهتون، في أخبار مكناسة الزيتون» ص : 35. ـ والاتحاف، ص : 118/1.

لا بأس بـــــالغــــالي، إذا قيل حسن

ليس لمـــــا قـــــرت بــــه العين ثمن

* * *

لقد كانت «زبيدة» زوجة هرون الرشيد مصلحة اجتماعية، يقول المسعودي:(2) وكان أحسن فعلا، في أيام الرشيد، أم جعفر بنت المنصور لما أحدثته من بناء دُور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع بها، وما أحدثته من دور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس، وما أوقفته على ذلك من الوقوف..

ومن أروع آثارها الخالدة حفرُها العينَ المعروفة بعين المشاش بالحجاز، وقصة ذلك أنها حجت عام 186هـ، فأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب، فدعت خازن أموالها، وأمرته أن يدعوَ المهندسين والعمال ليبدأ الحفر، وليشق الطريق للماء في كل خفض ورفع، وسهل وجبل، مسافة اثنى عشر ميلا حتى يوصل الماء إلى مكة، وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف، فأدركت زبيدة سبب تردده، فقالت له بحزم : «اعمل، ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا،(3) وعمل العمال، وتم المشروع، وقوبلت تكاليفه مليونا وسبعمائة ألف دينار.

* * *

إن الماء في البلاد الحارة، أحيا وأعذب وأبرد على الأكباد، وأطيب أضعافا مضاعفة منه في البلاد الباردة، فقد كان أعظم ما يرزق به الإنسان من الصواب والثواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب، هو تفجير الينابيع، وإسالة الجداول، وتقريب المشاريع في بلاد مثل الحجاز يقصد

---

2) مروج الذهب. ج : 2/516/ط : البهية : 1346هـ.

3) ابن خلكان، «وفيات الأعيان»، ج : 2/314، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971، أنظر: أبا العباس الشريشي في شرحه للمقامة الأربعون التبريزية للحريري، ج : 4/ص : 38.

إليها الحجاج من الحار والبارد، والرطب واليابس، بالألوف وعشرات الألوف ومآت الألوف، إلى ما يقرب المليون، بله الذين فيها من السكان.

* * *

مـــومنـــات ســــاهمن بقسط عظيم في تــأسيس صــرح الحضــــارة الإسلامية ...

عمل «زبيدة» ومشروعُها مشروعٌ عظيم وخطير، كان لها به دَوْرٌ بارز في تحريك الأحداث التاريخية، فتحته لضيوف الرحمن، ولجيران بيت الله، ولِقُصَّــاده من جميع بلاد الإســلام، فلقد كــانت السيــدة «زبيدة» من بُنــاة الحضارة والمدنيــة، ومؤسسي الأمجاد والمفاخر، ومن الصـــالحات اللواتي قُمْنَ بإعمال لفــائدة الإسلام، والمــومنات اللواتي ســاهمن بقسطٍ عظيم في تأسيس صرح الحضارة العربية والإسلامية...

ويعجبني أن أنشد، هنا، قول ابن سعيد الغرناطي :

جَمَالُ ذي الأرض ـ كــانوا في الحياة، وهم
بعــد الممـــات، جمــالُ ا لكُتْــبِ والسِّيَــر

وقول الآخر :

أحـــاديثُ لـــو صِيغَتْ لألْهَتْ بحُسنهـــا
عن الــدُّرِّ، أو شُمَّــتْ، لأغْنَتْ عن ا لمِسْكِ

وقول الآخر :

تعــرفْ لأهلِ الفضلِ، واحفَظْ رســومَهم
وداوِ بِهَـــــا إعـــــــلالَ قَلْبٍ تَــأثّـــــرا
فــــــرب طبيبٍ عــــــارفٍ بمســـــالك،
تحـــارُ لـــــه الأفكـــار فيمـــا تستـــرا

وقولَ أبي بكر بن الأنباري، وقد ذُكر الخليل بن أحمد في مجلسه :

مـــا مـــات من كـــان مـذكــوراً روايتــه
قـــد مـــات قـــومٌ، وهم في النــاس أحيــاء

وعـاش قــومٌ، ولم تـذكــر مـآثــرهم
فمـــات ذكـــرهم، والقـــوم أحيـــاء

قـال عبد اللـه بن جبير : سمعت محمـد ابن يـونس يقول : «مـا رأيت للقلوب أنفع من ذكر الصالحين».

ولله در القائل :

وما النـاسُ إلا الصالحـون حقيقةً
وســـواهـمُ مُتَطَفِّل فـي النـــاس
كم بين أمــوات زمـــان حيـــاتهم
معنى وأحيـــاء مع الأنفـــاس
فإذا ظفـرت بصــالح، فاشــدُدْ بـه
كَفَّيْكَ، تشـــدد بـــالطبيب الآس

من هي السيدة زبيدة :

يقول ابن خلكان : «أم جعفر زبيـدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبـد الله بن محمـد بن علي بن عبـد الله بـن العباس بن عبـد المطلب بن هاشم، هي أم الأمين محمد بن هـارون الرشيد، فهي أم ملك، وزوجة ملك، وحفيـدة ملك، وفي هذه الصفـات تشـاركها والـدة الخُـدَيْوِي عبـاس التي مدحها شوقي بأنها في الركب هَالَة من العز في أترابها خَفِرَات، فقال :

مَـــواكِبٌ لم تُعْهَـــد لِغَيْـر زُبيـــدَةٍ
(ببغداد) في الأعيـــاد والجمعـــات

وكان لها معـروف كثير، وفعل خير، وقصتها في حجها، ومـا اعتمدته في طريقها مشهورة، فلا حاجة إلى شرحها...

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي فـي كتاب «الألقاب» : إنها لما سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وانها أسالت الماء عشرة

أميال بخط الجبال، وتحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها : «يلزمك نفقة كثيرة» فقالت : اعملها، ولو كانت ضربة فاس بدينار، وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الأولى ببغداد رحمها الله تعالى.(4)

وترجمها الشيخ خير الدين الزركلي(5) فقال : «زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية، أم جعفر، زوجة هرون الرشيد، وبنت عمه، من فضليات النساء، وشهيراتهن، وهي أم الأمين العباسي «أمة العزيز» وغلب عليها لقبُ «زبيدة»، قيل : كان جدها المنصور يرقصها في طفولتها، ويقول : يا زبيدة... أنت زبيدة، فغلب ذلك على اسمها، وإليها تنسب «عين زبيدة» في مكة المكرمة، تزوج بها هرون الرشيد عام 165هـ، ولما مات، وقتل ابنها الخليفة الأمين، اضطهدها رجال المامون، فكتبت إليه تشكو حالها، وهي المثقفة، رسالة استعطافية، تقول فيها : «كل ذنب يا أمير المومنين، وإن عظُم، صغيرٌ في جنب عَفْوك، وكلُّ إساءةٍ وإن جَلَّتْ، يسيرةٌ لَدَى حِلْمِك، وذلك الذي عوّدك الله ـ أطال مدتَك، وتمّم نعمتك، وأدامَ بِك الخير، ودفع عنك الشرَّ والضَّير، وبعد؛ فهذه رُقعة الولهى التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذِّكر، فإن رأيت أن ترحم ضُعفي واستكانتي وقلة حيلتي، وأن تصل رَحِمِي، وتحتسبَ فيما جعلك الله له طالباً، وفيه راغبا، فافعل، وتذكر مَن لو كان حَيّاً لكان شفيعي إليك...

* * *

وعندما قُتِلَ الأمين، دخل عليها بعض خدمها، فقال لها : ما يُجْلِسُك، وقد قُتِل أميرُ المومنين، فقالت : ويلك! وما أصنع؟، قال : تخرجين، وتأخذين بِدَمِه، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت : اخْسَأْ، لا أُمَّ

4) الخطيب : 14/433. وانظر ص : 279 : «كتاب المناسك ومعالم الجزيرة» تحقيق : حمد الجاسر.

5) الأعلام : ص : 42/ج : 3. ط : الجديدة.

لك! مـا للنساء، وطلب الـدماء، ثم أمـرت بثيابهـا، فَسُوِّدتْ، ودعت بـدواة، فكتبت إلى ا لمامون القصيدة التـالية تشكو له حالها، وما فعلـه بها طاهر ابن الحسين الذي قتـل الأميـن، ومنها :

لخيـــر إمــام، قـــام من خيـر عنصـــر
وأفضل ســـــامٍ فـــوق أَعــــواد منبـــر
لـــــــــــوارث علـم الأوليـن وفهمهـم
وللملك المـــــامــــون مـن أم جعفـــر
كتبت، وعينـــي مستهل دمـــــوعهـــا،
إليك ابن عمي مـن جفـوني ومحجـــري
وقـــد مسَّني ضــــر، وذُلٌّ كــآبـــة
وأرَّقَ، عيني يـــــابـنَ عمي، تفكُّـــري
وهِمت لمـــا لاقيت بعـــد مصـابـــة
فأمـــري عظيمٌ منكـــر جِــدّ منكَـــرِ
سأشكـــو الـذي لا قيتُـــه بعـد فقـده
إليك شكــــاة المستهـــام المقهـــــر
وأرجـو لمـــا قـد مـرّ بي مـذ فقـدتـه
فـأنت لبثـي خيـــــــر رب مغيـــــــر
أتى طـــاهـــر لا طهـــر الله طـــاهـــرا
فمــــا طـــاهــــر فيمـــا أتى بمطهـــر
فـاخرجنـي مكشوفـة ا لـوجـه حاسـرا
وأنهـب أمـــــوالـي وأحـــــرق أدري
يعـــز على هـــــارون مـــا قـــد لقيتـــه
ومـــا مـــرّ بي من نـاقص الخلـق أعـور

فإن كـــان مـــا أســدى بـأمـرٍ أمــرتَــه
صبــرتُ، لأمـــر مــن قــديــر مقــدر
وإن كــان مـــا قَــد كــان منــه تَعَــدِّيــا
علي، أمـــــير المـــومنيــن، فغيـــــر
تـــذكـــر أميـــر المـــومنين قـــرابتي
فـــديتك مـن ذي حـــرمـــة متـــذكـــر

فلما قرأ المامون شعرها بكى بكاءً شديداً، ثم قال : اللهم، إني أقول كما قال أمير المومنين علي بن أبي طالب رضي اللـه عنه، لما بلغه قتل عثمان، رضي الله عنه، «والله ما أمرت وما رَضِيت» اللهم جلِّل قلب طاهر حزنا»(6) ثم أجابها معتذرا : «وصلـت رقعتُك يا أماه، أحاطك الله، وتولاك بـالرعاية، ووقفت عليها، وساءني ـ شهد اللـه ـ جميع ما أوضحت فيها، لكن الأقدار نافذة، والأحكـام جارية، والمخلوقون في قبضتها لا يقـدرون على دفاعها، والدنيا كلهـا إلى شتات، وكل حي إلى ممات، وقد أمرت بـرد جميع ما أخذ لك، ولم تفقـدني ممن مضى إلى رحمـة الله إلا وجهـه وأنا بعـد ذلك على أكثـر مما تختـارين والســلام...» فعطف عليهـا، وجعل لها قصـرا في دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم، وكانت لها ثروة واسعة.

وتحدثنـا الروايات، أيضـا، أن «زبيـدة» عندما قتل ابنهـا الخليفة الأمين قالت ترثيه :

رزئتـــه حين بـــاهيتُ الـــرجـــال بـــه
وقـــد بنيت بـــه للـــدهـــر أســـاســـا
فليس من مـــات مـــردوداً لنـــا أبـــدا
حتى يـــرد علينـــا قبلـــه نـــاســـا

---

6) «المسلمـون» ع : 19، للأستـاذ جـاسر أبـو صفيـة، ــ شـرح مقامـات الحـريري، للشريشي، ج : 4/39.

ولما دخل عليها المامون بعد قتل ابنها الأمين، قالت له : «أهنئك بخلافة، قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنا خليفة، لقد عوضت ابنا خليفة لم أَلِدْه، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا تكلث أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرا على ما أخذ، وإمتاعا بما عوض...

ويزيد الصابىء : إن المامون أقام وتغذى عندها، فأخرجت إليه من جواري الأمين من يغنيه، وسألته أن يأخذ منهن من يرتضيه، فأومأ إلى واحدة منهن، فغنت، وضربت الباقيات عليها :

هم قتلوه، كي يكونوا مكانه
كما فعلت يوما بكسرى مَرَازِبُه
فإلا يكونوا قاتليه، فإنه
سواء علينا ممسكاه، وضاربه

فوثب المامون مغضبا !! فقالت له زبيدة : يا أمير المومنين، حرمني الله أجره، إن كنت علمتها، أو دسست إليها به، فصدقها وعجب من ذلك...

ويورد الصابىء، أيضا، وحدث أبو نواس قال : جاء شاعر إلى زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فامتدحها بقصيدة قال فيها :

أزبيدة بنة جعفر
طُوبَى لزائِرك المثابِ
تعطين من رِجليكِ ما
تُعْطِي الأكفُّ من الرغابِ!!

فهمّ الخادم، بِهِ، فمنعتهم، وقالت : إنما أراد الخير، فأخطأ... ومن أراد الخير، فأخطأ أحب إليّ ممن أراد الشر، فأصاب!! أعطوه ما أمّل وَعَرِّفُوه، ما جهل... قال أبو نواس : إنما أراد الشاعران يزيد على قول

الآخر : «شِمالك أندى من يمين غيرك» فظن أنه إذا ذكر الرِّجلين، كان أبلغ في المديح. (7)

* * *

لما مات قرد زبيدة بنت جعفر، ساءها ذلك ونالها من الغَمِّ ما عرفه الصغير والكبير من خاصتها، فكتب إليها أبو هارون العبدي : «أيتها السيدة الخطيرة، إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب، كموقع السرور بنيل الكثير المُفرح، ومَن جهل قدْر التعزية عن التافه الخفي، عَمِي عن التهنئة بالجليل السني، فلا نقصك الله الزائد في سرورك، ولا حرمكِ أجر الذاهب من صغيرك. (8)

* * *

لقد كانت زبيدة تلأَّءَةً لكتاب الله، ومما يدل على مدى اهتمامها بالقرآن الكريم، أنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن، وكان يسمع لهن في القصر دَوِيٌّ كدوي النحل، وكان وِرْدُ كل واحدة عشر القرآن...

* * *

وأما آثارها الملوكية، فإنها أول من اتخذت الآلات من الذهب والفضة : المكللة بالجوهر، وبلغ وشْيُ اتخذ للباسها ألف دينار، وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس، وكلاليبها من الذهب، ملبسة بالوشي والديباج وأنواع الحرير الملون، وهي أول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجوهر، وشماع العنبر، ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين، رفع منازل الخدم ككوثر وغيره، فلما رأت حبَّه فيهم، اتخذت له الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعممت رؤوسهن، وجعلت لهن الطُّرر والأصداغ والأقفية، والبستهن الأقبية

---

7) «الهفوات البادرة من المعقلين الملحوظين، والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين» ص : 13 – و 37، تأليف غرس النعمة ابن الحسن محمد بن هلال الصابئ (تـ : 480هـ) وانظر أيضا : زهر الآداب للحُصْري ص : 404/2. ـ كشف، ج : 2/ص : 2045.

8) زهر الآداب، وثمرات الألباب، ج : 4/ص : 1032.

والقراطق والمنـاطق، فبانت قدودهن، وبرزت خصـورهن، وبعثت بهن إليه، فاستحسنهن وأبـرزهن للناس، فسموهن الغُلاميـات، ومن هذا نستطيع أن نؤكد مـا ذهب إليه بعض الفتيات حديثا في العصر الحـاضر، من لباسهن الذي يشبه لباس الغلمان، كان مسبوقا بـه، فالغلاميات هي الترجمة للكلمة الفرنسية Les Garçonnes، اللواتي يتشَبهن بالغلمان...

* * *

قال الخطيـب : كانت معـروفة بالخيـر والإفضال على أهل العلـم والبر للفقراء والمساكين... ولهـا آثار كثيرة في طريق مكة، من مصـانع حفرتها وبِرَكٍ أحدثتها، وكذا بمكة والمدينة...

وليس في بناتِ هاشم عبـاسية ولدت خليفة إلاهي... يقـول أبو القاسم الحريري(9) في إحدى مقاماته : «ولو حبتك شَيرين(10) بجمالها، وزبيدة(11) بمالها، وبُورَان(12) بفرشـها...»

قال ابن تغري بردى في وصفها : «أعظم نساء عصرها دينا وإصلاحا، وجمالا، وصيانة ومعروفا...

* * *

ونقرأ قصيدة للشاعر الرقيق المصري المرحوم «صالح جودت» بعنوان «لَيْلَى» ألقاها في مهرجان الشعر السادس ببغداد حيث يقول مستعيدا أيام الرشيد وليالي الرشيد :

---

9) المقامة الأربعون التبريزية، ص : 442.

10) شَيرين : امرأة كسرى، وكـانت في غاية الجمال، وغاية في الحس والكمال، فـاقت نساء زمانها صيانة وظرفا، وبهرتهن ملاحة ولطفـا، وخلفت في العراق آثارا، منها قصر شيرين، ولها قصة مشهورة منظومة بالعجمية [شرح مقامات الحريري، ص : 166/2].

11) قال إبراهيم الجـوني : رأيتها في المنام، فقلت لها : ما فعل اللـه بك؟ فقالت : غفر لي... فقلت : بما أنفقت في طريق مكة.. فقالت : أما النفقات، فرجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي.

12) بوران : ابنـة الحسن بن سـهل، وكانت من أجمل أهل عصرها، تـزوجها المامون بن الـزبير في أيام خـلافته؛ أنظر قصتها الطـويلة في ج : 4/ص : 39 مقامات الحريـري تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.

وأين «زبيـــدة» فـــوق البِسَـــاطِ
تُجَـــرّرُ أذيـــالَهـــا الفَـــاخــرة
وأين «دنــانيــر» في سحـــرهـــا
كأني بهـــا «سُـومــة» القـاهــرة

وانظر إلى «صالح جودت» كيف كـان يتمادى في شعره الرقيق العذب، ويفتن في اقتباس لغة الجماهير الدارجة، وإدخالها في شعره الجاد، وكأنه يبالغ في إطراف مستمعيه وقرائه بها...

و«سـومة» في البيت الأخير، هي اسم التلميح الدارج لعبقـرية الغنـاء العربي الحديث أم كلثوم...

* * *

آثار زبيدة بين مكة والمدينة :

قال ابن جبير الأندلسي في كلامه على طريق مكة، وقد كانت حجته في عام 579هـ، «وهـذه المصانع والبـرك والآبار والمنازل التـي من بغداد إلى مكة هي من آثار «زبيدة» ابنة جعفر، انتـدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذه الطريق مرابع ومنافع تعم وفْـدَ الله كل سنة من لدن وفاتِها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لمـا سلكت هذه الطريق، وتوفيت ببغداد عام 216هـ، وقد خلفت آثاراً عديدة غير العين...»

وقـال ابن جبير أيضـا : «فاجتمع بعـرفات من البشـر جمع لا يحصى عدده إلا اللـه عز وجل، ومزدلفـة بين مِنَى وعَرَفات، من منى إليهـا ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات، مثل ذلك أو أشق قليلا، وتسمى المشعر الحرام : «جمعا».

قال الحريري في مقاماته :

وقلت لعـــاذلي : مهـــلا، فـإني
سأختـــار المقـــام على المقـــام
وأنفق مـــا جمعت بـأرض جمع
وأسْلُــوا بـــالحطيم عن الحطـــام

فلها ثلاثة أسماء... وقبلها بنحو الميل وادي محسر، ومضت السنة بالهرولة فيه، وهو حدّ بين المزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما، والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحوله مصانع وصهاريج، كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله...

أين تقع عين زبيدة :

في الطريق المؤدي إلى جبل عرفة، تقع «عين زبيدة» التي جمعت كل مصادر المياه المحيطة بمكة،(13) وأوصلتها إلى «أم القرى» لتوفير المياه للحجاج، ولسكان البلدة المقدسة...

يقول الشيخ غازي فيصل مدير عين زبيدة : «لقد كانت مكة قبل أن تقوم السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد،.. العين تسقى من بعض الآبار والعيون داخلها، وكانت الآبار كثيرا ما تنضب، وكان معاوية بن أبي سفيان، قد أجرى الماء إلى مكة من العيون والآبار في قنوات، وسرعان ما تقوضت، وأصاب الناس جهد شديد، حتى أمرت زبيدة بإجراء «عين حنين» بوادي نخلة ـ المعروفة الآن بالشرائع ـ بعد أن اشترت الأراضي التي كانت مياه العين ترويها، وأمرت بإجراء عين من «وادي نعمان» في قناة محفورة إلى عرفة، فمزدلفة، فالبئر الكبيرة، «بئر زبيدة» المعروف مكانها «بحبس الجن» على أربعة أكيال من مكة، وطول القناة 28 كيل، وتنبع عين نعمان من جبل حراء الذي يصل بين عرفة والطائف، وأجريت مياه، «وادي النّعمان» حتى بلغت مِنَى، وعندما اشتدت أزمة الماء، لا سيما في عرفة ومنى، أيام الحج، انتدبت زبيدة لهذا الأمر، وأسالت العين المسماة باسمها من مسافة نحو

13) يراجع في موضوع مكة المكرمة : رحلة صادق باشا، ص : 61، «وشفاء الغرام» ص : 259، وإلى «رسالة» السيد محمد صالح الزواوي مفتي المالكية بمكة المكرمة، و«مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت، ص : 207 ـ 224/ج : 1، و«تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، وغير ذلك من كتب الرحلات شرقية ومغربية.

أربعين كيل، وقد قدم كل من الخلفاء والأمراء، إضافة إلى الطريق، ولكن أطلق عليه إسم «السيدة زبيدة» للدور البارز الذي قامت به... والذي كان هدفها هو تسهيل الحج والسفر على الفقراء الذين كانوا يؤدون فريضة الحج أحيانا، سيراً على الأقدام، ويظهر ذلك من المسافات بين المحطات.

قال ابن رستة (تـ 300هـ) وشرب أهل مكة من القنوات التي حفرتها أم جعفر في خلافة الرشيد، وأجرتها من موضع يقال له «المُشاش» في قنوات رصاص(14)...

* * *

ومن المفيد الإشارة، إلى أن بعضها قد اقتضى العمل فيه أن تشق له الأنفاق على مسافات طويلة، وأن تنحت له الجبال، وأن تستخدم فيه كل الإمكانات الفنية والبشرية، وأن يدوم السنوات الطوال، وقد أشبع المؤرخون في ذلك إشباعا، وأوقفونا على سر من أسرار القدر، وعَمَل من أجل الأعمال، ربما شق مثله في عصرنا عصر الاختراعات والكشوف، والتَّقدم الباهر في تقنية الصناعات، ولكنها الهمم لا يقف دونها شيء، ولا يصدها عن تنفيذ عزماتها صاد، ولا سيما إذا صفت النية، وخلصت السريرة... وقد أتمت السيدة التركية فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان العثماني ما بَدَأَتْه السيدة «زبيدة»، وجددت أعمالها بمحاولة إسالة الماء من عين عِرفات إلى مكة عام 969هـ/1561م واستخدمت في هذا العمل الخبراء والمهندسين، وأنواع العمال المهرة من الشام ومصر واليمن والأُستانة، غير أن العملية صادفت مانعا صخريا صلدا طويل المسافة، فكان لا بد من نقر الحجر لمسافة ألفي ذراع، أي ما يوازي كيلا ونصف كيل، وكانت الطريقة الوحيدة التي استخدمت في هذا الجزء هي إيقاد النيران حول الجزء من الحجر مدة طويلة، ثم نقر هذا الجزء... وتكرار هذه العملية، وقد دامت حوالي عشر

14) الأعلاق النفسية»، ص : 316، تحقيق دي خوية/طبع ليدن عام 1892.

سنوات إذ وصلت المياه إلى مكة عام 979هـ/1571م، وكان يوم وصولها يوما مشهوداً مدت فيه الموائد، وتصدق على الفقراء، واحتفلت الأستانة به احتفالا كبيرا.(15) إذ كمل إجراءه على يد السيدة «مهروماه» بنت السلطان سليم إلى حيث يردُ الناس اليوم «عين زبيدة».

* * *

يقول أبو الوليد محمد الأزرقي في كتابه : «تاريخ مكة» : «كان الناس بعدُ في شدة من الماء، وكان أهل مكة والحجاج يلقون من ذلك المشقة حتى إن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهيم، وأكثر، أو أقل، فبلغ أم جعفر، فأمرت بحفر بركتها التي بمكة، فأجْرَت بها عينا من الحرم، فجرت بماء قليل، لم يكن فيه ري لأهل مكة، وقد عزمت في ذلك عزما عظيما، فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيوناً من الحل ــ أي خارج أرض الحرم، وكان الناس يقولون : «إن ماء الحل لا يدخل الحرم، لأنه يمر على عقاب وجبال، فأرسلت بأموال عظام، ثم رأت من يزن عينها الأولى، فوجدت فيها فساداً، فأنشأت عينا أخرى إلى جانبها، وأبطلت تلك العيون، فعملت عينها هذه بأحكام ما يكون العمل، وعظمت في ذلك رغبتها، وحسنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية «خل» فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضرب فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس، حتى أجراها الله، وأجرت عيونا فيها من الحل، منها عين «المُشاش»، ــ بين عرفات والطائف ـ واتخذت بركا، تجتمع فيها السيول، إذا جاءت، ثم أجرت لها عيونا من «حنين»، واشترت حائط حنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدا يجتمع فيه السَّيْل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد مثلها، وطابت نفسها بالنفقة فيها...»

---

15) «مرآة الحرمين» : ص :219 ـ 220/ 1.

ويقول ابن خلكـان : «إنها سقت أهل مكة المـاء، بعد أن كانت الـراوية عندهم بدينار، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال، وتَحْتَ الصَّخر، حتى غلفته من «الحل» إلى الحـرم، وعملت عقبة البستان، فقال لهـا وكيلها يلزمك نفقة كثيرة، فقالت : اعملها، ولو كانت ضربة فأس بدينار...»

* * *

وقد شـهد الدربُ منافسة طريفة بين زوجة هرون الرشيد وجاريته، فقد ساهمت السيدة «خالصة» جارية هارون الرشيد في عمارة الدرب، وأقامت بِرَكـاً ومَصَانع، وحفـرت آبارا، وبنت خانـات، وفي البستان بـركة سميت «بركة الخالصية» على بعد ثلاثة أميال منها...

درب زبيدة :

أقيم الـدرب في العصـر العباسي ليصل بين بغـداد عـاصمـة الدولـة الإسلامية، والأرض المقدسة.

وقد ذكـر الطبري أنه في عصـر العباس 134هـ : «ضـرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال»... وتم توفير ما يحتاجه المسافرون في الصحراء «المياه عـلى رأس هـذه الاحتيـاجـات، فحفـرت الآبـار، وأقيمت البـرك والخزانـات، وأقيمت الخـانات، وفقا لإقـامة وراحـة المسافـرين، ووضعت العلامات لتهـدي المسافرين، وأخيرا تم تأمين الطـريق من هجمات القبائل وقطاع الطرق.

وعندما تـولى هارون الرشيد الخـلافة عام 170هـ أدى فـريضة الحج سبع سنوات مرات، وفي كل مرة ينفق الأمـوال بسخاء على تعمير الطريق، وكان يخرج عاما لقتال أعدائه، والعام الذي يليه يقضيه في التأمل، ويؤدي خلالـه فريضـة الحج، وكما روى المقـريزي : انتعش الطريـق في عصره وأقيمت عليه الخـانات، فكـان يصحب معه خـلال رحلته مـائة من العلماء،

وفي إحدى المرات، اختـار أن يؤدي الفريضة سائرا على أقـدامه إلى مكة، وانعكس ازدهار الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد وانعكس على درب زبيدة بصفة خاصة فشهد أزهى أيامه...

وعندما خلف الأمين والده هـرون الرشيد عام 193هـ، انعكست الحرب الأهلية التي نشبت بين الأمين والمـأمون على الدرب، فلم يشهـد أي عمارة جديدة حتى وجه المأمون من ذرع الطريق فوجده بالأميال 712.

* * *

معاناة الحجاج في عهـد المعتصم :

يتولى المعتصم الخلافة، ومن بعده الواثق، ويعاني الحجاج في عهده، وينقل إلينـا الطبري وابن الأثيـر، كيف كانت كسـرة خبز تسـاوي درهما، وشربة ماء تبلغ 40 درهما، وكيف مـات عدد كبير من الحجـاج عطشا في عام 232هـ عنـدما «بلغت الشـربة عدة دنـانير ذهبيـة» فأعاد جعفـر حفر عشرين بئرا قـديمة على الطريق الذي يبدأ من زبالـة إلى لِينَة على الطريق أعلاما وبنى مواقد.

وفي عام 232هـ، بعد المتوكل عادت القبائل تهاجم القوافل على الطريق، ويقتلون الـرجال ويسبـون النساء وفي هـذه الفترة قـامت حركـة الزنج، وتبعتها حركة القرامطة، الذين أقاموا دولتهم شرق الجزيرة العربية، وكانت الأحساء عاصمة لها، وهدمـوا كل ما أقيم على الطريق من خانات ومصانع وعلامات، وأخـذت القوافل تسير في مواكب في جمـاعة الجنود المسلمين، ووصل الحال إلى توقيف الحجاج تماما، بسبب غياب الأمن، ونَقص المياه، وفضل الكثيـر من الحجـاج الانصراف عن هـذه الطـريق، وتجنب منـاطق الاضطراب، وأخـذوا يسلكون طـريق الشام أو البحـر الأحمر، ويـروي ابن الأثير أنـه في عام 406هـ مات 1400 من عشـرين ألفـا من الحجـاج على الطريق عطشا!!

لقد كان فقراء الحجاج لا يطلبون يوم عرفة غير الماء لعزته وكان بعض الأقـويـاء يستحضــره من الأمــاكن النــائيــة ليبيعــه، فيـربح فيـه الأمـوال الطائلة.(16)

قال العلامة قطب الدين الحنفي : «وكنت يومئذ مراهقا في خدمة والدي رحمه الله، وفـرغ الماء الذي حملنا من مكـة، واشتريت قربـةً صغيرة جداً يحملهـا الأنسان بأصبعيـه بدينـار ذهبـا» والفقراء يضجـون من العطش، يطلبون من الماء ما يبلون به حلوقهم في ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا منها، وتصـدقوا ببـاقي القِرْبة على من كـان مضطراً إليهـا من الفقراء، ثم عطشنـا جميعا عقب ذلك، وجـاء وقت الـوقـوف، والناس في شـدة الظمأ يلهفون، فأمطرت السماء، وسالت السيـول من فضل الله ورحمته، والناس إذ ذاك واقفـون تحت جبل الـرحمـة، فصـاروا يشـربـون من السيل تحت أرجلهم، ويسقون دوابَّهم، وحصل البكـاء الشديد من الحجـاج لما رأوا من رحمة الله بهم، وإحسانه إليهم.

* * *

وفي عام 1295هـ/1878م أنشئت في مكـة هيئـة «عين زبيدة»، وكـان عملها، وما يزال تعهد موارد المـاء ومساربه، بالإصلاح والبناء، تنفق الهيأة على ذلك من «صنـدوق خاص بهـا، له أمـلاك وأوقاف وأحبـاس، وتاتيـه تبرعـات وهِبات، ودخل عبـد العزيـز الحجاز، «وعين زبيـدة» التي يستقي منها سكان مكة والحجيج، تستقي الناس من اثنى عشر موردا... وانصرفت العناية إليها، فضوعفت مواردها

* * *

يقـول الأستـاذ الشاعـر الكبيـر خيـر الديـن الزركلي رحمـه اللـه في كتابه(17): «وغذاهـا الملك عبد العـزيز بعـد دخوله الحجـاز، بالمـال، وأمر

16) مرآة الحرمين : ص : 1/218.

17) «شبة الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» ص : 943.

بـزيادة المـوارد للجهات»، فـزيدت عشـرة أضعاف، كبيـرة متينة البنيـان، واستعيض عن مجاريها القـديمة ـ في داخل البلدة ـــ بأنابيب، وعَمَّم الماء في عرفات، فكثرت «الكبّاسات» في الشارع العام، والشوارع الفرعية، وفي طريق الحجيج، وتوفر في مزدلفة واتخذت الأسباب لتوفيره في مِنَى...

وعلى بعد كيل واحد من عرفات يتفرع من مجرى «عين زبيدة»، مجرى صغيـر، يملأ، «بـركـة الجاوي» وسعتهـا 500 متـر مكعب... وبعـد كيل ونصف، يتفرع مجـرى الأحواض «المحمل الشامي» وسعتها تقـارب بركة الجاوي، وفي أسفل «جبل الرحمة» حوض عام سعته ألف متر مكعب...

وفي «مِنَى» عنـد الكيلو متـر 25، وضعت آلة بخـارية لـرفع الماء من مجرى «عين زبيدة» إلى مِنَى، تمـلأ خزانات منه سنـويا قبل الحج بشـهر، وهناك صَهـاريج يملأهـا أصحابها من «عين زبيـدة» مباشـرة، وصهاريج يملأها المطر، ولا تستعمل للشرب».

ويقول السيد وزير المعارف السابق السيـد عبد العزيز الخويطر : «إن هناك ا لعديد من الدراسات حول «درب زبيدة»، ويتم الآن ترميم أجزاء من الدرب بصـورة تعيد لـه طرازه القـديم، وشكله التـاريخي، ويعـاد الغرض الأساسي منـه كمصدر للمياه؛ وصـدر قرار يجعل «درب زبيـدة» بدءا من الحـدود العـراقية، إلى مكـة من الممتلكـات الأثـرية، وأقـامت إدارة الآثـار بتسجيل، وترميم البِرك التي يمكن ترمِيمُها...

* * *

رسالة جامعية حول درب زبيدة...

في مكتبة جامعـة الرياض توجـد رسالة جامعيـة حول «درب زبيدة» قدمت إلى جامعة «ليدز» البريطانية للدكتور سعد الراشد...

وقد تحدث الأستـاذ السيد مصطفى نبيل الذي قام بـاستطلاع قيم في مجلة «العـربي» عن هذه الرسـالة، فقـال : «أهم ما تناولـه البحث، دراسة ميدانيـة قيمة، إذ زار المـؤلف خلالهـا مواقع الطريق، وتـوصل إلى بعض

الآثار الهامة التي لم تكن معروفة من قبل، وقام الباحث بدراسة مقارنة لطراز بناء البرك، مع كل من تونس والأردن وسيناء وجنوب النقب، وسوريا وإيران، وغرب الجزيرة العربية وجنوبها، وبَيَّن كيف استخدم الطريق في فجر الإسلام لجنود المسلمين الذين فتحوا العراق وفارس، وبدأ دراسته الميدانية من العقبة، وانتهى إلى بركة الخرابة، وتوقف عند 40 موقعا، وقدم وصفا لما يأتي :

- خزانات مياه وآبار وخانات في حالات مختلفة.
- تحديد الطريق القديم حيث زالت بعض أجزائه آثار الدرب التاريخي.
- الأعلام التي توضح الطريق التي كانت قائمة على طوله.
- جمع الأثار الفخارية والزجاجية والكتابات الأثرية، وقام بالدراسات الأثرية اللازمة عليها، وعثر على بعض العلامات القديمة في عصور مختلفة.

وتنتهي الدراسة بالمطالبة بالحفاظ على درب زبيدة لقيمته الثقافية، ولمنفعة السكان، واستفادتهم من بركه وآثاره...

وفي منطقة الشميسي اليوم مصنع لتعبئة مياه «عين زبيدة» في قوارير على أسس علمية حديثة...

وهكذا نالت مكة الكثير من الخير على أيدي حكام المسلمين وأثريائهم في مختلف الحقب والعصور، ومن ثَم كثرت فيها المدارس والسقايات والربط والزوايا والمساجد. مع وقُوفٍ لكلِّ هذه الآثار...

الفصل السادس :

وقوف المياه في العهد الإسلامي

سقي الماء من أعظم القربات :

يرتبط نشاط المسلم حول الماء، بالدين الإسلامي بمبادئه وقيمه ومُثُله، سواء من حيثُ اتخاذُ هذا المصدر الحيوي سبيلا إلى التقرب إلى الله بإغاثة اللَّهَافَى، وتيسير سُبُلِه لهم، أو اتخاذ الماء مصدراً من مصادر التفكر العقلي في قدرة الباري، واتصال ذلك بالإيمان بإلاهٍ عظيم يدبر الكون، ويسخر مصادر الطبيعة، أو في النظم والقواعد الشرعية التي سنتها الشريعة الإسلامية من أجل المحافظة على الماء، وجعل ملكيته عامة يشترك فيها الجميع...

ويلاحظ بأن الديانات السماوية أنها تعطي الماء أهمية كبيرة... وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون إلى آلهتهم بتقديم الماء إلى العطاشى، وفرضت عليهم تقديم الماء إلى الظمآن لإغاثته وإنقاذه من الثبور والهلاك... وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة...

ولقد ألقى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مسؤولية الموتى بالعطش على الذين يقصرون في إرواء المحتاجين.(1)

ويروي ابن القيم أن عمر أتى بامرأة جهدها العطش، فمرت على راع، فاستسقت، فأبى أن يسقيَها إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال علي : «هذه مضطرة، أرى أن يخلى سبيلها، فمن اضطر غير باغ ولا عاد، فلا إثم عليه... فخلى عمر سبيلها.(2)

1) الأحكام السلطانية ـ ص : 203.

2) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، لابن القيم (تـ : 751هـ) ص : 53. وطبعة الآداب بمصر 1317 ـ المبسوط : لشمس الدين السرخسي (تـ : 490هـ ط : السعادة بمصر : 1324 ثلاثون جزءا، ص 581/9.

وفي شرح قول الله تعالى : ﴿**ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنة، أن أفِيضُوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله**﴾(3) يقول الأمام القرطبي(4): فيه ثلاث مسائل :

الثانية : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال... وقد سئل ابن عباس : «أي الصدقة أفضل؟ فقال : «الماء، أو لم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة» : ﴿**أن أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله**﴾.

وروى أبو داود أن سعداً أتى النبيﷺ، فقال : أي الصدقة أعجب إليك؟ قال : «الماء».. وفي رواية.. فحفر بئرا.. وقال : هذه لأم سعد...

وعن أنس قال : قال سعد : يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال : نعم؛ وعليك بالماء.

وفي رواية أن النبي عليه السلام أمر سعد بن عبادة أن يستقي عنها الماء، فدَلّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى...

وقد قسم عمر بن الخطاب مُرُوطاً بين نساء من نساء المدينة، فبقي مِرْطٌ جَيِّد.. فقال له بعضُهم : يا أمير المومنين... إعطِ هذا بنتَ رسول اللهﷺ التي عندك... يريدون أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، فقال عمر : «أم سليط أحق، أم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول اللهﷺ.. قال عمر، فإنها كانت تزفر(5) لنا القرب يوم أحد.(6)

وكان سعد بن عبادة يسقي الناس في جرار الماء بعد موت أمه، وهذه الجرار كانت في جدة من جهة الشام قرب ثنية الوداع.(7)

---

3) سورة الأعراف، رقم الآية : 5.

4) الجامع لأحكام القرآن، ص : 215/ 7.

5) في المشارق : تزفِرُ لنا القِربَ : أي تحملها على ظهرها تستقي الناس منها.

6) في صحيح البخاري عن ثعلبة بن أبي مالك [التراتيب الإدارية ص : 103/ 1.

7) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» للشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي السندي، ص : 115.

وقال بعض التـابعين : من كثرت ذنوبُـه، فعليه بسقي الماء، وقـد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلا مومنا موحِّدا وأحياه...

وعن أبي هـريرة رضـي اللـه عنه، كمـا في رواية البخـاري، أن رسـول اللهﷺ، قـال : «بينا رجل يمشـي بطريق، اشتـد عليه العطش، فنـزل بئرا، فشرب منها ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثري من العطش، فقال : لقد بلغ هذا الكلبَ مثلُ الـذي بلغ بي... فمـلأ خُفّـه، ثم أمسكـه بفيـه، ثم رَقِيَ، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له.(8)

وعكس هذا مارواه مسلم عن عبد اللـه بن عمر، أن رسـول اللهﷺ قال : «عـذبت امـرأة في هـرة سجنتها حتى مـاتت، فـدخلت فيهـا النـار، لا هـي أطعمتهـا، وسقتهـا، إذ هي حبستهـا، ولا هـي تـركتهـا تأكل من خشـاش الأرض.(9)

قالوا : يا رسـول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ قال : «في كل ذات كبد رطبة أجر».(10)

وفي طبقات ابن سعد(11) : «واتخذ عمـر دار الرقيق، وقـال بعضـهم : الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمـر والزبيب، وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع والضيـف ينزل بعمر.. ووضـع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح به من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء...

وفيها أيضـا(12) : أن عمـر استأذنـه أهل الطريـق يبنون مـا بين مكـة والمدينة، فأذن لهم، وقال : «ابن السبيل أحق بالماء والظل»...

وقـد اصطنع هشـام بن إسماعيل بـالعقيق بـالمـدينـة المنورة، «جَـرَّ هشام»،(13) وكان يوضـع فيها جِرَارٌ كبار يستقي منها الناس، مرّ هشام بن

8) أي أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر ما جازاه به عند ملائكته، عن القسطلاني.
9) خشاش الأرض : مثلة الخاء، هَوَامُها وحشراتُها.
10) رواية البخاري وأحمد وابن ماجة : «في كل ذات كبد حراء أجر».
11) ص : 203 ـ 204/1، وتاريخ أبي الفدا : ص : 174/1، وابن الجوزي، ص : 52 ـ 53.
12) ص : 220/3.
13) بالفتح وتشديد الراء.

عبد الملك عليها، فقيل لـه : «يا أمير المومنين، هذه جرّ جـدك هشـام، فأمر بمصلحتها، ومـا يقيمها من بيت المال، فكـانت توضـع هنـاك جرار يسقي منها الناس».(14)

وعن عبد اللــه بن مغفّل رضي الله عنه : أن النبيﷺ، قـال : «من حفر بئـرا، فلـه أربعون ذراعـاً عَطنـاً لمـاشيتـه» كما رواه ابـن ماجـه بإسنـاد ضعيف.(15)

* * *

ابن السبيل أحق بالماء والظل :

وأول من قام بإصلاح وتوسيع المسجد الحرام سيدنا عمر بن الخطاب، وقد استأذنـه أهل المياه في أن يبنوا منـازل بين مكة والمـدينة فأذن لهم، وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالماء والظل.(16)

ولقد كـان عثمان رضي الله عنـه أبرّ الناس بـالناس، وأرفق المسلمين بالمسلمين، وأنداهم كفا، وأسخاهم يداً، وأسمحهم نفسا، وكان سخيا بماله، ينفق منه بغير حساب في بَرّ الأصدقاء والأوِدّاء...

فقد كان رضي اللـه عنه سخي النفس واليد بمالـه في سبيل الله، فهو اشتـرى، كما هـو معلوم في محلـه، «بئر رومـة» من مالـه بألوف كثيـرة، وجعلها للمسلمين يدلي فيها كما يدلون، ووعده النبيﷺ بخير ما فيها في الجنة... وإليه يشير البوصيري في همزيته حيث يقول :

حَفَـرَ البئـرَ، جهـزَ الجيشَ، أهـدى الهـــ
ــــديَ، لمــا أن صــده الأعــداء

* * *

14) «عمدة الأخبار» ص : 254.

15) «بلـوغ المرام من أدلـة الأحكام» للحـافظ ابن حجر العسقـلاني (تـ: 852هـ) في بـاب : إحياء الموات.

16) المقريزي : «الـذهب المسبوك، بذكر من حج مـن الخلفاء والملوك»، ص : 43 ـ 44، طبقات ابن سعد، ص : 220/3.

وهذا على كرم اللـه وجهه يقف بئرا، يتصدق بها، ويقي بهـا وجهه حَرّ النار يوم التناد، فقـد قال أبو نيزر(17) : جاءني علي بن أبـي طالب رضي الله عنه، وأنا أقوم بالضيعتين : عين أبي نيزر، والبغيغة.. فقال «هل عندكم من طعام؟ فقلت : طعـام لا أرضاه لأمير المومنين، قرع مـن قرع الضيعة، صَنعته بإهالة سَنْخَهُ،(18) فقال : عليّ به، فقـام إلى الربيع،(19) فغسل يديه بالـرمل حتى أنقاهما، ثم ضم يـديه، كل واحدة منهما إلى أختهـا، وشرب حُسّاً من الـربيع... ثم قال : يا أبا نيـزر : إن الأكف أنظف الآنيةَ، ثم مسح كفيـه على بطنه، وقـال : «من أدخلـه بطنُه النـار، فأبعـده الله... ثم أخـذ المِعول، وانحـدر في العين، وجعل يضـرب، وأبطـا عليه الماء، فخـرج، وقد تنضح جبينه عـرقاً، فانتكَت العـرقَ عن جبينه، ثم أخذ المِعـول، ودعا إلى العين، فأقبل يضرب فيها، وجعل يهمهم، فانثالت كأنها عُنُق جَزُور، فخرج مسرعـاً، فقال: أشـهد الله، أنهـا صدقة علي بِدَوَاةٍ وصـحيفـة، فعجلت بهما إليـه، فكتب : «بسم اللـه الرحمن الـرحيم؛ هـذا مـا تصدق بـه علي أميـر المومنين، تصدق بالضيعتين المعـروفتين «بعين أبي نيزر»، «والبُغيغة»(20) على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ليقي بها وجهَـه حرّ ا لنار يوم القيامة، ولا تباعا، ولا تورثا حتى يرثها الله، وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين، فهما طلق لهما، ليس لأحدٍ غيرهما... فركِبَ الحسن دين» فحمل إليه معاوية بعين أبي نيـزر مائتي ألف دينار، فأبى أن يبيع، وقال : إنما تصدق بهما أبي ليقي الله وجهه حرّ النار يوم القيامة...

* * *

---

17) «الكامل» للمبرد، ص : 141/2.

18) الإهالة : الودك.. سنخة : متغيرة.

19) جدول ماء.

20) البغيغة : بضم أولـه على لفظ التصغير، وهي البئر القريبـة الرشا؛ صـارت لعلي بن أبي طالب بينبع [معجم ما استعجم، ص : 262/1، «عمدة الأخبار» للعباسي، ص : 241.

وكـان أهل مكة يقتصـرون على شـرب مـاء الآبار التي بـداخل البلـدة وخارجها، فلما كانت خلافة معاوية أجرى إلى مكة عيونا عشرة، في قنوات عملها لذلك.(21) ثم تنـافس الأمـويـون في مكة فـي حفر الآبـار ووقفهـا، واتسعت إقطاعيتهم الزراعية في الطائف وضواحيها...

ففي إحدى زيـارات معاوية بن أبي سفيان الخليفـة الأموي الأول لمكة حاجا، أو لأخذ البيعة لابنه يـزيد، سمع شكوى أهلها من جفاف الآبار التي كانوا يستقـون منها، فأمر بالبحث عن العيون والينابيع في أعـاليها، فظفر بعشر عيون أجراهـا إلى جوار بيت الله الحرام، فكان هذا مبـدأ سقاية مكة بماء العيون...

وهكـذا عُني معاويـة بأمر الشـرب في مكة، فأنشأ لهـا عشر عيـون، ذكرها الأزرقي،(22) وعين مـواقعها، وقـال : أنه اتخـذ لها أخيـافاً، فكـانت بساتين، وفيها النخل والزرع، منها عيون في المعلاة، والحَجُون، والشهداء، وبعضُها في ضواحي مكة، وكان لبعضها مشارع يردها الناس، ومنها عين في أسفل مكة، تمر في بطن واديهـا تحت الأرض، ولها مشرع يستقي منه الناس...

* * *

واحتفل ابن الزبيـر بهذه العيون في عهده، واحتفر بعـض الآبار، وبذل جهـوداً طيبةً في تنميـة الـزراعة، فأنشأ البسـاتين من مـاله الخـاص في مـواضع من النقا والسليمـانية مكـان الحلقة اليـوم التي في المعلاة، وقـد تغيرت اليوم، ونقلت إلى جوار ذي طوى بجـرول، ولو دام ابن الزبير، ولم تشغله الفتن والحروب لنهض بشـؤون مكة، فقد كانت نظرتـه إلى حياتها تختلف عن نظرة الذين أرادُوها لتكون مستودعا للعجزة والعاطلين...

---

21) مرآة الحرمين، ص : 210/1.

22) أخبار مكة، ص : 183/2.

ولما حج عبد الله بن عامر جمع العيون، وصرفها في عين واحدة، واتخذ حياضا بميدان عرفة، أجرى إليها ماء العين، فبقي الناس في راحة من جهة الماء بمكة وعرفة.(23)

* * *

أعمال خالد بن عبد الله القسري :

من أعمال خالد بن عبد الله القسري، أنه حفر بئراً ساق منها الماء حتى أخرجه في المسجد عند زمزم.(24)، وكان هذا الماء يجري في قصب من رصاص،(25) ثم يظهر في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام، وتفرغ الفسقية في سرب من رصاص يخرج منه الماء إلى بركة كانت في السوق عند باب الصفا يتوضأ منها الناس،(26) وكان باب الصفا أقرب إلى صحن المسجد منه اليوم، ويكاد يجمع المؤرخون أن خالدا ساق ذلك الماء إلى المسجد ليضاهي به زمزم،(27) وقد استبعد الأستاذ أحمد السباعي في كتابه : «تاريخ مكة»،(28) أن يكون بعضهم قد أشاع هذه القصة انتقاما منه أو من بني أمية، لأن أعمال خالد في مكة مالا يتفق مع هذه الجرأة على الدين... ويكفي ما نقله المسعودي من غضب خالد بن عبد الله القسري عندما بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موفد
وحبذا الكعبة من مشهد

23) «مرآة الحرمين»، ص : 1/210.

24) «تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، ص : 1/131.

25) جلب الماء العذب فيما بين زمزم والحجر الأسود من أصل جبل ثبير، وكان ينادي مناديه : «هلموا إلى الماء العذب، واتركوا أم الخنافس، يعني «زمزم» [الروض المعطار للحميري، ص 293].

26) المصدر السابق.

27) أخبار مكة، للأزرقي، ص : 2/85. وقد نظم «تاريخ مكة» للأزرقي في أرجوزة، تقي الدين عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك الأزمنتي (ت : 722هـ) [طبقات الشافعية. ص : 6/130].

28) من مطبوعات نادي مكة الثقافي عام 1981 تناول فيه دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران.

وحبـــذا الـــلاتـي يـــزاَحمننـــا
عنـــد استــلام الحجـــر الأســـود

وأنه قال : أما أنهن لا يزاحمنك بعد هـذا».. ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف، وأجلس عند كل ركن حـرسا معهم السياط، ولا أعتقد أن رجـلا يغضب لاختـلاط النســاء، يستطيع أن يجرأ علـى محاربـة مـاء زمزم.... بيـد أن خالـدا كان يمتـاز بشـيء من الشدة فـي معاملتـه، ولـعل لذلـك، أو لمـقت بعضـهـم، حكـم بني أميـــة شيـئا من الأثر فـيما أشاعه الموتورون عنه.

ومن أدلة شدّة خالد ما روي عنه أنه أرسل إلى عبد الله بن شيبة ليفتح له الكعبة، في وقت لم ير عبد الله أن يفتحهـا فيه، فلما رأى خالد امتناعه، أمر بـه، فضرب مائة سـوط، فرحل ابن شيبة حتى أتى سليمـان بن عبد الملك في الشام، فشكا له منه، فكتب سليمـان إلى خالِدِ في مكة محمد بن هشام أن يضرِب خالداً مائة سوط، ففعل...

* * *

ويأخـذ الحجاج العـراقيـون مؤنتهـم الماء استعـدادا لـدخول منـاطق الصحراء.(29)

وفي عام 104هـ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك عامله على الكوفة عمر بن هُبيرة بأن يقوم بتعبيد طريق الكوفة ـ مكة، وأن ينشـىء فيها المحطات، وأن يقوم بحفـر الآبار حيث إن حجـاج الركب العراقي كـانوا يجـدون عنتا وصعوبة في حصولهم على الماء.(30)

ولهذا يعتبر يـزيد ابن عبد الملك أولَ خليفة أمـوي يهتم بطريق الركب العراقي، ولم تذكـر المصادر التاريخية أية خدمات أخـرى كبيرة قدمت من قبل خلفاء الدولة الأموية في هذا الطريق...

29) «درر الفوائد» : الجزيري، القاهرة، ص : 466.
30) «الكامل»، لابن الأثير، ص : 500/5.

ويمكننا أن نفترض أن موارد المياه كانت كافية لسد حاجة الحجاج في هذا الطريق من بعدما عمله يزيد بن عبد الملك.

وفي آخر دولة بني أمية 132، تخربت العيون التي كانت تمد العين الكبيرة، فانقطعت المياه عن أهل مكة، وأصابهم كما أصاب الحجاج من جراء ذلك جهد شديد، حتى كانت القربة تباع بعشرة دراهم وأكثر، ورجع الناس إلى مياه الآبار، كما بدأوا، واستمروا على ذلك إلى خلافة أمير المومنين هارون الرشيد (170 ـ 193) فأمر بإصلاح ما تخرب من العيون، ولكن ما لبث أن تقطع ماؤها، وأصاب الناس من جراء ذلك شدة شديدة...

* * *

وفي العهد العباسي، أمر داوود بن علي بن عبد الله بن العباس، والي مكة، في عام 132هـ، بإزالة بعض آثار بني أمية في مكة، فأزال الفسقية التي جعلها خالد القسري بين زمزم والمقام، والبركة التي كان الناس يتوضأون منها عند باب الصفا، وصرف ماءها إلى بركة أخرى بالقرب من المسجد في جهة أخرى.(31)

ولم يكن والي مكة خالد بن عبد الله القسري إلا ممثلا، في الحقيقة، لسليمان بن عبد الملك، فهذا هو الذي كتب إليه بأن أجر عينا يخرج من مائها العذب الزلال حتى تنبط بين زمزم والمقام، فعمل خالد بركة باصل «ثبير» ثم شق من البركة عينا تخرج إلى المسجد الحرام، تجري في قصب من رصاص، حتى أظهره من فوَّارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والمقام، فلم تزل هذه العين حتى هدمها داوود بن علي بن عبد الله بن عباس في خلافة أبي العباس السفاح، وصرف العين إلى بركة بباب المسجد.(32)

31) «تاريخ مكة»، ص : 1/136.

32) المقريزي، ص : 32 ـ 34.

وقد تحدث القاسم بن يوسف التجيبي السبتي(33) عن مياه الحرم الشريف، ولا سيما في شهر رمضان فقال : «وطوال شهر رمضان الشريف يسبِّل أهل اليسار، ومن يبتغي الأجر، الماء، بالحرم الشريف، فتراهم يضعون بالمسجد الحرام، قبيل المغرب، قلالا بيضاء، يسمونها «الدوارق» فيملأونها من «ماء زمزم» المباركة، ومن غيرها من الآبار، ويبردون ذلك، ويجمِّرون تلك الأواني بالعود الهندي، وتعم هذه الدوارق سائر جهات الحرم الشريف، ويضعون حولها كيزانا بيضاء يسمونها «الغراريف» فإذا أذّن بالمغرب، بادر الصائمون لشراب الماء من تلك الكيزان، سواء في ذلك غنيهم وفقيرهم... والشراب منها لجميع الناس مباح...

* * *

الدوارق :

في سيرة ابن إسحاق من قصة لأبي رافع : «وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حفرة زمزم!! ونحوه في ترجمته من طبقات ابن سعد.(34)

ويطلق المكيون عامة ـ والزمامة منهم خاصة على الآنية التي تحمل ماء زمزم الدورق وجمعها دوارق، وهي كلمة أعجمية معربة، ويوجد نص يرجع إلى ما قبل ثلاثمائة سنة خلت يقول : «إن الدورق كان في ذلك الحين يتخذ لاستيعاب وحفظ المياه، بل إن نص التجيبي قبله بكثير استعمل كلمة الدوارق...

فقد أورد شهاب الدين الخفاجي المصري (977 ـ 1069هـ) في كتابه : «شفاء الغليل» : أن أهل مكة يُطلقون الدورق على جرة ا لماء، فاستعماله

33) «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص : 1/63، لأبي القاسم التجيبي السبتي محدث، ناقد للأسانيد، يقول الشعر، حج وألف في حجه رحلة كان السلطان أبو سعيد المريني يعظمه، ويجله، وخرج له من مروياته أربعين حديثا، في فضل الجهاد والحث عليه (تـ : بسبتة عام 730هـ) أنظر ترجمته في : «بلغة الأمنية، ومقصد اللبيب»، و«اختصار الأخبار، عما كان بسبتة من سني الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي، ص : 18، ط : الملكية.

34) التراتيب الإدارية، ج : 2/ص : 63.

بهذا المعنى واللفظ قـديم.. وهناك أوان أخـرى كانت تستعمل بمكـة، ولها مصانع في عواليها، منها : الربعي، والغـلاية، والبرادة... وكانت كلها بمثابة الثـلاجات الطبيعيـة ويعتني بها الجميع في فصل الصيف وزمن الحـرور، ويتأنقون في زخرفتها وتلوينهـا، ومنها الصغير والكبير، وقد انقرضت أو كادت بعدما كان لها من مظهر جميل على أطناف الأسطحة، ورفارف الدور والمناور، كما كانت تطيب بالتبخير أو التجمير إما بالمصطكى، واما بغيرها من أنواع الطيب، وقد توارت، بعدما أرْوَتْ.

وقد تحدث عن الدوارق التي كانت تقدم فيهـا مياه زمزم بمناسبة شـهر رمضـان المعظم كل مـن ابن بطوطة، وابن جبيـر في وصفهما لبئـر زمزم، حيث كان هذا الوصف مرتبطاً بذكـر هذه الآنية المستعملة لسقاية الحجاج أو المعتمرين، فابن جبيـر يقول في رحلته (579هـ) بعد وصفه لبئر زمزم وسقايـة العباس : «...ويخـرج مع الليل لسقي الحـاج في قلال يسمـونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد»...

ويذكر ابن بطـوطة، في رحلته، «قبة زمزم»، في عهـد المماليك الأتراك والشـراكسة، ومـا يجاورهـا من القباب، فيقـول : إن قبة زمـزم مفروشـة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبـة سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عم الأرض نحو خمسة أمتار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مصطبة دائرة يقعد عليهـا الناس للوضــوء، ثم وصف قبة العباس بمـا وصفها ابن جبير في عهد الأيـوبيين، وذكر الدوارق التي كان يبرد فيهـا الماء، وقال : وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنها مصحف بخط زيد بن ثابت عام 18.

* * *

وكان أمير مكـة، هو الذي يرشح السقاة أو الزمـازمة لسقي الحاج في المسجد مـن ماء زمـزم، بل إننا نـرى اليوم في الشبيكـة، أحد أحيـاء مكة سبيلاً خارجا من دار الوزير السابق زكي عبده اليماني يرتوي منها العموم

والحجاج طَرَفي النهار وزُلَفًى من الليل، بل إننا نجد، وإلى اليوم طائفة من هؤلاء السقاة يوزعون مياه زمزم في الشوارع، وقد يتكلفون بإيصالها إلى بعض البيوت...

وهكذا عرفت قديما، وإلى اليوم، بعض البيوتات التي ترصد أهبتها في شهر رمضان لتولي مسؤولية العمل في المسجد الحرام، وتوزيعه في ساحاته وباحاته، ويعرفون بالزمازمة نسبة إلى ماء زمزم.

واليوم تحظى هذه المهنة الشريفة بدعم من جلاة الملك فهد.

وهناك كتاب بعنوان «صور وذكريات عن ا لمدينة المنورة» يتحدث فيه الأستاذ عثمان حافظ عن دوارق الماء المبرد في الحرم النبوي قديما.. حيث كتب :

وكان عن يمين الداخل لباب السلام (زقاق الخياطين) وهذا الزقاق نافذ إلى (ذروان) وفيه معظم سبل الدوارق التي يأتي بها سقاه المسجد النبوي في أوقات الصلاة، وكان لمعظم أسر المدينة مكان مخصص بالمسجد النبوي يجلسون إليه ويضعون الكاسات النظيفة على الدوارق لسقيا الناس، وكنا نخرج من الكتاب في الظهيرة نبحث عن دوارق الماء المبرد فلا نجدها إلا عند دكة الأغوات (خلف المقصورة النبوية).

ولا يؤتى بهذه الدوارق بكثرة إلا في أوقات الصلاة، وكان من أكبر السبل من هذه الدوارق سبيل الشيخ (حسين جباد) بقرب باب الرحمة، وكان يضع أمامه عدة صناديق من الصناديق المصفحة بالزنك لحفظ الدوارق وجميع الصناديق التي توضع بها الدوارق داخل المسجد مصفحة بالزنك لئلا تلوث بقايا المياه المسجد.

وقد تحدث محمود سليمان بيطار عن مهنة الزمازمة، فقال :

في الحقيقة نحن ورثنا هذه المهنة من والدنا الذي كان أحد كبار مشايخ الزمازمة. وقد أحببنا أنا وإخوتي هذه المهنة التي شرفنا الله بها.

ونعتبر مهمة الزمازمة وساما على صدورنا، وأضاف قائلا : منذ وفاة الوالد ونحن نواصل أعماله التي كان يقوم بها في شهر رمضان المبارك، ونحن الآن نستعد في كل عام لشهر رمضان منذ وقت مبكر حيث يوجد لدينا أزيار نقوم بتعبئتها بماء زمزم وتبخيرها بالمستكة، وهي الطريقة المعروفة والمتبعة لدى الزمازمة في مكة المكرمة.

ويضيف البيطار قائلا : إن الذكريات الجميلة في رمضان لا تنسى، فقد كان في الماضي أكثر الزمازمة يمارسون مهنتهم في رمضان، حيث يجهز الزمزمي الفرشة والدوارق والشراب داخل المسجد الحرام، وعندما يؤذن المؤذن للمغرب لا يفكر في الإفطار، بل يقف لسقاية العمار والصائمين.

ورغم ذلك فإنك تجد كل زمزمي سعيدا وفخورا بهذه الخدمة التي يقدمها للصائمين، والحقيقة نحن الآن نمارس المهنة استمرارا لإحيائها حيث كادت تندثر بسبب التكنولوجيا الحديثة وابتعاد الكثير من الناس عن التراث والاهتمام بصنعة الآباء والأجداد.

ويواصل الزمزمي محمود بيطار قائلا : إن مستقبل الزمازمة حاليا يبشر بالخير، فالمهنة تحظى بدعم من خادم الحرمين الشريفين حفظه الله وكذلك هناك تطور في طريقة توزيع ماء زمزم عن طريق مكتب الزمازمة، والحقيقة نحن نجد التشجيع المستمر من المواطنين والمسؤولين، ونقوم بالمشاركة في المناسبات التي تقام في مكة المكرمة وجدة، وكما قلت نحظى بتشجيع دائم.

وعن المناسبات التي يشارك فيها قال البيطار : لقد شاركنا في وضع حجر الأساس لمشروع جامعة أم القرى تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين، وسنويا نشارك في معرض الصناعات الوطنية، وكذلك لدينا مشاركات أسبوعية في نادي مكة المكرمة للفروسية، بالإضافة إلى الدعوات التي وجهت لنا للمشاركة في معرض المملكة بين الأمس واليوم،

ولم تتح لنا الفرصة لظروف خاصة، وسوف نشارك في المستقبل إن شاء الله.(35)

كما تحدث السيد جعفر بن السيد إسماعيل المدني البرزنجي في القرن الثالث عشر عن وضع السقائين للدوارق بالمسجد الشريف.(36) قال :

«وأما وضع السقائين الدوارق بالمسجد الشريف فالذي يظهر لي من كلام ابن فرحون أنه قديم، فقد قال وكان ممن أدركته من السقائين بالحرم الشريف الشيخ محمد السقا المعروف بأبي حسن هو جد أولاد الشيخ محمد الكازروني لأمهم، كان رحمه الله يملأ المسجد الشريف بالدوارق يضعها من باب الرحمة إلى باب النساء ويجعل في أعناق الدوارق مقطا يقيدها به حتى لا تسرق ولا تغير من مكانها وما علمته يأخذ على ذلك أجرة».

* * *

قال ابن عبد الحكم رحمه الله : «سمعت مالكا يسأل عن الماء يسقى به المسجد الحرام، أترى أن يشرب منه؟ قال : «نعم» وإنما جعل للعطشان، ولم يرد به أهل المسكنة، فلا يترك شربه...

وقال ابن حبيب : «رأيت القرب بالماء العذب معلّقة بمسجد رسول اللهﷺ، على الحصباء، وتحتها أقداح نضار، فمن أحب شرب...

وقال ابن القاسم : «رأيت مالكا يشرب الماء في المسجد الحرام، ورأيت ابن الماجشون وغيره من علماء المدينة يشربون الماء في المسجد، وسمعت من ينادي على الدوارق المذكورة : «الماء للسبيل، سبيل فلان بن فلان، ويسمي الذي سبَّله، والله ينفع الجميع بنياتهم بمنه وكرمه...

* * *

35) صحيفة «المدينة المنورة» عدد : 9074.

36) «نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين»، وانظر مجلة العربي، ع : 407.

الخلفاء.. والمصانع :

كان ا لخلفاء يقفون أموالا طائلـة لبناء المصانع في طريق ركب الحاج، ويرصدون نفقات هـائلة قبل مسيرة الركب حيث ترسل الحكـومة العربية المسلمة إلى الآبار التي في طريق الحج من يصلحها وينقيها...

فـاهتم خلفاء بني أميـة والعبـاسيين بطريـق الحج الموصل بين مكـة والعراق عبـر الجزيـرة العربية، وأمـروا ببناء منازل للحجـاج ينزلـون فيها لشرب الماء والراحة من وعثاء السفر، والتزود بالماء لمواصلة السير...

ولما تولى أبو جعفر المنصور عام 136هـ أمر ببِناَء منازل أخرى على هذه الطريق، ويـذكر لأبي جعفر في طريق الحج هـذا بِركة بأسفل المسلح على مقربة من المدينة كان الحجاج يـروون بها، وكانت تعرف ببركة أمير المومنين...

وعندما حج أبو جعفر المنصور بالناس عام 136هـ، وزع أعطيات على الأعراب القـاطنين في طريق الـركب العراقي، كمـا قدم لهم الأطعمـة، وأمر بحفر الآبار، وتعبيد الطرق، واهتم بالسقاية على امتداد طريق الركب...

وفي عام 148هـ حج بـالناس للمـرة الثالثـة، وأمر بإصـلاح الآبار في طريق الركب العراقي.(37)

ومن القصور التي كـانت لأبي جعفر المنصور في طريق الحج لـراحته قصر يعـرف بالعتيق، كان أبو جعفـر قد بناه، وفيـه بركة مربعـة سعتها تسعون ذراعا إلى خمس وأربعين، وفيه حوض أيضا...

وقـد بنى الخليفة المهـدي المصانع، وهـي أحـواض لجمع ماء المطـر، وحفر الآبار والبـرك، تحمل اسم المهدي بعد وفاتـه، وكان المهدي يشجع على حفر الآبار، ويعوض المساهمين في ذلك.

وفي عـام 160هـ حـج بالناس الخليفـة المهـدي، وقـد حمـل محمد بن سليمان الثلج معه على طول الطريق إكراما للخليفة.(38)

---

37) «الكامل» لابن الأثير، ص : 49/6.

38) المصدر السابق، ص : 56/6.

ويعتبر الخليفة المهدي أول خليفـة يحمل الثلج من طرق ا لحج، ويبدو أن وقت الحج في هذه السنة كان قائظاً...

وفي سنة 164هـ لحق حجـاج الركب العراقي عطش شديـد حتى كادوا يهلكون، وحينما علم الخليفة المهدي بذلك غضب غضبا شديداً.(39)

وقد أمـر المهدي في السنة التـالية بإنشـاء محطات للبريـد في طريق الركب العراقـي والطرق الأخرى... ولعله بعمله هـذا أراد أن يكون على علم بأحوال الحجـاج في ركب الحج وما يجدونـه من صعوبات إذ أنـه أمر في نفس الوقت بزيادة عدد الآبار في طريق الحج العراقي...

والمنازل والبـرك التي كان للـرشيد فضل في بنـائها أو حفـرها، فهي قصر الخلفاء الذي كان ينزل فيه، ويقع على بعد ميل ونصف من الخزيمية بموضع يعرف «بالمنتصفة» وفيه بئر يعرف «بالبرود»، وبركة مربعة في : «ذات عرق» على بعد ميلين ونصف من مسجد الرسول.(40)

وفي عام 180هـ لما بويع لهرون الرشيد بـالخلافة، وحج بالناس، قام بتعمير طريق الركب العراقي وغيره، وأمر بحفر الآبار، وتوزيع المال على الأعراب القاطنين على هذه الطرق.(41)

* * *

فهرون الـرشيد العباسي عُنِيَ بالعيـون التي طمرت في مكة بعـد عهد معاوية، فأحياها، وصرف مياههـا، في عين واحدة يقال لها «الرشا» واتخذ البرك لهـا في أعلى مكة وأسفلها تصـب فيها الماء، فيستقي منهـا الناس، وتلك كانت عادتهم قبل إنشاء موارد الماء في القرون المتأخرة...

وممن عُنِيَ بأمر الحج من خلفاء بني العبـاس في عهدهم الأول الخليفة المتوكل على اللـه، فقد حفر آبـارا، وبنى قصورا على طـريق الحج، بل إنه

39) «درر الفوائد» : الجزيري : القاهرة، ص : 217 ـ 219.

40) الحربي أبو إسحاق (تـ : 285هـ) : «كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة» نشر: حمد الجاسر ـ أنظر : «هدية العارفين» ص : 4/ ج : 5.

41) «درر الفوائد» الجزيري، ص 221.

كان لأحد موالي هرون الرشيد واسمه حسين الخصي آثار، أيضا، على هذه الطريق طريق الحاج، وحفر عدة آبار...

* * *

سيدات تركن آثاراً كبيرة في طريق الحج :

هناك سيدات عرفن باهتمامهن بأمر الحج، مثل «خالصة» جارية الخيزران، أم الخليفتين الهادي والرشيد، التي تركت آثارا كثيرة على طريق الحج تشهد لها باهتمامها بأمر الحج...

وأم المتوكل السيدة شجاع، وسيدة أخرى كانت لها شهرة في دولة بني العباس هي السيدة شغب أم الخليفة المقتدر بالله المتوفاة عام 321هـ، وكانت تملك أموالا عظيمة تفوق الإحصاء كما يقول ابن الجوزي،(42) وكانت تواظب على مصالح الحاج، وتبعث خزانة الشراب والأطباء معهم، وتأمر بإصلاح الحياض الواقعة في طريق الحجاج.

ولقد نالت زوجة الرشيد زبيدة أم الخليفة، واسمها أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور، شهرة واسعة بسبب اهتمامها بأمر الحج وبذلها أموالا في سبيل توفير المياه في الصحراء على طريق الحج ما بين الكوفة ومكة، وكذلك بين مكة والمدينة، حتى قيل إن ما أنفقته من مال خلال حجها 54.000000 مليون كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي(43) كما قدمنا ذلك فيما سبق.

* * *

ويبدو أن بِرَكَ وآبار زبيدة كانت ذات طابع معماري واحد، وهي أن تكون مدورة، لهذا يكفي أن يذكر أن البئر زبيدية، فيفهم أنها مدورة...

42) المنتظم، ص : 253/6.

43) تاريخ بغداد، ص : 433/14.

ولما كانت الماء بمكة مُرّة، حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء بابا من أكبر أبواب البر.(44)

وكانت القناة المعقودة تحت الأرض، والتي أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيرا ما تتعطل، ففي عام 245هـ غار الماء بمكة حتى بلغ ثمن القربة ثمانين درهما، فبعثت أم المتوكل آمرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها.(45)

وقد أمر المامون بإنشاء خمس برك في مكة تتسلط عليها «عين زبيدة» فجعل إحداها عند شعب ابن يوسف (شعب علي)، والثانية عند الصفا، والثالثة عند الخياطين بجوار ما نسميه «باب إبراهيم» عند فوهة سكة الثنية (درب الشبيكة) والرابعة عند سوق الحطب، في «الهجلة»، والخامسة في «مَاجِل أبى صلابة»، وجعل المسارب بين البرك يجري فيها الماء من بركة زبيدة.(46)

أسبلة الحرم القدسي :

حظي القدس الشريف بعناية الخيرين من الواقفين المحسنين، وحكام المسلمين، وخاصة أن مدينة بيت المقدس قليلة المياه تجلب إليها عن طريق «عَيْنِ العروب» ولذا كثر إنشاء الأسبلة فيها لتوفير ماء الشرب لأهلها من ناحية، وللوافدين على المسجد الأقصى من ناحية أخرى، سواء في المدينة، أو داخل الحرم القدسي نفسه، ومن أشهر تلك الأسبلة : سبيل

44) آدم ميتز، ص : 2/267.
45) الطبري، ص : 1440/3.
46) «تاريخ مكة» أحمد السباعي، ص 1/156.

قايتباي،(47) سبيل شعلان، سبيل البديري، سبيل باب الحبس، سبيل قاسم باشا،(48) سبيل سعد وسعيد، سبيل الشوربجي.

جاء في : «إتحاف إلا خصا، بفضائل المسجد الأقصى»(49) عن أم عيدة بنت خالد بن معدان عن أبيها، أنه قال : «زمزم، وعينُ سَلْوان التي ببيت المقدس، من عيون الجنة، وفي رواية عنها، قال : «من عيون الجنة في الدنيا : زمزم، وعين سلوان، وعنها أيضا عن أبيها، أنه قال : «من أتى بيت المقدس، فليأت مِحْراب داود المشرف، وليصل فيه، ويسبح في عين سلوان، فإنها من الجنة...

ويقال عن بركة «سلوان» أن السيد المسيح عليه السلام تفل على الأرض، وصنع من التفل طينا، وطلى به عين الرجل المولود أعمى وقال له : «إذهب واغتسل في بركة سلوان، فمضى واغتسل، فعاد إليه بصره»...

عين سلوان، ذكرها الأستاذ عبد الله مخلص،(50) بقوله : عين سلوان عند العرب، هي «بركة سلوان»، عند العبريين، وكانت حولها جنينة الملك، وقد جاء ذكرها في الأصحاح الثالث من سفر «نحميا»(51) في التوراة، والأصحاح العاشر، من إنجيل يوحنا، وكان بقربها برج، ذكر في الأصحاح الثالث عشر من إنجيل «لوقا» باسم «البرج في سلوام» وكان الماء، وما

---

47) يقع إلى اليسار من باب القطانين، أنشىء في زمن الأشرف إينال عام 816هـ، ثم جدده الملك الأشرف قايتباي عام 877هـ فعرف باسمه، ثم جدده الخليفة الغازي عبد الحميد خان بن السلطان من آل عثمان عام 1300.

48) يقع غرب الحرم القدسي بالقرب من باب السلسلة، أنشأه ثاني سليمان عام 933هـ.

49) للسيد كمال الدين محمد بن محمد بن أبي الشريف الشافعي المصري (تـ : 906هـ) ألفه في مجاورته بالقدس عام 875هـ، ورتب على سبعة عشر بابا، وقد حققه الدكتور أحمد رمضان أحمد.

50) في كتابه : تراث فلسطين.

51) «نحميا» زعيم من زعماء اليهود، نال من «ارتحششنا» ـ السماح بترميم أو رشيلهم مع عزرا نحو 444 (ق.م).

زال، يجري إلى «عين سلوان» من «عين حزقيا»، التي سميت بعد ذلك «بعين العذراء»، وتعرف اليوم «بعين أم الدرج» أو أم الدراج بقناة اصطناعية طولها 120 ذراع، وعلوها أربعة أذرع، وربما قارب طعم هذا الماء، طعم ماء زمزم في مكة المكرمة، ولعل هذا، هو الذي حمل المقدسي وغيره على الزعم، بأن ماء زمزم، يزور ماء سلوان ليلة عرفة.

ويصف «عين سلوان» الشيخ عبد الغني النابلسي بقوله : «ثم مررنا على العين المشهورة» بعين سلوان «ذات الماء العذب اللذيذ الطعم للظمآن...

وذكر السيد كمال الدين الشافعي المصري هذه العين : «روينا بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله عز وجل اختار من المدائن أربعة : مكة، وهي البلدة، والمدينة، وهي النخلة، وبيت المقدس، وهي الزيتونة، ودمشق وهي التينة، واختار من الثغور أربعة : إسكندرية مصر، وقزوين خراسان، وعبَّادان العراق، وعسقلان الشام، واختار من ا لعيون أربعة، يقول في محكم كتابه العزيز : «فيهما عينان تجريان»،(52) و«فيهما عينان نضاختان»(53)، أما اللتان تجريان، فعين بيسان، وعين سلوان، وأما النضاختان، فعين زمزم، وعين عكا...

في القدس آبار وعيون كثيرة سواء في الحرم القدسي أو في المدينة ذاتها...

* * *

وقد ذكر مؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزياني(54) أن في بيت المقدس اثنا عشرجبا ليس فيها أطيب ولا أبرد ولا أعذب من هذا الجب، وهو يسمى «بير الورقة».

---

52) سورة الرحمن، الآية : 50.

53) سورة الرحمن، الآية : 66.

54) «الترجمانة الكبرى»، لأبي القاسم الزياني، ص : 269.

وهذا الصحن المبارك فيه ساقية مـاء، تأتي من مسافة شاقة، وَمَهْوَى بعيد من الأرض، قطعت لهـا الجبال قطعا، وصـدعت لها الصخور صـدعا بالمال الجسيم، والأيدي الشديـدة، حتى انصبت منها المياه على ا لمسجد الأقصى، فأروت وأغـرقت وفـاضت إلى خصـة من الـرخام كبيـرة أمـام المسجـد الأعظم، في وسطهـا فـوّارة يجري فيهـا المـاء، وفي وسط هـذا الصحن صَحنٌ آخر، مرتفع عال يصعد إليـه بأدْراج عالية كبيرة من جهاتٍ ثمانية، وهو مفرش بالرخام الأبيض»...

والملاحظ علـى معظم الأسبلة المقامـة في ساحـة الحرم القـدسي أنها أقيمت على آبار تتجمـع فيها مياه الأمطـار، ومن أشـهر هـذه الأسبلة، ذلك الذي أقامه سلطان المماليك «إينال»(55) (857 ـ 865) وهو السبيل الذي قام بإصلاحـه وتجديد عمـارته فيمـا بعد، كل من السلطان «قـايتباي»(56) ثم السلطان عبد الحميد الثاني.

* * *

في المسجد الأقصى عدة آبار ...

وقد ذكـرو أن في المسجد الأقصى عدة آبـار تربو على الثـلاثين بئرا، منهـا بئر الأسـود، وبئر البحيـرة، وبئـر الجنة، وبئـر أبي السعود، وبئـر الخضر، وبئر الزيتونة، وبئر الشيخ الخليلي، وبئر قايتباي، وبئر القبة...

ويقصـد النـاس «الكأس» للتـوضـؤ، وهـو يقع بين المسجـد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة...

ومنذ عام 589هـ ـ 1193م جلب العـادل أبو بكـر ماء «العَـرُوب» إلى القـدس، ويقول البـاحث يحي فرحـان : إن هذا العمل الـذي قام بـه الملك

---

55) «إينال» الملك الأشرف، سلطـان مصر والشام (1453 ـ 1461) أصله مملوك، اشتـراه السلطان برقوق، كان حاكما، لين الجانب، عادلا رؤوفاً.

56) «قايتبـاي» الملك الأشرف (1410 ـ 1496) ملك مصر، (468 ـ 1496) من المماليـك البرجيين، جركسي الأصل، أحسن السياسة مع الرعية، ومع أتراك الأنـاضول، ترك البنايات العديدة في القاهرة وحلب والمدينة.

العادل يعتبر الأول من نوعه لتموين القدس بالماء من الخارج في مدة الحكم الإسلامي، مما يدل على ازدهار العمران، وكثرة السكان.

ويسجل للمماليك أنهم عملوا على سحب المياه من عين العروب إلى الحرم الشريف.

في عام 589هـ، جلب العادلُ أبو بكر «ماء العروب»» إلى القدس، كما بنى سقاية لحفظ الماء في الجهة الجنوبية بالقرب من باب المتوضأ بباب المطهرة أحد أبواب الحرم الشريف، وهذا العمل الذي قام به الملك العادل يعتبر الأول من نوعه، لتموين القدس بالماء من الخارج في مدة الحكم الإسلامي.

* * *

في القدس العديد من الآبار، من أشهرها «بئر أيوب» الوافرة المياه ويقال بأن حافرها، هو النبي أيوب، ومنه اسمها، ويبلغ عمقها مائة وخمسة وعشرين قدما، وذكر صاحبُ «الأنس الجليل»، قوله : «أنه عندما أحتاج أهل القدس للماء، ذهبوا لهذه البئر، و«عين سلوان»، ونزل هو، وبعض الرجال إلى قرار البئر، فكانوا ينوون ثقبها حتى يخرج منها الماء، فدهشوا حين رأوا حجراً قدره ذراعان يخرج منه الماء، وفيه مغارة فتحت بابها في مساحة ثلاثة أذرع، في ذراع ونصف، تخرج منها رياح شديدة البرد، فلم يثبت لهم الضوء لشدة الرياح... ووصف ماءها ووفرته بقوله : «بارد خفيف، ويستقى منه طول السنة، ثم يذكر أنها البئر التي قال الله تعالى لنبيه أيوب، «اركُض برجلك، هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشراب».

وقـد ذكروا، أنـه في فترة انتـداب الإنجليـز على فلسطين، جلبوا ميـاه «العـروب» إلى القدس في أنـابيب، وظلت القـدس تستقي الماء عن طـريق برك سليـمان حتى عام 1926، وبعدهـا سحب الـماء من عـين قارة، على بعد 14 كيـل إلى الشمـال الشرقي من القـدس.. وفي عـام 1931، أخذت المدينة تتزود بميـاه «عين الفوار»، و«عين القلط»، وفي عام 1935 تحولت المياه إلى التـزود بالمياه من «زبـع ريش»، وقد أغلق الأنبوب الـذي يزود القدس بهـذا الماء عـام 1948.(*)

---

*) انظر مصـادر المياه بمدينـة القدس الشـريف، في كتاب : «القدس الشـريف»، لمؤلفـه الباحث الدكتور شـوقي شعت الذي أصدرتـه المنظمة الإسلامية للتـربية والعلوم والثقافـة الذي يعرض لتاريخ القدس منذ أقدم العصور حتى اليوم.

الفصل السابع :

توفير الماء، ووقوفه في طريق الحاج

يظهر مما سبق من الدراسة للمياه الوقفية أن الخلفاء كانوا يعينون بأنفسهم أمراء رَكْبِ الحاج... كما كان أمير الركب يعين المكلفين بالسبيل... ومهمتهم حمل الماء أثناء مسيرة الركب وتوفيره، إذا نزلوا منزلا للراحة، أو مبيتا للنوم ومَقِيلا، خاصة إذا علمنا بأن طريق الحج هو عبر الصحراء المُجدِبة القاحلة، ابتداء من موطن الحاج إلى مكة أو المدينة...

* * *

وقد جاء في سنة 640هـ أنه كان مع الركب في تلك السنة، وأكثر من سبيل، حتى اقتضى ذلك تعيين جملة من السبّالين، كان منهم أبو القاسم بن كلالة التاجر في «سبيل الخليفة» المستعصم بالله، ويعرف «سبيل الفقير»، وجعل السراج عمر بن بركة الهزقلي مشرفا عليه، ورتب في «سبيل» الخليفة المستنصر بالله الشيخ عماد الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين محمد السَّهروردي... وجعل أحمد الحربوي مشرفاً، وعلى «سبيل» الخليفة الظاهر بأمر الله، و«سبيل» ابنه الخليفة الناصر لدين الله من يتولاها.(1)

---

1) «مجهول الحوادث الجامعة» ص : 155.

وكان عضد الدولة (تـ : 372 ـ 982) قد أقام للحجاج السواقي(2) في الطريق، واحتفر لهم الآبار، واستفاض الينابيع، وأدار السور على مدينة الرسول.(3)

وكانت توضع جِبَابُ الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق، وربما حُمل إليها الماء من بعيد.(4)

وحوالي عام 300هـ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرَهم لنقل الماء من جدة إلى مكة، وكان الوزير علي بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوبا عليه من السلطان ببغداد، ورأى ضيق الماء على أهل مكة، ورأى تلك السخرة، فابتاع كثيرا من الجمال والحمير، ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الراتبة، ومنع السخرة، وحظرها، وحفر بئرا عظيمة في الحنَّاطين، فخرجت عذبة شَرُوباً، وسماها : «الجرَّاحية»، وابتاع عينا غزيرة بألف دينار، ووسَّعها، حتى كثُر واتسع الماء بمكة.(5)

* * *

---

2) الساقية لغة : نهر صغير، كما في القاموس، وفي المصباح : ويقال للقناة الصغيرة ساقية، لأنها تسقي الأرض» ويقول أبو الطيب المتنبي في مدحه الكافور الأخشيدي :

قواصد كافور، توارك غيره
ومَن قصد البحر استقل السواقيا

وفي سجعات الأساس : «من لقى جالينوس، استجهل الرواقي، ومن قصد البحر استقل السواقي»، واشتهرت ا لساقية في عرف الناس في أداة يرفع بها الماء يديرها ا لحيوان ليستقي الأرض، ويقال لها في العربية الناعورة والدولاب، وجاء في تاج العروس بعد عبارة القاموس التي سبق التنويه بها : «والآن، يطلقونها على ما يستقى عليها بالسواقي» والسواقي : جمع الساقية، وهو البعير ونحوه يسني عليه أي يستقي من البئر ونحوها. أنظر ما جاء في الساقية «نفح الطيب» ص : 166/7، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد؛ و«حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 205/2، في الكلام على بركة الحبش...

3) «المنتظم، في تاريخ الأمم» لابن الجوزي، ص : 119.

4) المقدسي، ص : 416، «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، ص : 407/2.

5) كتاب الوزراء، ص : 286.

وكان الحجاج في أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب قلة الماء في الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب.

ويشبه ابن المعتز، صاحبَ السُّوء الذي لا بد منه، بماء طريق الحج، فيقول(6) :

وصاحبُ سوء، وجهُه لي أوجه
وفي فمه طَبْلٌ بِسِرِّيَ يَضرِبُ
إذا ما قلا الإخوان كان مرارةً
يعرض في حلقي مراراً وينشب
ولا بد لي منه، فحينا يغصني
وينساغ لي حيناً، ووجهي مُقَطّب
كماء طريق الحج في كل منهَلٍ
يُذمُّ على ما كان منه ويُشْرَبُ

* * *

وقد هاجت ريح سوداء على الحجاج، في عام 204هـ 1011م، وهم في بعض الطريق، فَفَقدوا الماء، وهلك منهم خلق كثير، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم.(7)

وكان الثوار الذين يؤسرون، وسلاحهم في أيديهم يعاملون بحسب جُرمهم، وعلى قدر ما أثاره من سَخَط ورعب، وكان الأسرى الأجانب يعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد.(8) ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع الماء فنزحوها، وألقوا فيها الحنظل، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغا كبيرا، وهلك منهم خمسة عشر ألفا، عوقبوا بأن

---

6) ديوان ابن المعتز، ص : 5/جزء : 2.
7) المنتظم، ص : 158.
8) آدم ميتز، ص : 2/187.

أشهروا وحُبِسوا؛ وأُجِيع منهم جماعة، وأطعموا المالح، ثم تركوا على دجلة حتى ماتوا عطشا وحسرة، وهم يشاهدون الماء.(9)!!

وقيل إنه هلك في هذه الحادثة نحو خمسة عشر ألفاً أو يزيدون، ولم يفلت إلا عدد يسير، وكوتب عامل الكوفة ـــ وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج،(10) بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل، ويوقع بهم بما يشفي الصدر منهم، فلحق بهم في البرية، وأوقع بهم، وأسر خمسة عشر من وجوههم، وأرسلهم إلى بغداد، فشهروا هناك، وأودعوا السجن، وأجيع منهم جماعة.(11)

وفي عام 295هـ ـ 907م، أصاب الحجاجَ في مُنْصَرَفهم ببعض الطريق عطشٌ، حتى مات منهم جماعة!! والسبب يعود إلى موسم الجفاف الذي عمّ أنحاء الجزيرة العربية، ولقد مات عدد كبير منهم، ويذكر الطبري أن العطش لحقهم في منطقة الحاجر.(12) قال الطبري : «سمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفه ثم يشربها.(13)

وفي عام 357، هلك حجاج الركب العراقي بسبب قلة الماء في طريق الحج، ولم يدركوا الحج في هذه السنة.(14)

وفي سنة 395هـــ لحق بحجاج الركب العراقي، أيضا، عطش شديد، وأصابتهم رياح شديدة أدت إلى عرقلة سير الركب إلى مكة فلم يدركوا الحج.(15)

* * *

9) المنتظم : 158.

10) مسكويه، ص : 5/247.

11) آدم ميتز، ص : 2/89.

12) مجلة «الدارة» ع : 2/س : 10/9، 1983.

13) عريب، ابن سعيد الغرناطي، ص : 24 ـ 2/88. ـ عن الحضارة الإسلامية.

14) تاريخ الطبري، ص : 10/85.

15) الجزيري : «درر الفوائد»، ص : 244.

وقد أورد ابن جـزي أبياتـا قيلت في «عَبَّادان» التي تحتـوي اليوم على مصافي النفط :

مـن مُبلغٍ أنـــــدلُســــاً أنني
حللت «عبــادان» أقصى الثــرى!
أوحش مـــا أبصـــرتُ، لكنني
قصـدت فيهـا ذكرهـا في الـورى
الخبـــز فيهـــا يتهـــادونــــه
وشـــربـة المـــاء بهـا تُشْتَــرَى!!

وقد هجا الشاعر الجياني ابن عبـد الله محمد بن يربوع ابنَ أحلى أمير «لورقة»، إذ يقول :

قصـــدتُ ابن أحلى فأوجـدتـه
أشــــــد مـــــراراً من العلقـم
على المـــاء فـي داره زحمــــة
وفيهـــا على الخبـــز سَفْكُ الــدمِ

وضمنه شاعر آخر فقال(17) :

على المـــاء فـي دراه زحمـــةٌ
وفيهـا علـى الخبـز سفك الــدِّمـا
أضـــاف أنـــاســـاً إلى دارِه
فنــــزههم فـي نجـــوم السمـــا
وبـــالجــــوع قطع أمعــــاءهم
وأن يستغيثـوا : يُغَـاثُـوا بِمــاَ(18)

16) عَبّادان : مدينة على الخليج الفارسي مركز مهم لتكرير النفط الإيراني ومرفأ تصديره.

17) محاضرات اليوسي، ص : 210.

18) يشير إلى قوله تعالى : **﴿وأن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾**.

وللفقيه عمر المالقي من قصيدة(19) :

فجـودك فينـا الغيث في رمل عـالج(20)

وفضلك فينـا : الخبـزُ في دار عثمـان

يشير إلى قول الشاعر القاسم(21) ابن الأمير عبـد الرحمن الأوسط في عثمان أخيه :

المـاء في دار عثمـان لـه ثمن

والخبـز شيء لـه شـان من الشـان(22)

... على كـل عثمـان مـررتَ بـه

غيـر الخليفـة عثمـان بن عفـان

وسببُ هذا البيت، أن القاسم نظم في عثمان أخيه، وقد زاره، فاستسقاه ماءً، فأبطأ عليه غلامُه لعله لم يقبلها القاسم.(23)

* * *

وفي عام 405هـ ـ 1014م هلك من الحاج كثيرون، وكـانوا عشرين ألفاً، فسلم ستة آلاف، وقـد اشتد الأمر بهم، حتى شـربوا أبوال الجمـال، وأكلوا لحومها.(24)

وفي سنة 651هـ واجـه حجاج الـركب العراقي عطش شـديد، وقيل إن شربة الماء بيعت بدرهم.(25)

---

19) «نفح الطيب» ص : 40/5.

20) عالج : موضع بالبادية يصل إلى الدهناء فيما بين اليمامة والبصرة.

21) ترجمة القاسم في «الحلة» ص : 127/1. ـ و«المقتبس» ص : 200، (تحقيق مكي).

22) قال ابن الأبار بعد أن ذكر البيتين : كذا قال ابن حيان (المقتبس، ص : 201)، وهو غلط لاخفاء به... وإنمـا البيتان من قطعـة لعبـد الملك بن عبد الرحيـم الحـارثي أنشدها ابن عبـد البر في كتـاب : «بهجة المجالس»، كذا ذكر إحسان عباس.

23) نفح الطيب، ص : 580/3، «أزهار الرياض» للقاضي عياض، ص : 117/1. النفح، ص : 580/3.

24) المنتظم، ص : 162، الحضارة الإسلامية لآدم ميتز، ص : 89/2.

25) الجزيري : «درر الفوائد»، ص : 250.

وفي عام 272هـ عطش الحاج بعجرود،(26) حتى بلغت القربة مائة درهم فضية.(27)

وقد بيعت القربة من الماء في عام 1321هـ بثلاثة قروش ونصف صحيحة...

ويتغنى الأعراب الذين يبيعون الماء بالنشيد الآتي :

رأيـــت المـــــــــــــا

فـــي ســـــــــــوق مِنـــى

بيعـــــــــا... وشـــــــرا

حتـــى آن الـــــــــــلاش

مـــــــا يـــــرد المــــــا(28)

* * *

لقد كان التسابق على إنباط الماء وتقديمه لعابري السبيل مظهرا بارزا وكبيرا جدا بين المحسنين، حتى إن الوزير يحتفر بئرا في طريق الحج، فيطلبه منه الخليفة فيرفض أن يعطيه إياه طمعاً في ثواب الله، كما حدث بين يَقْطِين بن موسى، والخليفة المهدي في قصة يرويها أبو إسحاق الحربي في كتابه «المناسك»،(29) وفي قصة أخرى يطلب الخليفة من عيسى بن علي بركة بناها في أسفل المسلح، فيقول له الوزير : «يا أمير المومنين : تصدقت بها على الحجاج.(30)

---

26) عجرود : «قلعة تقع إلى جنوب السويس، وقد عمرها السلطان سليم الأول لما دخل مصر.

27) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 164/2.

28) «مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت، ص : 330/1.

29) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي (تـ : 285هـ) «كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة» نشر حمد الجاسر، ببيروت ص : 333، ط : عام 1389 ـ 1969.

30) المصدر السابق، ص : 344.

وقد كان الخلفاء والسلاطين كلمـا بلغهم حدوث خراب في عيون المياه أو قنواتهـا يرسلون من يعمـرها، ومن أولئك جعفـر بن المعتصم المتوكل على الله أرسل مائة ألف دينار ذهبا إلى مكـة لإجراء ماء عين عرفات إليها، وكـان ذلك لما أن حصلت زلازل في عـام 241هـ غارت منهـا عيون مكة... ومنهم إبراهيم بن خلكان عمَّر عين زبيدة في سنة 500هـ...

وقد عمـل الأميـرال ملك «الجوكندار» المنصوري أحـد أمراء المشورة في الـدولة النـاصـرية ابن قـلاوون، في طـريق الحاج بـركـاً، واتخذ لهـا مصانع.(31)

وقد صنع الأمير «أرغون» النـاصري قرب «خليص»(32) بالمدينة بركة للحاج.(33)

وفي «الأزلم»،(34) خان بنـاه الأميرال ملك الجـو كندار، وعمل فيـه بئراً أيضا، لأن ماء تلك الجهة، من أقبح المياه.(35)

وقد سجل اللواء إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين»(36) عدة نقوش وجدُها في لـوحة «بجبل الرحمة» بعرفات على يميـن الصاعد إليه، وفي غيره وكلهـا تشير إلى إسهامات رجـال الدولة الإسلاميـة حتى عصر الدولة العثمانية في إسالة الماء إلى المشاعر المقدسة.

---

31) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ج : 2/ص : 165.

32) خليص : قرية ميـاهها غزيرة، وتسكنهـا قبائل زبيد، وكان بالقـرب منها واحة بها ميـاه جارية، وبها بساتين ونخيل.

33) «حسن المحاضرة». ج : 2/ص : 165.

34) الأزلم : إحدى المحطات العامة، وكانت قلعة بها جنـود لحراستها، ومياهها غير صالحة للشرب، وكانت تتم بها عمليات البيع والشراء بين العرب والحجاج.

35) حسن المحاضرة، ص : 2/165.

36) مرآة الحرمين، ج: 1/ص : 214 ـ 220.

وقد ملك السيد محمد كبريت ابن عبد الله بن محمد بن شمس الدين المدني الحسيني(37) (تـ : 1070هـ) صاحب : «الجواهر الثمينة، في محاسن المدينة»(38) بِـئْـرَ سُمَيْحة،(39) وحديقته، وأوقفها، وجعل هذه البئر موردا مباحا لكل وارد...

37) كان رمضان بن موسى بن عطيف الدمشقي الحنفي كتب من الشام لمحمد المحبي وهو بالمدينة يطلب منه ترجمة السيد محمد جمال الدين المشهور بكبريت المدني :

يا خطيباً بأرض طيبةَ أضحى
أفصحُ العرب عنده سكّيتا
جد على العبد سيدي بمناه
وهو ما ترجموا به كبريتا

فأجبته وقد رقمتُ له من ترجمته ما سمح به الخاطر :

عينُ أهل الشآم يا واحد
العصر، ومن حاز في المعالي صيتا
دمت فينا، زناد فضلك وار
لست تحتاج للذكا كبريتا

[خلاصة الأثر، ص : 2/169)]

38) إيضاح المكنون، في الذيل على كشف الظنون» ص : 3/376.

39) سميحة، بئر بالمدينة، وقيل بناحية قديد، وفي و«فا الوفا» للسمهودي، قال كثير :

كأن الأكُفَّ، وقد أمنعت
بها من سميحة عذبا زلالا

وقال يعقوب : سميحة : بئر بالمدينة عليها نخل لعبد الله بن موسى، وقال كثير : [البيتان في معجم البلدان، ص : 5/134، وديوان كثير، ص : 1/241].

كأن دموع العين لما تخللت
مَخَارِمَ بيضاً من تَمَنَّى جمالها
قَبَلْن غُروباً من سُمَيْحة أتْرَعَت
بهِنّ السواني واستدار مَحَالُها

وماء هذه البئر من أحسن مياه ذلك الجزع، وإن لم يكن بالعذب الخالص، وقد أنشدوا :

وفي مائها، قد قيل بعض ملوحة
ومنها مياه العين أحلى وأملح
فقلت لهم : قلبي يراها ملاحة
فلا برحت تحلو لقلبي وتملح

[«عمدة الأخبار» ص : 296] وقُدَيد، كزبير، موضع بين الحرمين، وقيل وادي القديد أيضا : المسيح الصغير : قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة المياه، به كانت مناة الطاغية مشرفة عليه، ويضاف إليه طرف قدِيد بطريق مكة [عمدة الأخبار، ص : 343].

وفيها أيضا يقول امرءُ القيس في وصف فرسه :

وأسحم ريانٌ العسيب كأنّه
عثا كيل قِنْوِ من سميحة مُرْطِبِ

وحكى الشيخ شهاب الدين بن عبد الرحمن في كتابه : أن من أعظم الأعمال التي عملها وزير الموصل جمال الدين بن أبي منصور الجواد(40) إجراء الماء في بطن نعمان، إلى عرفة تحت الجبل مبنية بالكِلْس، فوجد الناس بذلك يوم الوقوف راحةً عظيمة.(41)

ومن هذا يظهر كيف أن الخلفاء كانوا يوقفون الوقوف، ويجعلون عليها الوكلاء كي يخرجوا الماء مع الركب تسهيلا لأمر الحج، بل ويستمر هذا حتى بعد وفاتهم، هذا ما حصل في العام المذكور 460هـ، حيث كانت خلافة المستعصم بالله.

* * *

وفي العهد الفاطمي، كان في جوانب حجرة «زمزم» أربعة أحواض يصب فيها الماء، ويتوضأ الناس به، وأمام بئر «زمزم» من ناحية الشرق بناء آخر عليه قبة يسمى : «سِقاية الحاج» وضع به أزيار يشرب منها الحجاج.(42)

ويصف الرحالة ابن جبير في كتابه(43) لما زار المقام الشريف بمكة ذلك بقوله : ويتلخص : «ذلك في أن باب «قبة زمزم» يتجه إلى الشرق، وباب قبة العباس، وقبة اليهودية، يتجهان إلى الشمال، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك، والقبة العباسية كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن «في عهده» يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل ليسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد.(44)

---

40) كان وزيرا لوالد الملك العادل زنكي، ثم استوزره بعد زَنَكِي، غازي بن زَنَكي أخو الملك العادل.

41) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» لأحمد بن عبد الحميد العباسي السندي، ص : 99.

42) «تاريخ مكة»، ص : 1/220.

43) ابن جبير، ص : 72.

44) «تاريخ مكة،» لأحمد السباعي، ص : 1/252.

ومن أعمال الشريف محمد بن بركات (تـ : 913هـ) أنه بنى رباطا للفقراء في مكة، وسبيلا للماء في النوارية، ومثله في طريق جدة، ووقف على ذلك أوقافا عديدة.(45)

وإذا كان طريق الحاج قد استأثر ببعض العناية من الخلفاء والملوك والرؤساء والمحسنين والواقفين، فإن المدينتين، كما رأينا، مكة والمدينة كانتا بما يجري فيهما من أعمال خيرية مثالا رائعا على تسابق المومنين إلى الخيرات، وكتابة أسمائهم في سجل المحسنين،(46)، فوجدنا الاهتمام بإنباط الماء في مكة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، ثم نجد تلك العناية الضخمة بمشاريع المياه، فيما بعدُ في أيام الخلفاء العباسيين(47) وإلى العصر الحاضر...

* * *

وفي عهد السلطان «قايتباي» ندب سلطان البنغال غياث الدين مندوبا يحمل أموالا كثيرة، ووزع بعضها على الفقراء، وبنى رباطا ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، وقد بناها بجوار دار أم هانيء، وأجرى إصلاحات في «عين زبيدة»، كما أصلح البركتين اللتين في «المعلاة» إلى أن جرت «عين بازان» فيهما.(48) وكانت العين من نعمان إلى عرفات خربة، انقطع ماؤها من عهد المماليك الأتراك فأصلحوا مجراها في عام 748هـ إلى أن عاد ماؤها يروي الحجيج.(49)

* * *

---

45) المصدر السابق، ص : 1/309، وقد تولى إمارة مكة عام 931هـ وقد أشركه السلطان الغوري مع أبيه في ولاية مكة من عام 918هـ، ولم تعدُ سن أبي نميّ محمد بركات سبع سنوات، وبعد وفاة أبيه استقل بالولاية، وقد أفرده مع أبيه السلطان سليم لما فتح مصر عام 922هـ.

46) أنظر موضوعا مفصلا عن أوقاف الحرمين، مخطوط، للمؤلف محمد بنعبد الله.

47) لقد أفردنا فصلا خاصا عن عين «السيدة زبيدة»، في الفصول السابقة.

48) «أتحاف الورى، بأخبار أم القرى»، مخطوط، للشيخ نجم الدين عمر بن فهد المكي (تـ:885هـ).

49) الأعلام، للقطبي، على هامش خلاصة الكلام» ص : 151، و«تاريخ مكة» للسباعي، ص : 331.

ويذكـر ابن بطوطة في رحلته، «قبـة زمزم» في عهد الممـاليك الأتراك والشراكسَـة، وما يجـاورها من القِبـاب، فيقول : «إن قبـة زمزم مفـروشة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبـة سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفـاعها عم الأرض نحـو خمسـة أشبار تمـلأ ماء للـوضـوء، وحولهـا مصطبـة دائرة يقعد النـاس عليها للـوضوء، ثم وصف قبـة العباس بمـا وصفها ابن جبيـر في عهد الأيوبيين، وذكـر الدوارق التي كان يبـرد فيها الماء، وقـال : «وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنهـا مصحف بخط زيد ابن ثابت نسـخ سنة 18هـ من وفاة الرسول عليـه السلام، وقد تبرك به، كما فعل ابن جبير قبله.

* * *

وفي هذا العهد من عام 807هـ سد باب الخلـوة إلى جانب زمزم، والتي كان فيها مجلس ابـن عباس، وجعل في موضـع ا لخلوة بـركة مقبوة، وفي جدرانها الذي يلي بـاب الصفا «بزابيز»(50) وصنابير يصب منهـا الماء من نحـاس يتوضأ النـاس منها على أحجـار نصبت للجلوس، وفـوق البركـة المقبوة خلوة فيها شباك إلى الكعبة، وشباك إلى الصفا.(51)

وفي عام 817هـ عمر الغوري في زيادة باب إبراهيم، وبنى فوقه قصرا مرتفعا مع مرافقه، وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومسـاكن، وبنى خارج ذلك متوضـأة تشتمل على مراحيض وبركة ماء، ووقف القصر والمساكن على بعض أعمـال ا لخير... وجعل في الجانب اليماني حـاصلا يشتمل على «سبيل مـاء»، وصهـريج كبيـر من مـاء المطـر من سطح المسجد...

* * *

50) بزابيز : صنـابير يصب منها الماء، ويقولـون اليوم لها حنفيات، والمسميـات تتغير دائما، ولعل كلمة «بزبوز» أخذت من بزبز الماء أو الحليب، إذا تدفق بقوة، وله وجه في اللغة.

51) «تاريخ مكة»، ص : 334/1.

حرص المماليك على توفير الماء :

حرص المماليك على توفير الماء طوال الطريق إلى الحجاز، والعمل على حفر الآبار وصيانتها، وجعلها صالحة لخدمة المسلمين خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحاج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب...

وكان أول ما يقاله ركب الحج من تلك الآبار في عقبة «آيلة» بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة، والموقع الثاني لحط الرحال، وأخذ قسط من الراحة في «عيون القصب» بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوافر بها «ماء» جار عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في الوجه للتزود منها «بمائها» العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحاج للتزود «بالماء» في «الحوراء»، بعد مسيرة ثلاثة أيام، وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر، وتستمر القافلة في السير والتزود «بالمياه» في «المغيرة» على مسافة يومين، ثم «ينبع» على مسافة يومين، ومنها إلى «الدهناء» مسيرة نصف يوم، وبها «ماء» طيب ثم تصل القافلة إلى «بدر» بعد مسيرة يومين، وبها «ماء» عذب، ومنها إلى «رابغ» مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام.(52)

وحظيت الآبار الموجودة في هذه الأماكن بالاهتمام والصيانة من جانب سلاطين المماليك، حرصاً منهم على توفير «المياه» لركب الحاج...

كما حرص المماليك، أيضا، على إصلاح آبار المياه الواقعة بين القاهرة ومكة المكرمة، حيث أرسلوا إلى الحجاز عام 884هـ الأمير شاهين الطويل، ومعه كثير من المشاة والحجارين والأذواد والأمتع لإصلاح المياه والآبار، وحفر آبار جديدة في الأماكن العطشة، وقاموا بحفر بئرين، أحدهما في «راغم»، والآخر في «قبقاب»، كما استجد القاضي زين الدين عبد الباسط

52) «رحلة العبدري»، ص : 157 ـ 165.

في طريق الحجاز بئرا أخرى عند «عيون القصب» مما عاد على الحجاج بالنفع الكثير نتيجة لحفر تلك الآبار.(53)

* * *

وقد عرف المسلك البري بين مصر والحجاز، تاريخيا ـ منذ الفتح الإسلامي باسم «طريق الحجاج» أو «الدرب المصري»، وقد كان يسلك هذا الطريق الحجاج والتجار حيث وفّرت في محطاته بعض وسائل الراحة الضرورية لقافلة الحاج، وللقوافل التجارية، وأهمها الماء اللازم لتزويد القوافل به.(54)

وكان حجاج المغاربة، وحجاج بلاد التكرور والسودان الغربي الذين يشكلون جزءا من قافلة الحاج المصري(55) يبدأ طريقهم من «بركة الحاج»(56) ظاهر القاهرة، ثم عجرود، ثم يتحرك الركب إلى «السويس»، ثم يتجه إلى نخل بسيناء، ثم يتحول إلى العقبة،(57) ثم تظل القافلة تنتقل من محطة إلى أخرى من المحطات، التي رصدتها لنا المصادر التي تحدثت عن قوافل الحاج، ومن أشهرها عند العقبة : حقل، مدين، «عيون القصب»،

---

53) ابن بطوطة ـ الرحلة، ص : 32/1، وانظر الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، للأستاذ محمد محمد التهامي، مجلة : «الدارة»، ع : 1/س: 11 يونيه : 1985.

54) مالكي سليمان بن عبد الغني : «طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري»؛ أنظر : مجلة «الدارة»ع : 1/س : 10 شوال، 1404 ـ 1984، ص : 8 ـ 21، وعدد : 1/س : 11، شوال، 1415 يونيه 1985، ص : 143.

55) العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، بين الولايات العربية في العصر العثماني للأستاذ عبد الرحيم عبد الرحمن.

56) قرية توجد بمحافظة القليوبية، وعرفت بهذا الاسم لتجمع الحجاج بها حيث كانت قافلة الحج بعد خروجها من القاهرة تتخذها نقطة البداية لهذه الرحلة الدينية وكانت عامرة بالمياه والنخيل...

57) بها أشجار ونخيل، وماؤها عذب سائغ فرات، وكانت في القديم مركزاً للتجارة بين مصر وبلاد العرب، والعراق وفارس، وكان أمير الحاج يقوم فيها بعزل الذين لا يستطيعون مواصلة السفر لمرضهم أو فقرهم، ويعطيهم ما يكفيهم...

المويلحة، الأزلم، أكرى، الحوراء، نبطة، «ينبع»(58)، بدر، رابغ،(59) خليص، «عسفان»(60) «بطن مر»، مكة المكرمة، ثم يسلكون بعد ذلك الطريق الداخلي الذي يربط مكة بالمدينة المنورة.

* * *

في عهود العثمانيين :

عني العثمانيون في عهودهم بالحجاز ببعض الإصلاحات في شتى المرافق، ومن أهم ما عنوا به «عين حنين»، و«عين نعمان» فقد كانت «عين حنين» تجري إلى مكة من «عين زبيدة»، كما كانت «عين نعمان» تجري إلى عرفة، وهي تنبع من ذيل «جبل كرا» فتمضي إلى عرفة، ثم مزدلفة، ثم إلى بئر بقرب مكة في أوائل عهد العثمانيين انقطعت العيون عن مكة، وجعل أهل مكة يأخذون مياههم من الآبار في ضواحي مكة إلى عرفات، يقول القطبي(61) : «وكان التجار يتاجرون في يوم عرفات في عام 922هـ فيبيعونه بأغلى الأثمان، ثم قال : «وحججت في بعض السنين في خدمة والدي، وأنا في سن المراهقة، ففرغ الماء الذي كنا نحمله، فاشتريت قربة صغيرة يحملها الرجل بأصبعه بدينار ذهبا!!؟ فأمر سليمان باشا بإصلاح «عين حنين» حتى جرى الماء، ودخل مكة، وانتهى إلى بركة ماجل(62) في

---

58) ينبع : تنقسم قسمين : «ينبع النخل»، و«ينبع البحر»، وعندما يطلق عليهما إسم ينبع فقط، يقصد به، «ينبع النخل»، وسكان ينبع النخل من عرب جهينة وحرب وهي الآن إمارة من إمارات المدينة [الدارة ع : 1/س : 11/يونيو 1985].

59) رابغ : ماؤها من الحفر والآبار، وهي قرية على البحر الأحمر، وأهلها من زبيد.

60) عسفان : محطة كان ماؤها قليلا، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملا جملا.

61) «الإعلام، بأعلام بيت الله الحرام» ص : 338، من تواريخ مكة ا لمكرمة للشيخ الإمام قطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي (تـ : 988هـ) مرتبا على مقدمة، وعشرة أبواب، وأهداه للسلطان مراد خان.

62) الماجل في اللغة : مجمع المياه، والأزرقي يقول في أسفل مكة ماجلان والمفهوم أن أحدهما كان مكان البركة التي توجد بمكة...
والماجل، جمعه مآجل، لأشباه الحياض الواسعة، تؤجل أي تجمع فيها المياه إذا كانت قليلة، ثم تفجر إلى المزروعات والآبار.

المسفلـة، كمـا أصلـح «عيـن نعمـــان» إلى عرفة عام 931هـ وقد أنشئت في عـرفة بســاتين ظلت تسقى بـذلك الماء حتى صـــارت أرضهـا مرجـة خضـــراء...

وتذكر المصادر العثمانية المبكرة أن محمد الثاني (سابع حاكم عثماني 1432م 1481) الملقب بـالسلطان محمـد الفاتح كـان يريـد إصلاح وتعميـر أحـواض الماء التي كـانت تقع في طـريق الحجـاج العثمانيين، فلم يـوافق المماليـك، وكانوا أصحـاب السيطرة علـى أراضي الشام والحجـاز ومصر وقتئذٍ، على رغبـة الفاتح، ممـا ولد عنده الحـزن البالغ لحـرمانـه، من هذا العمل.(63)

* * *

ولما نضبت عين زبيـدة أمر السلطان سليمـان في عام 970هـ بتنظيف المجاري وإصلاحها، وقـد بذلوا في ذلك أموالا موقوفة طـائلة، ولما انتهوا إلى بئـر زبيـــدة دون مكـة، وجـــدوا أن الأرض الصـخـريـة تحـول دون الاستمـرار في بنـاء المجاري، فحفـروا حفـرة هائلـة العمق حـول الأرض الصخريـة، وأوقدوا فيهـا الحطب بصورة أفنت جميع الحطب فـي الحجاز حتى تفتتت الصخر، واستطاعوا بناء المجاري، التي أوصلت الماء إلى بطن مكـة، وقـد استغرق العمل نحـو تسع سنـوات كمـا نقله الأستـاد أحمـد السباعي.(64)

* * *

ملوك وأمراء تحروا الأماكن التي تغزر فيها المياه..

كـان المسافـرون الذين يتوجهـون إلى الحجاز يتسقطـون مواقع القطر، ويتحرَّون الأمـاكن التي تغزر فيها الأمواه، وقـد أمّن لهم ذلك ملوك وأمراء تعاقبوا على الحكم في هذه البلاد.

63) د. محمد حرب، مجلة : العربي، ع : 300، نوفمبر 1983.

64) «تاريخ مكة» : للسباعي أحمد.

وقد عمّر الوزير الأعظم سِنان باشا صاحب الأثار العظيمة «سبيل التنعيم»، أنشأه، وأمر بإجراء الماء إليه، من بئر بعيدة يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنورة، وعيّن لها خادماً يستقي من البئر، ويصب في الساقية، فيصل الماء إلى السبيل، ليشرب منه، ويتوضأ المعتمرون، وعين لمصارف ذلك من ريع أوقاف له بمصر، ومن أعماله ومآثره آبار حفرها بقرب المدينة المنورة لقوافل الزوار في وادي مُفَرَّع، وغيرها كثيرة النّفع جدا.(65)

وقد خرجت بمدينة العلا في طريق المدينة، من الشام «عين ماء» قريبة من البلدة، فخرج إليها حسين بن قاسم بن أحمد بن محمد الملقب حسام الدين المغربي الجويزي المالكي العتيقي الدرعي، فوجدها ممكنة الوصول إلى مدينة العلا، فساعده أهلها حتى أجروها إلى أرض هناك، وخصوه بها، ورأوا أن ذلك من بركته، قال النجم الغزي : ولما حججت في سنة سبع بعد الألف (1007هـ) زارني وحدثني بحديث العين، وسألته عنها، فأخبرني أنها تبلغ مجرى من الماء بحيث تستغل وتغنى، وأنه أحيا بها أراضي كثيرة.(66)

وأرسل السلطان أحمد بن محمد بن مراد العثماني ميزابا من الفضة مموّها بالذهب، ووضع موضع الميزاب العتيق، وتسلَّم أميرُ الحاجّ ميزاب العتيق، وأرسله إلى السلطان، ووضع في الخزانة العامرة تبركا، وعمل سحابة بطريق الحاج المصري، يحمل بها الماء للفقراء والمساكين، ووقف عليها أوقافا وهي مستمرة إلى الآن، وبها النفع العام.(67)

65) «خلاصة الأثر» للمحبي، ص : 215 ـ 2/216.

66) المصدر السابق، ص : 2/103.

67) المصدر السابق، ص : 1/290.

وقد عمّرَ الشريف زيد بن محسن ابن أبي نُمي شـريف مكة الحسني (تـ: 1077هـ) عمائر مستحسنة من جملتها سبيل وحنفية بمكة، وفي تاريخه يقول القاضي تاج الدين المالكي :

لـلـه تـأسيسٌ نمـا خيـرُه
وَفَـازَ بـالتطْهِيـر مَن أمَّ لَـهْ
بـه سبيلٌ وحنيفيـةٌ
وسلسبيلٌ فـارتشـف سَلْسَلَـهْ
لـه نبَـا في الفيضِ مهمـا «رَوَى»
«حـديثـه» «أروى» بمـا «سَلْسَلَـه»
سـالَـتْ عَطـايـاه لُجَينـاً فَمَن
رَامَ نَـداه نَـالَ مـا أمَّلَـهْ
وحيـث لم يَكتـف سـؤالـه
فـلا يكفّ البـذل إن أرْسَلَـهْ
لأن مـن أسـس بنيـانَـه
غيث الـورى في السنـة المُمْحِلَـهْ
من نفسـه يـوم عطـاه تـرى
أن وهب الـدنيـا فقـد قلّلَـهْ
تـوجّـه اللـه بتـاج زهـا
بجـوهـر المجـد الـذي كَلَّلَـهْ
واللـه مـن وافـر إحسـانـه
أجْـرَى لَـهُ الأجـرَ الـذي أجْـزَلَـه
فإن تسـل عن ضبـط تـاريخِـه
فَخُـذْ جَـوَابـاً يُـوضِحُ المسـألَـهْ

أسَّسَـــــــهُ سُلْطَـــــــانِ أمِّ القُـــــرى
«زيـد» يـــدومُ العِـزُّ والسعـــدُ لَـهْ(68)

وقد رآه بعض الصالحين الثقـات في المنام بعد وفاتـه، وهو قائم على بعض آبـار مكـة، وبيـده دَلْوٌ عظيم يملـؤه من تلك البئـر، ويصُـــبُّـــه في الأرض، فقال له يا سيدي، ما هذا؟ أنا أحق به منك، فقال له : ما تقدر على ذلك، أما ترى إلى هذه النار، وأنا أطفئها.(69)

* * *

وقفية الخديوي السلطان عباس باسا :

يوجد سَنَـدُ وقفِ مرتبات من «الرزنـامة» العامرة عن الـوظائف الآتية، مرتبـة لقراءة القـرآن العظيم، ولتـلاوة البخاري، والشفـا، ودلائل الخيرات، وبعض السور الشريفـة داخل الحرم الشريف النبوي علـى صاحبه أفضل الصـلاة، وأزكى الســلام، ولتسبيل مائتيـن وخمسين دَوْرَق مَاء بـالحـرم النبوي حسب ما كـان مقيدا باسم صاحب السمو الدستـور الوقور أفندي الخديوي الأكرم الحـاج عباس باشا حامي حمى الإسلام بالـديار المصرية في دفتر مرتبات الخـزينة التابعة لسموه بالرزنامة العـامرة بموجب السند الديواني المحرر منها على الأصول، فقـد أوقف وأرصد الوظائف المذكورة بحسن إرادتـه أبد الآبديـن، ودهر الداهـرين إلى أن يرث اللــه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وقفا مؤبدا مؤكدا، مستمرا، لا يبدل ولا يغير ولا ينقص، بمقتضى المنصوص عنه بصـورة الوقفية المشرفـة بالختم الكريم رقم شوال عام 1268هـ، والمحفوظة بالرزنـامة العامرة، وهو برسم تسبيل 250 دورق يسقى بها زوار الحرم الشريف النبوي مدة ستة أشهر في زمن

---

68) «خلاصة الأثر»، ص : 178/2.
69) المصدر السابق، ص : 186/2.

الصيف، وللسـاقي مع ثمن الـدوارق المـذكورة مـرتب سنـوي 120 ريال فرنسـي...

وقـد أسند نظـارة هذه الـوقفيـة إلى السيد محمـد منتظر النقشبنـدي وأولاده.(70)

* * *

وقد بلغت نفقات «السبيل الخيـري» في حجة عام 1307 ـ 1899، تحت إمْرَةِ أميـر الحج المصري اللواء إبـراهيم رفعت، نحو 324 جنيه لمن يقوم بملء مائتي دَوْرَقٍ بـالماء لشرب الناس، وكل ذلك بـالمسجد النبوي، وذلك تنفيذ الشروط الوقفية الصادر بها أمر عباس باشا الأول في عام 1268هـ، والتي بلغها نائب الخديوي للمالية في غرة ذي القعدة عام 1268هـ.(71)

ومن تلك النفقات ستون جنيها، منها ثلاثون جنيها للسقائين بشرط أن يطوفوا بخمسين على المصلين بالمسجـد النبوي، وقت كل صلاة بحساب يومي 250هـ، والثلاثـون الأخرى يشتري بها بدل مـا يكسر من «الدَّوَارق» وترتيبُ ذلك حسب الوقفية الصادر بها أمر عباس باشا الأول في 20 صفر عام 1270هـ، وبلغتها المالية للرزنامة في : 21 منه.(72)

ومن تلك المـرتبـات مـرتبـة لمـائتين وخمسين «دَوْرَقـاً» يسقى منـه المصلون بالمسجـد النبوي، منها مائة بـاسم إبراهيم إلهامي بـاشا، ومائة باسم محمـد صديق بك، وخمسون بـاسم راغب أفندي الخـازن، وكلها من خيرات عبـاس باشا الأول الصـادر بِوَقْفِيَتِهَـا أمره في 25 ربيع الأول عـام 1270هـ.(73)

* * *

---

70) «مرآة الحرمين»، ص : 2/246.

71) المصدر السابق، ص : 2/351.

72) نفس المصدر، ص : 2/352.

73) نفس المصـــدر، ص : 2/352، وانظر نـص الوقفية لسقـي ماء عـذب بالمسجد النبـوي بنفس الصفحة والرقم.

وكان بمكة عشرون مسقى - سبيل - وعشرون صهريجا مملوءة بمياه «زبيدة» ويختلف طولها وعرضها من خمسة أمتار إلى عشرة؛ والعمق من مترين ونصف إلى ثلاثة عشر مترا، وفم الصهريج سعته ثمانون سنتم ولبعضها فتحتان وثلاث إلى ست فتحات على خط واحد، وتنزح المياه منها بواسطة السقائين الذين أكثرهم من العبيد... وببيوت الأمراء أنابيب مائية ذات حنفيات.(74)

وقد أحضر أحد الأغنياء من الهند آلة بخارية بمجرى قناة «عين زبيدة» «بالمفجر بمنى.(75) وقوة هذه الآلة ثمان خيول لتوصيل الماء في أنابيب إلى ميدان منى، إذ يحول الجبل بين المجرى والميدان، وبواسطة الأنابيب يصعد الماء إلى الجبل، ثم ينزل فيها وادي منى، ويصبُّ في أحواض أعدت له هناك ليشرب منها الحجاج...

وقد رتب هذا الواقف المحسان المسلم الغيور الهندي لهذه الآلة ما يكفيها من الفحم والشحم والزيت وأجور العمال.(76)

* * *

المغاربة ووقفهم للمياه في طريق الحج :

لقد كان الملوك المغاربة يعتنون بمشكل الماء في طريق الحجاج القاصدين إلى الديار المقدسة، ومن أجل ذلك توجد عدة آبار في طريق الحج يوفرها سلاطين البلاد، ولما مرَّ المولى الرشيد بنَ السلطان المولى الشريف العلوي الحسني بالوضع المسمى «بالشطّ» من بلاد الظهراء

---

74) المصدر السابق، ص : 183 _ 1/184.

75) مكان خلف ا لجبل المقابل «لثبير» سمي بذلك لما فجر فيه من الدماء عند ما دارت رحى الحرب بين قصي وشيعته، وبي بني الغوث بن آدّ بن طايخة، ويقال لهم : صوفة، وذلك بسبب تقدم الأولين إلى رمي جمرة العقبة قبل بني الغوث..

76) اللواء إبراهيم رفعت، ص : 1/330.

بـالصـحراء، أمـر بحفر آبـار شتى، وهـي تدعى الآن بـآبار السلطـان، فهي مضـافـة له، يسقي منها ركب الحجيج في مـروره وإيابه، فهي من مـآثره، تقبل اللـه منـه، وكـان على يـده هـذا الفتح العظيم لضـعفـة المسلمين بل لجميعهم.(77) بل إن هناك عدة طرق إلـى الحج يتجنبها الحجاج، لانعدام أو ندرة المياه بهـا كطريق الفقهاء التي لا توجد بهـا مياه، وهي الطريق التي سلكها ابن مليح الشهير بالسراج حينما خـرج مع الركب من مصر، فكانوا لا يطرقونها إلا إذا أمطرت لكونها ليس بها آبار.(78)

وقد تنسـد السبل أمام وفد الجيـح، فيبحثون عن الماء، فـلا يجدون، فيشفون على الهلاك، لكن سرعان ما تَنْفَرِجُ الكُربَ، وتَنحَلُّ العُقَد، كما نجد في الحكاية التـي ذكرها(79) في رحلتـه ونقلهـا أيضا القـادري في نشـر المثاني(80) : أخبـرني الشيخ الأجل قـاضـي مـدينة القـدس محمـد الحنفي النفاتي التـونسـي أيام لقائي له بـالقدس الشريف، أنـه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان وهو «وادي ينـوت» بقرب طـرابلس في زمـان الصيف، فألجأهم العطش إلى بئـر «واد ينوت»، فنزلـوا عليها قائلة، ووافتهم هنالك قفول قـدمت من فزّان، حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر، فنـزحوا ما فيها من الماء، فلم يَشْفِ بعضَ أُوَامِهِم، ورجع الناس مغمومين، فمن قائل : نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك ومن قائل : نؤخر إلى آخر النهار...

قال لي الشيخ : فدخلت على أخي، وأخبرتـه بذلك، وقلت له : إن الناس قد أشرفوا على الهلاك، واضطرب أمـرهم في الرحيل، فمرُهم بالرحيل لِيَلاَّ

---

(77) «نشر المثاني» للقادري، ص : 2/192.

(78) الأعلام، ص : 276/4 ـ ط : الجديدة بطالعة فاس.

(79) الرحلة العياشية «ماء الموائد» ص : 1/90.

(80) «نشر المثاني»، ص : 2/373.

يَهْلِكوا، قال : فاغتر لذلك، واسترخى في خبائه كالنائم، فلما أفاق، قال لي : ناد في الناس بالإقامة، وقل لهم يـذهبون إلى الماء، فقلت : أبك جنون؟ أنا أخبرك أنه لا قطرة في البئر، والناس قد أشرفوا على الهلاك... فقال : إفعل ما أمـرتك، فقلت له : لست بأحمق، أنادي بـالإقامة والذهـاب لسقي الماء، ونحن على غير مـاء، فلما أبيت، نـادى بديهة الغـلام، وقال لـه : «نادِ في الناس بالإقـامة، والذهاب لسقي المـاء، فلما سمعته اسْتَحْيَيْتُ، وتغيبت عن الناس، وذهبوا إلى البئر، فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كادت تفيض من جوانبها، فاستقى الحجاج وجميع القوافـل حاجَتَهم، والماء كما هو، قال لي الشيخ : فلما رأيت ذلك ذهبت إليه، وقصصت عليـه الخبر، فقال لي : إنني لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس، رأيت النبيﷺ في النوم، فقال لي : «مُرِ الناسَ بالإقامة، فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرَجًا...

قلت : ولا يستبعد ذلك في حق رئيس وفْدِ الله، وَزُوَّارِ نَبِيّهﷺ، فإن لله بهم عناية، ولهم منه أعظم وقاية.

* * *

الطرق التي توجد بها أماكن للسقيا :

وهكـذا اعتاد المســافـرن، وفي كل حين، وإلى كل مكـان أن يحتاطـوا لتأمين حياتهم، لأخـذ الطرق التي توجـد بها أماكن للسِقيـا تضمن وجود الماء الذي يطفىء الظمأ، وينقع الغلة، ويَبَلُّ الصَّدَى...

ولنأخذ على ذلك مثلا واحـدا هو سفر الحجاج قديما وحـديثا، من مكة إلى المدينة.

فإن قوافل الحجاج في الماضي كانت تقوم من مكة إلى المدينة المنورة، فيسيرون، طلبـاً للماء، في واحـدٍ من أربع طرق على حسب تبعيـة المقدم والجمالية إليها في الماضي :

وهذه الطرق هي : السلطاني - والفرعي - والغاير - والشرقي.

ويقـولون بأن الطـريق السلطاني هـو أحسنها سيـرا، وأكثر مـاء، فإذا قامت القـافلة منـه خرجت من باب العُمْـرة، وسارتْ إلى الشمـال الغربي، وتمر على المحطات الآتية :

وادي فاطمة : ويجري فيـه ماء عذب يأتي من السيـول التي تنزل من جبـال الطائف، وبـه مزارع كثيـرة، ويسكن فيـه عرب الأشـراف من ذوي حسين، وذوي غـالب، ويسكن في المنطقة التي بينـه وبين مكة إلى بحـرة «بنو لحيان».

عَسْفان : مَاؤُهَا قليل، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملا، والعرب التي تسكن في هذه الجهة (بِشُر بِشْر) وحمران.

خليص : بها بئر التفلـة، وماؤها غزير، وتسكنها قبـائل زبيد، وتقرب منها واحة بها مياه جارية، وفيها بساتين ونخيل...

القضيمة : قـرية على البحـر، ومساكنهـا أكواخ صغيـرة، وماؤهـا من الحُفَـر التي يخزنـون فيها مـاء الأمطار، وأهلهـا من زبيد، ويشتغلـون في الغالب بصيد البحر، ومنها يتجه الطريق إلى الشمال.

رابغ : وهي قرية على البحر الأحمر، ومـاؤها من الحفر والآبار، وأهلُها من زبيد، وتأتـي إلى مياهها بعضُ السفن الصغيـرة، لتشتري مـا يصيده أهلها من الأهداف وغيرها...

مستورة : ماؤها غض، ومنها طريق إلى بدر، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح والحوازم.

الحمراء : وهي قرية بهـا نهرٌ عذب، وفيها بسـاتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز، والحناء...

الجديدة : وهي قرية، أيضا، ماؤها عذب، وبها قبر ولي الله سيدي عبد الرحيم البُرَعي المصري الذي دَهَمه المرض في طريق المدينة، فمات ودفن

بهذا المكان، وله ديوان شعر مطبوع، كلـه مدائح في الرسول عليه السلام، ومسكن «الجديدة» قبائل الحوازم والأحامدة.

بئر عباس : ويسكنها قبـائل عوف وعمـرو، وماؤها عـذب، وهي على مسافة خمسة كيل من المدينة المنورة...

***

كتـب الدكتور محمدـ حسنيـن هيكل «باشـا» مقـالا عن الملك عبد العزيز آل سعود، نشـر في «البلاد» السعودية،(81) جاء فيه : «وكانت المناهل في صحـاري الجـزيرة «محتكـرة» لبعـض القـبائل، ولما حكم عبد العزيز كفَّ عنها أيدي المحتكرين، وجعلها مشاعا لمن يَرِدُهَا.(82)

قال محمـد بن عبد اللـه بن بُلبيهـد النجدي(83) عندما ذكـر «المُجَزَّل» الجبل المعلوم : «كان في صدر الإسلام لبني تميم، وفي العهد الأخير يعد

---

81) بتاريخ 10 ـ 4 ـ 1369.

82) ويمكن الاعتماد على المصادر التالية بخصوص قافلـة الحجاج والطريق البري الذي كان يسلكه الحجاج والتجار، والتي يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل :

1 ـ «المعجم الجغـرافي» ثلاث مجلدات، للأستـاذ حَمَد الجاسـر، دار اليمامة، الريـاض : «بلاد ينبع»، لمحة تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة.. دار اليمامة الرياض...

2 – «إمارة ا لحـاج في العصر العثماني»، لـلأستاذة سميـرة علي فهمي، رسالة مـاجستير من قسم التاريخ أدب إسكندرية [غير منشور].

3 ـ «الرحلة الحجازية» لمحمد السنوسي، تحقيق علي الشنوجي، تونس: 1981.

4 ـــ «حسن الصفا والابتهـاج، بذكـر من ولي إمارة الحـاج» لأحمد الـرشيد، تحقيق ليلى عبـد اللطيف، القاهرة : 1980.

5 ـ «كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالـم الجزيرة» للإمام ابن إسحاق الحربي تحقيق : حمد الجاسر.. دار اليمامة : الرياض.

6 ـ «العلاقات الحجازية المصرية، زمن سلاطين المماليك» لعلي بن حسين السلمان : القاهرة : 1972.

7 ـ «الحجازيون في مصر، في القرن العاشـر الهجري ـ السادس عشر الميلادي» بقلم د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبـد الرحيم ـ مجلة : «الدراة» ع: 1/س/11/عام 1985 يونيو، ص : 141.

8 ـ «الإدارة في مصر، في العصر العثماني» : ليلى عبد اللطيف ـ القاهرة : 1978.

83) «صحيح الأخبار»، ص : 90/ 5.

من مناهل مطير، وفي عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ليس لاحدٍ ملك، بل لواردها...

وقد أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أن يُعْمل على حسابه الخاص سبيلان : أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي «قبة زمزم» على الجناح الجنوبي... والثاني، بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجانب السبيل القديم على نحو السبيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص...

فعمل السبيل الذي بجوار قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر، وجعل له ستة فوهات... وعمل السبيل الثاني بجوار حجرة الأغوات، وجعل له ثلاث فوهات... وحدد عمارة السبيل القديم، وقد كتب على السبيل الأول : «هذا السبيل أنشأه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود» وكتب على الثاني: أنشأ هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، وكتب على الذي يليه : «جدد هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود» وتم إنشاء السبيل الذي يلي حجرة الأغوات سنة 1345هـ، وتم عمل السبيل الذي يلي قبة زمزم سنة 1334هـ.

كما جعلت للحجاج في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في كل موسم ترتيبات خاصة بين مكة وعرفات، حيث تقام «مراكز» في «المنحى» ومحجر الكبش» و«المجزرة» والأخشبي» و«وادي النار» و«بين الأخشبين» و«مزدلفة» و«برك عرفات» و«البازان» و«تقاطع الأسفلت» و«مسجد نمرة»...

وأقيمت في كل مركز مما تقدم مظلة مبنية بالأسمنت لاستراحة الحجاج مزودة بما يكفي من الماء...(84)

وهكذا عمل الملك عبد العزيز ما استطاع لتوفير المياه في مكة، ووقفها لفائدة الحجاج، بل حتى تعم أطراف مملكته الصحراوية في أكثر أجزائها...

---

84) «شبه الجزيرة، في عهد الملك عبد العزيز» ص : 1/106، لخير الدين الزركلي.

لقد أصبح سقي الماء، وتيسير سبله في بلاد العرب عموما، وفي البلاد المقدسة على وجه الخصوص، وفي مختلف العصور الإسلامية، من أكثر الأعمال شيوعا لدى الخلفاء والملوك والواقفين الموسرين، يتقربون بذلك إلى الله تعالى، ولهذا رأينا الخلفاء في عصور الدولة الإسلامية كما أجملنا سابقا، ينفقون الأموال الطائلة على إسالة الماء في صحراء جزيرة العرب، وخاصة تلك المناطق التي كانت تمر بها طريق الحج، والتي كانت تربط بين مراكز الخلافة، وبين المدينَتين المقدستين مكة والمدينة، وعلى طول هذه الطرق، كانت الآبار تحفر، والبرك تنشأ، والخانات توضع لراحة الحجاج، ولقد كان للأمويين، كما أسلفنا، نشاط ملحوظ في الطريق الذي يربط بين دمشق والحجاز، غير أن الأعمال التي قامت بها شخصيات دولة بني العباس في سبيل استنباط المياه، وإسالة العيون ووضع البرك وأماكن الراحة كانت من أضخم الأعمال الخيرية التي حرص عليها هؤلاء المحسنون... ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذي يقومون بهذه الأعمال، بل كانت أعمالا مشاعة بين رجالهم ونسائهم ووزرائهم وأصحاب الشأن في الدولة والموسرين من الأغنياء.(85)

* * *

إعداد خطة شاملة لتوفير مياه الشرب لضيوف الرحمن...

وقد تم اليوم، وبتوجيه من الملك فهد بن عبد العزيز، إعداد خطة شاملة لتوفير مياه الشرب، وبكميات وفيرة للحجاج، في إطار توفير الخدمات الشاملة لضيوف الرحمن خاصة... وضمن إطار تلك الخطة أعدت مصلحة المياه والمجاري في المنطقة الغربية ما يزيد عن مليوني قارورة مياه مثلجة صالحة للشرب تقدم هدية للحجاج من الملك فهد، تم إنتاجها في المصنع الخاص بذلك... والذي أمر بإقامته على حسابه الخاص، وقد تم توزيع هذه الكميات الضخمة عبر خمسة وعشرين حاوية

85) «الإنسان والماء، في جزيرة العرب» للأستاذ أحمد الضبيب.

ثـلاجة تتسع الـواحدة لمـا يزيـد عن 35000 عبـوة موزعـة في المشاعـر المقدســة...

وقد قال المهنـدس فهد سليمان مديـر عام المصلحة : إن خطة تـوفير المياه الصـالحة للشـرب لضيوف الـرحمن أعدت بصـورة علمية متكـاملة بحيث تغطي كل الاحتيـاجـات... وقـال في حـديثـه لجـريـدة «الشـرق الأوسط»(86) : أن كميات الميـاه الصالحـة للشرب في المشـاعر المقـدسة تصل إلى 730 ألف متـر مكعب، أي حـوالي 17 مليون جالـون مياه... وقد زادت عن الأعوام السابقة بنحو 420 متر^3، وهذه الكميات موزعة كالتالي في مناطق المشاعر المقدسة في خزانات مليئة تماما وجاهزة للاستخدام :

1 ـ خزان عرفة : يزود منطقة عرفة بـ : 50 ألف متر^3.

2 ـ خزان مزدلفة : يزود مزدلفة بـ : 50 ألف متر^3.

وفي منطقة «منى» تمتد خزانات المياه، وهي كالتالي :

ـ خزان الأربعين وسعته : 40 ألف متر^3.

ـ خزان القصور، وسعته : 20 ألف متر^3.

ـ خزان البيعة العلوي، وسعته : 10 آلاف متر^3.

ـ خزان البيعة السفلى، وسعته 10 آلاف معر^3.

ـ خزان المعصم الكبير، وسعته : 90 ألف متر^3.

ـ ثمانية خزانات جديدة أنشئت في منى سعتها 24 ألف متر^3...

ـ ثلاثة ثلاجات بالشراقع سعتها : 140 ألف متر^3.

ـ خزان جوانة، وسعته : 600 ألف متر^3.. وقد ملىء منه حوالي 350 ألف متر^3.

* * *

---

86) الجمعة 31 ـ 8 ـ 1984.

شبكة متكاملة للمياه في عرفات :

إن هذه الكميات الوفيرة من المياه قامت بتلبية كل احتياجات حجاج بيت الله الحرام... بل إن الخِطّة الشاملة في توفير المياه قد شملت أيضا، تعزيز الصنابير والبزابيز حيث تم تنفيذ 1615 صنبور جديد في عام 1984، بالإضافة إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف حنفية مياه جديدة في الربوة، والشعبين والمعيصم ومنطقة القصور...

كما تم تنفيذ شبكة متكاملة للمياه في عرفات باطوال تصل إلى 65 كلم، وأنشئت في جميع شوارع عرفات ما يزيد عن 2500 حنفية ماء بحيث أصبح عدد حنفيات المياه في هذه المنطقة أربعة آلاف حنفية...

ونصف هذا العدد يعمل بطريقة الكترونية، ومن هذا أصبحت المياه خاصة في جبل الرحمة، وحول مسجد نمرة متوفرة وبوفرة... هذا الإضافة لتنفيذ خمسة آلاف «دورة مياه» في منطقة بين الجسرين تعمل إلى جانب دورات المياه في المناطق الأخرى...

كما تم الانتهاء من مشروع بناء محطة لتبريد ماء «زمزم» وتكييف منطقة «بئر زمزم» بالهواء البارد... وبلغت التكاليف الاجمالية لهذا المشروع: 940.429.32 ريالا، وتم التبريد للمياه بطاقة 60 مترا مكعبا للمناهل المخصصة للرجال، و : 469 مترا مكعبا للمناهل المخصصة للنساء في الساعة الواحدة.

كما زود مبنى تبريد مياه زمزم بجهاز «كمبيوتر» يوضح للعاملين حاجة كل منهل، ودرجة برودة المياه، وقد ربط المبنى بشبكة للتيار الكهربائي عن طريق محطة خاصة بالمبنى قدرتها : 500.2 «كيلوفولت».

ويتم توزيع مياه زمزم بعد تبريدها بالحرم عن طريق صنابير للشرب تغذى من مياه زمزم المبردة والموزعة في جميع أرجاء الحرم المكي الشريف، ويبلغ عددها : 721 صنبورا بالإضافة إلى مجمعات لمياه زمزم

المؤقتة خلال موسم الحج، إضافة إلى 5.000 ترمس سعة كل ترمس أربعون لترا موزعة في جميع أرجاء الحرم.

وما يقال عن مكة المكرمة، يقال عن جدة ميناء الحجاج العظيم الذي كان يعيش على مياه «الصهاريج»، وهي مخازن تجمع فيها مياه الأمطار، وتستعمل خلال العام، وكانت جدة تقاسي كثيرا من ندرة المياه وعدم وجودها، إلى أن أسال الماء إليها السلطان «قانصوه» الغوزي أحد سلاطين المماليك في مصر في القرن العاشر الهجري حيث جلب إليها الماء من الرغامة على بعد اثنى عشر كيل،(87) ولكن متاعب جدة لم تنته إذ لم تلبث هذه العين أن خربت في القرن الحادي عشر الهجري، ثم أجريت، ثم خربت مرة أخرى في القرن الثالث عشر... وظلت جدة، التي يقبل عليها الحجاج، من كل حدب وصوب خلال، تاريخها مهددة بنقص المياه، وفي سنة 1325هـ/1907م، أحضرت الدولة العثمانية آلة مقطرة لتحلية ماء البحر، وظلت هذه الوحدة عاملة إلى أن دخلت الحجاز تحت الحكم السعودي.(88)

* * *

انتهاء متاعب جدة المائية :

في ظل الدولة السعودية انتهت متاعب جدة المائية إلى الأبد، وذلك بإسالة «العين العزيزية» إليها في عهد الملك عبد العزيز آل سعود عام 1367هـ/1948م ، ثم بالتطوير الهائل لتحلية المياه المالحة التي أصبحت تغطي حاجة مدينة جدة، وتزيد حتى اتسعت المدينة اتساعا كبيرا لم يكن لها عهد به.

ولقد حاز الطريق بين مكة وجدة عناية المغفور له جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود... ومن ملامح ذلك إنشاء الأسبلة على

---

87) «مرآة الحرمين»، ص : 1/218، و«موسوعة تاريخ جدة»، للأستاذ عبد القدوس الأنصاري، ص: 2 ـ جدة، مطابع الروضة، 1401 ـ 1980 ـ ص: 1/451.

88) «الإنسان والماء» في جزيرة العرب، للأستاذ أحمد الضبيب.

الطريق، بما يسهل للحجاج والزوار حصولهم على المياه المبردة في يسر وسهولة... ويحقق لهم أحد مطالب الحياة...

وقد تم العثور على ثلاثة أسبلة بنيت في مواقع متفرقة على الطريق بين مكة وجدة صمم كل منها على شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا.. ويعلو واجهته الغربية لوح تأسيسي مؤرخ بعام 1361هـ/1942م؛ وجاء تصميم الأسبلة يسيرا في تكوينه، ومتفقا مع إمكانات البيئة من حيث المناخ، والمواد الخام المتوفرة في المنطقة... وهذا يتفق مع أسلوب بناء وتصميم الأسبلة العثمانية على الطريق بين مكة وجدة.

وهذه الأسبلة هي : سبيل بِئْرِ أمّ القرون...

وسبيل حداء...

وسبيل بئر المقتلة...

فنظرا لحاجة الطريق بين جدة ومكة إلى وجود أسبلة لإرواء ظمأ المارين، فقد تكفل الملك عبد العزيز بإنشائها، وأيد ذلك الكشف عن ثلاثة أسبلة.

فسبيل بئر أم القرون : يقع موقعه ملاصقا لبئر أم القرون من الجهة الغربية على الطريق بين مكة وجدة... وقد كان هذا الموقع معروفاً ترده الأعراب، وعابرو السبيل لوجود بئر به تعرف ببئر أم القرون، وصفها اللواء إبراهيم رفعت عام 1900م بما يلي : بئر أم القرون... على اليسار، يقصد يسار المتجه لمكة مبنية بالحجارة وعمقها عشرة أمتار لها أربعة أعمدة، تدور عليها أقطاب البكر التي ترفع بها الدلاء، وماء هذا البئر عذب فرات.(89)

سبيل حداء : يقع موقعه ملاصقا للبئر من الجهة الغربية على الطريق بين مكة وجدة، ويعرف أهل حداء هذا السبيل، بسبيل حداء، ولعل تسميته

89) «مرآة الحرمين» ج : 1/ص : 27.

جاءت نسبة لموقعه الذي درج المتأخـرون من الرحالة على تسميته (حدة)، وهو تعريف لاسمها،(90) ذكرها اللـوء إبراهيم رفعت عام 1900، بما يلي : «هي بلدة صغيرة على اليسار يقصد يسار المتجه لمكة بها حصن ومسجد ذو مئذنة وعين ماء حلوة، وبئـران على يسار الطريق، وبها نحو 600 نخلة يملكها «عـون الرفيق» باشـا شريف مكة... وكـان المحمل يبيت بجدّة، ثم عدل عنها إلى بحرة لما أن تعدى أهلها عليه».(91)

سبيل بئر المقتلة : يقع موقعه ملاصقا للبئـر من الجهة الغربية على الطريق بيـن مكة وجدة، شـرق أعلام حـدود حرم مكـة الغربيـة بنحو 10، كيل.. وقد كان هـذا الموقع معروفا لعابري السبيل بين مكـة وجدة، أشار إليـه اللواء إبـراهيم رفعت بما يلـي : «ومررنـا... بقلعة المقتلـة، وهي على اليمين... وتحتها بئر مطوية بالحجر عمقها حوالي 20 مترا، وعليها دعامتان لوضـع محور البكـرة عليها، ولها ثلاث درجات يقف عليهـا من يُخرج الماء منها، وماؤها عذب غزير».(92)

* * *

كان يريد الماء.. فأتاه النفط :

لقد كان جـلالة الملك عبد العزيز رحمه اللـه يبحث عن الماء، جادا في استخراجه، فاكتشف البتـرول، فخـرج لـه ولبـلاده النفط... فلقد كان يريد الماء... فأتاه النفـط..

---

90) عاتق بن غيث البـلادي ـ «معالم مكـة التاريخية والأثـرية»، ط (1) (مكة المكرمـة ـ دار مكة ـ 1980، ص : 81.

91) «مرآة الحرمين» ج : 1، ص : 27.

92) المصدر السابق ج : 1/ص : 28. ـ وانظر بحثا كاملا في المـوضوع للدكتور عادل محمد نور عبد الله غباشي ـ مجلة الدارة.

وقصة ذلك أنه زار الثري الأمريكي المستر «كْرَايَن» المعروف برياسته لبعثة الرئيس «وِلْسُن» في سورية وفلسطين عقب الحرب الأولى، بلادَ اليمن، وعاد بعد رحلته إليها يقول : «إن سكان بلاد العرب أقرب الناس إلى الله، لإيمانهم بأن رزقهم في السماء، ومنها يهبط الماء، فهم يكثرون التطلع إليها، كلما جفّت مراعيهم، يسألون ربهم الغوث بالغيث» وأضاف «كراين» الذي كان يلقب بهارون الرشيد، بأن هذه البلاد القريبة من الله التي خرج منها جميع الأنبياء، فقد طال عهدها بعصر النبوة، فهي تتمخض عن ولادة «مبعوث إلاهي» جديد في خلال مآت قليلة من السنين، كما حكاه الشيخ خير الدين الزركلي، وقد زار المستر «كراين» البلاد السعودية، ورحب به الملك عبد العزيز وجاءه سنة 1931 يصحبه ويترجم له «جورج أنطونيوس» مؤلف كتاب : «يقظة العرب» وكان الملك قد عرف أنطونيوس يوم جاءه مع الجنرال «كلايتون» لعقد معاهدة «جدة» عام 1927... وفي خلال الحديث بين الملك و«كراين» سأله «كراين» عما يمكنه أن يقوم به من مساعدة لبلاده، فحدثه الملك بما تعانيه البلاد، ولا سيما الصحراوية منها، من الجفاف في أكثر السنين، وود لو يحضر لها خبير جيولوجي يبحث عن «آبار إرتوازية» تسقي الناس الماء في طريق الحج...

قال «كراين» : سأبعث إليكم بخبير، ولا تكلف حكومتكم أن تنفق عليه أكثر من تأمين إقامته وتنقلاته.

ووصل إلى جدة عام 1931 المهندس الجيولوجي الأمريكي «تويتشل» فقال : كنت في اليمن، ووصفت خدماتي، بواسطة المستر «كراين» لمصلحة الإمام يحي وبلاده، وها أنا بين أيديكم لفحص الأراضي، بحثا عن الماء، وعلى الأخص في مناطق طرق الحج، فبدأ البحث، ولم يجد ما يبعث على الأمل في تدفق آبار إرتوازية، فقدم تقريراً، لا يبشر بالخير عن وجود الماء، بيد أنه لاحظ مستنقعات زيتية جافة قديمة العهد...

فقد كان الملك يريد الماء، وقد يئس «تويتشل» من وجود الينابيع الكافية منه في أراضي الحجاز، وتحول الجهد إلى استخراج البترول.[93]

ورغم ذلك، فقد أعان الملك عبد العزيز على الإكثار من حفر الآبار الارتوازية، وجلب الآلات التقنية لها، والإيعاز إلى رجال المالية بتقسيط أثمانها، وأول ما استبشرت به البلاد من تحقيق «الفكرة» الارتوازية كان ما نشر أواخر نوفمبر 1939 من نجاح التجربة في حفر بعض الآبار في جهتي الدمام والقطيف حيث تدفقت المياه من بئر في الأولى بمعدل 64 ألف «كالون» في اليوم، ثم من بئر في الثانية بمعدل 166 ألف «كالون» يوميا.

وهكذا عمل الملك عبد العزيز رحمه الله ما استطاع لتوفير المياه في مملكته الصحراوية فجزاه خيرا ورحمه الله.

* * *

ولما عاد اللواء إبراهيم رفعت باشا الذي كان رئيسا للمحمل المصري في عام 1901، وأميراً للحج عام 1902 ـ 1904 ـ 1907، من حجته عام 1320، قابل سمو الخديوي، حدّثه عن الفقراء الدين يحجون ويزورون مشيا على الأقدام، وعن الصعاب التي يلاقونها في سبيلهم، فتطرح بهم في الفيافي والقفار بلا ماء، ولا زاد، أصدر أمره الكريم في 26 دسمبر عام 1903 لمدير الأوقاف بعمل مسقى خيري يرافق المحمل حتى يكفي الفقراء الماء، وكان الإنفاق على المسقى موكولا إلى اللواء أمير الركب في عامين 1321 ـ 1325.

وهذا هو الكتاب الذي بعث به إلى أمير الحج اللواء إبراهيم رفعت مدير الأوقاف في 29 دسمبر 1903.

سعادة أمير الحج المصري : وافقت المكارم السنية على صرف مائتي جنيه لسعادتكم... من ذلك مائة وخمسون جنيها مسقي متنقل يسير مع ركب المحمل... والباقي، وهو خمسون جنيها يشترى به سجادات تفرش

---

93) المصدر السابق، ص : 2/695.

للصلاة في المسجد الحرام؛ كما ورد بذلك كتاب من سعادة رئيس الديوان الخديوي مؤرخ في 26 دسمبر عام 1903، رقم : 26، وقد أذنا، اليوم، بصرف هذا المبلغ لسعادتكم لتنفقوا منه في هذين المشروعين، وتقدموا لنا تفصيل المنفق بعد عودتكم مع مستندات الصرف.

مدير الأوقاف

عبد الحليم عاصم

ولقد كان في هذا المسْقى الخيري الوقفي إنقاذ كثيرين من عوادي الجوع، ومخالب العطش الذي كثيرا، ما أودى بحياة أناس لم يقصدوا بسفرهم إلا وجه الله، وابتغاء مرضاته...

الفصل الثامن :

مؤسسة السقايات، أنظمة اقتضتها فلسفة المدينة الإسلامية...

I

لقد بلغ من اهتمام الواقفين بتحبيس الأسبلة والسقايات حدا بالغا ما عليه من مزيد... يبتغون بذلك من الله، فضلا ورضوانا، ويقصدون بوقفها إغاثة اللهفان، وري الظمآن، لا سيما إذا كان ماؤها عذبا فراتا، وباردا قراحا... سائغا للشاربين... لأن الماء الشبم يولع به الخلق في بوارح القيظ، يشفون به أُوامهم، ويتبردون به بالعَلّ والنهل، والغسل والمجاورة، فهو في حَمَارَّة القيظ، ووقدة الضحى، روح للأرواح وشفاء للملتاح.

وقد حفل المجتمع الإسلامي بمؤسسات إجتماعية كالسبل والسقايات لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل والمارين والواردين، وهي مؤسسات وأنظمة راقية حضارية اقتضتها فلسفة المدينة الإسلامية لتوفير مياه الشرب للمارة والسابلة في الطريق...

وقد انتشرت الأسبلة(1) في مدن العالم الإسلامي جميعا، وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في مدينة سمر قند، أعظم مما يتصور... فمن ذلك ما قاله ابن حوقل(2) : «وقلما رأيت خاناً، أو طرف سكة، أو محلة، أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء مجمد مسبّل... وذكر لي من يرجع إلى خبره أن سمرقند في المدينة، وحيطانها فيما يشتمل عليه السور

---

1) كلمة «تسبيل» : مشتقة من أسبل الماء، أي صبه صبا. ـ وتستعمل كلمة تسبيل للدلالة على عين الماء التي تقام ليشرب منها عامة الناس، ومن المحتمل أن تكون الكلمة مأخوذة من عبارة «سبيل الله» التي جرى المسلمون على إطلاقها على أي فعل يقصد به وجه الله تعالى : ويقول المؤرخ علي مبارك : السبيل : هو الموضع الموقوف المعَدّ لوضع الماء المسبّل فيه، تارة بخصوص الشرب، وتارة للنفع العام حلى حسب شرط الواقف.

2) ابن حوقل : صورة الأرض، ـ ص : 386، ط. بيروت، الأصطخري، ص : 290.

الخارج زيادة على ألفي مكان يسقي فيه ماء الجمد مسبلا عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة؛ وقلال خزف في الحيطان مبنية...

ولهذه المدينة مياه جارية تدخل في نهر كان أصله خندقاً قديما، وقد بنيت له في بعض المواضع مُسنّاةٌ عالية عن الأرض يجري عليها الماء، ووجه هذا النهر رصاص كله، وهو نهر قديم جاهلي يشق سمر قند، وهو من أعمر المواضع بها، وله غلات موقوفة لمرمّته ومصالحه، وعليه حفظة من المجوس شتاءً وصيفا في شرط عليهم بذلك، ولا توخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب.(3)

* * *

السقايات في الشام :

وقد عدد الحافظ ابن عساكر - صاحب تاريخ دمشق - السقايات الموجودة على أيامه في دمشق، ولكن يبدو أن أعظم نماذج للأسبلة في المدن الإسلامية كان في القاهرة بالذات حيث أخذت ظاهرة إنشائها تنتشر منذ القرن السادس الهجري، وأقبل السلاطين والأمراء ونساؤهم في عصر الأيوبيين والمماليك على إقامتها على الطريق العامة المطروقة، لتعم فائدتها، ويتضاعف ثوابها، ويتيسر تسبيل الماء وشرب المارين والواردين.

وقد ذكروا بأن السبيل عموما، يتكون من طابقين : الأول يضم الصهريج، وكانت تغطيه قباب تقوم على أكتاف وعقود، في حين تغطي فوهة الصهريج «غرزة» من الرخام.

أما الطابق الثاني فيحوي حجري التسبيل، وهي وسيط بين الصهريج والجمهور، وتوجد بها نوافد، وبداخلها، أحواض الشرب التي يصل إليها

3) الأصطخري : ص : 216، وابن حوقل، ص : 366.

الماء، بواسطة مَجَارٍ من الرصاص، وتوجد مصطفة، لوقوف المارة عليها، أثناء الشرب، بهدفِ توفيرِ مزيد من الراحة لعابري السبيل...

* * *

وقد ثبت أن الوقف للماء المعد للسبيل يُهَيِّؤُه الله وييسره لعباده، ويذلل صعابه، رغم ما يتعرض الواقف المحسن من صعوبات ومعوقات.

وقد ظهرت لأحمد بن أبي بكر بن علوي الجمّال الشلي (ت : 1004هـ) كرامات منها أن السيد الجليل عمر بن أحمد مَقَر لما حفر بئره المشهور تحت «تريم»(4) اعترضت دون الماء صخرة عظيمة، فتعب لذلك، فلما علم ابن الأستاذ الشلِّي بأنه قصد بها وجه الله، وأن فيها نفعا للمسلمين، كتب في حجارة صغيرة، ورمى بها على تلك الصخرة الكبيرة فانهارت كالتراب ونبع الماء.(5)

ومن كراماته، أيضا، أنه لما سافر إلى الحج في طريق الشط حصل للركب الذي هو فيه عطش شديد، ومحل الماء بعيد عنهم، فأخذ قربة، وتوارى في جبل صغير، ورجع والقربة مملوءة ماء فراتاً.. وكان يقال إنه يعلم الاسم الأعظم.(6)

وأنشأ الشيخ أحمد بن سليمان القادري الدمشقي (ت : 1005هـ) سبيلا بجوار مدرسة القلجية، وكان ذلك في عام 982هـ، وقال مامية الرومي مؤرخا بناء السبيل :

هـــــــذا السبيـل الأحمـــــــدي

للـــــه مـــــا فيـــــه خفـــــا

---

4) مدينة في حضرموت شمالا على الجانب الأيسر من وادي حضرموت مركز للحياكة والصناعات، الشالات المطرزة، بخيطان الفضة.

5) «خلاصة الأثر» للمحبي، ص : 159/1.

6) المصدر السابق، ص : 159/1.

وقــــــد أتى تــــــاريخـــــه :

إشـــــرب هنيئـــا بل شفــــا(7)

وقـد قرأ المحبي بخط عبـد الكـريم الطارانــي : «ومما أنشـدني لطفي البصير الكاتب الدمشقي (تـ : 1005هـ) من محفوظه بيتين من شعر العلامة العماد الحنفي، كان نظمها مـؤرخا بهما قناة مائية بنـاها والد لطفي محمد بالقرب من داره باطن دمشق بمحلة بين الطوالع بالقرب من مدرسة العادل بن أيـوب، وأتم بناءها فـي عام 972هـ، ونقشهمـا في بلاطة من الـرخام، وركبها في أعلى القناة، وهي يومئذ موجودة؛ وهما :

محمــــــد قــــــد بنـى سبيـــــلا

للخيــر يـــرجــو بـــه سبيـــلا

فجـــاء تـــاريخــــه : شـــرابي

حـــلا، طهـــورا وسلسبيـــلا(8)

وكان الـوزير الكبير أحمـد باشـا المعروف «بكوجك» أحمـد الأرنودي (تـ:1046هـ) عمّر بـدمشق تكية خارج «باب اللـه» بالقرب من قربـة ا لقدم، ووقف عليها قـرى من ضواحي صيدا وبعلبك، وبنى «سبيلا» بـالقرب من عمارته، عظيم النفع، وقيل في تاريخه :

أنشأ الـــوزيـر للـــوفـود منهـــلا

لـــوجـــه مـــولاه إذا وافى، غـــدا

وأنشـــد الـــوارد فـــي تـــاريخـــه

هـذا السبيل الأحمـدي قـد بـدا(9)

وهذا الشيخ أحمـد ـ المعروف بـالزريابـي الدمشقي قاضي المـالكية، وفقيههم بدمـشق (تـ : 1050هـ) قـد شـرع في عمـارة الشيـخ أرسلان،

7) المصدر السابق، ص : 207/1.

8) المصدر السابق، ص : 307/3.

9) المصدر السابق، ص : 207/1.

قدس الله سره العزيز، وانقطع هناك، وصرف مالا جزيلا، وكان صاحب ثروة، وأجرى ماءً للشباك، قبالة الضريح... ومن شعره قوله لما عمّر العمارة المذكورة :

قد شاده خُوَيْدِمُ الأعتاب

أحمد ذاك المالكي بالباب

في راس خمسين وألف تتلو

من هجرة ا لنبي والأصحاب(10)

وكان أبو بكر الكردي العمادي الشافعي، نزيل دمشق، قد جاور المدرسة الكلاسة في جانب الجامع الأموي، وكان يسقي الماء بالجامع المذكور، ويتقوت بما يدفعه الناس.(11)

* * *

وفي مصر :

أنشأ الأمير عبد الرحمن «كتخدَا»(12) مستحفظان ابن المرحوم حسن «كتخدا» القازغلي في عام 1157هـ، سبيلا وكتاباً بين القصرين في مصر.. ويعلو السبيل كتاب تحيطه مظلات وحواجز خشبية جميلة الصنع...

---

10) المصدر السابق، ص : 1/317.

11) المصدر السابق، ص : 1/111. ـ وما من شك بأن سُقاة العالم، قديما وحديثا، يحسدون رفيقهم في الأمم ا لمتحدة عندما يعلمون أنه يتقاضى ما يصل إلى : 21 ألف دولار في العام دون حسومات أو ضريبة دخل من أي نوع، وبل ويحق «للسقاء» الدولي بعد ستة أشهر من عمله أن يتمتع بكل ميزات صندوق معاش التقاعد والتأمينات المكفولة للموظفين الدوليين بمن فيهم السكرتير العام الدولي شخصيا...
فلأن وظيفة المندوبين في الأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة هي الكلام، والكلام، فالمؤكد أن هؤلاء المتكلمين بحاجة إلى مدد متواصل من الماء القراح، وذلك لمقاومة بحة الصوت... لكن السقاء يشعر بضغط العمل أيضا، ولا يسلم الأمر من أن يعبر عن بعض التبرم، لأن المنظمة الدولية تطلب منه حمل أقداح الماء الفارغة إلى السير الذي ينقلها لوحدة التنظيف الآلي.

12) معنى «كتخذا» وزير الأمور الداخلية كما جاء في «تخليص الإبريز» لرفاعة الطهطاوي، ص : 72. ـ أنظر ترجمة في تاريخ الجبرتي، ج : 2، ص: 5.

وداخل السبيل نرى الجدار مـزينا ببلاطات القيشاني المـزخرفة، وفي الوسط صورة الكعبة الشريفة على البلاطات المربعة...

وقد تم تنظيف هذا السبيل، والعناية به، أثنـاء احتفالات القاهرة بعيدها الألفي عام 1969، ولقد لفت هـذا السبيل أنظار الفنانين الأروبيين، فـرسمه أكثر من فنـان، رسمه المهندس «أوين كارتـر» عام 1830، تم سجل رسم آخـر لـه في كتـاب : «جورج إيبـرس» عـام 1879، والتقطت أول صـورة فتوغرافية له عام 1900.(13)

* * *

وفي شارع المعز لدين الله يوجد سبيل بناه، أيضا، الأمير عبد الرحمن «كتخذا» عام 1744م بجوار ضريح الشيخ مظهر.. ويعرف السبيل الآن في مصر «سبيل الشيخ مظهر».

وهو الذي أنشأ جامع المغاربة، وعمل عنـد بابه سبيلا وكتاباً وميضـأة تفتح بطول النهـار، كما أنشأ بـالقرب من تـربة الأزبكية سقـايا وحـوضا لسقي الدواب، ويعلـوه كتاب كما أنشأ بابـاً عظيماً جهة حارة كتـامة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسعـة، وصهريج عظيم، وسقاية لشرب العطاش المارين،(14) وأنشأ عند بـاب البرقيـة المعروف بـالغريب جـامعا وصهـريجا وحـوضا وسقـاية ومكتبـاً، ورتب فيـه تدريسـا وكذلك جهـة الأزبكية بـالقرب من كوم الشيخ سـلامة جـامع ومكتب وحوض وميضـأة وساقية ومنارة...

وقد أنشأ السلطان الظاهر بيبرس إلى جانب مدرسته الظاهرية بالقاهرة مكتباً لتعليم الأيتـام، و«أجرى عليهم الخبز في كل يـوم، وكسوة الفصلين، وسقاية تعين على الطهارة.(15)

13) مجلة : «العربي» ع : 305/س : يوليو : 1954/جمال الغيطاني.

14) «عجائب الآثار»، للجبـرتي، ج : 2/ص : 6.

15) أبو المحاسن : «النجوم الزاهرة»، ص : 121/7.

قال أبو عمر أشهب المالكي : «أمرني أبي أن أتخذ سقاية بموضع سماه، فبنيتها مرات، ويهدمها علي جيران حسدوني فيها، فأدركني يوماً غم لذلك، فقعدت عنها باكيا مفكراً!.. فسمعت صوتا من الصحراء يقول : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض...» فحركت دابتي نحو الصوت، فلم أرَ أحداً، فعدت إلى موضعي، فسمعت الصوت، فقمت، فلم أرَ أحداً، فعدت إلى القعود، فعاد الصوت ثالثة، فعلمت أنى المراد، فحمدت الله، وقامت لي نية في طلب العلم، وبنيتها، ووكلت من يحرسها بأجرة، فلم يعد أحد إلى خرابها..(16)

وكان الشيخ الإمام العارف الرباني الولي الصاح سيدي أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج السلمي البلفيقي المري دفين مراكش،(17) يواصل الصوم أربعين يوما، وأنه بنى ثمانية عشر جبا، في مواضع متفرقة، ونحو عشرين مسجدا، كل ذلك من ماله.(18)

* * *

ولا تسل عن العامة، من أبناء الشعب، فكل من جاد الله عليه بالمال، وأفاء عليه بالخير، ووسع عليه في الرزق، وحباه نعمة الهداية ليكون أداة للخير، وطريقاً إلى العُرْف، وسبيلا إلى تحقيق الرِّغَاب، فقد كان يوقف السقايات يبتغي بها وجه الله، لينقع بها غلة الصادي سواء في داخل المدينة، أو في أرض معطشة يحتاج فيها إلى جرعة ماء... والأمثلة في هذا الصدد لا يأتي عليها الحصر والعد...

---

16) كما في ترجمته في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، ص : 3/266.

17) أنظر ترجمته في التكملة، ص : 1/166، ط. مصر، «ونيل الابتهاج»، والإعلام لعباس بن إبراهيم، ص : 1/154، نشر، ط : الملكية، الرباط، والاستقصا، ص : 2/235، والإحاطة : 2/101، المرقبة العليا : 164؛ والتعريف بابن خلدون : 61.

18) «أزهار الرياض»، ص : 4/109، والنفح، ص : 5/477. ـ تحقيق إحسان عباس.

ويكفي أن نشير إلى واحدة منها... فلقد كـان سيدي عبد الله ابن سعيد التهالي (955/1051هـ) يحظى باحترام كبير في بلدة «إلغ»، وأنه ما نال ذلك بجاه أو غيـره، بل أدركه بتفانيـه في منافع الأمـة، فيسعى في إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، ويجـري في الأمور العامة التي لا يأبـه بها إلا من جعل الإخلاص رائده في كل ما يـزاوله، والمصلحة ونفع العباد، أيـا كانوا، نصب عينيه، فيقبل على المعاطش، فيؤسس فيهـا نطفيات تنقع غلات أبناء السبيل، وقـد جعل جل همه في أمثـال ذلك... حتى أن اثنتى عشرة نطفيـة أسسها في محلات معلومة بين الفيافي والقفـار، وكان يسميها بناته، فكان مما أوصى بـه بنيه، أن يحافظوا على «بنـاته» هذه بالترميـم والتعهد حينا بعد حين، فكان أولاده عند هذه الوصية...

فهذه ثلاثة قـرون مضت، ولا تزال هذه «البنات» موضع عنـاية لهؤلاء البررة.(19)

ويقولـون أن من حكايات سيدي عبـد الله بن سعيد أن لـه نطفية في : «دراووغ» فمر بـه هناك بعض الملوك بجيش كثيـر، فأضربهم العطش في ذلك المحل، وهي معطشـة الآن ـ فقـال المـلك لمن حضر : «مـن يقدر أن يسقيني أنا وجيشي؟» فلم ينتدب أحد... فكرر ذلك، فمثل بين يديه عبد الله ابن سعيد، وهو مشتمل برداء؛ فقال له : «أنا أسقي الجميع» فقال له : « أو تقدر على ذلك يا صاحب الشملة؟» فقال له : «سترى؟»، فمال بالجيش إلى نطفية له، كان قبل بنـاها هناك... فصار الجند يمُّر بهـا، فَيُصْدِر رَيّا، وهو يُناول لكل من شرب خبزة يتناولها من تحت إبطه حتى روى الجيش..(20)

ثم تحدث الأستاذ محمد المختار السوسي بأنهم كانوا يذكرون أن عادة الشيخ أن يدور مع تلاميذه في القفار، فيؤسس النطفيات، حتى إنه أوصى

---

19) المعسول، للأستاذ العلامة محمد المختار السوسي، ص : 94/1.

20) المعسول، للأستاذ العلامة محمد المختار السوسي، ص : 80/1.

أولاده، كما تقدم، فيما أوصاهم به أن يقوموا على على نطفياته، فقام بنوه على ذلك إلى الآن... «آل أكادير إيزري» هم القائمون بهذه المهمة لا يفرطون فيها، يعدون تلك النطفيات، اثنتى عشرة، وكانت تسمى «بنات الشيخ» عند المتحدثين، وذكر الأستاذ المختار السوسي رحمه الله بكاملها في كتابه الآنف الذكر، وعدد مواقعها وجهاتها في منطقة سوس المومنة العالمة...

هذا قل من كثر، وغيض من فيض، وبعض ما خلفه الأسلاف في هذا الميدان الخصب الرحيب، وهم كانوا، في ذلك، يترسمون خطى السلف الصالح، ويتأسون بما فعله الرسول عليه السلام والصحابة الذين كانوا يقفون المياه للظمأى والعطشى، ولمن أراد أن يسبغ وضوءه، سواء بحفر الآبار، أو جرها في قنوات...

الفصل التاسع :

الإشراف على السقائين.. من اختصاص المحتسب :

ما زال كثير من السقايات، والمباني الأثرية قائما في المدن الإسلامية يسترعي النظر بفنها وجمالها وعمارتها،[1] وعلى واجهتها آيات قرآنية بخط جميل تتفق وسياق المعنى، مثل قوله تعالى : ﴿**وسقاهم ربهم شرابا طهورا**﴾[2] أو ﴿**يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[3] أو ﴿**إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا**﴾.[4]

وكان يتم تزويد مساكن المدينة بالماء العذب على يد السقائين وأصحاب الروايا والقرب ممن يحملون على ظهورهم أو على الدواب...

وكان من اختصاص المحتسب الإشراف على السقائين فيامرهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشط، ومواضع الأوساخ، ولا يسقون من موضع النهر بقرب سقاية الدواب، أو مستخذم، أو مجرى عام، بل يصعدون عنه، أو يبعدون من تحته...

وفي سبيل المحافظة على المارة من البلل، فقد كان المحتسب يامر السقائين بربط أفواه القرب، وأن يشدوا بأعناق دوابهم الأجراس،

---

1) تحتفظ القاهرة مثلا، بعدد كبير من السقايات والأسبلة التي تنتمي إلى عصور تاريخية مختلفة، في الزمن المملوكي كان يوجد في القاهرة أكثر من ثلاثمائة سبيل، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، أحصى علماؤها 266 سبيلا، وعندما وضع علي باشا مبارك كتابه الموسوعي : «الخطط التوفيقية» في منتصف القرن التاسع عشر أحصى 145 سبيلا، أما المرحوم العلامة الدكتور عبد الرحمن زكي، فقد أحصى أسبلة القاهرة الباقية حتى يومنا هذا، وبلغ عددها 65 سبيلا... [«أسبلة القاهرة» جمال الغيطاني]

2) سورة الإنسان، رقم الآية : 21.

3) سورة التطفيف، رقم الآية : 26.

4) سورة الإنسان، رقم الآية : 6.

وصفاقات النحاس والحديد لتعلو جلبة الدابة إذا عبرت في سوق أو في محلة.(5)

وفي عام 382هـ نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء ليلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب المارة.(6)

وقد بلغ عدد سقائي القاهرة في بعض الفترات، نحو ثلاثة آلاف؛(7) وقد رأى الحسن بن محمد الوزان في القاهرة ضربا من البراعة قام به أحد السقائين الذين يتجولون حاملين قرباً معلقة برقابهم... فقد راهن هذا السقاء آخر بأنه سيحمل قربة من جلد عجل، مليئة بالماء، ومر بوطة بسلسة من حديد عدة أيام، وفي أثناء سبعة أيام متتاليات من الصباح إلى المساء، ظل يحمل هذه القربة المعلقة بسلسلة تمر فوق كتفه العاري إلى أن ربح الرهان... وقد تلقى تكريمات النصر الباهر، مع مركبته بمختلف الموسيقيين، وبكل سقائي القاهرة الذين يقارب عددهم ثلاثة آلاف.(8)

---

5) الشيزري، ص : 177، ابن الإخوة، ص : 240.، «جغرافية المدن عند العرب» عبد العالي عبد المنعم الشامي.

6) الخطط : للمقريزي، ص : 108/2. ـ لقد وضعت شروط عديدة لمن يتولى وظيفة تزويد الناس بالماء، وقد نصت عليها كتب الحسبة، وكذلك وثائق الأوقاف، منها : أن يكون المزملاتي ـ وهو الشخص الذي يزود بالماء ـ نظيفا، جميل الهيئة، سليم البدن من العلل، والأمراض المعدية، خال من العاهات، وموضع ثقة، وأن يعامل الناس بالحسنى والرفق، ليكون سببا في إدخال الراحة على الواردين والقاصدين السبيل، كذلك يتولى نظافة السبيل، والعناية بالأدوات اللازمة له مثل الأقداح والكيزان، وأوعية الشراب، وأدوات التنظيف، نفس العناية الموجهة لتسبيل الماء، وكان المكان الذي تحفظ الأدوات، من أباريق، وقلل الفخار، يعرف باسم الخوستان أو الخرستان، أي الخزانة الخشبية...

7) في العصر المملوكي بالقاهرة كان يوجد في القاهرة أكثر من ثلاثمائة سبيل فهم أول من اهتم ببناء السقايات، وأولوها عنايتهم، ووقفوا عليها الأوقاف الواسعة، وعند ما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أحصى علماؤها 266 سبيلا...

8) «وصف إفريقيا» لمحمد الحسن الوزان الفاسي، ص : 593، ط : المملكة العربية السعودية...

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها للرقى قط؛ فكان أهل مصر يشربون ماء النيل، يحمله الحمّالون في الروايا، ويصعدون الدور، كل طبقة بنصف دانق.(9)

ويحكي ناصر خسرو في عام 440هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنتان، وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين.(10)

وقد نصت وثائق الأوقاف المصرية، في معظمها على أن يكون الماء عذبا ومن النيل... وأن يتوفر الماء طوال العام صيفا وشتاء، خاصة في الصيف حتى يتزايد استهلاك المياه...

بل أن بعض الوثائق تؤكد أنه إذا رأى «الناظر» أن القدر المعين صرفه في كل شهر لثمن ماء السبيل يفضل منه شيء في أيام الشتاء لقلة شرب الناس فيه، فيدخر الفاضل من أيام الشتاء لأيام الصيف، ويزيده في ثمن الماء المسبل في أيام الصيف، فيصرف الناظر في ذلك بما يرى فيه الحظ والمصلحة بحيث لا يفرط في ذلك، ولا يخرج في سلوكه عن السنن المتوسط».(11)

وتنص وقفية السلطان الغوري على تسبيل الماء في جميع أوقات النهار من شروق الشمس إلى غروبها، وحتى نزول الليل، وإيواء الناس في بيوتهم.. وانقطاع الرجل عن الطرقات.. يسري هذا في جميع الأيام عدا شهر رمضان، حيث نصت الوثيقة على ضرورة بدء تسبيل المياه أول وقت الغروب إلى أن يأوي الناس إلى مساكنهم...

---

9) المقدسي، ص : 207.

10) «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، لآدم ميتز، ص : 2/275.

11) من وثيقة السطان الغوري..

وقد وجد في الشام وقف لسقيا الماء المثلوج في الصيف لعابري السبيل، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة.(12) وفي مدينة مراكش يوجد وقف لسقي الماء المثلوج في أيام القيظ.(13)

* * *

الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط :

قدم جورج سكانيون «Georges Scanion» ورقة إلى ندوة المدينة الإسلامية في إكسفورد،(14) وموضوعها : «الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط»، تناول فيها عدة مواضيع طريفة، إذ أشار إلى اهتمام العرب في نظافة المدن، وأوضح أن كل مدينة لها نظام خاص بها، وأن السلطة هي التي تجهز الفرد بالماء، وأن هناك مراقبة يومية يقوم بها المحتسب لمتابعة تطبيق المبادىء الصحية، ووجود تزويد الشوارع بالماء يوميا... ومراقبة الباعة في ضرورة تنظيفهم الأجزاء المواجهة لحوانيتهم، وتجهيز محلاتهم بالماء.(15)

وهكذا ظهر السبيل كمبنى مدني ديني حيوي، وكعنصر من عناصر الرحمة التي تميز المدينة الإسلامية، بل يعتبر السبيل أبرز عنصر من عناصر الرحمة في المجتمع الإسلامي، حتى قال أحد الرحالة الأوروبيين في

---

12) «حاضر العالم الإسلامي»، لأمير البيان شكيب أرسلان، ص : 8/3.

13) المصدر السابق، ص : 10/3.

14) لقد طرأ تحول على اهتمام المؤرخين الإنجليز نحو حقل التمدن الإسلامي، ففي حوالي عام 1965 عقدت جامعة إكسفورد أول ندوة من نوعها حتى هذه الفترة موضوعا : «المدينة الإسلامية» وقد جمع الأوراق التي قدمت إلى هذه الندوة، وحققها كل من ا لبروفيسور «البرت حوراني» A.H Hourani والبروفيسور ستيرن S.M. Sretn، ثم طبع الكتاب بالتعاو مع معهد الدراسات «الشرق أوسطية» في جامعة بنسلفانيا في أمريكا عام 1970، والأوراق التي قدمت إلى هذه الندوة تتعلق بالمدينة الإسلامية من وجوه متعددة.

15) «المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية» دراسة نقدية مقارنة د. عبد الجبار ناجي «المورد» العراقية مج : 9/ع : 4/1981.

القرن الخامس عشر : «أن ما نراه من الأسبلة الكثيرة في أي مدينة إسلامية، دليل على سمو خلق هذه المدينة...

نماذج كتابية لوقف السقايات :

وضع العلماء عدة نماذج كتابية لوقف السقايات وتحبيسها، من ذلك ما كتبه العالم الشيخ حسن العطار(16) في صورة الوقف على السقاية، فقال : «الحمد لله، الذي خص برحمته من شاء، وعم بنعمته من أحسن وأساء، وأنزل من السماء الماء، فسقى به العطشى والظمأى، وأجزل به على الحيوان النعماء، وصلى الله على من ختم به الأنبياء، المبعوث من أشرف بطحاء، محمد بن عبد الله الذي منحه الله الأصطفاء، وخص آله وأصحابه النجباء، بالرحمة والرضوان صباحا ومساء، وبعد؛ فإن «فلانا» لما تحقق أن الدنيا مؤذنة بالفناء والزوال، ومشيرة إلى أهلها بالارتحال والانتقال، وأنها مزرعة للدار الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى، استيقظ من نوم الغفلة، فنظر في يومه لغده، من قبل أن يخرج الأمر بيده، فرأى أفضل الأعمال، وأكثرها ثوابا يوم المآل، حسنة تتجدد مع الأيام، ومسيرة مقرونة بوصف

---

16) في كتابه : «إنشاء العلامة الشيخ حسن العطار» ص : 104، طبع بمصر مرارا وحسن العطار شيخ الأزهر، (ت : 1250هـ) له تآليف عديدة منها حاشية على «جمع الجوامع» في الأصول، و«حاشية على الأزهرية» في النحو، و«حاشية على مقولات السجاعي» وحاشية على «السمرقندية»، في البلاغة، ط : بمصر عام 1288هـ، «ورسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب»، والربعين : المقنطر والمجيب والسائط... وله رسائل في الطب والتشريح، و«ديوان ابن سهل الإسرائيلي» جمعه وبوّبه، و«مذهب التقديس، بذهاب دولة الأفرنسيس» وغير ذلك [كنز الجوهر، في تاريخ الأزهر» لسليمان الزياتي الحنفي، ص 118، «تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر» لشيخو، ص : 51 ـ 53/1].
وتوجد مكاتبات بين العربي الدمناتي الفاسي وحسن العطار المصري في هذا الكتاب : «إنشاء الشيخ حسن العطار»، ط : المطبعة العامرة العثمانية بمصر عام 1315، ص : 43/46/55/59...
وللشيخ المكي البيطاوري الرباطي «منح الأوطار، من نفح العطار» شرح على رائية الشيخ حسن العطار [معجم الشيوخ، ص : 57، عبد الحفيظ الفاسي].

الدوام، يشفي بها غلة الصادي، وينتابها الحاضر والبادي، منّ الله بها على عباده أحياء وأمواتـا، فقال عز من قائل : ﴿**وأسقيناكم ماءً فراتا**﴾ فوقف جميع الملك «الفلاني» على مصالح السقاية، الموضوعة داخل مدينة «كذا» في موضـع «كذا» وقفـا صحيحاً يبدأ من أجرته بعمـارتها، وما يفضل عن ذلك يصرف إلى مصـرف السقاية ولوازمها من السطـل والحبل والقوارير، وغير ذلك ممـا هو لازم، لتستقي منها أصنـاف المارين المجتـازين عليها، فإذا انهدمت تلك السقاية، وتعذرت إعادتها، يكون ذلك وقفا على السقاية : الفلانية «أو المسجد الفلاني»، أو غير ذلك، فإن تعذر ذلك كان وقفا للفقراء والمساكين... ثم يكمل.. ويؤرخ.

* * *

ولا بـد أن نشير إلى الملـك الكامل الـذي أنشأ دار الحـديث بـالقاهـرة وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل، والسقاية على باب القبة المذكورة، ووقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر.(17)

حتى الحيوان له نصيب من الوقف :

لم يكن الاهتمام بتقـديم المياه العذبـة إلى الناس فقط، بل وجـد نوع آخر من المنشـآت شمل أيضا الحيـوانات، قصـد به الخيـرون توفيـر ماء الشـرب للدواب، ممـا يـدل على اتساع أفق النظـرة الاجتمـاعية للحضـارة الإسلامية... وقـد تعددت أحواض المياه التي أقيمت في المـدن الإسلامية، وخاصة قـرب أطرافها وأبوابها، لسقي الـدواب، وحبست عليها هي الأخرى الأوقاف لتمكينها من تحقيق أهدافها...

من ذلك مـا جـاء في وثيقـة وقف السلطان «قـايتبـاي» من سـلاطين المماليك الذيـن يعدون أول من اهتم ببناء الأسبلة، وأوقفـوا عليها الأوقاف

17) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 2/33.

الدّارة : «ووقف حوض السبيل المذكور، أعلاه، بالقرب من الجامع المذكور فيه... وفسقيـة الحوض المذكور المجـاور له لاستقرار الماء الـذي يجري إليها من غير السـاقية المذكورة المعلقة، بـذلك، لينتفع به في سقي الدواب المارين على ذلك والمتـرددين إليه، وفي غير ذلك من الانتفاعـات الشرعية على العادة في ذلك، وجعله سبيلا لله»...

* * *

وكان المصريون القدماء يعتنون بحيواناتهم، ويهتمون بها أيما اهتمام، ويشرفـون بأنفسهم على تزويـد ماشيتهم بـالماء، ويتقربـون إلى آلهتهم بإروائها، فيحضرون جرار الماء النقي، ويضعونها أمام الماشية، ويرتبون عليها، ويلاطفونها، ثم يستحثونها على الشرب...

* * *

وكتب الفقه الإسلامي طافحة بـالأحكام والشرائع المتعلقة بالحفاظ على حقوق الحيوان، وهي كثيرة، لا يتسع المجال لـذكرها، ولا سيما في ميدان الإرواء...

من ذلك، مثـلا، ما قـرره الفقهاء مـن وجوب القيـام على سقي الدابـة وإطعامها، وإذا قصر مالك الحيـوان في ذلك، أجبره القضـاء عليه... فإن لم يقم للدابـة بما يجب عليه من حسن تغـذيتها وسقيها باعهـا القاضـي، ولم يتركها تحت يد صاحبها تكابد وتقاسي وتعاني من الآلام والأتعاب...

وقد غفر لامرأة مومِس مرت بكلب على رأس ركي،(18) يلهث، كاد يقتله العطش!! فنزعت خفهـا، فأوثقته بخمارهـا، فنزعت له من الماء، فغفـر لها بذلك، أي غفر الله لهذه البغي ذنوبها بسبب ما فعلته من سقي هذا الكلب...

وعن عبد الله بن عمر أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أنزع في حوضين، حتى إذا ملأته لا بلـي، ورد علي البعير لغيري فسقيته، فهل

18) ركي : بئر.

لي من ذلك من أجـر؟ فقـال رسـول اللـهﷺ : «في كل ذات كبـد حـراء، أجر».(19)

وعن محمود بن الـربيع أن سراقة بن جعشم قال : يـا رسول الله، إن الضـالة ترد على حوضـي، فهل لي فيهـا من أجر إن سقيتها؟ قال : اسقها، فإن في كل ذات كبد أجرا.(20)

***

لقد أوصى الشارعﷺ بالهرة لكونهـا تطوف بالليل في البيوت، وحول النائمين، فتقتل الحشـرات المؤذية، وتلتقط ألفضلات المنتنـة، وقد أصْغَى وأمال يومـا بيده الشريفة الإنـاءَ إلى هرة بيته يسقيهـا، ويروي عطشها... فدلّ بذلك على أن سنورها طاهر، وإن كانت تأكل النجاسات أحيانا... لذلك نهى الشـارع عليه السلام، عن إيذاء هـذه العجماوات، وتوعّد عليه في جملة أحاديث في وجوب الرفق بالحيوان قـوله عليه السلام : «في كل كبد رطبة أجر»، ورطوبة الكبد، كناية عن رطوبته بدم الحياة.

***

الحيوانات يواسي بعضها بعضا :

وليس للإنسان الـرحيم أن يفخر على الحيوان بخلق الـرحمة والشفقة، فإن الحيوانات، أيضـا، تتراحم، ويواسي بعضـها بعضـا...

وقد روى الشيخ عبد القادر المغربي أن طـائفة من علماء الأزهر، كانوا يفطرون في مساء رمضـان على سطح بعـض أروقة الجامع، فغشيهم هِرٌّ، فكانوا يلقـون إليه من طعامهم المرة بعد المـرة، وهو في كل مرة يغيب، لا يلبث أن يعود، فرابهم أمرُه، وتبعوه، وإذا به يُلقي ما يأخذه من الطعام بين يدي سِنَّـور كبير أعمى لا بِـدٍ في بعض الخِـرَب، فوقف الشيـوخ حيارى، ومجَّـدوا الـربّ تعالى الـذي رحم العـالمين بإيجـاد عـاطفة الـرحمـة في

19) رواه أحمد، ورواته ثقات مشهورون.

20) رواه ابن حبـان في صحيحه، ورواه ابن مـاجة، هـذا الحـديث رواه البخاري عن أبي هـريرة مرفوعـا. وفي رواية : «في كل ذات كبد رطبة أجر» وفي الباب عن سـراقة عند البيهقي بلفظ : «في الكبد الحارة أجر [كشف الخفا، ومزيل الإلباس، ص : 134/2].

نفوسهـــم، ولولاهــا لأصبـــح الكـــون خرابــا يَبَابَــا، ولكــانت الحياة فيــه عذابــاً...

وفي «البداية والنهاية» لابن الأثيـر : حكي عن الشيخ الصالح عز الدين عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصقيل الحراني (594 ـ 686هـ) أنه قال : كنت مرة بِقَلْيُوب من (قُرَى مصر) وبين يدي صَبْرة قمح، فجاء زنبور، فأخذ حبة واحـدة، ثم ذهب بها، ثم جـاء، فأخذ أخـرى، ثم ذهب بهـا، ثم جاء بأخـذ أخرى أربع مرات، فاتبعتـه، فإذا هو يضـع الحبة في فم عصفور أعمى بين تلك الأشجار التي هناك...

* * *

ويعترضنــا في هذا الباب حـديث شريف يقول : «مــا من امرئ يحي أرضا، فيشرب منها ذو كبد حَرّى، أو تصيب منه عافية إلا كتب الله له بها أجراً» والعافيـة هنا كل طالب رزقٍ من إنسان أو بهيمة أو طـائر، فالشـارع عليه السلام يقـول للزارع : إن لك من وراء منفعتك الخاصة الحـاصلة من إحياء الأرض، منفعـة أخرى عامـة خفية عنك، وهي الأجر والثـواب على ما تتناوله الطيـور والـدواب من ماء أرضك وثمـارها، وإن كنـت، أنت، أحياناً تكرهُ ذلك، ولا تـريده، على حد ما ورد فـي الأثر : «يؤجر المـرء رغماً عن أنفه».

* * *

وحديـث «كل ذي كبد رطب أجـر» رأيتُ أبا عمـر، قال : يلـزم عليه أن الإساءة إليـه فيها وزر، والوزْر، والمنكـر يجب تغييره، كما أشــار إليه ابن عرفـة، ولو كان النـاس يزجرون بقول الأمـام لهم : إتقوا الله في كـذا، ما شرعت الزواجر، والقتل، والسجون، والتعزيرات.(21)

(21) من كـلام علي بن رحال، شـارح مختصر خليل، فـانظره لدى قـول خليل : «إنما تجـب رقيقه ودابته، ما لم يكن مرعى، وإلا بيع كتكليفه من العمل مالا يطيق...

وقد علق الشيخ محمد عبد الحميد الكتاني على قول أبي علي بن رحال الذي أتى وجلب من الأنقال في المسألة ما يسوغ لنا أن نجعله في طليعة جمعيات الرفق بالحيوان العجم يتخذونه قدوة، ونعم الأسوة.(22)

* * *

ومن السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها، بمدينة سبتة المغربية سقاية : «حي الميناء» العظيم الهيكل المشهور الذي ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفي، وخلده أثرا غريبا بعده رحمه الله.(23)

وقد تحدث ابن مرزق في «المسند الصحيح الحسن» عن السقايات التي يتيسر فيها تناول الماء للشرب والطهارة والانتفاع... فقال معلقا على كلام الفقيه الإمام نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن فرحون اليعمري : «... وصدق، فإن أكثر السقايات المَعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس...».

وأنشأ السلطان السعدي الغالب بالله جامع الأشراف لحومة المواسين من مراكش، والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة، فهذه السقاية مخصصة لسكان الحي الذين يأتون للتزويد بالماء على اليسار، وهي مفصولة بجدع شجرة لمنع الحيوانات من تلويث الماء، ويوجد حوض مائي لسقي البهائم.(24)

* * *

---

22) نظام الحكومة النبوية، ص 154/ 2.

23) «اختصار الأخبار، عما بثغر سبتة من سني الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي، ص : 43.

24) أنظر الإعلام، للمراكشي، ص : 89/ 1 والمؤسسات الخيرية لجوزيف لوسيوني، ص : 74 ـ 75. ط: الملكية بالفرنسية.

قال الإمـام القرطبي في شـرح قولـه تعالى : ﴿**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة، أن أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله**﴾.(25)

فيه ثلاث مسائل :

الثانيـة : في هذه الآيـة دليل على أن سقي الماء من أفضـل الأعمال... وقد سئل ابن عباس : أي الصدقـة أفضل؟ فقال الماء.. أو لم تروا إلى أهل النار حين استغاثـوا، بأهل الجنة : ﴿**أن أفيضوا علينا مـن الماء، أو مما رزقكم الله**﴾، وروى أبو داود، أن سعداً أتى النبيﷺ، فقال : «أي الصدقة أعجب إليك» قال : «الماء..» وفي رواية، فحفـر بئرا، وقال : «هذه لأم سعد.، وعن أنس : قال سعـد : يا رسول اللـه، إن أم سعد، كانت تحب الصـدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال : «نعم»، وعليك بالماء...

وفي رواية أن النبيﷺ أمر سعد بن عبادة أن يسقي عنها الماء.... فدَلَّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى...

وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه، فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلا مومنا موحِّداً وأحياه...

وفي حديث عـائشة عن النبيﷺ : «ومن سقى مسلما شربـة ماء حيث يوجـد الماء، فكأنما أعتق رقبـة، ومن سقى مسلما شربـة من ماء حيث لا يوجد الماء، فكأنما أحياها،(26) أي أثنى عليـه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهـر مما جازاه به عند ملائكته...

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول اللهﷺ قال : «بينما رجل، يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فنزل بئرا، فشرب منها، ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثـرى من العطش، فقال : «لقـد بلغ هذا الكلبَ، مثلُ الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رَقِيَ، فسقى الكلب، فشكر الله

---

25) «الجامع لأحكام القرآن»، ج : 7/ص : 215.

26) خرّجه ابن ماجه في السنن.

له، فغفر له» قالوا يـارسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً(قال : «في كل ذات كبدر طبة أجر».(27)

وعكس هذا مـا رواه مسلم عن عبد اللـه بن عمر أن رسول اللـه عليه السلام، قال : عُذبت امرأة في هِـرّةٍ، فسجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها ال النار، لا هي أطعمتهـا وسقتها، إذ هي حبستهـا، ولا هي تركتهـا تأكل من خشـاش(28) الأرض...

ورحم اللـه أبا العـلاء المعري الـذي كـان يرى بأن نحسن إلى الطيـر بشربـة ماء، ونوفر عليهـا الورود إلى السواقي، فهي أجدر بـالإحسـان من أفراد الناس، لأن ليس في طبعها من الأذى ما في طبعهم؛ فقال :

تصـــدق على الطيـــر الغـوادي بشـــربـــة
من المـــاء، واعـــددهـا أحـق من الإنس

فمـــــا جنسهـــا جـــان عليك أذيــــة
بحـــال، إذا مـــا خفت مـن ذلك الجنس

27) رواية البخاري وأحمد وابن ماجه : «في كل ذات كبد حرّاء أجر».

28) خشاش الأرض (مثلثه الخاء)، هوامها وحشراتها.

29) «اللزوميات»، ج 1/ 563.

الفصل العاشر :

مؤسسة السقايات في المملكة المغربية

لقد بالغ المغاربة في وقف السقايات، وتحبيس أحواض الماء، كما بالغوا في تجميلها بألوان معجبة من الفنون الزخرفية، وأنواع البناء الجميل، والزليج الرفيع تقديراً منهم للماء، وأهميته في المجتمع البشري، والذي يعتبر عنصرا من عناصر الحياة، وقواماً للمدنية والحضارة، وقد أصبح فنُّ زخرف السقايات كما قال : «تيراس» فنا قائما بذاته بالمغرب، حينما تكلم عن الفن المغربي في عصر بني مرين، بل إن موضوع السقايات، ولا سيما في العصر المرابطي والموحدي، بحاجة إلى دراسة؛ وتمتاز السقايات المرينية بهندسة خاصة، وطابع ممتاز، يميزها عن نظيراتها المرابطية والموحدية، حيث تُبْنَى وتشيد في شكل صهاريج صغيرة نسبيا، مستطيلة، وقليلة العرض، وتُزين واجهتُها بالفسيفساء الدقيقة، فضلا عن زخرفتها بالنقش المحفور ـ أحيانا، في الجبس والخشب..

ومما يجدر ذكره أن المغرب منح هذه السنة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة – اليونيسكو – نافُورتين من فاس، بمناسبة الاحتفالات بالذكرى الخمسين لإنشاء هذه المنظمة.

وقد تم إنجاز هاتين النافورتين اللتين أشرف على تدشينهما السيدان «فيديريكو مايور» المدير العام لمنظمة اليونيسكو، وسفير المغرب بفرنسا، وفق التقاليد الأصيلة لفن الزليج المغربي...

وتُذَكِّرُ هاتان النافورتان اللتان تتوسطان أحد صحون مقر المنظمة بباريس بنافورات مدينة فاس الشهيرة التي تَمَّ ترميمها في إطار الحملة التي تشرف عليها منظمة «اليونيسكو» لحماية تراث المدينة التي تعتبرها المنظمة جوهر الحضارة الإسلامية.

ولقد نشر العلامة «ألْفرَيد بِل» A. Bel وذلك في عام 1918 بحثا بعنوان :
Les industries de la céramique à Fés : Alger - Paris 1918.

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب، حيث تناولت المقدمة أن الزليج كان متطوراً وَرَاقيا بالمغرب أيام المرينيين، ومن حيث المنتجات من الفخار المموه مثل الجِرَار والأطباق والأوعية، وقناديل الزيت، فبدون شك تكون فاس قد عرفتها منذ وقت طويل مثل مصانع إسبانيا وتلمسان وقلعة بني حماد».(1)

* * *

والمغرب يمتاز بعدة أسبلة للمياه، وكانت النطفيات منتشرة في أنحاء البلاد، وفي سائر المدن، ولا سيما بدكالة وما إليها، حيث أثارت انتباه ابن الخطيب، وهو يمر بهذه المنطقة فيقول : ... ومن الغد سلكنا وطن بني شاكر، وهو كثير العمران، فَتَعَدَّدُ الديار والأشجار، سقية من نُطفة عذبة، تختزن بها بركات الأمطار، فيقع به أمنهم، والاجتزاء إلى زمن المطر...».

ويقول، أيضا، الوزير لسان الدين ابن الخطيب في «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار :(2) «... ماؤه معين، وحُوره عِين، وخلوته - على النُّسك وسواه - تعين، وبه الحمَّام، والنطف، الجِمَام،(3) ولأهله بالصيادة اهتمام..».

* * *

1) «دراسات جديدة في الفنون الإسلامية، والنُقوش العربية بالمغرب الأقصى» لأخينا الدكتور عثمان عثمان إسماعيل.
2) دراسة وترجمة اسبانية للنص العربي، للدكتور محمد كمال شبانة.
3) النطف الجمام، وتجمع النطفة على نطاف، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضوع: قال تأبط شرا يصف غدرانا تجمعت من سيل عظيم خلع الصخر من مواضعه: [الأصمعي: الأصمعيات ص: 135].

وشعب كشل الشوب شكس طريقه
مجامع صُوحيه نطاف مخاصر
به من سيول الصيف بيض أقرها
جبار لصم الصخر فيه قراقر

[الصُّوحان : بضم الصاد وفتحها، جانبا الجبل، أو حائطا الوادي...

وقد تحدث ابن مرزوق في «المسند» عن السقايات التي يتيسر فيها تناول الماء للشرب والطهارة والانتفاع، وفضل الماء وسقيه وإغاثة اللهفان به، والتي أنشأها أبو الحسن المريني، فقال في الفصل الأول من الباب الرابع والأربعون : «أخبرني الفقيه الإمام نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن فرحون اليعمري بالمدينة شرفها الله، قال : «مامررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء.. فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبى الحسن رحمه الله..» وقد علق محمد بن مرزوق التلمساني على هذه المقولة فقال: «وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس، وبلاد المغرب معظمها من بنائه رضي الله عنه..»

ثم قال : وأما عمله في جلب الماء لداخل مدينة سلا، وإنفاقه في ذلك، الأموال الطائلة حتى أوصله من الموضع المعروف بمرج حمام إلى الجامع الأعظم بداخل المدينة، وذلك أميال (فالله يكتب له أجره)..

وكذلك عمل في تلمسان في «منشر الجلد» «وسويقة إسماعيل» وغيرها بتلمسان وغيرها.. في مواضع لم يعد فيها جري الماء والانتفاع به، ولما دخل مدينة تونس، لم يكن عنده أهم من النظر في ردمائها الجاري في القديم إلى الجامع الأعظم جامع الزيتونة، فأمر بجمع الرصاص وعمله، وعين الصيفور الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضأة.(4)

* * *

وقف الماء لسيدي إبراهيم التازي :

المغاربة شغَفُوا بوقف السقايات حتى في خارج القطر، ويكفي أن نشير إلى أن الماء الذي وجد بمدينة وهران بالقطر الجزائري كان من وقف

4) «المسند الصحيح الحسن» ص : 417 – 418، لمحمد بن مرزوق تحقيق. د. ماريا خيسوس بيغرا..

سيدي إبراهيم التازي،(5) تلميذ السيد محمد الهواري؛ فقد أدخل الماء إلى مدينة وهـران سيدي إبراهيم التازي، وهو وقف من غُرَرِ الـدهر، وحسنات الزمان، فأعظِمْ بهـا صدقة جاريـة، مثلها يعد للمعاد، وآيـة من آيات ولايته إلى يوم التَّنـاد، وقد رامه قـديما من نـزل وهران من الملوك، وأهل جبـاية الأموال، فلم يهتـدوا إليه، وأعوزهم سبيلـه، وأخَّر ذلك إلى زمانـه، لتثقل به كفة ميزانه، وكيفية وصوله مما يحار فيه أهل النظر والاعتبار، ويَضِيق عن غاية إبداعه ذوو الأيدي والأبصار..

آثـــــارُهُ تنبيك عـن أخبـــــاره

حتى كـأنك بـــالعيـــان تـــراه

قال أحمد بن محمد بن علـي بن سحنون الراشدي(6): ومن تأمل هذا الكلام علم أنه أتى بهذا الماء من مكان بعيد خلافا لما يعتقده الناس من أن أصله بين أبـراج البلد، وربما أرشـد إلى ما قلناه قـول سيدي الحسن ابن مخلوف، وقد ذكـر عنده الماء المذكور بحضرة بعض حفـدة سيدي محمد الهواري لو شاء جر هذا لأتى به من «تَـاسَالة»، فهذا الكلام يومي إلى بعد مقر الماء عن البلد، وقد عينه «سيد الزعيم» حيث قال من الملحون :

---

5) إبراهيم التازي من قبيلـة بني لنت، قرب بني مقورة، بإقليم تازة، ولـد، ونشأ وشهر بها، ارتحل إلى الحج، والتقى بجماعة من العلمـاء، ثم قدم تونس، فأجاره علماؤهـا، ثم ورد تلمسان، فأخذ عن ابن مرزوق، وأجازه، ثم أتى وهران لزيارة سيـدي محمد الهواري، فمنعه من مفارقته لعلمه أنـه وارث سره، وكـان يقرىء مختصـر الشيخ خليل بغير مطـالعة شـرح، قبل أن تكثر عليـه الشروح (تـ866هـ) بوهران، ويعتقد الناس أنه مدفون بالقلعة [الثغر الجماني ص: 191] انظر: «روضـة النسرين، في منـاقب الأربعة الصـالحين» تأليف ابن صعـد: محمد بن أحمـد بن أبي الفضل سعيد الأنصاري التلمساني (تـ بمصر: 901هـ 1496م)، فتوجد ضمن الأربعة: ترجمة لأبي إسحاق إبراهيم التـازي والأشياخ الباقية الأربعة هـم: أحمد بن الحسن الغماري، والحسن أبـركان، ومحمـد الهـواري - [روضة النسـرين مخطـوطة في: خ.ع، حـرف: ك، 1006، ثانية مجموع]. انظر: نموذجا للتبادل الثقافي بين المغربين : دراسة حول «إبراهيم التازي»، للأستاذ محمد المنوني مجلة «دعوة الحق»، ع : 270 / يوليوز 1988.

6) «الثغر الجمـاني، في ابتسام الثغـر الوهـراني» تأليف الراشـدي تحقيق وتقديم الأستـاذ المهدي البوعبدلي ص 190.

غـاست الأشـراف وأين هـو زيـان
وإبـراهيم الظـريف التـازي يـذكـر
كـانت دار القـرار لـه وهـران
جمع رَاسْ الْعُيـون من يفـرى للحـر

قال الراشدي : حدثني المشيخـة من أهل وهران، أن سيدي إبراهيم لما أدخل الماء وهران، سُرَّ به أهلُها أشد السرور، لأنهم كانوا في مشقة عظيمة من قلة الماء، ومكابدة السقيا من العيـون من الصباح إلى المساء، فوقاهم المشاق الصعبة، وسقاهم الماء الذي جعله الله حياة كل ذي كبِد..

وقد قالوا : وما بنى سيدي إبراهيـم التازي شيئا إلا وأشهد بوقفيته لله تعالى، ولم يترك لولده منه، ولا قلامة ظفر...(7)

* * *

وقد اشتـرى الباي أبو عثمان السيـد محمد بن عثمان التركي مـا كان مملـوكا من المـواطن التي حفـر لـه فيها، وجعل من هـذا المـاء سقايـات للسبيل، فـروى بهـا أهم تلك الناحيـة بعـد الظمأ المـلازم، والتعب، وحيى مواتهم وتباشر بنيهم ونباتهم.(8)

* * *

سقايات مدينة سبتة :

أما عدد السقـايات الموجودة بمـدينة سبتة، فخمس وعشـرون سقاية، أبدعها صنعة ووضعا، السقاية التي بطرف العطارين، وأول سماط العدول، وبإزاء باب الشـواشين من أبواب الجـامع ذات العنابيب النحاسيـة والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق.

---

7) المصدر السابق ص : 185 – 190 – 191.
8) المصدر السابق : ص : 128.

ومن آثار الحاج محمد بن الحاج عمر لُوقَّش من قواد مدينة تطوان البارزين (تـ1776م) سقاية باب العقلة، وسقاية باب التوت، وكلتاهما من المعالم الحضارية الجميلة بمدينة تطوان.(9)

* * *

وقف السبيل لسقي الدواب :

ولم يكن الاهتمام بتقديم المياه العذبة إلى الناس فقط، بل شمل ذلك أيضا الحيوانات، وهي علامة من علامات الرحمة والرقة والإحسان، وقد عرفت الساحة الإسلامية في مسيرتها الحضارية الرائعة كثيرا من أحواض المياه الموقوفة سبيلا لله، لسقي الدواب... فكانت البغال والحمير والأحصنة تصطف حول هذه الأحواض لتعُبَّ الماء بينما يتناثر فوق مياهها ذرات التبن...

* * *

ومن السقايات المغربية المعدة لسقي الدواب، بمدينة سبتة، من الخيل والحمير والجمال وغيرها سقاية «جب الماء» العظيم الهيكل، المشهور الذي ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفي، وخلد أثرا غريبا بعده رحمه الله تعالى، صهريجان مشتركان كان يمد أحدهما الآخر. قد أحكم الأسفل والأعلى منهما، فرش بألواح الصخر المنجور أتم إحكام وأعمله...

ومن ذلك سقاية القبة بالربض البراني صهريج مستطيل متصل ببئر معينة قريبة التناول طيبة الماء... وعليها قبة على أربعة أعمدة، وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل، وربما تبلغ الثمانين...(10)

---

9) «إشارات حول الإشعاع الفكري والحضاري لمدينة تطوان» للأستاذ المرحوم المجاهد محمد العربي الشاوش، دعوة الحق. ع: 229 ص: 70، ماي / يونيو : 1983.

10) اختصار الأخبار، عما كان بسبتة من سنى الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي ص : 43.

سقايات مدينة فاس :

وقد بنى أبو الحسن بن أبي سعيد المريني، وهو ولي عهد في حياة أبيه حول مدرسة الصهريج بفاس سقاية، ودار وضوء، وفندقا لسكنى طلبة العلم، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس، وأنفق على ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وحبس عليها رباعا كثيرة.(11)

وأجرى أبو الحسن المريني لهذا الجامع الأعظم بفاس نهرا يشق من أصل المدينة إلى الجامع المذكور في سقاية تمر، وتجرى منها سقايات متعددة...

وهذه سقاية «ابن حيون»، بفاس، أول حي المخفية، ثم سقاية سوق العطارين جوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجها كتابة تذكر أن الآمِرَ بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين، على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، وكمل تشييدها، وفجِّر ماؤها أول جمادى الأولى عام 840/1436، ثم تلاشت، وجددت عام 1090.

* * *

فتأسيس السقايات العمومية هي ليست، فقط، عملا للصالح العام، ولكنه عمل وقف مهم جدا. سواء في قارعة الطريق، أو داخل المسجد لأجل إسباغ الوضوء.(12) من طرف الواقفين المحسنين، أجزل الله ثوابهم...

وقد قدم لعمل البيلة والخصة اللتين بالصحن بجامع القرويين رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبي الحسن بن عبد الله السجلماسي، وكان من أهل اليسار والدين والإيثار، صنعهما له موسى بن حسن بن أبي شامة...

11) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع ص : 280.

12) لزين الدين ابن نجيم المصري الحنفي : «الخير الباقي، في جواز الوضوء من الفساقي» [كشف الظنون. ج: 1/ص: 960].

وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد أن استشار في ذلك الفقيه الصالح يسكر الجورائي، فأسعد بذلك مواده، وعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض، جعل طولها اثنى عشر شبرا، وارتفاعها ستة أشبار، وعمقها كذلك، وجعل مما يقابل الواقف شباكاً من الرخام الأبيض من أربعة وعشرين ومائة خاتم مسدسة الإحكام، وكتب تحته في حجر منقوش بخط بارع:(13) «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن مِنْهَا لَمَا يَشقَّقُ فيخرج منه الماء، وإن منها لما يَهبطُ من خشيةِ الله، وما اللهُ بغافل عما تعملون».(14)

وأما السقاية والبيلة(15) المستطيلة التي بباب الحُفاة، وعن يسار الخارج منها، فالباني لذلك هو المظفر بن المنصور ابن أبي عامر حاجب هشام المؤيد، وجلب الماء إليها من وادي حسن الذي بأعلى المدينة من ناحية باب الحديد.(16)

قال البكري في مسالكه : إن جامع الأندلس بفاس كان من ست بلاطات... وساقية غزيرة كانت به تعرف بساقية مصمودة.(17)

ويكفي أن نعلم أن مدينة فاس وحدها، أحصى زمن المنصور والناصر الموحديين ثمانون سقاية عمومية... كما في «زهرة الآس...»

* * *

13) جذوة الاقتباس، لابن القاضي ص : 1/72.
14) سورة البقرة، آية 74.
15) البيلة : حوض النافورة، وترادفها في الاستعمال أحياناً لفظة - خصة - وهي بالإسبانية والإيطالية Pila [نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس ص 1/206 وقال القاضي المزدعي يمدح مدينة فاس من قصيدته:

وَاشْـرَبْ بتلك البيلة الحَسْنَا بـه
واكْـرَعْ بهـا، عني، فَـدِيتُك، وانْهَل

[نفح الطيب ج : 7/129
16) جذوة الاقتباس ج : 1/ ص : 56.
17) وما تزال، جذوة الاقتباس ص : 78.

وهناك وثيقة عن توزيع مياه فاس العتيقة، كتبها ابن إبراهيم الدكالي: محمد العربي بن عبد السلام الفاسي، كان بقيد الحياة عام 1127هـ 1715م.

«قدم لها، ونشرها – عن مخطوطتين خاصتين الأستاذ عبد القادر زمامة في مجلة «البحث العلمي» عدد: 31 – ص 141 – 150.(18)

* * *

سقايات تتحدث عن نفسها :

من مآثر أحمد المنصور الذهبي، بناء القبة على الخصة بصحن جامع القرويين، وقد رأى أبو العباس أحمد المقري صاحب «روضة الآس» هذه القبة، وقد أكملت صنعتها إلى الغاية، وجعل على خارجها وداخلها الذهب الأحمر، فهي عبرة لمن اعتبر، وجعل مكان خصتها القديمة، خصة عظيمة سيق رخامها من بلاد فرنسا بناها في عام 996هـ... وفي ذلك قال الشيخ الإمام العلامة القاضي أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي، مما يكتب داخل القبة المذكورة المزركشة بأنواع الألوان والنقوش والمقربس، وغير ذلك من أنواع الصناعات هذه الأبيات مضمنة التاريخ وهي تتحدث عن نفسها :

كهف الملوك أبو العباس أنَشَانِي
بحر المكارم من معد بن عدنان
عين السلاطين من أبناء فاطمة
إنسان عين غدا في عين إنسان
حزت المفاخر بالمنصور أجمعها
ومن علاه سنام المجد أوطاني
من جاء يشكو الظما يوما وقَبَّلَنِي
أغناه ما قد هما، من صوب أجفاني

18) ولها ترجمة فرنسية قام المستعرب الفرنسي، أ. س. علوش، ثم نشرها في مجلة هسبريس، مج: 18، عام 1934 – ص : 49 – 63.

لا تنكرن وجود الدمع من فرح

فالعين تدمع من إفراط سلوان

واشرب هنيئاً من السلسال، لا حرج

معين دمع جرى من بيض خلجان

فخر الخلائف والأقيال من مضر

أشاع صيتي في أطراف عمان

ومن جرت مقلتي حكت سحائبها

كف الخليفة من أبناء زيدان

لازال للدين والدنيا يسوسهما

ما هيحت عاشِقًا وُرق بأفنان

أنشاني زمن التاريخ وافقه

(للدين) والأجر بحر الجود أجراني

وقد كتب في خارج هذه السقاية الأديب الكاتب أبو العباس أحمد بن محمد الغرديسي التغلبي هذه الأبيات:

حسن سنا منظري يستوقف النظرا

وفائق الصنع مني طرز الطررا

حباب ماء، من الدر النثير غدا

وصوب ورِدي من ذوب اللجين جرى

لا ينثني راشف ثغري من ظمأ

إلا ويحمد مني الورد والصَّدرَا

من أمّ قربي بفرض أو بنافلة

يجد معيني، مُعيناً للطهور سرا(19)

* * *

19) «روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» لأبي العباس أحمد المقري ص : 21 – 22.

وقد أنشأ المولى إسماعيل، أيضا، في عام 1126هـ، بالضريح الإدريسي سقاية أنيقة أبدعت اليد الصناع المغربية في وشيها ما شاءت، ونمقت بأنواع الزخرفة والنقش البديع والألوان المتناسقة الجذابة، وأجرى الماء بأنابيبها الوهاجة، يدل لذلك ما هو مكتوب في الرخامة التي هي الآن بين سقايتي العين بالحائط المواجِه للصحن عن يمين الخارج من باب الحفاة أحد أبواب الضريح الإدريسي، ولفظه: «الحمد لله، من سعادة الدولة المولوية الهاشمية العلوية الشريفة الإسماعيلية، ويمن طلعتها واعتنائها من المآثر الحميدة بفرضيتها وسنيتها ورغيبتها، أسس هذه السقاية البديعة، وما انضاف إليها من الأعمال الجديدة الرفيعة، بعد استنباط مائها الجاري من مكامنه الخفية، وإيصاله لها بطرق غريبة، وأعمال هندسية، إذ بوجوده، أطال الله بقاءه، تهيأت هذه الأمور، ومن بركته ظهر منها ما لم يكن له قبل ظهور، وكان المنتدب لذلك، والقائم عليه، خديم دولته، وربيب نعمته القائد أبو علي ابن القائد عبد الخالق ابن القائد عبد الله ابن القائد حمدون الروسي، فبذل، فيما يبيض وجه مولانا نصره الله، من هذه الفائدة المجهود، وخدم هذا المقام الإدريسي بما يُرجى له بلوغ المقصود، وحاز هذه المنقبة بزمن الإقبال، وفاز بصالح الدعاء من المنتفعين بمائها على مرّ الليال، وكان البدء لما ذكر والتمام في النصف الأول من عام 1126هـ والسلام.(20)

وفي هذه السقاية يقول أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلائي:

لئن كان هذا الماء جاء مسيرا

لإدريس، نبعا، من خفي مواضعه

فلا عجب، في ابن الرسول، الذي غدا

وفيضِ نمير الماء شأن أصابعه(21)

والبيتان مما كان نقش بأعلى السقاية(22)

---

20) «الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين الزاهرة» للنقيب ابن زيدان ص : 44.
21) المصدر السابق، ص : 45.
22) المصدر السابق ص : 45.

قال في عقد الحبس لهذا المـاء: «... وقد شرط هذا المحبس أن لا يبدل هذا المـاء عن حالـه، ولا يغير عن سبيلـه، ولا يخرج عن قـراره، ولا يحول شيء منه عن مجراه، ولا يهدى ولا يعطى، ولا يقتنى ولا يعار، ولا تعقد في كثيره ولا قليله معـاوضة ولا استيجار، ولا تتطال إليـه الأبصار، من قريب ولا من بعيد ولا من جـار، ومن اختلس منه بخلسة، أو دس فيه بـدسة، أو تحيـل بحيلة أو غيلة، فـالله تعالى حسيبـه، وهو عليـه وكـيل يـوم يقـف بين يديـه.

وكـان الإشهاد عليـه بتحبيس مـاء مسجد الشـرفـاء في أواخر محـرم 1126هـ.(23)

وفي عام 1127هـ أنشأ المولى إسماعيل سقاية لطيفة بالجدار الجنوبي من المدرسـة الرشيدية من جهـة نهج الشراطين، نقش في زليجة أعـلاها شعـر يتضـمن تاريــخ البنـاء، وشـكر الـباني، يقــول فيه على لســان السقاية :

انظُـــرْ بـــــدائع صُنعي
هل البـــديـع نظيـــرُه(24)
بأمــــر مـــولاي اسمـــا
عيل (جـــاء غـزِيـــرُه، 1127)

أشار بلفظتي : «جاء غزيرة» للتاريخ المشار إليه...

وحبّس ماءها الجاري بها، وشرط فيـه نفس ما شرطه في تحبيس ماء سقاية الضريح الإدريسي بتاريخ أواسط 3 ذى القعدة عام 1127هـ، وجمع الحبسين معا في عقد واحد، قال شهوده: وتاخر كتبهما معا هنا في أواخر

23) نفس الصفحة والرقم.
24) المصدر السابق.

القعدة المذكورة، وقد نقل صاحب «الأزهار العاطرة الأنفاس» نص عقد هذا التحبيس برمته...

* * *

ومن تأسيس المولى إسماعيل سقاية جامع «عقبة بن صوال» التي أسسها عام 1125هـ يدل لذلك ما هو مكتوب بأعلى سقاية كنف جامع العقبة المذكورة وعليها هذه الأبيات على لسان السقاية :

يا ناظراً قد سره
حسن صنعي الظاهر
متِّع لحاظك هنا
في ذا الجمال الباهر
هذي مآثر بني المو
لى الشريف الطاهر
هم أبدعوها نزهة
وسلوة للخاطر
عونا لطالب الهدى
من وارد وصادر
جزاهم الإلهُ نَا
خيراً ليوم زاهر
ومن أعانهم على
أمرٍ بأجر وافر
وان تر تاريخه
(أجاده للناظر 1125)(25)

---

25) المصدر السابق ص : 52.

وذكر مولاي عبد الرحمن بن زيدان، أيضا، في كتابه «الدرر الفاخرة» أن المولى محمد بن عبد الله أسس سقاية «عين البغل» من حومة العيون عام 1196، وقد نقش شعرٌ في زليج أخضر على صورة البيضة ولفظه:

شاد حسني وجمالي
نزهة للناظرينا
.... عبد السلام
أشرف الحكام فينا
ماء وادٍ من نداه
به قد زان العيونا
نزِّه الألحاظ واشرَب
واغترف ماء معينا
وادعُ للاسمى (الجعيدي)
وأمير المومنينا
نقش تاريخي (ويغفر 1196)
للذي قال آمينا(26)

ومن مآثر السلطان أبي زيد عبد الرحمن بن هشام، إنشاؤه لسقاية السبيل «بحومة النجارين» يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلى قوسها ولفظه:

خليلي مُرْ بالسبيل لترتوي
بعذب مَعِين من رحيق معتق
وتُحي نفوساً من زلال سقاية
قد اربت بنشره على كل مرتق

26) المصدر السابق ص : 58.

هنيئـــا مــريئـــا، بـــالفـــرات شــربتـــه
بثغـــــر عـــروس بـــــالعقيق مطـــوق
وبــالسّـــري المفضـــال تـــاج ملــوكنـــا
ونجل (هشـــام) ذو الصنيع المـــرونق
حليف النَّـــدَى والعـــدل والفضل والتقى
وطـــود الهـدى والحلم كنـــز المـــوفق
بطلعتـــــه طـــابـت نفـــوس بطيب
سليل حمـــــاة الـــدين من بيـت متق
كـــريـم عفيف فـــاضل ذي مهـــابـــة
فَعُـــول لأنـــواع الخيـــور مُصــدق(27)

ومن مآثـر المولى سليمـان أبي الربيع بن محمد بن عبـد الله «سقـاية الرصيف» التي أسسها عام 1208 يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلاها ولفظه:

تأمـل سبيـــــلا فـــاق كل نهـــايـــة
واضحى بـه في غـــربنـا يضـرب المثل
وحـــاز فخـــارا إذ تشيـــد للـــورى
بـدولـــة من ســاد الملــوك ومن عـدل
سليمـــان أبقى اللـــه رايـــةَ ملكِـــه
فلـــولاه نجـمُ الـــدين كـــان لنـــا أفَل
فإن جئتَـــه ظمـــآن حَـــرٍّ، ونلـت من
زلالٍ أَلـــــذَّ، بل، وأحلـى من العسـل
فقل : يـرحم الـرحمن نـاظـر عصـرنـا
(محمـــداً الفنـدوشي) حبـــذا مـــا فعل

27) المصدر السابق ص : 84.

وتـاريخــه مـا قــد حـواه (شـــرابـه)
فَرِدْ مشـربا تحظى بـه غايـة الأمل(28)

* * *

ومن مآثره، أيضـا، أي المولى سليمان كما ذكر ذلك أيضـا مولاي عبد الرحمن بن زيدان في كتابه المذكور «سقاية مسجد الشرابليين» يدل لذلك ما هو منقوش بأعلاها ولفظه:

تأمـل في بــــديـع حسن صنعـي
تــرى حسنــا يسـر النــاظــرينــا
أزيل صــدى، وأُطفـى حــر صــدر
وامنح مـــاءي كل الــــواردينـــا
فمـــا أسنى سقـــايـــة قــد سَقتنـــا
شـــرابـــا لــذة للشـــاربينـــا(29)

* * *

ومن تأسيسات السلطـان المولى سليمـان، أيضا، السقـايات التي على يمين ويســار الداخل من البـاب المقـابل لباب المعـراض الشهيـر بالحـرم الإدريسي بالزاوية، وكان تأسيسه لها عام ثمانية وعشرين ومائتين وألف، ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج مثبت بالجدار الذي به السقايتان اللتان عن يمين الداخل، ودونك لفظه:

تـأمل بهجتـي وبـــــديع حسنـي
ومـــا ألبسـت من حلـل البهــــاء
تجــد عــزي، ومجــدي وارتفـــاعي
يفـــوق البـــدر فـي أفق السمـــاء

---

28) المصادر السابق ص : 68.
29) المصدر السابق ص : 88.

جمعت مـن المحـــاسن كـل فـــرد
وأعظمهـــا جـــوار أبي العـــلاء
إمـــام الغـرب إدريس ذي المعـــالي
سليل الأكـــرمين ذوي الـــوفـــاء
وقمت ببـــاب روضتـــه بجـــد
اطهـــــر زائريـــه بطيب مـــاء
بـــإذن إمـــا منـــا الأسمـى بنـــوني
وتـــاريخي (تجليت بـــالسنـــاء)

أشار للتاريخ المذكور بحروف : «تجليت بالسناء».(30)

* * *

ومن مآثر المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن تأسيسه بالجانب الجنوبي من القصر الملكي بفاس صرحا أنيقاً، وبجانبه الشمالي سقايتان أجرى بهما الماء...

وتوجد وثيقتان من مدينة فاس القديمة: «نتيجة المقدمات المحمودة، في الرد على زاعم ملكية واد مصمودة»(31) «تحدثت عن مجاري مياه المدينة وسقاياتها.

فالسقايات توجد في كل المدن المغربية. في فاس – الرباط، مراكش. تطوان، سلا... مكناس. بيد أن السقايات في فاس، هي نسبيا أقل عددا، نظرا لأنه، قديما، كان قسم من الدور تزود مباشرة بعدد كبير من السقايات الخاصة أو عن طريق واد فاس المنظم، كما هو معلوم بشبكة قنوات تغطي مجموع المدينة، ومن السقايات التي كانت لها شهرة بهذه

30) الاتحاف ص : 205 / 1.

31) لأبي السعود عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الفهري (ت : 1091 – 1680م) خ.ع.ك: 1202، ضمن مجموع خزانة تمكروت : 2572، ثانية مجموع.

المدينة تلك التي توجد بساحة فندق النجارين، المسمى عين سيدي افرج، وساحة الصفارين، وتشكل هذه السقاية حوضا صغيرا مستطيل الشكل محلى بمربعات من الخزف المزخرف يستقبل الماء من عين قريبة، والتي تصبُّ عن طريق ثلاثة صنابير من المعدن مركزة، في وسط بلاطات من الرخام، وهي محمية من خلال إفريز من الأرز مغطاة بالقرميد الأخضر...

أما سقاية الصفارين فهي مسندة على الحائط الخارجي لمسجد القرويين في الساحة الصغيرة للصفارين، فالماء يصب من خلال صفيحة رخام منقوشة ومزينة...

ويوجد في حوالة فاس السليمانية(32) ترجمة بتوصية السقايات فترد التفاصيل هكذا:

وصية سقاية رحبة صفاح العدوة

وصية سقية حارة قيس

وصية سقاية ثغر (كذا) بالفخارين

فيض نقير الصباغين

فيض ماء سقاية البليدة

فيض سقاية غدير الجوزاء.(33)

* * *

السقايات الوقفية في مدينة مكناس :

عرض ابن غازي(34) لعصر أبي الحسن الذي امتاز بوفرة الآثار التي خلفها في مدينة مكناس، ويقول: «...ثم نوّه بها أبو الحسن المريني، فبنى

32) خ.ع، قسم الحوالات رقم : 23.

33) محمد المنوني، بحث مقدم في ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي والعربي، أقامها معهد البحوث، والدراسات العربية بالرباط – 18 – 20 نيسان عام 1983.

34) «الروض الهتون ص : 34.

فيها مرافق كثيرة كزاوية الفرجة... وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها...». «وشارع سبع أنابيب» يحمل اسم السقاية الواقعة به، وتذكرها الوثائق القديمة باسم السقاية الكبرى»، أو سقاية الجمعة، وهي من تأسيس الحاكم المريني باني الحمام بها... ويذكر أنه كان أمام هذه السقاية صخرة كبيرة توضع عليها أواني الفخار، ومن تكسرت له آنية، يأتي بها ليأخذ من القِيّم على الوقف أخرى سليمة بالمجان، كما كان يوجد لهذا التقليد نظيره بمدينة فاس.

ولابد من أن نلمح إلى سقاية المستشفى العناني عن يسار مدخله في حمام الجديد، ويترجح أنها من إشارة، أبي عنان باني المستشفى، ثم سبيل حي السويقة، ويعرف - الآن - بسقاية سبع عنانب، تلميحا لعدد أنابيبها، وكانت تعرف - قديما - بالسقاية الكبرى، وبسقاية الجمعة كما في عرض ابن غازي الآنف الذكر. وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عال محمول على ثلاثة أساطين، ولا تزال تحتفظ بأثر الفن المريني، في زليج واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي، بالنقش الغائر، وقد خصصت لأوقافها ترجمة - على حدة - ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغرى بمكناس.(35)

* * *

وفي «الروض» لابن غازي : قال : إن الإمام أبا زكرياء الوطاسي لما دخل مكناس في القرن التاسع جدد بعض رسومها الدارسة... ويقال: بلغت عمارتها إلى أن كان بها أربعمائة مسجد... قال الأستاذ ابن جابر:

«وحول كل مسجد سقاية».(36)

---

35) «التخطيط المعماري لمدينة مكناس» / مج الثقافة المغربية ع: 7/ص: 45 – 46.

36) «الاتحاف» ج : 1/ص 95. – «الروض الهتون، في أخبار مكناسة الزيتون» لابن غازي ص: 27، ط: الملكية.

وفي كلام ابن غازي تنبيه على ما كان للمتقدمين من الاعتناء بالمشروعات.

وانظر إلى الحد الذي بلغه اعتناء أهل الدين بمحال تعبدهم، وكل ما ينضاف إليها مما يتوقف عليه المتعبد، وناهيك بما قد بلغ من الاعتناء بماء عين «تاجما» وغيرها من وقوع التحبيس على إصلاح مجاريه حتى لا يقع مانعٍ من وصوله للمسجد الأعظم.(37)

* * *

وقد جدد المولى إسماعيل المسجد الأعظم عام 1107هـ، ووقف السقاية من المسجد المذكور، ومما هو منقوش بأعلى السقاية من المسجد، ولفظه: الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده:

تأمل بعد حمد الله حسني
وصل على محمد الشفيع
فما أبصرت في الدنيا كشكلي
أذكر زهر أيام الربيع
وللوراد أسقي سلسبيلا
فلي فخر بذاك على الجميع
فجامعنا الكبير سموت فخرا
علا شرفي، بجانبها المنيع
بأمر إمَامِنَا المنصورِ شادوا
بنائي الرائق الأبهى الرفيع
وتاريخي (امعطاش) هنيئاً
وقاك الله من ظمإ وجوع(38)

* * *

37) المصدر السابق ج : 1/ص : 95.

38) الاتحاف ج : 1/ص : 165.

ومن المآثر الإسماعيلية بمدينة مكناس تجديد سقاية أبي الحسن بن منون، وإحداث أنبوبين للسبيل بزقاق «رْوَى مْـزِيل» وتجديد سقاية جامع الزيتونة، وتجديد سقاية حومة الحمام الجديد، وسقاية الصباغين، وسقاية النجارين، وسقاية درب القرع، وسقاية التوتة، وسقاية ضريح أبي محمد عبد القادر العلمي، وسقاية سبع أنابيب مع تجديد سقفها، وترصيف أرض مَباحها، وسقاية حمادشة(39) بتزيمي الصغرى، وسقاية تزيمي الكبرى، وسقاية براكة، وسقاية حومة جامع الساباط، وسقاية الغمادين داخل باب الجديد، وإحداث سقاية وكنف بالوسعة داخل باب السيبة، وتجديد سقاية العوادين، وسقف سقاية الشرشرة، وسقاية تبربارين،(40) ومنها تزليج السقايات السليمانية الكائنة داخل باب الحُفاة.(41)

* * *

ولقد كانت اهتمامات المولى إسماعيل بتزويد مدينة مكناس بالمياه وبناء السقايات من الأولويات التي يهتم بها رحمه الله يستفاد ذلك من نص ظهير إسماعيلي جدد فيه، رحمه الله، تحبيس مياه «عين تاجمة» على المسجد الأعظم: «...إلا ما كان أجري منه فيما هو للأوقاف والمساجد والمدارس والحمامات والسقايات بعد أدائهم من أوقاف للمسجد الجامع الكبير ما أنفقته من حبسه على إجراء الماء المذكور...».(42)

وقد بلغ قدر الماء المجلوب من «عين تاكمة» مائة وخمسة وثلاثين شكلا،(43) منها شكلان لسقاية التوتة، وشكلان لسقاية سويقة الجمعة،

---

39) تنسب هذه السقاية إلى أبي البركات سيدي محمد المدعو احمادشة بن عمران الشريف العلمي العروسي الولي الشهير دفين جبل زرهون... وقد ألف بعض العلماء في مناقبه تأليفا أسماه: «الذهب المنقوش، في مناقب ولي الله تعالى سيدي علي بن حمدوش» [الاتحاف: ج: 5/ص: 459].

40) الاتحاف : ص : 1/223.

41) المصدر السابق ج : 1/ص : 224.

42) حوالة الأحباس الكبرى رقم 5 ص : 297.

43) الشكل : يساوي ما بين 3.13 لتر في الثانية.

وأربعة أشكال لسقاية جامع باب البرادعيين، وبالقرب من ضريح سيدي بوزكري مدت من واد بوفكران عدة سواقي نحو قصبة هدراش.

وهكذا، وبفضل عناية المولى إسماعيل زودت مدينة مكناس بالماء الذي وزع بشكل أكثر تنظيما، وحبست على قواديس الجامع عدة أملاك للعناية بها وإصلاحها... كما تم تزويد مدينة مكناس بمجموعة من السقايات وقفت لصالح العموم، منها على سبيل المثال: سقاية الذهب التي بناها المولى إسماعيل، قريبا من قنطرة دردورة، وسقاية باب الجديد، وسقاية باب البرادعيين، وسقاية ضريح سيدي عبد الرحمن القرشي، وسقاية باب الرايس، وسقاية قصبة هدراش، وسقاية الهديم، وسقاية جامع الرياض العنبري، وسقاية باب منصور العلج، وسقاية مشهد سيدي علي منُّون.(44)

* * *

الوقوف المائية في العهد العلوي :

حَفَلَ العهد العلوي بعدة وقوف للسقايات، من ذلك سقاية السبيل المعروفة «بسقاية الذهب» الواقعة بقنطرة «دردورة» وذلك واحد ومائة وألف، وقد اعتنى المولى إسماعيل بشأنها، واهتم بها اهتماما زائدا، وأوقف عليها أوقافا مهمة وقد وقف مولاي عبد الرحمن بن زيدان(45) على عدة عقود تتضمن التحبيس عليها من ذلك ما لفظه: الحمد لله، شهد لدى شهيديه، أمين الدار، العالية بالله، وناظر سائر الإيالة الشريفة المعلم محمد

---

44) «وثائق ونصوص» للأستاذ محمد المنوني، انظر : «حوالة أحباس المساجد الصغار رقم: 4/ص 217، وحوالة الأحباس الكبرى رقم 5/ص: 13، و14.

45) «المنزع اللطيف، في التلميح لمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف» مخطوط تحت رقم: 595/ حرف: ج. قسم المخطوطات، الخزانة العامة بالرباط ص: 391 – 392 وقد طبع أخيراً..

ابن محمد الكـاتب الأندلسي، أن مولانا المنصـور بالله تعالى مـولانا أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، مولانا إسماعيل، أبد الله أوامره، وخلـد مفـاخره الكـريمـة ومـآثرة، آميـن حبس جميع الحوش المستـديـر بالحيطان غير ربع واحد منه بلا حائط الكائن بقصبة «تريمي» المجاوز من أسفل الحوش، حبس مسجد صواغة، الذي بيد الوقاد على وجه الجزاء على إصلاح الماء المجلوب «لسقـاية الذهب» التي أحدث بناءها مـولانا المذكور «بقنطرة دردُورة» خارج مـدينة مكناس، وهذا العقـد بتاريخ جمادى الأولى عام 1117هـ، واقتفى إثره في التحبيس عليها غير واحد من أنجاله، وعظماء ولاته، وقد أورد بعض ذلك المولى عبد الرحمن في كتابه: الاتحـاف...

ومن ذلك بمدينة مكناس، «سقاية قصر الهديم»، وسقاية «باب منصور العلج» وسقايتـا باب الرايس، وسقـاية أبي الحسن علي منون، وسقـايات قصبة هدراش، وباب الناعورة، والسقـاية التي بمحج حومة راس الشراطين من فاس القرويين حسبما وقع التصريح بـذلك في قطعة شعرية منقوشة في زليج بأعلى السقايـة المذكورة، كان أزيل ذلك الزليـج، ثم أعيد منكسا أي تنكيس، اختل بسبب ذلك نظام ترتيب الأبيـات، فصار لا يفهم منها غير بعض الأشطار، وبيت التصريح باسم المترجم...

وفي مكناسة أيضا، السقاية المجاورة للقيسارية، قرب الجامع الأعظم، وقد جاء عنها في وثيقة: «حوالة أوقاف المساكين» شهوده يعرفون سقاية الماء الكائنة بـالشهود، داخل مكناس المحتوية على ثلاثـة أنابيب من الماء المجلـوب من ماء عين «تـاكمـة»، ويشهدون مع ذلـك بأن فيض السقايـة المذكورة هـو ماء حمام حومـة الكدية المعروف بحمـام المساكين، وتفيد تاريخ هـذه الوثيقة (1110هـ) استمـرار هذا الماء بـالمدينـة حتى العصر العلوي، وجاء في وثيقة أخرى تحمل تاريخ شـهر ذي القعدة عام (1116هـ) أن هذا الماء كان يتـوزع في داخل نفس المدينة بين مساجدهـا وسقاياتها

وحمامـاتها، وسائر مـا يستعمل فيه مـاء العين المذكورة... وهنـاك وثيقة ثالثة تمدد وجـود ماء «تاكما» بالمدينة حتى العصـر السليماني، وبعد هذا يضمحل مجرى هذا العين، ويختلط ماؤها بوادي أبي فكران.

وكان مجرى هذه العين يقع في قناة خصـوصية، ومتسعة مبدؤها في السور القريب من وادي أبي فكران إلى أن تتصل بالمعدة المجاورة للجامع الكبير حذاء باب الجنائز من جهة باب عيسى...

* * *

ومن مآثر السلطان المولى يوسف تجديد سيدي يحيى وسقايته بمدينة مكناس.(46)

وقد جـدد المولى يـوسف السقايـة التي ببطحـاء الهديم بـاب منصور العلج... «تلك السقـاية العجيبـة الشكل، العديمـة النظير والمثـال، والتي لم ينسج على منوالهـا في حاضر الأزمان ولا فـي غابرها نـاسج... فما شئت من تزويـق وتنميق، ونقش رقيق، يستلفت الأنظار، ويستـوقف الأبصار»، وكان تجديده لهذه السقاية عام 1332هـ.

ويدل لذلك ما هو منقوش بأعاليها، ولفظه :

يـــا نـــاظـــراً في بهـــائي
ورونقـي وازدهـــــــــــــائي
فبغيتـــي ومنـــــــــــاي
منـك جميل الـــــــدعــــاء
إلــى جنــــــاب تســــــامى
بـــه ابتــــــداء انتهــــاءي
مـــــولاي يــــوسف أضحــى
محبــــوب دانٍ، ونــــــاءي

46) الاتحاف ص : 1/219.

مـع المقيـم العمـــــــــــومـي
رئيـس نـــــاس الـــــولاء
وأهـــــل مجلـــس نصـــح
وهمـــــــة فــي ارتقـــــاء
فـــــــادع لكل بخيـــــــر
شكـــرا علـى جـــري مـــاء
وقـل : مـــــؤرخ هـــــذا
تـــــاريـخ زيـن بنـــــائي

وأشار بالتـاريخ المومى إليه بحروف الشطر الأخيـر من القطعة... وقد علق المولى عبـد الرحمن بن زيـدان في تاريخـه بأنه مع الأسف فقـد مَدّ الخراب لهـذه السقاية يـد الاعتداء، ولم تجـد منجدا، فإن دام حالهـا هكذا، رجعت إلى ما كانـت آلت إليه قبل... فإن هذه السقاية هــي التي يعبر عنها في العقود الحبسية القديمة بالسقـاية الكبرى، ففي بعض العقود الحبسية مالفظه: «أربـاب البصر سئل منهم الوقوف على عين مسجـد زواغة الكائن بالهديم من الحضرة المذكورة، المجاور للسقاية الكبرى التي هناك».(47)

وقد كان الدهر أخنى على هذه السقـاية حتى تعطل وصول الماء إليها، وصارت مقر الأوساخ والأزبال.

* * *

ومن تأسيســات المولـى عبد العـزيز بـن الحسن الأول تجديـد بعض القنوات التي يجري فيها الماء للمساجد والمدارس بمدينة مكناس وغيرها...

ومنها بنـاء الساقيـة مع القنطرة ذات الأقـواس التي يمـر فوقهـا الماء المجلـوب من «عين شانش» النـابع أصلهـا قرب «مـدشر مـوساوة» أحـد مـداشر جبل زرهـون ليزاد ذلك المــاء على ماء عين خييـر الداخل للحـرم

47) الاتحاف ج : 1/ص 221.

الإدريسي وغيره من الأماكن التي يجري بها المـاء من تلك الزاوية المباركة إلا أن هذا الماء لم يحصل منه المقصود الذي جلب لأجله... وهذا الماء هو الجاري بأرض خيبر المعروف بالبير، ولسائر فروعه...(48)

* * *

ومن مآثر المولـى محمد الخامس بمدينة مكناس إجراء مـاء عين تاكمة بسقايـات السبيل بالمدينة العتيقـة مكناسة أيضـا... وإدخـاله لبعض دوره المفتقرة إليـه، وذلك على زيادة مـاء واديها القديم الـذي كان أدخلـه إليها المولى إسماعيـل، وحبس الفاضل عن كفاية دوره وقصـوره، وما أنعم به على بعض أعيان دولته على المسجد الأعظم، والحمامات وسقايات السبيل، ولـذلك لم يكن جـريانُـه عـاما في جميع دور البلـد، ومـد قنوات للـوادي المضـاف زيـادة على أودية المدينـة الإسماعيلية، المحكمة البنـاء والاتقان، كما أجـرى الماء لمستشفى أبي عثمان سعيـد المشترائي خارج بـاب وجه العروس ومن مـآثر محمد الخامس رضـي اللـه عنه تجديد سقـاية السبيل الـواقعة بسـاحة فئـة الخيـاطين بين بابي ابـن القاري الـداخلي وعرصـة البحراوي، وتجديد سقاية الهديم، وترصيع جدارها بالفسيفساء.

* * *

في مدينـة الدار البيضـاء :

بمدينـة الدار البيضاء كـان لمولانا محمـد الخامس مأثـرة أخرى هي إصلاح جامع البيضـاء بفاس المرينية والسقـاية العمومية خارجه، وإصلاح مدرسـة الأندلس بفاس، وإدخـال الماء الجـديد إليها... وإدخـال ماء عين الشقف وغيرها... وإجـراؤه بأزقة البلدين البيضاء والإدريسيـة زيادة على مـائي عميـر والـوادي القـديمين... وإجـراؤه ببعض المسـاجـد والـزوايـا

48) الاتحاف : ج : 1/218.

والأضرحة والـدور والحومات المفتقرة إليه قبل، كحـومة ابن جيدة، وجعل سقـايات للسبيل، ومن مـآثره أيضـا رضي اللـه عنه بمـدينة وزان إنشــاء سقايات للسبيل ببعض حـومات المدينة وأزقتها وبالســويقة، وإجراء الماء بها من بير أولاد زيان...

* * *

ومن أسْمَى وأَسْنَى مآثر مولانا محمـد الخامس جلب الماء من الفُوَّارات إلى العدوتين الرباط وسلا، وإجراؤه إلى ثغر الدار البيضاء منهما، وإدخال المــاء للجامع اليـوسفي، وإجـراء الماء ببـاب مـراكش، وإصلاح مجـاري ميضأة جامع القرية، وإنشاء عدة سقايات للسبيل.

* * *

السقايات الوقفية بمدينة الرباط :

السقـايات العمـومية بمـدينـة الربـاط كانـت توجـد في أغلبية الأزقـة الرئيسيــة - زنقة سيدي فاتح - زنقــة بوقرون - زنقة القنـاصل - زنقة سوق الغزل، زنقة سقاية ابن المكي، وهذه السقايات لا تقدم فائدة فنية، ما عـدا واحـدة منها تستحق إشــارة خـاصــة، تلك هي «سقــاية المــارستــان العزيزي» قُبالة المسجد الأعظم في الطـرف الشمالي لزنقة باب شالة.(49) وهذه السقــاية كان قد بنــاها السلطان المـريني أبو فارس عبد العــزيز بن علي (تــ1372م) وتبرن، كما يقول: جاك كايي Jacques Caillé في تاريخه،(50) سمات لا ينــاقش فيها... البناء معتنى بـه للواجهــة... قوة الأعمدة الثـلاثة، الوضوح في السطور للكتــابة المشبكة المعمارية، ودقة في الزينــة فإفريزٍ

---

49) لست أدري كيف تحـولت هذه السقـاية إلى مكتبـة!. ؟ فلا حـول ولا قوة إلا بـالله، إن اعتنينـا بالآثـار فنحن لا نعبـدها ولا نقدسهـا، ضلَّ من يقـدس ترابـا، ويعبد حجرا، ولكـن نذكـر فيها مَاضِيَنَا، أي ننظر إلى أنفسنا في أمسنا، فأمكنة الآثار، هي أوعية التاريخ.

50) مدينة الرباط إلى الحماية ص 200. 199.
"La ville de RABAT jusqu'au protectorot".

راقٍ، كل هذا يجعلها عَمَلاً ذاقيمة فنية... وقد تحولت هذه السقاية إلى محل لتجارة الكتب...!

* * *

وفي الوقت الذي نستقدم فيه العلماء الأركيولوجيين للكشف عن الآثار العافية، والرسوم البالية، نعمل، نحن، على طمس معالم حضارتنا، بل ونهمل آثار السلف في المحافظة على الآثار الخالدة، بعدما عانت كثيرا من الإهمال، وغطى واجهات بعضها بضاعة الباعة المتجولين...(51)

* * *

اهتمام الأقدمين بالتراث والآثار :

لقد كان الأقدمون رضي الله عنهم يحتفظون بالآثار القديمة، فمعاوية تَغَالَى في بُـرْدَة كعب؛ واحتفظ خالد وأبُو زَمْعَة وغيرُهما بِشَعَر رسول اللهﷺ كما هو معروف، كما حافظت أمُّ أنس على عرف رسول الله...

وفي العتبية : مالك سُئِل عن نَعْل رسول اللهﷺ التي رآها كيف كان حَذْوُها؟. قال: رأيتها إلى التدوير ما هي، وبحصرها في مؤخرها، وهي معقبة من خلفها... قلت: أكان لها زمامان؟ قال: ذلك الذي أظن... وكانت عند آل أبي ربيعة المخزميين من قبل أم كلثوم أمِّهم، وسمعت مالكا يذكر أن عِنْدَ عبد الرحمن ابن عبد العزيز بواش من شعر، وجَرَس لحفصة.... فقلت له: ما قصة الجرس؟ قال: لا أدري...

قال ابن رشد في البيان والتحصيل : الأجراس كانت تعلق في أعناق الإبل لتعرف مواضعها بأصواتها أن شدت أو ضلت، ومعنى السؤال في

---

51) وهذا ما جعل بعض المسؤولين يرخصون لبعض التجار هدم السقاية العزيزية قبالة المسجد الأعظم في الطرف الشمالي لزنقة باب شالة، وقرب مجموعة مدارس محمد الخامس بالرباط مقابل أشياء وأشياء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذه الحكايــة من قصة الجرس، إنما هو لم كــانوا يحبونه ويرفعــونه، وقد جاء النهي في استعماله، فلم يجب على سؤاله، والجواب فيه، أن استعماله، وإن كان لا يجوز، ففي حبسه منفعة، وهو أنه يذكر العهد القديم، ويترجم من أجله على من قد مات من السلف الكريم.(52)

«ومما لا ينكــر في هذا الباب أن المارشــال ليوتي، قد بذل جهــده أيام تمثيله الحكـومة الفرنسيــة في المغرب في المحــافظة على الآثار العــربية القديمة، وفي إحياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة، ووضعت فيها الكتب، وتقيــدت منها النفائس بالتأليف والتخليــد مما يمكننا أن نذكره بالشكر، لأنه من قبيل الإنصاف الذي طبعت الجبلة البشرية على استحسانه، وياليت الأروبيين اطردوا الإنصاف في سائر الأمور.(53)

* * *

وقد اقتبس بنو عبــد المومن من الأساليب الأندلسيــة، لا سيما في بناء السواقي وجلب الميــاه... فقد أسست قنــوات نقلت مياه «عين غبــولة» إلى الرباط وسلا،(54) حيث وضعت أنابيب ثــانوية لإيصال المــاء إلى الجامع الكبيــر، والزاويــة التيجانيــة... ومناعــة تبليط هــذه القناة، لا تقل عن قــوة الأسوار الموحدية بالرباط.(55)

وهناك قنوات أخرى ترجع لهذا العصــر في مراكش وفاس، وباقي مدن المغرب.

وفي شأن السواقي ومــاء العيون والأنهار والآبار، وجــه وزير الأوقاف السيد أحمد الجــاي إلى ناظر الرباط للكشف عن الآبــار والسواقي في هذه

52) انظر «التراتيب الإدارية» ج : 2 / ص : 446.

53) «حاضر العالم الإسلامي» ج : 1/ص 112.

54) راجع التاريخ الصغير للرباط، للأستاذ كأيِّي.

55) القــرطاس، ط : ســلا ص : 146. وكتابا حــول القنطرة الموحديــة لنقل الماء بالــرباط – هنري باسي – المجلــة الافريقيــة. انظــر «تاريخ الضعيف» ص 178 ـ 179، «والأنيس المطــرب» ص 264 ـ 192.

المدينة، وإحصــاء المياه التي تسقى منها، مع تحرير بيــان عدد الآبار التي بعراصي الأحبــاس داخل المدينة، والآبــار المحبّسة حبسا عمـوميا للسقي منها عنـد فَقْدِ مـاء عين عتيق التي بجانــب الأحباس المسلم لإدارة البلـدية لتتـولى هي تفريقــه على مقتضى الكتاب الشــريف، المؤرخ بحجــة 4 عام 1332، والمسجل ببنيقة الوزارة الوقفية رقم 76 على الشروط المجعولة فيه التي منهــا المصــادقة عليهــا من سيــادتكم، ومن جــانبي الصــدر الأعظم، والمقيم العام، وأمضاه الناظر... وكتب في عام 1336 – امحمد ملين...

وفيما يلى تقييد مياه الآبار الحبسية العمومية، وشهادة بإحصاء المياه التي تسقى منها عراصي الأحباس بزاوية شــالة مع قائمة ببيان عدد الآبار التي بعراص الأحباس...

الحمد لله وحده،

تقييد مياه الآبار الحبسية العمومية :

1 – ممر بدرب جناوة مخرج من أروى بلافريج

2 – أُخْرَى إمام السجن ينسب لأولاد ابن مسعود

3 – أُخْرَى بركنة باب الخرازين

4 – أُخْرَى بتريبعة الفوقي

5 – أُخْرَى بزنقة أُمِّ الكنابيش بحائط أروى الأحباس بالسويقة

6 – أُخْرَى بسوق السمارين قرب باب الجديد

7 – أُخْرَى بحائط الزاوية العيساوية

8 – أُخْرَى بداخل الزاوية المذكورة

9 – أُخْرَى بزنقة البير بحومة الجزاء

10 – أُخْرَى مخــرج من أروى الأحباس بتحت الحمام في شركــة غنام وبركاش

11 – أُخْرَى بحائط حمام العلو

12 – أُخْرَى بالقراشليين

13 – أُخْرَى بسوق الصباغين

14 – أُخْرَى بالرحبة القديمة

15 – أُخْرَى مخرج من ضريح سيدي الحسن بن سعيد

16 – أُخْرَى بمطهرة الأعظم

17 – أُخْرَى بمطهرة العطارين

18 – أُخْرَى بمطهرة أم الكنابيش

19 – أُخْرَى بمطهرة مدرسة درب والزهراء

20 – أُخْرَى بمطهرة القيسارية

21 – أُخْرَى بمطهرة قصبة الاوداية

22 – أُخْرَى بمطهرة زاوية حنصالة

23 – أُخْرَى بالزاوية المباركية

24 – أُخْرَى بالزاوية القاسمية

25 – أُخْرَى بالزاوية الرحمانية

26 – أُخْرَى بروض سيدي عبد الله الحويشي

27 – أُخْرَى بسيدي الغندور

28 – أُخْرَى بزاوية سيدي الغازي بن قاسم

29 – أُخْرَى بزاوية سيدي الغازي أمام حمام القصري

30 – أُخْرَى بالزاوية الحمدوشية

31 – أُخْرَى بمسجد شكلانط بمطمرته

32 – أُخْرَى بزاوية مولاي العربي الدرقاوي

33 – أُخْرَى بالزاوية البنانية

34 – أُخْرَى بالزاوية المعطوية

35 – أُخْرَى بسيدي مَـحمد الغاني

36 – أُخْرَى سيدي مَـحمد الدراوي

37 – أُخْرَى بمطهرة سيدي القجري

38 – أُخْرَى سيدي عبد الله اليبوري

39 – أُخْرَى بسيدي السعيدي

40 – أُخْرَى بالزاوية القادرية

41 – أُخْرَى بسيدي عبد القادر بن أحمد

42 – أُخْرَى بالزاوية التجانية

43 – أُخْرَى بسيدي أحمد التلمساني

تقييد الأبار التي بعراصي الأحباس :

بيران بمدارتي عرصة ابن الغازي 2

كذلك بعرصة الرحامنة 2

وبالغازية كذلك بيئران 2

وبجنان السلطان كذلك 2

وبنصف بوظهيرة الأحباس بير واحدة

تقييد آبار الحمامات :

بمدارة حمام العلو بئر واحدة

وبمدارة القصري كذلك 1

وبمدارة حمام السوق كذلك 1

وبمدارة حمام اجديرة كذلك 1

ومن جملة المياه التي لجانب الأحباس :

مـاء عين عتيق المسلم لـلإدارة البلديـة لِتَتَوَلَّـى تعريفـه على مقتضـى الكتاب الشريف المؤرخ رابع حجة 1332/76

المسجل ببنيقة الوزارة الوقفية على الشروط المجعولة فيه.

جواب ناظر أحباس الرباط 1017

عما أذن به من إحصاء مياه الأحباس في كناش خاص.

بأنه وجه طيه شهادة بإحصاء المياه التي تسقى منها عراصي الأحباس بزاويـة شالـة مع قائمة بيبـان عدد الآبـار التي بعراصي الأحبـاس والآبار المحبسة حبسا عموميا للسقي منها عند فقد ماء عين عتيق التي للأحباس المسلم للإدارة البـلدية على مقـتضى الكـتاب الشـريف المؤرخ 4 بحجة عام 34.

وقد حبّس السيد الحاج أحمد بن الحـاج أحمد بلافريج جميع الأراضي الكائنة خارج باب شالة بـالرباط المعروف بقبيبة ابن زاكور على الضعفاء والمساكين، وأن لا يمنع أحـد من المارّين عليها من الشرب من مـائها، ولا من شرب البهـائم، رجاء أن يرحمه الله بـذلك حبسا مؤبـدا، ووقفاً مخلدا، قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه.(56) جمادى 2/1302هـ.

كمـا وقف السيد الحـاج أحمد بن السيـد جَ أحمـد بلافـريج والد عبـد السلام للآبار الثـلاثة التي حبسها بالرباط بإشـهـاده، وهـي البير المخرجة من الأرْوَى قرب الفـرن المذكور، والبير المتصلـة بالحوانيت التي بحـومة الجـزاء... والبير الكـائنـة بـالتريبعـة الجـديـدة من الـدلاء والحبال وغيـر ذلك...(57) وذلك في عام 5 رمضان 1295هـ.

---

56) العدول : علي بن أحمد دينية، وإبراهيم بن محمد بن الجناوي.

57) بإشهاد : أحمد بن محمد بناني. ومحمد بن المكي بن الهاشمي بن عمرو الأوسي.

وقوف المياه في مدينة مراكش :

وفي مدينة مـراكش نجد فيه السقايات ذات الأهمية، فسقـاية المواسين المجاورة لمسجـد المواسين كانت قـد بنيت عام 1563م في عهـد السلطان السعدي عبد اللـه بن غالب، قال اليفرني: وفـي عشرة السبعين وتسعمائة، أنشأ السلطان الغالب بـالله جامع الاشراف بحومـة المواسين من مراكش، والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة، والمارستان الذي ظهر نفعه، ووقف عليه أوقافا عظيمة.(58)

هـذه السقايـة تشتمل في اليســار على حـوض كبير، فـوقـه رواق مع زخرفة بـالجبص المنقوش، وبساكِفٍ (أعلى الباب الـذي يقابل العتبة) من الخشب المنقوش أو المصبوغ، وهي مخصصة لسكـان الحي الذين ياتون للتزود بالماء على اليسار، وهي مفصولـة بجدع شجرة لمنع الحيوانات من تلويث الماء، ثلاثة أحواض أخرى من أربع إلى خمسة أمتار جانبية محمية بأقبية مع أروقة، وهي معدة لسقي البهـائم، والكل فوقه أفريز رائع مغطى بالقرميد الأخضـر، كما توجد سقاية سيـدي «الحسن أو علي» على مقربة لمسجد بـاب دكالة، وهي صـورة طبق الأصل لسقاية المـواسين مع فرق، وهو أن الواجهة المزخرفـة في اليسـار، في حين أن واجهة المواسين توجد في اليمين، والسقاية الثالثة الأثريـة الموجودة في حي مدرسة ابن يوسف وهي المسمـاة بـ«شْرُب وشـوف» وهي مهيأة لتـدعيم حـائط، واجهتهـا الخشبية المنقـوشة محمية بإفـريز على هابطـة» راسب كلسي متحجر في سقوف المغاور» وسقايات أخرى تقدم فـائدة فنية، خصوصا مزار سيدي سليمان الجزولي وضريح سيدي بلعباس السبتي.(59)

---

58) ص : 89/1، الاعلام...

59) «انظر المؤسسات الخيرية». د. جوزيف لوسيوني ص 74، 75، ط : الملكية.

Les fondations pieuses (Habous au Maroc depuis les origines jusqu'à 1956).

وباعتبارها عملاً صالحاً، غالبا ما تظهر السقاية كملحقة لمسجد. وكذلك الحال بالنسبة لسقايات مراكش، كسقاية «باب دكالة» و«المواسين» المجاورة لمزارات من نفس الاسم، وسقاية «المواسين» أكثر فخامة بناها مولاي عبد الله السعدي في 970 / 1562. في أحواض كبيرة من 4 إلى 5 أمتار في كل جانب، محمية بعقد القبة، وهي تستعمل للحيوانات، ويجاور هذه الأحواض حوض رابع خاص بالناس، ويعلوه افريز جميل مغطى بقرميد يحمله حاملو الافريز متقدما فوق عضادات. بين هذه العضادات يوجد افريز. وهناك تنضيد لافريزات من اللوح المنقوش والمدهون بسلسلة عقود وعدة نقوش.

الجهة السفلى لهذه الزخرفة ترتكز على حاملتي افريز، التي منها جبهات عمودية تتجابه و(تتقابل)، للنعول الخارجة التي تحيط بفتحات الأروقة منذ عهد المورسكيين.

مرافق هذه السقايات (مورد وحوض) تتلاقى بسقاية سيدي لحسن أوعْلِي جارة للمسجد (965/ 1557). المورد طوله 15 مترا، وعرضه 5 أمتار.

وسقاية سيدي بن سليمان الجزولي (1515) أكثر بساطة من ناحية التصميم. وكذلك الحال بالنسبة للسقاية المسماة «اشْرُب وشُوفْ»، حيث إن أحواضها مغطاةٌ بمشكاة ذات قعر منبسط، والإفريز العادي يعلو مجموع الزخارف. أما الساكن السفلي فهو يؤسس فوق أعمدة.

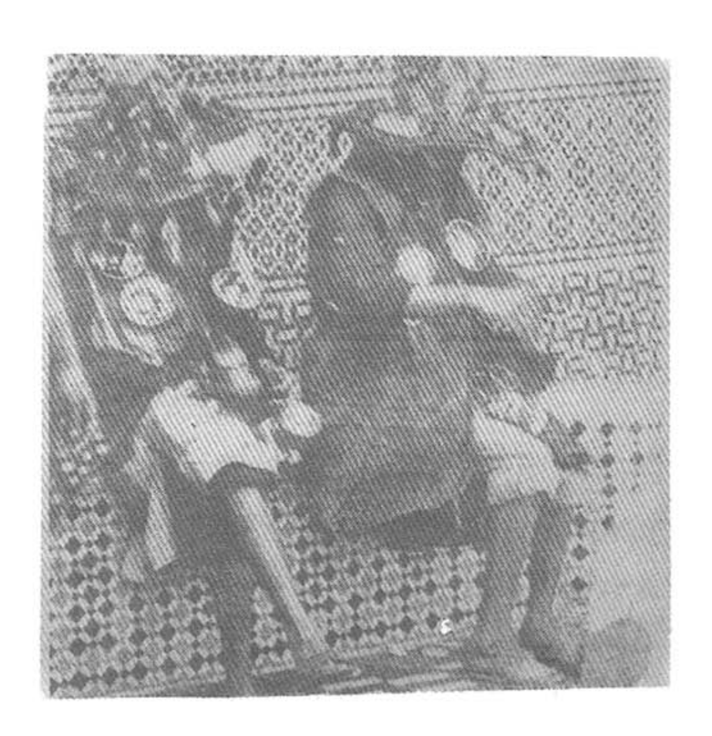
وتساعد الخزفيَّات على الزخرفة في سقاية «سيدي بن سليمان»، وهي كذلك من زخرفة سقاية «فاس»، التي تزين الساحة القريبة من «فندق النجارين».

أما الجهة ما قبل الحوض، وقعر سلسلة العقد المركبة من حدوة جوار مكسرة، فمغطاة بمرصعات.

ومن كل جهة من سلسلة العُقَيْدات، يحمل عمودين الأسكفة والافريز الذي يعلو تلك الاسكفة.

"L'Architecture Musulmane D'Occident" CHAP VII. p. 410 - 413.

Par Georges MARCAIS (Membre de la Direction de l'interieur et des Beaux - Arts, Autiquités et monuments historiques.



صورة للسقايات

الفصل الحادي عشـر :

نظافة الجسم بالماء، رقـي صحـي، ومظهـر حضـاري

روى أبو هريرة أنه قال : نزلت آية : ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين**﴾،(1) قال : «**كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية**».

وقال الشعبي : هم أهل مسجد قُباء، أنـزل الله فيهم هذا.. وقال قتادة : لما نزلـت هذه الآية، قال رسول اللـهﷺ لأهل قُباء : «إن الله سبحـانه، قد أحسن عليكم بالثنـاء في التطهر، فمـا تصنعون»؟ قـالوا : «**إنا نغسل أثر الغائط(2) والبَول بالماء**».(3)

وروى الدارقُطني، عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد اللـه، وأنس بن مالك الأنصاريـون، عن رسول اللهﷺ في هـذه الآية : ﴿**فيه رجـال يحبون أن يتطهَّروا، واللـه يحب المطهرين**﴾، فقال : «يـا معشر الأنصار، إن اللـه قد أثنى عليكم خيرا في الطُّهر، فمـا طهورُكم هذا؟ قالوا : يا رسول الله، نتـوضـأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة... فقال رسول اللهﷺ : فهـل مع ذلك من غيره؟ فقـالوا : لا غيـر، إن أحَدنا إذا خـرج من الغائط، أحب أن يستنجي بالماء.. قال : هو ذاك، فعليكموه».(4)

* * *

1) سورة يونس، رقم الآية : 108.

2) الغـائط : أصله مـا انخفض من الأرض، والمجمع الغِيطـان أو الأَغْـوَاط، وسمى «غوطـة دمشق» وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضـاء حاجتها تسترا عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطا للمقارنة.. وغاط في الأرض يغوط : إذا غاب.

3) رواه أبو داود.

4) القرطبي، ج : 8/ص : 259 ـ 260.

وهذا لعمري مَظْهَرٌ حضاري إنساني، ورقي صحي، بلغته الحضارة الإسلامية في عهودها الأولى؛ ولا سيما في العهد المحمدي، في المدينة الإسلامية الأولى...

قال ابن العربي : والوضوء أصلٌ في الدين، وطهارة المسلمين، وخصوصا لهذه الأمة في العالمين...

ولا بد من الإشارة والإشادة، في هذه الدراسة الميدانية، المتعلقة بالماء، إلى ما بلغه الرقي الصحي، في الوسط الإسلامي خلال عصوره القديمة والحديثة، إلى أنه كان توجد بجوار المساجد الإسلامية مراحيض عامة، يقضي الناس فيها حاجتهم، بدون مقابل، وحيث يُسبغون وضوءَهم لأجل الصلاة.

وكان لاهتمام الإسلام بهذه المرافق أثره في نظام مساجد المسلمين، فكلُّ مسجدٍ من مساجدهم تلحق به ميضآت لقضاء الحاجة، وفيها من الماء الموقوف ما يلزم للطهارة، وهذا نظام فريد ينفع طبقة الفقراء الذين تخلو بيوتهم من هذه الميضآت، وبه تمتاز مساجد المسلمين عن أماكن العبادة عند غيرهم، فهي بيوت للعبادة والطهارة معا، وهي تؤدي في هذا وظيفة دينية، وتؤدي معها وظيفة مدنية، وقد سبق المسلمون بهذا النظام غيرهم من الأمم الحديثة التي تُعنَى بإنشاء الميضآت للناس في الأماكن العامة لتوفر لهم وسائل الراحة والنظافة...

فالواقف لبناء المسجد يحرص أن يتخذ له، في تصميمه، طور البناء، مراحيض يتدفق الماء منها بغزارة، ويقصدها الناس بقصد الطهارة وإسباغ الوضوء...وهذه المراحيض تكون تابعة للمسجد، وغالبا ما تشتمل على حوض للماء الجاري للوضوء، وبزابيز وصنابير متعددة، وتكون بعيدة عن

المسجد أو في ركن من أركانه، بعيدة عن المصلين، وفي كثير من الأحيان تكون خارجة حتى يتسنى للعموم أن يقضي حاجته بدون أن يقدم رسوما أو مالاً...

* * *

وللإسلام أدب طهارة البدن، وقد أخذ به المسلمون منذ عصورهم الأولى، ليمتازوا عن الحيوان الأعجم، وليكون المسلم مثالا للإنسان النظيف الفاضل في هذه الناحية...

وقد اهتم الإسلام بالاستنجاء حتى جعله شرطا في صحة الصلاة ليعطيه شيئاً من معنى العبادة، وهو أن الإسلام بِفَرْضه التطهر، قبل إسباغ الوضوء، استعداد للدخول في الصلاة ينبِّه الناسَ إلى خطر القاذورات على صحتهم، فيتنبهون إلى استعمال وسائل التطهير فيها حتى لا تتراكم في مدنهم وقُراهم، من كنس للبيوت، والشوارع إلى رشها بالماء ونحوه، وقد تنبه المسلمون إلى شيء من هذا في عصر مبكِّر، حتى إنه كان يُوجَد شيء منه بالمدينة، في عهد النبي عليه السلام، فنظافة مجموع الجسد أوجبها الشارعﷺ بقوله : «طهِّروا هذه الأجساد، طهّركم الله».

* * *

وللنظافة من التأثير البَيِّن في صحة الإنسان وسلامته من الأمراض ما هو معلوم...

وما دام الإنسان مسلما، كان عليه أن يراعي هذا الواجب، لأن ديننا مبنيٌّ عليه كما جاء صراحة في قوله عليه السلام :

الطُّهور شطرُ الإيمان.

النظافة من الإيمان.

بُنِي الإسلام على النظافة.

* * *

وأَمْرُ الشـارع لنا معشر المسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرة بعد المرة ـ اغتسالا ووضوء ـ إنما السِّرُّ الحقيقي فيه تنبيهنا إلى تطهير نفوسنا مِن الرذائل، ورديء الأخلاق، وإلا فالمسلم الذي يبالغ في تطهير ظاهره من الأدْران، وهو مُعْرِضٌ عن تطهير باطنه من خواطر السُّوء، وفاسد الطباع، ومساوىء الأخلاق، لا يكون في عمله، ولا تطهير جسده، مرضيا لله، ولا مهتديا إلى السر من شرائع الإسلام، وآدابه الرائعة التي كان متحليا بها شارعه عليه السلام.

* * *

والصحة من حقوق الجسد التي له أن يطالب بها، وهو معنى الحديث : «إن لجسدك عليك حقا»، فهذا الحديث يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة، وإنعاش البدن وتقويته واجب على المرء كسائر الواجبات الشخصية والاجتماعية الأخرى...

ومن القوانين الصحية ـ بل من أجدرها بالعناية والاهتمام ــ النظافة المائية، وقد حض عليها الشرع الإسلامي حَضّاً لم يساوه فيه دين من الأديان، ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التي تتوقف عليها صحة العبادة، فمن لم يغتسل، ولم يغسل أطرافه، الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة، لا تصح صلاته، وقد جعلها أيضا من الإيمان صراحة...

فالشارع عليه السلام، حض المومنين على النظافة، وإن كان مراعى فيه الغرض الديني، وهو صحة العبادات، والغرض الشخصي والاجتماعي، وهو أن يُصبح المرء مُكرَّما بين إخوانه، محببا إلى قلوبهم، روعي فيه، أيضا، الغرض الصحي لأن علاقة الصحة بالنظافة لاتخفى على الجاهل البليد، فضلا عن الشارع الحكيم..

من أجل هذا المعنى، قال بعض علماء الأخلاق المعاصرين : «ليس من المروءة ولا الفضيلة في شيء أن يلبس الإنسان الوَسَخ الرَّثّ من الثياب،

وأن يعيش في القاذورات، فإن هـذا نقص في الكرامة في البـاطن، فليحذر العاقل من تلطيخ ثيابه، وليتنبه للأمر كل الانتباه».

* * *

ونجد باباً عقده أبـو الفرج الأصبهاني في كتابه(5) بعنوان : «أخبار أن صاحب الوضوء ونسبه : ذكر فيه، أبـا محمد بن عبد الله مولى بني أمية، وهـو من أهل المـدينـة بأنـه كـان على ميضأة المـدينـة فسمى صَـاحبَ الوضوء...

وذكر الفقهاء أنـه يجوز بناء المطاهـر بالقرب من المساجـد والتوضئة منها، وقـد روى أبو عبد الله بن بطـة في كتاب «جواز اتخاذ السقـاية في رحبة المسجـد من جهة».. حدثنـا الثوري، عن المقدام بن شـريح عن أبيه عن عائشة رضـي الله عنها، قالت : كن المعتكفـات إذا حضن، أمر رسول الله ﷺ، بإخراجهن من المسجد، وأن يضـربن الأخبية، في رحبة المسجد، حتى يطهرن، وذكـر فيه حكـاية عن أحمد أنـه احتج بذلك، وهـو يدل على صحته عنـده.. وفي «كتاب الطهور»، لأبي عبيد عن إبـراهيم النخعي، قال : «كـانوا يتطهـرون من مطـاهر المسـاجـد.. وروى فعل ذلك عن علي وأبي هريرة رضى الله عنهما..(6)

وأنشأ ياسر خادم زبيدة بأمرها ميضآتٍ على باب أجياد الكبير، وأدخل فيهـا بئر الحفـر، وقـد دخل كل هـذا في رواق بـاب أجياد فـي التوسعـة الجديدة.(7)

وهذا أحمد بن طولـون يَدُسُّ عيونا لسماع ما يقـوله الناس من العيوب في الجامـع الذي بناه، فقـال رجل : مِحْرَابُـه صغير.. وقـال آخر : مـافيه

---

5) الأغاني، ج : 3/ص : 36، القسم الأول ـ ط : دار الفكر.

6) «إعلام الساجد، بأحكـام المساجد» للشيخ بدر الدين محمدً بن عبـد الله الزركشي الشافعي (تـ : 794هـ) ص : 383.

7) أخبار مكة/أحمد السباعي، ج : 1/ص : 157.

عمود... وقال آخـر : ليس له ميضـأة.. فجمع الناس، وقـال : أما المحراب، فإني رأيت رسول الله ﷺ، وقد خطه لي.. وأما العمد باني هذا الجامع من مال حلال، وهو الكنز، وما كنت لأبوبه بغيره.. وهذا العمد، إما أن تكون من مسجد، أو كنيسة، فنزهته عنها. وأما الميضـأة، فها أنا أبنيها خلفه، ثم عمل في مؤخـره ميضـأة، وخزانة شـراب، فيها جميع الأشربة والأدويـة، وعليها خـدم، وفيها طبيـب جالس يـوم الجمعـة لحـادث يحدث من الحـاضـرين للصلاة..(8)

* * *

وذكر ابن بَشْكُـوَال أن الحكم المستنصر(9) هدم الميضـأة القـديمة التي كـانت بفناء جـامع قـرطبة، يستسقـى لها المـاء من بئـر السانيـة، وبنى موضعها أربع ميضـآت في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها، إثنتـان كبرى للـرجال، وصـغرى للنســاء، أجرى، وقفـاً، في جميعها المـاء في قنـاة اجتلبهـا من سفح جبل قـرطبـة إلى أن صبت مـاءهـا في أحواض رُخَام لاينقطع جريانُه الليل والنهار، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقـايات اتخـذهن على أبواب هـذا المسجد بجهـاته الثـلاث الشرقيـة والغربيـة والشماليـة، أجراها هنـالك إلى ثلاثة جَـوَابٍ من حياض الـرخام استقطعهـا بمقطع المُنستيـر، بسفح جبل قـرطبـة بالمـال الكثيـر، وألقـاه الرخـامون هنـالك، واحتفروا أجوافهـا بمناقيـرهم في المدة الطـويلة حتى استوت في صورها البديعة لأعين الناس، فخفّف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطهـا إلى أماكن نصبها بأكناف المسجـد الجامع، وأمد اللـه تعالى على ذلك بمعونته، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضـخام

---

8) «حسـن المحاضرة» ج : 2/ص : 137.

9) الحكم المستنـصر، تولى الخلافـة بعـد أبيه الناصـر لديـن الله، أنـظـر ترجمـتـه في النفـح، ج 1/ص: 382.

خشب البلوط على فلكٍ موثقة بالحديد المثقّف، محفوفة بوثاق الحبال، قُرِن لجرهـا سبعون دابـة من أشد الدواب، وسهلت قـدامها الطـرق والمسالك، وسهل الله تعالى حملهـا واحدة بعد أخرى على هـذه الصفة في مدة اثني عشر يوماً، فنصبت في الأقباء المعقودة لها..(10)

وفي الناحية الشـرقية من صحن مسجد قرطبـة الجامع تقوم الميضـأة البديعـة التي أنشأها المنصور محمد بـن أبي عامر، وأجرى لهـا الماء في قناة تحت الأرض، وهـذه القناة تصب في حـوض واسع مقسم إلى تسعة أحواض، كانت تقوم فوقها تسع قبـاب صغيرة، والغالب أن المتوضـىء كان ينزل بضعة سلالم حتى يكون في مستوى الماء...

وهذه الميضـأة، لاتدخل في تكوين المسجـد بصورة أساسية، فهي أقل عناصر المسجـد لزوماً له، وعنـدما نفكر، قليلا، نجـد أن وجود الميضـأة، داخل المسجـد يقلل من هَيْبَتِـهِ وحُرمتـه، فهي مـوضـع غيـر نظيف، وإذا أضيف إليها دورة مياه، أصبحت موضعا غيـر طاهر لايجوز وجوده داخل المسجد..

والمفـروض أن المسلم يـذهب إلى المسجـــد طـاهـراً متـوضـأ، وليس المفروض – على أي حال – أن يتنظف، ويتوضـأ في المسجد..

ولقد كان وجود الميضـأة في المسجد مفهوما – رغم ذلك، في العصور الماضيـة – عندمـا كانت معظم البيوت تخلـو من المياه الجـارية ودورات المياه، أما اليوم، فلم يعد لذلك معنى أصـلا، وإذا كان مما لابد منه، فلينشـأ خـارج المسجد مكـان للوضـوء على صـورة تختلف عن صور الميضـآت الحالية، لأنها بوضـعها الحالي لاتعين على نظافة أو طهارة، أما دورة المياه، فلابد من استبعادها من المساجد تماما..(11)

10) النفح، ج : 1/ص : 555.

11) حسين مؤنس ـ المساجد، ص : 93.

وهكذا اقْتِحِمَت الميضأة على المساجد في الماضي، وأنها كانت دائما شائنة.(12)

* * *

بيوت بدون كُنُف :

لقد كانت بعض البيوت أو معظمها قديما، تخلو من المياه الجارية، أو دورة للمياه.. ولقد كتب المرحوم المختار السوسي عن خلو معظم البيوت من دورة للمياه حيث قال : ويجب أن يعرف خلو البيوت من المراحيض عن القطر السوسي حتى في «تزنيت»، فلم تعرف الكُنُف إلا أخيرا في الدور.. وأما البادية، فإلى الآن، قلما تجدها إلا عند مَن ومن، ولكن الناس يتنبهون لمزايا أمثال ذلك الآن.

قال المختار السوسي رحمه الله : وقد بتنا عند القائد ليلة باستِدْعائه، وما قصّر جزاه الله بكل خير، وهو يبني رياضا جميلا، متسعا أفْيَحَ مُونِقا، لكنه لَمَّا يتمّه إلى الآن، وقد رأينا الزليج مهيئاً للتزليج، وهو المحل الحضري الوحيد هناك من هذا النوع، ولم أر بين كل ما رأيته في هذه الجهة مثله؛ حتى إننا لانجد الكُنُف في الدور، حتى في دار القاضي الذي رأى مثل ذلك في الحواضر، وقد عزم أن يبني كل مايحتاجه الضيف في داره بتنبيهي له..(13)

* * *

فالكنف لابد منها في البيت أو في الشارع لراحة الناس، وهذا ما أشار إليه الشاعر الماجن ابن الحجاج بقوله:

وشعري سُخفةٌ لابدّ منها
فقد طِبنا، وزال الاحتشام

وهل دارٌ تكون بلا كنيفٍ
فيمكن، عاقلا فيها، المُقام

12) المصدر السابق، ص : 147. «عالم المعرفة».

13) «خلال جزولة» ج : 3/ص : 83.

أو كما قال :

تــرانــي ســـاكنـــاً حـــانـــوت عِطْـــرٍ
فإن أنشـــــدت ثـــــار لـك الكنيف(14)

وبعكس ما كان يوجد في بعض الجهات من ندرة دَوْرَات المياه، فإن في «توات» وبمدينة «تِيغُورَارِين» أي المخيمات البربرية، وقد عُربت على شكل فوارة، تمتـاز بالأراضـي الصـالحة للزراعـة، ولكن يجب ريها بميـاه الآبار، وتسميدها بالسِّماد، لأن هذه الأراضي جـافة وغير خصيبة، ولهذا يُعيرون مساكنهـم للغرباء بـدون تعويض، كي يحصلـوا على سماد الخيـل، وبِرَاز الآدميين.. وأكبر ما يغضب صاحب المنـزل، هو أن يقضي الضَّيف حاجته خارج البيت..! وإذا رآى صاحب البيت، اغتم وصرخ : «ألا يُـوجَد مِرْحاض في بيتي حتى تضطر لقضاء حاجاتك في الخارج ؟!.(15)

* * *

عناصر معمارية مساجدية :

في حديثنا عن عمـارة المساجد الأولى تحدثنـا عن الميضـأة وقلنا إنها أقحمت على المساجد في الماضي، وأنها كانت دائما شائنة لعمارة المسجد شائبـة لنظافته. وإذا كـان المعماريون لم يـوفقوا إلى بناء ميضـآت تيسر الوضــوء على المصلين دون أن تسيء إلى نظافة الجـامع، فهم معذورون في ذلك، لأن الميضأة تحتـاج إلى المـاء الجاري، ولم يكـن الماء الجـاري

---

14) ولعل أجمل ما قيل في الكنيف قول أحدهم :

ولقـــــد ســألتُ الــــــدارَ عن أخبـــــارهم
فتبسَّمَـتْ، عَجَبــــــاً، ولـم تُبـــــدِ
حتّى مَـــــررتُ على الكنيف، فقـــــال لي :
أخبـــــارُهـم، ونـــــوالُهـم، عنـــــدي

15) «وصف إفريقية»، لحسن الوزان، ص : 505 ـ 506.

ميسرا في العصور الماضية. وكان موضع إقامة الميضأة دائما مشكلة وذلك لتجنب تأثير المياه في مباني المسجد؛ ومن المعروف أن جلب الماء قد يكون سهلا ولكن العسير حقا هو التخلص من الماء الزائد أو الماء المستعمل، ولهذا فقد أصاب المساجد ضرر كبير من جراء مشكلة تصريف المياه الزائدة.

* * *

ولهذا كان المعماريون يميلون إلى إنشاء الميضات في الصحن المكشوف، في جانب منه أو في وسطه، فذلك أعون على تجفيف ذلك الماء الزائد، ولم يوفق المعماريون ـ مع ذلك ـ في إقامة ميضآت ذات هيأة فنية جديرة بأن تذكر، فيما عدا ما يقال من أن المنصور بن أبي عامر الأندلسي أنشأ ميضأة بديعة في جانب من صحن جامع قرطبة، فجلب لها الماء من الجبل في قنوات تحت الأرض، وأنشأ الميضأة في هيئة جوسق صغير ذي تسع قباب زخرفية، وقد عثر على آثار هذه الميضأة.

وإذا كانت الميضأة مشكلة كبيرة بالنسبة للمعماريين، فإن تضخيمها وتحويلها إلى دورة مياه كاملة كان مشكلة أكبر؛ وعلى الرغم من تيسر المياه الجارية ووسائل الصرف اليوم فإن دورات المياه هذه ضرر شديد على المساجد دون أنْ تؤدي وظيفة ضرورية، وإذا نحن قلنا إن وجود الميضأة يعين الناس على الصلاة فإن دورة المياه لا أساس لها إطلاقا ولابد من الاستغناء عنها على أي حال، خاصة وأن المساجد في أحياء المتاجر والأسواق وازدحام الناس، تستخدم أحيانا كثيرة دورات مياه، وهذا ضرر شديد، وإذا لم يكن من الأمر بد، فليكن لدورة المياه مبنى آخر منفصل عن المسجد حتى لايصيب المسجد ضررها.(16)

* * *

---

16) «المساجد»، حسين مؤنس، ص : 148.

ولقد كفروا الشيخ محمد عبده حين دعا إلى استخدام ماء الصنبور في الوضوء بدلا من الميضأة التي كانت «تعج بالجراثيم».(17)

* * *

وكان لمراد الثالث في «أيا صوفيا» آثار كثيرة، فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما 1150 ليترا من الماء لأجل الوضوء.(18)

ثم أن السلطان محمود الأول جعل بجانب مسجد أيا صوفيا سبيلا لماء الوضوء ومدرسة.(19)

* * *

وقد بنى الأمير عبد الرحمن كتخذا المدرسة الطيبرسية وأنشأها إنشاءً جديداً، وجعلها مع مدرسة الأقْبَغَاوِية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذي أنشأه خارجها جهة القبو الموصل للمشهد الحسيني، وخان الجراكسة، وهو عبارة عن بابين عظيمين، كل باب بِمِصْرَاعَيْن، وعلى يمينهما منارة، وفوقه مكتب، أيضا، وبداخله على يمين السالك بظاهر الطبرسية ميضأة، وأنشأ لها ساقية لخصوص إجراء الماء إليها، وبداخل باب الميضأة دُرْجٌ يصعد منه للمنارة، ورواق البغداديين والهنود، فجاء هذا الباب، وما بداخله من الطبرسية والإقبغاوية والأروقة من أحسن المباني في العِظَمِ والوَجَاهة، والفخامة، وأرّخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات الركيكة...

تبارك الله، باب الأزهر انفتحا
وعاد أحسن مما كان، وانصلحا
نقر عينا إذا شاهدت بهجته
بإخلاص بانيه للعلماء والصلحا

---

17) مجلة «العربي» ع : 320/ص : 69، يوليوز 1985.

18) «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان، ج : 1/ص : 226.

19) نفس المصدر، ج : 1/ 226.

وادخل علـى أدب تلق الهـــــداة بـــــه

قـــد قـــروا حكمـا ميــزانهـــا رجحـــا

بـــالبـــاب قـــد بـــدأ الأكـــوان أرخـــه

بعبـد رحمـن بـاب الأزهـــر انفتحـا(20)

***

وكان لكل مسجدا وجامع لمدينة فاس(21) نصيبه من هذا الماء، بل إن كل معهد إسلامي بمدينة فاس يرى الناظر إليه بِرْكة فاخرة من رخام سعة قُسقيتها بطتين من الماء،(22) ويخترق هـذا المعهد جدول مـاء يجري في قناة صغيرة قاعها وخوافيها مبلطة بالرخام وبالمايورقي.(23)

بل إنـــه يوجـــد بيـن مسـاجـد مـدينة فـاس صنـابيـر جميلة جـدا، والمصنـوعـة من رخام، ومـن حجارة أخـرى من التي لا يـرى مثلهـا في إيطاليهـا.(24)

---

20) «عجائب الآثار» للجبرتي، ج : 2/ص : 7.

21) وصف إفريقيا ـ للوزان، ص : 227.

22) البطة : تعادل 4، 933 لترات، أي أن سعة الفستقية كان حوالي : 50.1 لترا.

23) وصف إفريقيـا ـ ص : 232 ـ والمـايورقي نسبة إلى جزيـرة مايورقة التي كـان يحكمها أولاد غانية، وهم من المـرابطين، وهي إحدى جزر «البليار» الإسبـانية. ـ وفي مدينة ميـورقة، يقول ابن اللبَّانة (تـ : 507هـ).

بلـــدٌ أعـــارتـــه الحمـــامـــة طـــوقهـــا

وكســـــاه حلــــةً ريشـــــه الطـــــاووس

فكأنمـــــا الأنهـــــار، فيـــــه مـــــدامـــــةٌ

وكـــان ســـاحـــات الـــديـــاركـــؤوس

وينسب البيتان لابن قلاقس الأسكندري قالهما في مدينة «مِسِّينا» بصقلية، حين زارها، أو لابن حمديس، وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت :

وغمـــرتَ بـــالإحســـان أرض ميـــورقـــةٍ

وبنيـت مـــا لم يبنـــه الأسكنـــدرُ

[نفح الطيب، ج : 1/ص : 169].

24) وصف إفريقيا، ص : 229.

ولما دخل أبـو الحسن المريني تونس، لم يكن عنـده أهم من النظر في ردّ مائها الجاري في القديم إلى الجامع الأعظم، جامع الزيتونة، فأمر بجمع الرصاص وعمله، الطيفور الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضأة.(25)

وقد وصـف بعض هذه المـراحيض الحسن الوزان بأنهـا أبنية مـربعة الشكل تحـوي على طرفيهـا حجيرات ذات أبواب صغيـرة، ويوجـد في كل مرحاض حوض، ويخرج الماء من الجدار، ويجري في ميزابٍ من الرخام...

ولما كان تيار الماء، في فـاس، وعلى عهد الوزان، على قدر، لا بأس به من السرعة، فـإن هذا الماء ينظف المراحيض، ويكسح فضـلاتها وأوساخ المدينـة، ويقذف بها في النهـر، وفي وسط هذا البناء تـوجد بركـة عمقها ثلاثة أذرع، وعرضـها حوالي إثنا عشرة ذراعا.(26)

وقد صنعت مجار حول البركة تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض، وفي هذه المدينة مائة وخمسون مرحاضا من هذا النوع.(27)

وتمتاز بعض المـراحيض المغربية بزخـرفة فنية عالية تعمـل فيها اليد الصناع ما تقوم به في جهات أخرى... وبعضها يمتاز بفنٍّ عال...

ولعل من أحسل المراحيض الموجودة، قديما، في المغرب هو مرحاض المدرسة البوعنانية(28) بمدينة فاس، كمـا أن هناك بعض المساجد(29) في بلاد المغرب، كمسجد السعديين بتارودانت، والجامع الأعظم بأمزميز يكون المـاء فيهـا في فصل الشتـاء سـاخنـا حتى يتسنى للمصلين أن يسبغـوا وضوءهم في اطمئنان...

---

25) المسنـد الصحيح الحسن، ص : 417 ـ 418، لمحمد بـن مرزوق التلمسانـي ـ تحقيق ماريا خيسوس بيغرا.

26) بما أن الـذراع الرومـاني يسـاوي 67 سم، فيكـون العمق حوالـي المترين، والعـرض 7.2م والطـول : 7م.

27) وصف إفريقيا : للوزان، ص : 227 ـ 228.

28) أنظر ص : 88 من كتاب المؤسسات الخيرية لجوزيف لوسيوني : ط : الملكية ـ الرباط.

29) نفس المصدر، ص : 52 ـ 53.

كما توجد قنوات وأحواض مائيــة في مداخل المساجد يستعملها الحفاة الــواردون على المسجـــد لغسل أرجلهم قبل الــدخـــول، وحتى لا يحملــوا الأوساخ إلى الحُصر داخل المسجد.

بل إن الوزان حينما تكلم عن الفنادق الفخمة البنيــان لمدينة فاس قال : «بأنها تتجهز كلها ببــرك ماء... وبمراحيض مع بالوعاتهــا لتفريغ الأقذار.. ولم أرمطلقا، في إيطاليا أبنية مماثلــة، اللهم إلا في معهد الإسبان الموجود في مدينة بولونيا،(30) وفي قصر «الكاردينال» في ديــر الخضر الواقع في روما...

وقــد علق الدكتــور عبد الــرحمن احميدة على هــذا المظهر الحضـــاري الإسلامي والتطور الاجتمــاعي، والرقى الصحي للمدن المغــربية، ولا سيما مدينة فاس، فإن فقــرات الحسن الوزان تعطي فكرة عن الرقي الصحي في المدن الإسلامية القديمــة، كما في دمشق وحلب داخل الأسوار، وهو ما لا يتــوافر، مع الأسف في كثيــر من مــدننا الحــديثــة، ولا سيما في الأحيــاء الأروبية الطراز.

* * *

أما في روما فكان أول من أوجد هذه المــراحيض العامة هو الإمبراطور «فيسباسيان» الذي حكم بين 60 و 79م، وفرض رسومــا معينة على هذه المراحيض العــامة تجبى من الــذين يترددون عليهــا.. ولما اعتــرض ابنه : «تيتــوس(31) على ذلك، مــد يــده لولــده، وفيهـــا قطعــة نقود، وقــال لــه : «شمها!! «الدراهم ليــس لها رائحــة».

---

30) مدينة في شمالي إيطاليا شرق جنوة، سبق للحسن الوزان أن درّس اللغة العربية في معاهدها.

31) تيتــوس Titus. ابن فسيسينــاس هو الإمــراطور الــروماني فــاتح أورشليم (70) اشتهر بحملــه وإحسانه، كان يقول : «لقد فقدت نهاري» إذا ما قضى نهاره، ولم يصنع لأحد خيرا، على أيامه ثار بركان «فيسوف»(79).

الباب السابع عشر :

خوارق كونية مائية

خوارق كونية :

المعجزة هي حدوث شيء ما، من غير تدخل للعوامل الطبيعية فيه، مما يشكل حدوثه خرقاً للقوانين المألوفة لدى الإنسان.

فالله جل وعلا، يضع قوانين الطبيعة لحكمة، ويخرقها لحكمة، وتعالى الله عن العبث في غير معنى، فلا يكون خرقُ القوانين، وخلقُ المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفَهم، ومجرى العادات أمامهم كل يوم..

وفي هذا الباب، نتناول معجزات وكرامات، وخوارق لها علاقة بالماء، وذلك كالمشي على الماء، وفوران الماء من بين أصابع النبي عليه السلام، وتفجير العيون من الصخر، والطوفان، والماء والعرافون.. الخ..

وقد قسمنا هذا الباب، الخاتمة، إلى ثمانية فصول :

الفصل الأول : فَوَرَان الماء من بين أصابع النبي عليه السلام.

الفصل الثاني : تفجير العيون من الصخر.

الفصل الثالث : عبور بني إسرائيل على أرض البحر.

الفصل الرابع : المشي فوق الماء..

الفصل الخامس : الطوفان..

الفصل السادس : الماء لضبط وقياس الزمن.

الفصل السابع : الماء في المنام..

الفصل الثامن : الماء والعرافون.

الفصل الأول :

فَوَرَان الماء
من بين أصابع النبي محمد عليه السلام

تفجيرُ العيـون من الصخر ! والمشيُ فـوق الماء، وعبـورُ بني إسرائيل أرض البحـر، والطوفـانُ الذي كـان في عهد نـوح، ونبعُ الماء من أصـابع رسـول الله محمـد عليه السـلام... تلك عناوين لمعجـزات كونيـة خارقـة للمألوف الذي درج عليـه الناس، وخوارق كونية جـاءت في القديم لتخرق قانون الوجود، ولتؤكد دعوى نبوة رسول من ا لرسل...

فما هي المعجزة(1)؟ وما هي الحوادث التي خرقت القانون؟

إن كل شيء في هذه الحياة تتحكم فيه مجموعة «عوامل» طبيعية تؤدي إلى وجـوده، وإن كافـة الأمور تجـري بأسبابهـا الخاصـة بها، بحيث لـو استطعنا أن نعرف تلك العوامل لاستطعنا أن نتنبأ بها بشكل قاطع...

وهكذا، فالطبيعة تخضـع لنظام ثابت لا يحتمل التقلب مع الهوى، وهذا النظام العـام يشمل كافـة الظواهر الطبيعيـة على أساس أن كل طـائفة من الأسباب المعينة، تقابلها طائفة من النتائج المعينة...

ولولا هـذا الأمر لمـا نشأت العلوم الطبيعيـة أو تقدمت؛ فتـاريخ العلوم يشهد بأنهـا لم تخط خُطُوَاتٍ واسعة في الكشف عن القـوانين الطبيعية، إلا منذ اعتقد الإنسان أن الطبيعة تخضـع لنظام عام ثابت...

فالمعجزة هي حدوث شيء ما، من غير تدخل للعوامل الطبيعية فيه، مما يشكل حدوثُه خرقاً للقوانين المألوفة لدى الإنسان...

ويُقصد من المعجزة، ذلك العمل الـذي تقوم به «إرادة» تلك القدرة التي خلقت في الأسباب السَّبَبِيَّة، وفي النتائج المسببة...

وهل يعقل أن يكون خالق «القوانين الطبيعية» عاجزاً عن خرقها؟

---

1) لمحمد بن البنّاء الأزدي (تـ 721هـ) رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجزة ـ والكرامة ـ والسحر. [جذوة الاقتباس ج : 2 ص : 152].

إن المعجـزة كحـدث طبيعي لإرادة الله، يجب أن تـدرس، وليس علينـا إزاءها إلا محاولةُ فهمها فهما منطقيا.؛ فخالِقُها، خارِقُها...

* * *

المعجزة : هي الأمر الخـارقُ للعادة، المقارن لدعوى الرسـالة المُتَحَدَّى به، قبـل وقوعه الذي يعجـز من يبغي معارضته عن الإتيـان بمثله، فهي أمور خارقة، أي غير خاضعة لناموس الكون، ولا لقانون الوجود، فالكون، له قانـون يسير عليه، فإذا جاء أمـرٌ خارج ذلك القانـون، فنقول، إن هناك حادثـةً جـاءت وخرقـت القـانون، وما دامت خـرقت القانـون، فنتساءل، كيف يخـرق القانـون؟ بـديهي أنه لا يمكن أن يخـرق القـانون، إلا خـالق القانون...

وما الفرق بين قـانون الإنسـان، وقانون الحق سبحانـه وتعالى؟ أجاب عن هـذا السؤال فضيلـة الشيخ محمد متـولي الشعراوي في حـديث أذيع بالتلفزة المغربية حيث قـال : «...إن الإنسـان يملك أن يطلق القانون أو... لا يُطلقه، ولكنـه إذا أطلق القانـون، فلا يملك أن يتحكـم فيه، فإذا كـان هناك إنسانٌ يجيد أن يُصيب الهدف، ومعه بندقيةٌ سليمة، وفيها الرصاصة، وهو يُحسن التصويب، فإن له أن يصـوب ويطلق أو... لا يصوب ولا يطلق، هو مختار في هذا، ولكنـه حين يضـع يده على الزِّنَاد، ويطلق الـرصاصة على الهدف، وهو يجيد التصويب، فـلا يستطيع أن يتحكم في الرصاصة ليقول لها : «يارصاصة، لا تصيبي الهدف...» فقـد خرج القانون من يده... ولكن الحق سبحـانـه يطلق القـانـون، ويقـول للقـانـون، «قف ولا تفعل...» إذن فالمعجزة هي خرق لنواميس الكون، وخـرقٌ لقوانين الوجود تدلني على أن الـذي فعل ذلك، هو الـذي خلق النامـوس، وخلق الـوجود، وخلق قـوانين الوجود، ولكن هـذا الخرق إن كان أمراً ماديا، يحدث مَـرَّة واحدة،.. ثم قال الأستاذ محمد متولي الشعراوي :

إذا كان التاريخ والسيرة تحدثنا بأن معجزاتٍ حدثت كنبع الماء من بين أصابعه عليه السلام أو حنين الجِذْع، وكإشباع جيش أو عدد كبير بحفنات من طعام وغير هذا، إذا حدثنا بهذا نقول للمسلم : «استقبلها بما ياتي أو لا لست أنتَ الغائب عن المعجزة المقصود بهذه المعجزة، وإنما المقصود بها هومنْ رآها، لأنهم كانوا في بداية الإسلام، وفي حاجة إلى تثبيت، وهذا التثبيت يحدث في فترات... القوم الذين شاهدوا هذا... شاهدوا أن ماءً نبع مِن بين أصابعهﷺ... أيمكن أن نقول لهم : لا، لم ينبع، لا... فهو قد نبع، والمراد تثبيت يقينهم هم، أما أنا، فالقرآن كافيني حقا...

* * *

قدرة الله تفوق كل العقول :

وليست المعجزات، بالقياس إلى قدرة الله، خالق الكون إلا كالمألوفات التي تجري بها العادات في كل يوم، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها، فالذي خلقنا وخلق خصائصها، يملك تغييرها وتبديلها، وياتي بالمعجزات كما ياتي بالمنظور المطرد من النواميس والعادات...

فالرسولُ محمد عليه السلام، هو البشَر الوحيدُ الذي فُتِحَتْ له أبوابُ السماء، حتى وصل إلى سِدْرَةِ المنتهَى بالجسد والروح معا... فإن كان الإسراءُ آيةً أرضية من مكةَ المكرمة إلى بيت المقدِس... فالمرادُ بها أنْ يتأكدَ الناسُ أن الله تعالى قد خرق قوانين الأرض لرسول الله ﷺ، وأن الله قادِرٌ على أن يخرق له، أيضا، قانونَ السماء، فالزمان والمكان هما من خلق الله سبحانه وتعالى.

فقدرة الله تفوق كل العقول التي تحكم العقل والمنطق....

* * *

وعقيدتنا في ذلك عقيدة الإمام الغزالي رحمهُ الله حيث قال غير ما مرة : «إن الحوادث تجري عند حصول الأسباب، ولا تجري بحصول تلك الأسباب، فليس خصائص المادة من فعلها وإرادتها، ولكن المادة

وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الإلاهية التي تسخر كل شيء بمقدار...

فالله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة، ويخرقها لحكمة، وتعالى الله عن العبث في غير معنى، فلا يكون خرق القوانين، وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفهم، ومجرى العادات أمامهم كل يوم...

* * *

وقد تكلم العلماء عن المعجزات، وعقدوا لها الأبواب والفصول، وبمستويات مختلفة، ونظريات متفاوتة، وأثرت على الفكر الإسلامي حتى كانت موضع الأخذ والرد، وسيطرت على الفلسفة الإسلامية... لهذا نرى الإمام الغزالي برده على الفلاسفة من المسائل التي أثارها عليهم العشرين هي المعجزات، ونظرية السببية... فقد هاجم الإمام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة»، ونرى ابن رشد الحفيد يرد على الإمام الغزالي مدافعا عن الفلاسفة في كتابه : «تهافت التهافت»... ومثار الخلاف في مسألة المعجزات بين الإمام الغزالي والفلاسفة، هو الخلاف بينه وبينهم في نظرية السببية الطبيعية حيث أخذ عليهم القول بالأسباب الطبيعية، والتلازم الضروري فيها وبين مسبباتها لما يترتب عليه، بل لما رتبوه بالفعل، كما يقول رواية عنهم عن إنكار المعجزات التي يثبتها القرآن للأنبياء عليهم السلام، فالفلاسفة، ومن تأثر بهم سلفاً وخلفاً ينظرون إلى المعجزات بعدم جواز إمكان وقوعها بناء على الأسباب الطبيعية، وضرورة التلازم بينها وبين مسبباتها...

ولذلك اضطروا إلى تأويل آيات القرآن في المعجزات، تأويلا يخرجها عن ظاهرها، ولا يتمشى مع الحق والواقع ليخرجوها من دائرة المعجزات إلى دائرة التمثل والتشبيه لمعان لا تتفق والواقع.

الكرامة(2) :

الكرامـات، هي للأوليـاء والصالحين، «وكـرامات الأولياء حـق» كما في «جمع الجوامع» لابـن السبكي، وهي في الحقيقة معجزات لمتبـوعهم وشي كما قال البوصيري في همزيته :

والكـــرامـــاتُ منهم معجـــزاتٌ

نَـــالَهَـــا من نَـــوَالِكَ الأوْلِيَـــاءُ

والكرامة متواترة في الجملة عن الصحابة وغيرهم، وإن كانت التفاصيل آحاداً، كجريان النيل بكتاب عمر، كما تقدم.

وممـا رواه آلاف العلمـاء وشـاهدوه من أوليـاء، وكـرامـات لهم تفـوق الحصر، ومن ذلك ما روي أن الملائكـة كانت تسلم على عمران بن حصين رضي الله عنه، وأن سلمـان الفارسي، وأبَا الدرداء رضي الله عنهمـا كانا يأكلان في صحفة، فسبحت الصفحة أو الطعام فيها، وأن خُبيباً رضي الله عنه كان أسيـراً عند المشركين بمكة، فكان يـوتى بعنبٍ يأكله، وليس بمكة من عنب، وأن البراء بن عـازب رضي الله عنه، كـان إذا أقسم على الله في شيء استجاب الـله له، حتى كان يـوم القادسيـة، أقسم على الله أن يمكن المسلمين من رقاب المشـركين، وأن يكون أول شهيـد في المعركـة، فكان كمـا طلب، وأن عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه كـان يخطب على منبـر رسول اللهﷺ بالمدينة، فإذا به يقول : «يا سارية الجبل! يا سـارية الجبل! يوجه قائد معـركة يقال له : سـارية، فسمع ساريـة صوته، وانحاز الجيش

2) ألفت في الكـرامات كثير من الكتب، نـذكر منهـا على سبيل المثال، لا الحصـر : «جامع كـرامات الأولياء» للنباهي، «وتحفة الأحباب، في الكلام على الأولياء» للسخاوي، «ونسمات الأسحار، في كرامات الأولياء الأخيار» للشيخ علوان الحمـون، و«حلية الأولياء في الحديث» للحافظ أبي نعيم الأصبهاني (تـ : 430هـ) مجلد ضخم، واختصره ابن الجوزي اختصـارا حسنا؛ و«حلية الأولياء في طبقاتهـم»، لإبراهيم بن بشار، و«حليـة الرجـال،،في الأقطاب والنجبـاء والأبدال»، و«كـرامة الأولياء» لأبي محمـد الخلال». انظـر: «فصل جامع لأنـواع الكرامـات»، التشوف ص: 74، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عُرِف بابن الزيات (تـ: 617هـ).

إلى الجبل، فكان في ذلك نصرهم، وانهزام أعدائهم من المشركين، ورجع سارية، فأخبر عمرَ والصحابة بما سمع من صوت عمر رضي الله عنه، وأن العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان يقول في دعائه : يا عليم يا حكيم... يا علي، يا عظيم، فيستجاب له، حتى إنه خاض البحر بسرية معه، فلم تبتل سروج خيوله، وأن الحسن البصري دعا الله على رجل كان يؤذيه، فخر ميتا في الحال، وأن رجلا من النخع، كان له حمار، فمات له في طريق سفره، فتوضأ وصلى ركعتين، ودعا الله عز وجل، فأحيا له حماره، وحمل عليه متاعه، إلى غير ذلك من الكرامات التي لا تعد ولا تحصى، والتي شاهدها آلاف الناس...

* * *

وقد كثرت الكرامات فيما بعد زمن الصحابة والتابعين... وكتب المذهب كالحلية لأبي نعيم، وغيرها متضمنة لكثير منها، ولا يلزم من ذلك فضل من بعدهم عليهم، لأن الكرامات، من توابع المعجزات، فتؤكد الإيمان بما جاءت به الرسل وتقويه... والأوائل من الصحابة والتابعين لهم كانوا مستغنين بنور النبوة وقربهم من زمنها، بخلاف غيرهم، فكثرت على أيديهم الكرامات تقوية لقلوب أصحابهم، ومعاصريهم ممن لم يبلغ رتبتهم... ثم جمهور أهل السنة، أن كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي...(3)

قال إبراهيم اللَّقاني رحمه الله :

وأَثبِتَنْ لِلأولـيـا الكرامـة ۞ وَمَنْ نَفَاهَا، فَانبِذَنْ كَلاَمَهْ

وقال القشيري : «الكرامات تكون خارقة، ولكن لا تنتهي إلى حصول الإنسان بلا أبوين أو قلب جماد بهيمة أو نحو ذلك...

3) انظر «منهاج المسلم» لأبي بكر الجزائري، ص : 56ـ57.

قال ابن حجر من شرح البخاري، وهو أعدل المذاهب، واعترضه الزركشي في شرح جمع الجوامع بأنه ضعيف، قائلا : «والجمهور على خلافه، وقد أنكره عليه حتى ولده أبو نصر في كتابه «المرشد»، وإمام الحرمين في «الإرشاد»، والنووي في «شرح مسلم».

* * *

نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام :

قصة نبع الماء وتكثير الطعام رواها الثقات، والعدد الكثير، عن الجَمَّاء الغفير، عن العدد الكثير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافّة عن الكافّة، متصلا عمّن حدَّث بها من جملة الصحابة وأخبارهم، إن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق، وفي غزوة بُوَاط، وعُمْرَةَ الحُدَيْبِيّة وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين، ومجمع العساكر، ولم تؤثر عن أحد من الصحابة، كما قال القاضي عياض في «الشفا» مخالفة للراوي فيما حكاه، ولا إنكارٌ عما ذُكر عنهم أنهم رأوه، كما رواه، فسكوتُ الساكتِ منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوتِ على باطل، والمداهنةِ في كذبٍ، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكراً عندهم، وغير معروف لديهم لأنكروه، كما أنكر بعضُهم على بعضٍ أشياء رواها من السنن والسِّير وحروف القرآن، وخطَّأ بعضُهم بعضا، وَوَهَّمه في ذلك مما هو معلوم، فهذا النوع كله يُلحق بالقطعي من معجزاته عليه السلام لما بيناه، وأيضا؛ فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وبُنِيت على باطل، لا بد مع مرور الأزمان، وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف ضَعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهدُ في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف الطارئة...».

ففي الصحيح عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه، عطش الناسُ يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديهُ رَكْوَة، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا : «ليس عندنا ماء، إلا ما في رَكْوَتِك، فوضع النبي ﷺ

يدَه في الركـوة، فجعل الماء يفور من بين أصـابعه كأمثال العيـون، وفيه فقلت : كم كنتم؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة...

* * *

وفي رواية الوليـد بن عبادة بن الصامت عنه في حـديث مسلم الطويل في ذكر غـزوة بُوَاط، قال : قـال رسول اللهﷺ : يا جـابر : نادِ الـوضوء، وذكـر الحديث بطـوله، وأنـه لم يجد إلا قطـرةً في عَزلاَءَ شَجْب، فأتي بـه النبيﷺ، فغمزه، وتكلم بشـيء لا أدري ما هو، وقـال، نادِ بجفنـَة الركب، فأتيتُ فوضعتُها بين يديه، وذكـر أن النبيﷺ بَسَط يده في الجفنة، وفرّق أصابعه، وصبّ جابر عليه، وقال : بـاسم الله. قال : فرأيتُ الماءَ يفُور من بين أصـابعـه، ثم فـارت الجفنـة واستدارت، حتى امتـلأت، وأمـر النـاس بالاستقاء، فاستقوا حتى رووا، فقلت، هل بقي أحـدٌ له حاجة، فرفع رسول اللهﷺ يَدَه من هذه الجَفنة وهي ملأى...»

وإن الجهال تظن أن الماء كان يشق الأصـابع ويخرج من خلال اللحم والدم، وليس كذلك، وإنما بوضعه أصابعه الكريمة فيه حلّت فيه البركة من الله والمَـدَدَ، فجعل يفور حتى خـرج من بين الأصابع، وقـد جرى لـه هذا مرارا عديدة بمشـهد أصحابه.

* * *

وقد ذكر الواقدي عن بعض بني المصطلق أنه قدم على رسول اللهﷺ وفدُ صـداء، وذلك أنه لمـا انصرف من الجِعـرَّانة، بعـث بُعُوثاً؛ وهيـأ بعثا استعمل عليه قيس بن سعد بن عُبَادة، وعقـد له لواءً أبيضَ، ودفع إليه راية سـوداء، وعسكر بنـاحية قنـاة في أربعمائة من المسلمين، وأمـره أن يطأ ناحيـة من اليمن كـان فيها صداء؛ فقـدِم على رسول اللـهﷺ رجل منهم، وعلم بالجيش... فأتى رسول الله، فقـال يا رسول الله : «جئتك وافداً على مَن ورائي، فاردُدْ الجيش وأنـا لك بقومي...» فَرَدّ رسـول اللهﷺ قيسَ بن

سعد من صدر قناة، وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلا منهم، فقال سعد بن عبادة : «يا رسول الله، دعهم ينزلوا علي، فنزلوا عليه، فحياهم، وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام، فقالوا : «نحن لك على مَن وراءنا من قومنا» فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع...

* * *

ما أدركنا لها قعرا حتى الساعة :

ذكر عن حديث زياد بن الحَرث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ، فقال له : «أردد الجيش وأنا لك بقومي» فردهم، قال : وقدم وفد قومي عليه، فقال لي يا أخا صداء : «إنك لمطاع في قومك» قال : «قلت بلى يا رسول الله مَنّ من الله عز وجل ورسوله»... وكان زياد هذا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، قال، فاعتشى رسول الله ﷺ أي سار ليلا، واعتشينا معه، وكنت رجلا قويا، قال : فجعل أصحابه يتفرقون عنه، ولزمت غرزه، فلما كان في السحر، قال : «أذن يا أخا صداء» فأذنت على راحلتي، ثم سرنا حتى ذهبنا، فنزل لحاجته، ثم رجع، فقال : «يا أخا صداء، هل معك ماء؟» قال : «فقلت معي شيء في الإداوة» فقال : «هاته» فجئت به، فقال : «صب» فصببت ما في الإداوة في القعب، فجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء، فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور، ثم قال : «يا أخا صداء، لولا أني أستحي من ربي عز وجل سقينا واسقينا» ثم توضأ، وقال : «أذِّن في أصحابي، من كانت له حاجة بالوضوء، فليرد» قال : «فوردوا عن آخرهم» ثم جاء بلال يقيم، فقال : «إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم» فأقمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ، فصلى بنا، وكنت سألته قبل أن يؤمرني على قومي، ويكتب لي بذلك كتابا، ففعل، لما فرغ من صلاته، قام رجل يشتكي من عامله، فقال : «يا رسول الله، إنه أخذنا بدخول كانت بيننا وبينه في الجاهلية!» فقال رسول الله ﷺ :

«لا خير في الإمارة لرجل مسلم» ثم قام آخر؛ فقال : «يا رسول الله أعطِني من الصدقة» فقال رسول الله : «إن الله لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب، ولا نبي مُرْسَل، حتى جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت جزءاً منها، أعطيتك، وإن كنت غنيا عنها فإنما هي صُدَاعٌ في الرأس، وداء في البطن» فقلت في نفسي : «هاتان خصلتان حين سألت الإمارة، وأنا رجل مسلم، وسألته من الصدقة وأنا غني عنها» فقلت : «يا رسول الله، هاذان كتاباك فاقبلهما» فقال محمد عليه السلام : «ولم؟» فقلت : «إني سمعتك تقول : «لاخير في الإمارة لرجل مسلم، وأنا مسلم، وسمعتك تقول من سأل عن الصدقة وهو غني عنها، فإنما هي صداع في الرأس، وداء في البطن وأنا غني» فقال النبي عليه السلام أما إن الذي قلت كما قلت فقبلهما رسول الله ﷺ، ثم قال لي : «دُلَّنِي على رجل من قومه استعمله» فدللته على رجل منهم، فاستعمله، قلت «يا رسول الله، إن لنا بئرا، إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإذا كان الصيف قل علينا» فتفرقنا على المياه، والإسلام فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرنا، فقال النبي عليه السلام : «ناولني سبع حصيات» فناولته فعركهن بيده، ثم دفعهن إلي، وقال : «إذا انتهيت إليها، فألق فيها حصاة حصاة وسم الله» قال، ففعلت فما أدركنا لها قعرا حتى الساعة...

* * *

قال زين الدين عبد الرحيم العراقي في الفية السيرة :

ونَبَعَ المـاء فجـاش كثـرة

من بين أصبعيه غير مرة

فنبع الماء من بين أصابع النبي عليه السلام في مواطن متعددة، كما ذكرنا... وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر، كما وقع لموسى

عليه السلام، فإن ذلك من عادة الحجر في الجملة، وأمّا من لحم ودم، فلم يعهد من غيره عليه السلام.(4)

* * *

ولا يمكن التحدث عن هذه المعجزة، إلا على وفق الصدق حذراً من التكذيب، وإنما حصل للنبي اللهﷺ أولا الماء القليل، أو الطعام القليل، ثم كثره، ولم يخترع من بدء الأمر من العدم إلى الوجود الماء الكثير، أو الطعام الكثير، مراعاةً للأدب بحسب الظاهر، ليعلم أن الموجد هو الله، وإنما حصلت البركة بسب النبي عليه السلام، وإن كان التكثير، أيضا، في الحقيقة من جانب الله كالإيجاد.(5)

ورحم الله شرف الدين محمد البوصيري في همزيته إذ يقول :

أو بتقبيل رَاحــــةٍ كــان للـــ
ـــه، وبالله أخذُها والعطاءُ

تتقي بأسَهـا الملــوكُ، وتحظى
بالغنــا من نــوالها الفقــراء

لا تسل سيل جودِها، إنما يكـ
ـفيك من وَكْفِ سُحْبِها الأنداءُ

درّت الشــاةُ حين مـرّت عليها
فلها ثـــروةٌ بها ونَمَــاء

نَبع المـاءُ، أثمـر النخلُ في عـا
مٍ بها، سبَّحَت بها الحصباء

أَحْيَتِ المُرملين من موت جهدٍ
أعــوز القــومَ فيه زاد وماء

4) «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي ج : 2/481.

5) المصدر السابق ج : 2/484.

فتغـذى بـــالصّـــاعِ ألـــفٌ جيــاعٌ
وتـــروّى بـــالصـــاع ألفٌ ظمــاءُ

تفجير الماء ببركة الرسول محمد عليه السلام :

قال القــاضي عياض في الشفا : «وممــا يشبه هذا من معجزاتــه تفجير الماء ببركته وابتعاثه بمسه وَدَعْوَتِهِ...

وروى مالك في المــوطأ عن معاذ بن جبل في قصة غـزة تبوك، وأنهم وردوا العين، وهي تَبَضُّ بشيء، ثم غسل رســول اللــهﷺ وجهــه، ويديــه وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس...

قــال في حديــث ابن إسحاق : «فــانخــرق من الماء مَــالَــهُ حِس كحِسِّ الصواعق ثم قال : «يوشك يا مُعاذُ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملىء جنانا...

وعن أبي قتادة، وذكــر أن الناس شكوا إلى رســول اللهﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيضَــأة ـ آلــة الوضــوء ـ فجعلها في ضِبْنِهِ، ثم التقم فَمَها، فاللهُ أعلم نفت فيها أم لا، فشــرب الناس حتى رووا، وملأوا كل إناء معهم، فخيل إليَّ أنها كما أخذها مِنّي، وكانوا اثنين وسبعين رجلا.

* * *

ومما يــروى من بركــة يخلف بن خزر الأوربي الفقيــه المدرس المفتي بمدينــة فاس أنه قعد بمــوضــع عين أبي خزر،(6) من مدينــة فاس، وليس هناك ماء لوضوئه، فلم يجده، فركز عكازه بالأرض، وجذبه، فخرجت هناك عين ماء ثرة عذبة، فسميت العين به، فقيل : «عين أبي خزر.»(7)

6) تقع هذه العين بحومة «روس الرحى» قرب مجمع الدولــة، وماؤها هو الواصل إلى زاوية سيدي عبد القادر الفاسي بمدخل حومة القلقليين. انظر : ترجمة أبو خَزَر ابن خَزَر الأوربي، «التشوف إلى رجال التصوف» ص : 177 – وترجم له ابن القاضي في الجذوة ص : 561.

7) أنظر : ج : الاقتباس ج : 2/ص : 561، ـ وسلوة الأنفاس ج : ـ 2/ 49.

الفصل الثاني :

تفجير العيون من الصخر

كان الصخر والحجر في العهد القديم(1) يرمز إلى المعاني الدالة على الطمانينة والالتجاء، والقوة الحامية النافعة، ونحو ذلك من المعاني، حيث يأخذ بعضُ عناصر الطبيعة في العهد القديم مفهوماً خاصاً، إذ له تاريخٌ طويل مع بني إسرائيل، فقد كان آية لهم حين انبجست منه اثنتا عشرة عينا!! شرب منها أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر... فكان هذا المفهوم يتكرر في العهد القديم بين الحين والآخر، فمن مثل ذلك ما ورد في المزامير(2) أن الرب : «شق صخوراً في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة ـ أخرج مجاري من صخرة، وأجرى مياهها كالأنهار... قالوا : هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية... هو ذا ضرب الصخرة، فجرت المياه، وفاضت الأودية»(3)

يقول الدكتور «غوستاف لوبون» في كتابه،(4) وهو يشير إلى علاقة الحجر بعقيدة العبرانيين : «وقد مثل يهوه في تابوت العهد، بحجرين سقطا على الصحراء، تحت نظر بني إسرائيل المبهوتين»؛

والصخر والحجر في القرآن يأخذ مفهوما مغايراً، تماماً، لذلك المفهوم القديم... فالحجر في كتاب الله يقترن حديثه بالقسوة في الغالب، ويكون عنصرا هامّاً في صور العذاب الدنيوية، والأخروية فيه... ومما ورد فيه من

---

1) يطلق «العهد القديم» على الأناجيل الأربعة : متى ـ مرقص ـ لوقا ـ يوحنا ـ، وأعمال الرسل، ورسائل الرسل : بولص ـ يعقوب ـ وبطرس ـ ويوحنا ـ ويهودا ـ ورؤيا يوحنا.

2) المزامير. سفر هي مجموعة 150 نشيداً تؤلف سفرا من العهد القديم، تنسب إلى سيدنا داود النبي الملك، ولكن غير محتمل يكون هو مؤلف المجموعة كلها، ولسفر المزامير الشأن الرفيع في صلوات ورتب الكنائس المسيحية.

3) مزامير 78 : 14 ـ 20.

4) «اليهود في تاريخ حضارات العبرانيين» الأولى ص : 68 ترجمة عادل زعيتر.

الدلائل على الانتفاع بالحجر، وكونــه من النعم الإلاهية في ظروف خاصة، فإنمـا كان إخبـاراً عن الأمم السالفـة... أما مفهـومُهُ الـذي جاء بـه القرآن، وخـاطب به العـرب، فلم يخرج عمـا بينـا آنفا، واقتـرانه بـالنعمة والـرزق والمنفعة، إنما كـان عند الحديث عن بني إسرائيل الذين جعل اللـه سبحانه لهم عيـونا تجـري من حجر كـان موسى عليـه السلام يضـربه بعصـاه، فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا، يشرب منها الناس، وينعمون بها، إلا أنهم لم يكونوا بمستوى ذلك الإنعام الربّـانِي، بل كانوا ينكصون من حين لآخر ما يُسخِط الباري عز وجل.

* * *

إن الحجر والصخر في القرآن يأخذ مفهوما مغايراً للمفهوم القديم، فهو في كتاب الله يقتـرن حديثه بالقسوة، وصور العـذاب، ولنقرأ بعض الآيات التي تشير إلى هـذا المفهوم، يقول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿**فاتقوا النار التي وقودهـا الناس والحجارة**﴾(5) وقولـه تعالى : ﴿**ثم قست قلوبكم، فهي كالحجـارة أو أشد قسوة**﴾،(6) و﴿**إن من الحجارة لمـا يتفجر منه الأنهار**﴾(7) وقوله : ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء**﴾،(8) ﴿**جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضـود**﴾،(9) ﴿**فجعلنـا عاليهـا سافلهـا، وأمطرنـا عليهم حجارة من سجيل**﴾،(10) ﴿**قل كونـوا حجارة، أو حـديدا أو خلقـاً مما يكبر، في صدوركم**﴾(11) بمعنى، أنكم لو كنتم حجـارة أو حديـداً لأعادكم

---

5) سورة البقرة، رقم الآية : 24.
6) سورة البقرة، رقم الآية : 74.
7) سورة البقرة، رقم الآية : 74.
8) سورة الأنفال، رقم الآية : 32.
9) سورة هود، رقم الآية : 82.
10) سورة الحجر رقم الآية 74.
11) سورة الإسراء، رقم الآية : 50.

كما بـدأكم، ولأماتكـم، ثم أحياكم، أي كـونوا مـاشئتم، فستعادون، وقـوله تعالى : ﴿**قالوا إنا أرسلنا إلى قـوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة**﴾(12) ﴿**قوا أنفسكـم وأهليكم ناراً وقـودها النـاس والحجارة**﴾،(13) ﴿**وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل**﴾.(14)

* * *

يقصـد بالحجـارة في بعض هذه الآيـات والتي يـراد بها العـذاب هي حجارة الكبـريت الأسود، وخصـت بذلك، لأنها تـزيد على جميـع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب :

1 ـ سرعة الاتقاد.

2 ـ نتن الرائحة.

3 ـ كثرة الدخان.

4 ـ شدة الالتصاق بالأبدان.

5 ـ قوة حرِّها إذا حميت...(15)

* * *

والحجارة، هي جمع حجر، والمـراد بها، الأصنام التي نَحَتُوهـا، وقَرَنُوا بها أنفسَهم، وعبَدُوها طَمَعاً في شفاعتها، والانتفاع بها، واستدْفَاعِ المَضَارِّ بمكانتِهـا، ويدل عليه قولـه تعالى : ﴿**إنكم ومـا تعبدون من دون اللـه حَصَبُ جهنم**﴾، عُذِّبـوا، فما هـو منشأ جرمهم، كما عـذب الكافـرون بما كَنَزُوه، أو بنقيض ما كانوا يتوقعون، زيادة في تحسيرهم.

---

12) سورة الذاريات، رقم الآية : 33.

13) سورة التحريم، رقم الآية : 6.

14) سورة الفيل، رقـم الآية : 4، والسجيل، الشديـد الكثير، والسجيل، والسجين الشديـد من الحجر والضَّـرْب، قال ابن مُقبل :

ورجلـةٍ يضـرِبـون البَيض ضـاحيـةً
ضَـرْبـاً تَـوَاصَى بـه الأبطـال سجينـا

15) القرطبي، ج : 11/235.

فالحجارة والأصنام التي عبدوها، يعذب بهـا المشركون الذين عبدوها، فتكون زيادة في غمهـم وحسرتهم، فنار جهنم، وقودهـا الناس والحجارة، تلك الحجارة يرمى بها في النار توبيخاً للكفار حيث عبدوها، وهي جماد لا تضر ولا تنفع...(16)

فـالصورة القـرآنيـة، إذا في جمع النـاس والحجارة في جهنم المتقـدة، معبرة عن مفهوم جديد، هذا المفهوم مـوجه لكسر مفهوم قديم، يرتكز على تعظيم الحجارة وتقديسـها، والنظر إليها ميثـولوجيا... وصدق الله العظيم : **﴿إنكم وما تعبـدون من دون الله، حَصَبُ جهنم، أنتم لهـا واردون، لو كان هـؤلاء آلهة، ما وردوها، وكل فيهـا خالدون، لهم فيهـا زفير، وهم فيها لا يسمعون﴾**.(17)

وقوله تعالى : **﴿إنكم وما تعبدون﴾** قال ابن عبـاس : آية لا يسـألني الناس عنها! لا أدري أعـرفوها، فلم يسألوا عنها، أو جهلوهـا، فلا يسألون عنها؛ فقيل : ومـا هي؟ قال : **﴿إنكم وما تعبـدون من دون الله حَصَبُ جهنم أَنتم لها وَارِدُون﴾** لما نـزلت شقَّ على كفار قريش، وقـالوا : شَتَم آلهتَنا، وأتَـوا عبدَ الله بنَ الـزِّبَعْرَى، وأخبروه، فقـال : لو حضرتـه لرددت عليه، قالـوا : «وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول لـه : هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عُـزَيرا، أفهما من حَصَبِ جهنم؟ فعجِبَتْ قريش من مقالتِـه، ورأوا أن محمداً قد خُصِم؛ فأنزل اللـه تعالى : **﴿إن الذين سبقت لهم منا الحُسْنَى، أولئك عنها مُبْعَدُون﴾** وفيه نزل : **﴿ولما ضُرِبَ ابن مريمَ مثلا﴾** يعني ابن الزبَعْرَى، **﴿إذا قومُك منه يَصِدُّون﴾** بكسر الصاد، أي يضجون...(18)

* * *

---

16) «تفسير البيضاوي» 1/51.

17) سورة الأنبياء، رقم الآية 98 ـ 100.

18) تفسير القرطبي ج : 11/ص 343.

وكان لا يظعن من مكـة ظاعن، إلا احتمل معه حجراً من حجـارة الحرم تعظيما للحرم، فحيثما حلوا، وضعوه وطَافُوا به كطوافهم بالكعبة صَبَابَةً بها وَحُبّاً، وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار...

وكان لمـالك ومِلْكَان ابنَيْ كنانـة بساحل جدة صنمٌ، يقـال هل «سعد»، وكان صخرة طـويلة يعظمها الجاهليون، ويقـدسونها، فأقبل رجل من بني مِلْكَان، بإبل له مُؤَبَّلَة ليقفها عليه، ابتغاء بركته، فيما يزعم، فلما أدناها منه ورأتْهُ، وكـان يُهْرَاق ويصب عليه الدِّمـاء، نفرت منه، فـذهبت من كل وجه، فغضب ربُّها، فتناول حجرا، فرماه به، وقال :

«لا بارك اللـه، فيك، إلاها، أنفـرت على إبلي، ثم خرج في طلبهـا، حتى جمعها، ثم انصرف منشداً وهو يقول :

أتينـــا إلى «سعـــد» ليجمع شملنـــا
فشتتنـا «سعـد»، فـلا نحن من «سعـد»

وهل «سعـــد» إلا صخـرة بتَنُـوفَـة[19]
من الأرض، لا يـدعـو لغي ولا رشـــد

* * *

ولمـا استسقى مـوسى عليـه السـلام لقـومـه، أمـر أن يضـرب عنـد استسقائه بعصاه الحجر، قيل مربعا، من الطور، على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جُـوالق، ويُرحل به، فـإذا نزلـوا، وُضع في رأس محلتهم... وذكر أنهم لم يكونـوا يحملون الحجـر، لكنهم كانوا يجـدونه في كل مـرحلة في منزلتـه من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآيـة والإعجاز.؛(20) وقد كان تعـالى قادرا على تفجيـر الماء وفلق الحجـر من غير ضـرب، لكن أراد أن

19) التنوفة : المفازة والقفر من الأرض، وقيل الأرض الواسعة لا ماء فيها ولا أنيس، ج : تنائف.

20) تفسير القرطبي، ج : 12 ص : 420.

يـربط المسببات بـالأسباب، حكمـة منه للعبـاد في وصولهم إلى المُـراد، وليرتب على ذلك ثوابَهم، وعقابهم في المعاد...(21)

وما أوتي نبينا محمدﷺ من نبع الماء، وانفجاره من يده، وبين أصابعه أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار، آناء الليل، وأطراف النهار، ومعجـزة نبينا عليـه السلام لم تكن لنبـي قبل نبينا عليـه السلام، يخرج الماء من بين لحم ودم...

روى الأئمـة الثقات، والفقهـاء الأثبـات، عن عبـد الله، قـال : كنـا مع النبيﷺ، فلم نجـد ماءً فأُتِـي بتَوْر،(22) فأدخل يـده فيه، فلقد رأيـت الماء يتفجر من بين أصابعه، ويقول : «حي على الطهور» قال الأعمش، فحدثني سـالم بن أبي الجعـد، قـال : قلت لجـابر : كـم كنتم يومئـذ، قـال : ألفـا وخمسمائة.(23)

لا تخش يـابن رسـول اللـه من حجـر
رأى المكـارم في كفيك، فـانفجـرا
فـإن سعـدَك سعـدٌ لا نظيـر لـه
فـاق السعـود، فأضحى يفلق الحجـرا

* * *

لقـد ألِفَ بنو إسـرائيل وثنية المصـريين، وقلدوهم في عبـادتهم، ولم يـومن بموسى، إلا ذريـةٌ من قـومِه على خَـوْفٍ من فـرعونَ وَمَـلأَهِمُ أن يفتنهم... ولم تكن المعجزات والعجائب التي ضرب الله بهـا فرعون وقومه لتصدهم حتى يَـرْعَوُوا عن غَيِّهم، ويَـؤُوبُوا إلى رشـدهم، وينصاعـوا لأمر مـوسى، وينزلـوا على حكمه... وهكـذا لقي موسى عليـه السلام الأَمَـرَّيْن

21) المصدر السابق ج : 1 ص : 419.
22) التَّوْرُ : إناء من صفر، أو حجارة يشرب منه، أو يتوضأ.
23) القرطبي : ج : 1/ 421.

والعَنَت والعِنـاد فـي إنقـاذهم من العـذاب المُهِين، وتحمـل في سبيل ذلك الإهانة والسخـرية، والتهديد بـالقتل والتكذيب، ورمي بأنه سـاحر مجنون، وقد ألقى على فرعون وقومه الدروس والعظات، ورأى قومه الآيات البينات من انفـلاق البحر لهم حتى جـازوه، على يَبَس قـاعِه لم تبتل أقـدامهم ولا بغالُهم، ولم يفقدوا نقيراً ولا قطميرا...

لما جاز قـومه البحر، وجاؤا إلى الشاطىء الشـرقي لم يجدوا ماء ينقع غلتهم، ويبل صداهم، وتسقى به داوبهم ومواشيهم، فَرِيعَ الآمِن، واستُطِير السّاكِن، وذَهِلت العقول فَـزَعاً، وذابت الأكبادُ جزعـا، ومنعت السماء دَرَّها، وأرسلت ذُكاءُ حَـرَّها، ففـزعوا إلى موسى متـذمرين متألمين، طـالبين منه السُّقيا، فأمـره الله أن يضـرب الحجر بِعَصَاه، فلمـا ضَرَبـه، انبَجَسَتْ منه اثنتا عشـرة عينا، لكل مـن الأسباط(24) عين تجري بـالماء العـذب الزلال يشرب منهـا... قال ابن عطية : ولا خلاف أنـه كان حجرا منفصلا مـربعا، تَطَّرِدُ من كل جهة، ثـلاث عيون إذا ضربه مـوسى، وإذا استغنوا عن الماء وَرَحَلُوا جفَّتِ العيـون. وما زالت هذه العيون مـوجودة بالبر الشـرقي غير بعيدة من مـدينة السـويس تعرف «بعيـون موسى» إلا أن مـاءه قل اليوم، ونضب معينهـا، بل إن بعضـها طُمست آثـاره، وعفت معالمه، ويـزرع على تلك المياه بعض النخيـل، وقـد حصل ضرب الحجـر لانبجاس المـاء منه عدة مرات...

ويريد اللـه بذكر الحجر، وضـرب موسى له بالعصـا أن يقرع العقول، وينبه الأذهـان، ويثير الحماس، ويلفت الأنظـار لتدرك السـر المصون في الطبيعة الكـامن في الأحجار، وهـذا السِّرُ هـو اختصاص الثلج بأنـه يكون

---

24) الأسباط : الفرق والقبـائل، فالأسباط من وُلد إسحـاق بمنزلة القبائل من ولـد إسماعيل عليهما السلام، أو الأسباط من بني إسرائيل، كالقبائل من العرب... وسموا بالأسباط، من السبط، وهو التَّتَابُع، وكان لكل سِبْطٍ عينٌ من تلك العيون لايتعَدَّاها.

أكبر من حجمه إذا جمد، وليس سواه من المـوائع بهذه الخاصة، وقد جعل الله ذلك ليجعله وسيلة لتكسير الصخـور، فتفتح، فتجري الأنهار والينابيع في الجداول والغُدْرَان، وتُحْيِ البلَدَ المَيْت...

ولا بد من أن نشيـر إلى بعض الآيات البينـات التي تحدثت عـن تفجير العيون من الصخر.

فقد قـال الله تعالى فـي هذه المعجزة من سـورة الأعراف : ﴿**وأوحينا إلى موسى، إِذِ استسقـاه قومُـه أنِ اضْرِبْ بعصاك الحجـر، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا، قـد علم كل أناس مشربهم، وَظَلَّلْنَا عليهم الغمامَ وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.(25)

وقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿**وإذا استسقى موسى لقومه، فقلنا اضرب بعصـاك الحجر، فـانفجرت منه اثنتـا عشرة عينـا، قد علم كل أُنـاس مشـربَهم، كلـوا واشربـوا من رزق اللـه، ولا تَعْثَـوا في الأرض مفسدين**﴾.(26)

ففي هذه الآية الكريمة يقول تعالى موجها الخطاب إلى بني إسرائيل : **أذكـروا نعمتي التي أنعمـت عليكم في إجـابتي لنبيكم مـوسى عليـه السلام حين استسقـاني لكم، وتيسيري لكـم الماء، وإخراجـه لكم من حجر يحمَلُ معكم، وتفجيري الماء لكم منـه من ثنتي عشرة عينا؛ لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوهـا، فكلوا من المَنِّ والسَّلْوَى، واشربوا من هـذا الماء الذي أنبعتـه لكم بلا سعـي منكم ولا كد، واعبـدوا الذي سخـر لكـم ذلك، ولا تعثـوا في الأرض مفســدين ولا تقـابلـوا النعم**

25) سورة الأعراف، رقم الآية : 160.

26) سورة البقرة، رقم الآية : 60.

بالعصيان، فتُسلبوها، فمن لم يشكـر النعم، فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بِعقالها...

* * *

ومن كرامات عبـد الله بن ياسين الجزولي، أن المرابطين، خـرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان، فنفِـذ ما معهم من الماء، حتى إذا أشرفوا على الهلاك، فقـام عبد الله، فتيمم، وصلى ركعتين، ودعا اللـه تعالى، وأمّن المـرابطون على دعـائه، فلمـا فرغ من الـدعـاء، قال لهم : «احفـروا تحت مصلاي هـذا...» فحفروا، فصـادفوا المـاء على نحو شبر من الأرض عـذبا زلالاً بارداً!! فشربوا، واستقوا، وملأوا أوعيتهم.(27)

...ولم يكن بالموضـع مـاء بمراكش، فحفر الناس آبـاراً، فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها، وبنوا بها.(28)

وشق الأرض، فـانبجست عيـونـا
وأنهـــاراً مِن العـــذبِ الـــزُّلال(29)

وقد قال أبو عبد الله ابن الصفار، وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحسِب النـــاسَ، ســـواءً مَتى
مـــا اشتبهـوا، فـــالنـاسُ أطـــوارُ
وانظـر إلى الأحجـــار في بعضـهـا
مـــاءٌ، وبعضٌ ضمنــــه نـــار(30)

---

27) الاستقصا ج : 2 ـ ص : 18.
28) الاستقصا ج : 2 ـ ص 23.
29) الاتحاف : 159.
30) نفح الطيب ج : 4/406.

الفصل الثالث :

عبور بني إسرائيل على أرض البحر

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى، بأن يسري بقومِه بني إسرائيل من أرض مصر، متوجها إلى أرض فلسطين، بعد ما طال مُقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام حُجَجَ الله وبراهِينَه، على فرعونَ وملإِه، وهم مع ذلك يكابرون، ويعـاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمـر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر، وأن يمضيَ بهم حيث يومَر، ففعل موسى عليه السـلام، ما أَمَرَهُ به ربُّه، عـز وجل، بأن يضرب لهم في البحر يَبَساً وهو ما يوحي به قولهُ تعالى : ﴿**وأوحينا إلى موسى أن أسْرِ بعبـادي، فـاضِربْ لهم طـريقـا في البحـر يَبَساً، لا تخَـافُ دَرَكـاً ولا تَخْشَى...**﴾ أي لا تخاف من الإدراك فلا يدركـك فرعون، وجندُه من ورائه ولا تخشى الغرق أمامك...

فقد نَدِمَ فرعون على إرسـال بني إسرائيل، أو أنه رأى أنهم انطلقوا بلا إذن منه، ولعله قد بلغه ما فعله اليهـوديات بالمصريات من استعارة الحلي والـزينة، وعـدم ردها إليهن، فأرسل فـي المدائن حـاشرين، فجمع جنـدا عظيما، واتبع بني إسرائيل ليردهم إلى عبوديته...

* * *

وقد عـرف بخروج مـوسى من مصـر، وانطلقوا بلا إذن منـه، ذلك أن موسى عليه السلامَ لما خـرج ببني إسرائيل، أصبحوا، وليس منهم بمصر داعٍ ولا مجيب، فغَضِب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، وجمع جنداً عظيما، وهـو يقول : «إن هؤلاء لَـشِـرْذِمَـةٌ قليلُون، وإنهم لنا

لغائظون» يغيظنا في كل وقت، ويصل منهم إلينا ما يَسُوءُنا... ثم لما جمع جندَه، واستوثق له جيشُه، ساق في طلبهم، فاتبعوهم مشرقين عند طلوع الشمس، وهو في محفل عظيم، وجمع كثير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحَل والعقد، والدول من الأمراء والوزراء والرؤساء والكبراء والجنود، ليردهم إلى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، واطلع عليهم مع شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك، وأن فرعونَ باطش بهم لا المحالة، وقالوا : «إنا لمُدْرَكُون»... فسكّن موسى روعهم، وقال لهم : «إن معي ربي سَيَهْدِين» ووقف موسى ببني إسرائيل، البحرُ أمامهم، وفرعونُ وجنودُه وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: «أن ٱضِرب طريقاً في البحر يَبَساً، فضرب البحرَ بعصاه... فانفلق، حتى ظهرت أرضُه، وكان كلُّ فرق كَالطَّوْد العظيم... وأمر بني إسرائيل بالعُبُور، فَعَبَرُوا من الشاطىء الغربي إلى الشاطىء الشَّرقي، وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل، فرأى طريقاً في البحر لا وُعُورة فيه، وبني إسرائيل بين فرقى الماء، لم يمسهم أذى، وكان هرون عليه السلام في المقدمة، ومع يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في السّاقة، وبعث الله الريحَ إلى قَعْر البحر، فلفحته فصار يَبَساً كوجه الأرض، فطمع فرعون اللعين، أن يعبرُ في أثرهم، فيردّهم هو وجنوده، فاقتحموا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل، فَغَشِيَهُم من اليَمِّ، وأصابهم من البحر، ما غشِيَهم، أي غشيهم ما لا يعلم كنهَه أحدُ من الناس ففيه تهويل، وقُرِئي : غشَّاهم مَا غَشَّاهم، أي غطّاهم ما غطّاهم، وَحين توسط فرعونُ البحر هو وجنودُه، انطبق عليهم، وعاد كما كان أولا، وغرِق فرعون وجنودُه، ولم يفلت منهم أحدٌ ممن اقتحم الماء؛ وموضع العبور لم يعرف بالضبط...

* * *

ولما انفلق البحر، صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود(1) العظيم... فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبَساً... فلما خرج أصحاب موسى، وتكامل آخر أصحاب فرعون انصب(2) عليهم، وغَرق فرعون، فقال بعضُ أصحاب موسى : ما غُرق فرعون، فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه...

والتوراة تورد أسماء أمكنة مَرَّ بها بنو إسرائيل، حتى أتوا إلى مكان العبور، وموضع العبور، لم يعلم الضبط، وهذه الأمكنة ليست مسمياتُها معروفةً اليوم، والبحارة في البحر الأحمر يسمون مكانا في خليج السويس (بركة فرعون)، ويقولون إن العبور كان بها، وهي بعيدة عن السويس كثيرا(3)... وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه، بأنه أطلع على أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت، وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس، وبين البحيرة المرة، ورسم خطين يدلان على أن خليج السويس كان متصلا بالبحيرة المرة، قال : وأحسبه على صواب...

* * *

وقد ورد أن اليوم الذي وقع فيه غَرَقُ فرعون، كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد، وعن أبن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: «هذا يوم صالح، هذا يوم، نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من

---

1) الطود : الجبل، وفيه يقول امرُؤ القيس :

فبينا المرءُ في الأحياء «طودٌ»
رماه الناسُ عن كَثَبٍ... فَمَالَا!!

ويقول الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأنقرةٍ، يسيلُ عليهمُ
ماء الفرات يجيء من «أطواد»

2) القرطبي ج : 8/ص 338.

3) «قصص الأنبياء» للمرحوم عبد الوهاب النجار ص : 203.

عـدوهم، فصامـه موسى عليـه السـلام، فقال رسـول اللهﷺ : «أنـا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله، وأمر بصومه...(4)

***

آيات قرآنية تتحدث عن هذا العبور ...

نشير في النهـاية إلى الآيـات التي تحدثت عن هـذا العبور عن أرض البحر كمـا وردت في كتاب الله : يقول الحق سبحـانه : ﴿**فانتقمنا منهم، فأغرقناهم في اليم،(5) بأنهم كذبـوا بآياتنـا، وكانوا عنهـا غافلين**﴾(6) ويقول : ﴿**وجاوزنـا ببني إسرائيل البحـرَ، فأتبعهم فرعـونُ وجنودُه بَغْياً وعَدْوا، حتى إذا أدركه الغرق، قال : آمنت أنه لا إلاه إلا الذي آمنتْ به بنـو إسرائيل، وأنـا من المسلمين**﴾(7) ويقول سبحـانه : ﴿**فأراد أن يستَفِزَّهُم من الأرض، فأغرقناه، ومن معه جميعا...**﴾(8) ويقول: ﴿**ولقد أوحينا إلى موسـى أن اسرِ بعبادي، فأضرب لهم طـريقاً في البحر(9) يَبَساً، لا تخـاف دَرَكاً ولا تخشى، فأتبعهم فرعون بجنوده، فغشيهم من اليم ما غشيهم**﴾،(10) ويقـول الحق سبحانـه : ﴿**وإذ فرقنـا بكم البحر،**

---

4) روى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة...

5) اليم : قـال قتادة : اليم : هـو بحر من وراء مصـر، يقال لـه «إساف»، أغرقهـم الله فيـه ويقول السدي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحيـة القلزم، يقال له «بطن مُرَيْرَة»، وقال مقاتل : يعني نهر النيل، قال القرطبي : «وهذا ضعيـف، والمشهور، الأول، الجامع لأحكام القرآن ج : 3، ص : 289.

6) سورة الأعراف، الآية : 136.

7) سورة يونس، الآية : 90.

8) سورة الإسراء، الآية : 103.

9) البحر، سمى بـذلك لاتساعه، يقال «فـرس بحر»، إذا كان واسع الجري أي كثيـره ومن ذلك قول رسول الله عليه السلام : في مندوب فرس أبي طلحة : «وإن وجدنا لبحرا، ويقال أبحر الماء : مَلُح، قال نُصيب :

وقـد عـاد مـاءُ الأرض بحـرا، فـزادني
إلى مـرضـي أن أبحـر المشـربُ العـذبُ

10) سورة طه الآية 78.

فأنجيناكم، وأغرقنا آل فرعون، وأنتم تنظرون﴾،(11) ويقول سبحانه : **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أسر بعبادي، إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حذرون، فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، كذلك، وأورثنَاها بني إسرائيل، فاتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان، قال أصحاب موسى، إنا لَمُدرَكون، قال : كلا؛ إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثَمَّ الآخرين، وأنجينا موسى، ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مومنين، وأن ربك لهو العزيز الرحيم﴾**(12) ويقول سبحانه : **﴿وفي موسى إذا أرسلناه إلى فرعون بسلطان مُبينٍ، فَتَوَلّى بِرُكْنِه، وقال ساحرٌ أو مجنون، فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم، وهو مليم﴾**(13) ويقول الحق سبحانه في آية أخرى : **﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾**.(14)

---

11) سورة البقرة : الآية : 50.

12) سورة الشعراء، الآية : 63.

13) سورة الذاريات، الآية خ 40.

14) سورة القصص : الآية : 40.

الفصل الرابع :

المشي فوق الماء

ومَن منا لم يقرأ قصيدة شوقي رحمه الله التي غَنَّاها الموسيقار المرحوم محمد عبد الوهاب بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول بمناسبة زيارته للعراق في عام 1932، والتي يقول في مطلعها :

يا شِراعاً وراءَ دِجلَةَ يَجْرِي
في دُموعي، تجنَّبَتْك العَوَادِي
سِرْ على الماء كَالمَسِيح رُوَيداً
واسْرِ كَاليَمِّ كالشُّعَاعِ الهَادِي

* * *

أنشد شوقي القصيدة على مسرح المعرض الذي أقيم في بغداد عام 1932، وأنشدها أمام الملك في قصره، بحضور رجال الدولة، وكبار الساسه، وأعيان البلد، وجمهور المستمعين من شتى الطبقات، وقد شاعت هذه القصيدة، وذاعت على الأفواه...

ومطلع القصيدة، وبيت آخر، قد كَثُر حولهما كَلاَمُ الناس في بغداد، وانتقدهما غيرُ واحدٍ مِن الشعراء، وكان أكثرُ هؤلاء المنتقدين، يجهلون معنى البيت جهلا تاما، وبهذا الجهل انحدروا إلى التهجم على شاعرية شوقي... والبيتُ هو : يَا شِرَاعاً وراء دجلة يجري...

رأى كثيرٌ من الشعراء والأدباء أن المخاطَب بهذا البيت، هو جلالة الملك فيصل، والحقيقةُ أن المخاطَب بهذا البيت هو محمد عبد الوهاب لعدم إمكانِ حَمْلِهِ على غيرِه، ولدلالة الأبياتِ التي تلي هذا البيت، وهما :

سِرْ على الماء كالمسيحِ رُوَيداً
واجْرِ في اليَمِّ كالشعاع الهادي

وَائْتِ قَاعاً، كَرَفْرَفِ الخُلد طِيبَا
أو كَفِرْ دَوْسِهِ بشاشةَ وَادِي

وقد شبَّه الشاعرُ محمداً عبد الوهاب بالشِّراع، لما شاع وذاع من أمرِ غِنائه في البلاد، وأراد بقوله : وراء دجلة، يقصد دجلة، وذلك عند اعتزام المغني السفر إلى العراق...

ولما كان محمد عبد الوهاب دائمَ التَّغريد بما يؤلف له شوقي مِن قطع الشعرِ والقصائد، وكانت أكثريةُ هذه القصائد تَعُجُّ بِلَوَاعِج الهَوَى، بحيث تحمل دموع الشاعر الغزيرة من أثَرِ الحُبِّ فيه، جعل الشراع جاريا في هذه الدموع بإنشاد المُغَنِّي قصائِدَ الشاعر، فكأن شوقي يقول : يا مَن اعتزم السفر إلى العراق، وهو كأنه الشِّراع في الشُّهرة، مُرَتِّلاً قصائدي التي هي كالدموع في الهوى، وهو يجري فيها، كالشراع، تجنبتك العوادي، وحفظك الله من كل مكروه...

وهذا البيت من أنبغ الشعر، وهو ابن العبقرية التي أصبح فيها لشوقي الخلود، وللغة الضاد التيه والفخر.

* * *

هل كان المسيح يمشي على الماء ؟

وبعد؛

فهل كان المسيح عليه السلام، يسير فوق الماء؟ وهل من معجزات عيسى أنه كان يمشي على الماء؟ وهل هذه الخصوصية كانت له، أم كان لغيره منها نصيب؟

ويمكن قبل الإجابة على هذا السؤال، أن نسترشد بالقصة التالية كما ساقها القاضي ابنُ خلكان الذي قال : حكى تاجُ العُلا أبو زيد المعروف بالنسَّابة، قال : حدثني أبو الأصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد قال : بعث المعتمد بن عباد

صاحبُ إشبيلية إلى أبي العرب(1) الزبيري خمسمائة دينار، وأمره أن يتجهز بها، ويتوجه إليه، وكان بجزيرة صقلية، وهو من أهلها، وبعث مِثْلَها إلى أبي الحسن الحُصْري(2) القيرواني، وهو بالقيروان، فكتب أبو العرب :

لا تعجبنَّ لرأسي كيف شابَ أسىً
واعجَبْ لأَسْوَدِ عيني كَيْفَ لم يَشِبِ
البحرُ لِلرُّوم، لا يَجْرِي السَّفِينُ به
إلا على غَرَرٍ، والبحرُ لِلعَرَب

وكتب إليه الحصري :

أَمَرْتَنِي بركوبِ البحر أذْرَعُه
غيري - لَكَ الخيرُ - فاخصُصْهُ بِذا الدَّاء
ما أَنتَ نوحٌ، فتُنجيني سفينتُه
ولا المَسيحُ أنا... أمْشي على الماء(3)

* * *

لقد تحدث كثير من الإخباريين عن سيدنا المسيح عيسى ابن مريم الذي مشى فوق الماء، فقالوا : «وجاء الهزيع الأخير من الليل، فهبت الرياح، وصفرت في الفضاء، وعيسى عليه السلام في خشوعه يدعو الله، حتى إذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهباً إلى البحيرة، فرأى المراكب في الغَبَش تعابثها الرياح، والأمواج ثائرة، مزمجرة، ترفعها في غضب

---

1) أبو العرب مصعب (تـ : 506هـ)، وقيل كان حيا عام 507.

2) الحصري، بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة، نسبة إلى الحُصْر أو بيعها، كما ذكر ابن خلكان، القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان، اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بها عام 488هـ.

3) أنظر مقدمة «زهر الآداب»، وثمر «الألباب» بقلم المرحوم د. زكي مبارك ص، 7.

وتحطها في استيـاء، ولمح حوارييه يغـالبون المـوج، فانطلق إليهم يمشـي على الماء...!!

نظر الحواريون، فألفوا شبحا يسيـر على الماء، عليه كسـاء، نصفُه إزار، ونصفُه رداء، فـانقبضت قلوبُهم خـوفاً، وصـرخوا في رعب، فقـد حسبوه خيالا، فإذا بصوته العذب، يمس آذانهم : «لا تخافوا».

فنزلت بهم طمأنينة وأمن، وهدأت مخاوفهم، وصاح بُطْرس(4) باندفاعه المعهود : ـ يا معلم، إن كنت أنت هو، فَمُرني أن آتي إليك!! فقال له عيسى: «تعـال»، فنهض بطرس، ووضع إحـدى رجليه على المـاء، ثم ذهب ليضع الأخرى، فخفق قلبُه واضطرب!!، فصاح، وهـو يهوى!! «غَرقت يا نبي الله، نجني!!» ـ أرنـي يـدك يا قليـلَ الإيمان... ومَـدَّ يده وانتشلـه، وصعِدَ الى السفينة، فالتفتَ كلُّ من فيها حوله يرمُقُونه في دَهَش، فالتفت إليهم وقال: «لـو كـان لابن آدم من اليقين قـدرُ شعيـرة لمشى على المـاء...» وسكنت الرياح، واستوت السفينة على المـاء، وانسابت في طريقها، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون، لم يكتبوا أقواله، لأن ملكوت السموات صار قريبا...

وبلغت السفينـة الشاطـئ، وقد ولـد فجـر يوم جـديـد، وهبط عيسى وتلاميذه، فلما رآه الناس دهشوا، فتلاميذه أقلعوا، وهو على الشاطئ، وقد تفرقوا، وهو في الفضـاء، وحده يناجي ربه، فكيف لحق بحوارييه؟

وتجمعت الجمهوع حـوله، وانطلقوا إلى مجمع «كَفَرْنَـاحُوم»(5)، وانتشر خبر إطعامه الناس، فأقبلت الـوفود، يداعب نفوسهم الجشع أمل إطعامهم، وكأنما قرأ عيسى ما تخفي صدورهم، فقال لهم : «الحق. الحق، أقول لكم،

4) بُطرس القديس توفي في روما، وهو ابن يونان وأخـو أندراوس، كان اسمه سمعان وكان يرتزق من صيد الأسماك في بحيرة طبرية، فدعـاه السيد المسيح إلى التبشير، وسماه كيفا أو بطرس (أي الصخرة) وجعله رئيس الرسل ورئيس الكنيسة في مهدها...

5) «كَفَر نَاحوم» مدينة في فلسطين، سكنهـا بطرس، واندراوس، وفيها ألقى المسيح تعاليمه، وصنع العجائب... على أنقاضها في يومنا توجد بلدة الطابغة...

أنتم تطلبـــونني، لا لأنكم رأيتـم اـــلآيات، بـل لأنكم أكلتم من الخبـــز وشبعتم.(6)

وفي الإصحاح 14 مَتّى(7) فـ 22 : وللوقت الزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة، ويسبقوه إلى البحر حتى يصرف الجموع، وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردا ليُصَلِّي، ولمـا صار المساء كان هنـاك وحده، وأما السفينة، فكـانت قد صارت في وسط البحـر معذبة من الأمـواج لأن الريح مضادة، وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر، فلما أبصره التـلاميذ ماشيا على البحـر، اضطربو قائلين، إنـه خيال، ومن الخوف صرخـوا، فللوقت كلّمهم يسوع قائلا، تشجعوا، أنا هـو، لا تخافوا، فأجابـه بطرس، وقـال : يا سيِّد : إن كنتَ أنت، فَمُـرني، أن آتِي إليك على المـاء، وذهب ليأتي إلى يسوع، ولكن لمـا رأى الريح شـديدة خـاف، وإذا ابتـدأ يغرق، صـرخ قـائلا : «يارب، نجني»، ففي الحـال مـد يسوع يـده، وأمسك به، وقال له : «يا قليل الإيمـان لما شككت، ولما دخلا في السفينة، سكنت الريح، والذين في السفينة جاؤوا وسجدوا له، قائلين بالحقيقة، أنت ابن الله»... انتهى...(8)

وقد ذكر هذه الحكـاية كل من مُرْقُس(9) ويوحنـا مع اختلاف مع متى، في بعض تفاصيلها وأهملها لُوقا.(10)

---

6) أنظر : « المسيح ابن مريم عيسى » للأستاذ عبد الحميد جودة السحار.

7) مَتّى : من تلامـذة المسيح الاثنى عشر، كان عشّـاراً في «كفر ناحوم»، استشهـد دون أن نعرف يقينا متى وأين كان ذلك، له «إنجيل مَتّى» كتبه لمسيحيي فلسطين اليهودي...

8) «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار ص : 419.

9) مرقس : القديس الإنجيلي من تلامذة بطرس، ينسب إليه تأسيس كنيسة الإسكندرية، مات شهيدا (68 ؟) له : «إنجيل مرقس»، وهو إحدى البشارات الأربع.

10) لُوقـا قديس، ورفيق «بولس الرســول» في أسفاره، من المرجح أنه كـان طبيبا، (تـ : نحو 70) نقلت ذخائره إلى القسطنطينة بعد وفاته... كتب : «إنجيل لوقا» وسفر أعمال الرسل.

وقد أشار إلى هذه الحكايـة المعري في بعض قصائده، إذ يقول لخيال المحبوبة :

سـريتِ إلينـا، والـركـابُ سفـائنٌ
كعـادكِ فينـا، والـركـائِبُ أجمـال

أعُمتِ إلينـا، أَم فعـال ابن(11) مـريم
فعلتِ، وهـل يعطى النبـوة مِكْسَـال

ورحم اللـه أحمد شـوقي وهو يصف النيل وكـان له اطـلاع واسـع في شؤون الديانات :

وخُطَى المسيح عليـكَ روحـاً طـاهـرا
بـركـاتُ رَبِّك، والنعيـمُ الغَيْـدَقُ

* * *

ومعلوم أن السيد المسيح كان ـ كما روتـه الكتب الأربعة ـ يعـمد عليه السـلام إلى خارق العـادة في الطبيعـة من أجل حمل الناس على الإيمـان، حتى إنه لا يكاد يقوم دليل على صدق نبوته إلا بهذه الوسيلة، فنحن نقرأ مثـلا في «إنجيل متى» ولمـا دخل السفينة تبعـه تـلاميذه، وإذا اضطـراب عظيم حدث في البحر حتى غطـت الأمواج السفينة، وكان هو نـائماً، فتقدم تلاميذه، وأيقظوه قائلين يا سيد، إننا نهلك، فقال لهم : «ما بالكم خائفين يا قليلي الإيمان، ثم قـام وانتهر الريـاح والبحر، فصـار هدوء عظيم، فتعجب الناس قـائلين!! أي إنسان هـذا؟ فإن الـريح والبحر، جميعـا، تطيعه»...(12) ونقرأ في مكان آخر من إنجيل متى، أيضـا، عن هذا الخرق الذي يحصل في الطبيعـة ليحمل المشـاهديـن على الإيمان والتصـديق بنبـوة عيسى عليـه السلام، وكـونه رسولا من الله، فنحن نقـرأ في إنجيل متى : «وفي الهزيع

---

11) أم فعال ابن مريم : أي مشيت على الماء، كما مشى عيسى ابن مريم...
12) مَتّى : 23 ـ 27.

الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر، اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا، فللوقت كلمهم يسوع قائلا، تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا، فأجابه بطرس، قال : يا سيد، إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء... فقال : تعالَ، فنزل بطرس من السفينة، ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع... ولكنه لما رأى الريح شديدة خاف، وإذا ابتدأ يغرق صرخ قائلا، يا رب نجني، ففي الحال مد يسوع يده، وأمسك به، وقال له : يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟ ولما دخلا السفينة سكنت الريح، والذين في السفينة جاؤوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله»...(13)

* * *

يتضح من النصوص المذكورة التي وردت في «إنجيل متّى» و «لُوقَا» أنها تدل على أن ما حصل من خرق في الطبيعة، ومغايرة للمألوف من نواميس الطبيعة وسننها، إنما كان بينةً ودليلاً على التصديق بالمسيح والإيمان به... وأن السيد المسيح عليه السلام كما بدا في تلك النصوص، كان يتخذ من عناصر الطبيعة كالبحر، والمشي عليه، وسكون وسائل لحمل أتباعه وغيرهم على الإيمان به، والتصديق برسالته...

وقد أشار الشيخ محمد عبده رحمه الله إلى عَلاقة الخَرْق بالإيمان في المسيحية، فقال : «أول أصل قام عليه الدين المسيحي، وأقوى عماد له، هو خوارق العادات، تقرأ الأناجيل، فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الأناجيل يطول شرحُه، ثم إنه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده بجعل لإصحابه ذلك، كما تراه في الأصحاح العاشر من «إنجيل متى» وغيره، وإذا تتبعت ما قاله الأولون من أهل هذا الدين، تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على

13) مَتّى : 14 ـ 25 ـ 32.

صحة الاعتقادات، ولا يخفى أن خارق هذا الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبُه في الدين، لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص... زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان، ولو كان مثل حبة خردل، كاف في خرق نواميس الكون، كما في الأصحاح(14) : «فالحق أقول لكهم، لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك، فينتقَل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم».(15)

* * *

وقد ربط الإمام القرافي ظاهرة الخرق بطبائع الأمم التي نزلت فيها الديانات السابقة للإسلام، فقال : «ولما كانت الأمم المتقدمة أكثف طبعا، وأصعب انقيادا وسمعا، جعل معجزهم في الصور الكثيفة، والآيات القاهرة العنيفة، في نَتْقِ الجبال، وشق البحار، وبروز الحيوان من الصخرة الصماء؛ ومقتضى الحكمة، علاجُ كل مريض بما يناسبه، فالنسمة الشريفة بشراب الرمان، والجِبلّة الكثيفة بالحطب والنيران»...(16)

وقال الدكتور أحمد شلبي مشيراً إلى علاقة الخرق بالإيمان في المسيحية أيضا : «ومسيحية العهد الجديد، تصور الإيمان يفعل الأعاجيب، وتنقل الجبال فليس ذلك إلا لقلة الإيمان...(17)

* * *

---

14) السابع عشر من مَتّى 10.

15) «الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية» ص : 22.

16) «الأجوبة الفاخرة، على الأسئلة الفاجرة» ص : 208، للقرافي، بهامش ـ كتاب : «الفارق، بين المخلوق والخالق».

17) «المسيحية» ص : 164/د. أحمد شلبي.

الإرادة والترويض :

الإنســان يستطيع بالإرادة والتــرويض المستمر أن يحقق المعجـزات... والإنسان أكبـر وأعظم وأروع ممـا يتصور... ولكنـه لا يدري... فـلا عنده وقت، ولا عنده صبر، ولا له رغبة... فهو ضحية دنياه الضَّيِّقة...

والممارسة أهم جـدا من قراءة أي شـيء عن ذلك... فالصـوفية أصحاب «تجربة»؛ أو أصحاب «محنة»، أو «معانـاة»، أو «مجاهدة»... ثم هذه القصة التي ترمز إلى هذه المعاني...

يقال إن أحد الصوفية، كان يتمشى متأملا على شاطىء بحيرة... ويقال إنه سمع صـوتا يجيء من بعيد، يتغنًّـى بصوت صوفي، وضـاق الصديق بهـذا الصـوت القبيح، والـذي يخطىء، أيضـا، في نطق الكلمـات.، فـركب زورقاً، وذهب إلى الرجل الذي يغني، وقال :

يا مولانا، أنت لا تُحسن النطق...! فقـال له الرجل : علمني يا سيدي... وعلمه كيف ينطـق، وكيف يغني، وتركـه إلى زورقه، وعاد إلـى الشاطىء، وأثناء العودة، فـوجىء بالرجل يناديـه قائلا : «نسيت.. لقد نسيت! علمني من جـديـد... ولكن الصـوفي لا حظ أن الـرجل يمشي على سطح المـاء، وأصـابه ذهـول، ثم ركع أمـامه، وهـو يقـول : «بل علمني أنت يا سيـدي ومولاي، وتاج رأسي، وقرة عيني، في الحياة...

إنه إذن ليس العلم، ولكنها التجربة... فالرجل الذي يعلم، لا يمشي على الماء، ويمشي على المـاء من كان عنـده تجربة نفسيـة ومعاناة وجـدانية، فصارت له قدرات خارقة...

فـاختصاص بعـض النفوس من الفطـرة بأمـر غـريب، لا يـوجد مثلـه لغيرها، كمـا ذكر، أن في الهند قوما إذا اهتموا بشيء، اعتـزلوا عن الناس، وصرفوا همتهم إلى ذلك الشيء فيقع علـى وفق اهتمامهم، ومن هذا القبيل ما حكى أن السلطـان محمود، غـزا بلاد الهند، وكـان فيها مـدينة، كل من

قصــدهــا مــرض، فسأل عن ذلك، فقــالــوا : إن عنــدهم جمعــا من ا لهنــد يصرفــون هممهم على ذلك، فيقع المرض على وَفق اهتمامهم، فأشــار إليه بعض أصحابه بدق الطبول، ونفخ البوقات الكثيرة، ليشوِّش هِمَمَهم، ففعلوا ذلك، فزال المرض، واستخلصوا المدينة...(18)

* * *

لا بــد أن الإنســان كانــت له خــواص أخــرى اختفت، أو أن الكثيــر من خواصه الغريبة سوف تتلاشى، وأنــه لذلك سيقوم بعمليات تعويض هائلة ليحقق بقــوة العلم مــا كان يحققــه بقــوة الــوجدان، أو بقــوة الــروح... إن إحصائيات رسمية صدرت عام 1961، تقول إن إحدى الهيآت أطلقت ثمانية آلاف حمامة زاجلة... ومن العجيب أن 7950 حمامة قد ضلت طريقها، تماماً، إلى العودة، مع أن المسافة لم تتجاوز 400 كلم... وكان حمام الزاجل، قبل ذلك يقطع ألوف الأميال، كأنه قذيقة موجهة لا تخطىء!! هناك تفسير لذلك: إن الموجــات الكهربــائية والمجالات المغنــاطيسية الــلانهائيــة التي تطلقها موتــورات المصانع والآلات ومحطات الإذاعــة والتلفزيون وشبكــات الرادار كلها قــد خلقت تشويشا على هــذا الطائر العجيب، كلها صنعت «ضبــابا» جعل حمام الزاجل مجرد حمام بلا موهبة خارقة...

بل إن هذا التشــويش المعقد الــرهيب، قد أصــاب عقول النــاس، أيضــا، بالارتبــاك... لقد أصاب وضــوح الرؤيــة، وجلاء، السمع، وشفافيــة الفكر، ورقة الإحساس عند الناس جميعا، وليس حمام الزاجل إلا إنذارا خطيرا لما حدث، أو سوف يحدث، ومن المؤكد أنه أسوأ مما نتصور...

* * *

إذا نحن رجعنــا إلى الأســاطيــر القــديمـــة في أميــريكــا، وفي مصــر الفرعونية، وفي الصين، نجد أن هناك نصــوصا تقول : إن أي إنسان لديه

---

18) «عجائب المخلوقات» للقزويني على هامش حياة الحيوان ج : 1/ص : 19.

القدرة على أن يطير إذا أراد، وفي استطاعته أن يجعل الأشياء تفعل ذلك، أيضا.

ومن الغريب أننا نجد في كل اللغات العالمية مثل هذا التعبير : «طار من الفرح، أو مِن الخوف»، «أسلم رجليه للريح»... ولكن من المؤكد أن التعبيرات الباقية، ليست مجرد تلاعب بالألفاظ.، إنها تشير إلى حقائق قديمة... لم نعد نَجِد لها نظيراً، الآن ـ إنها مأساة حمام الزاجل مرة أخرى... والذين يزورون كنيسة القديس »دُومِينِك» في مدينة «نابولي» يجدون المكان الذي وقف فيه القديس الفيلسوف «توماس الاكويني»،(19) فقد كان القديس في إحدى حالات التجلي النفسي، فارتفع بقدميه في الهواء ثلاثة أمتار أمام ألوف الناس...

وفي إسبانيا يتحدثون عن القديسة «دافيليا» التي ارتفعت في الهواء عشرين مترا، أمام كل راهبات ورهبان الدير، وقد كتبت القديسة : «تريزة» في مذكراتها التي عنوانها : «كتاب حياتي» لا أعرف ماذا يحدث لي، ولكن أجد قوة غريبة تملأ كل جوانبي، وفجأة أجدني ارتفعت عن الأرض، أحاول أن أهبط إلى الأرض، فلا أستطيع، فجأة أحس كأنني سحابة، أو كأنني فوق سحابة، أو كأنني نسر... أو كأنني على جناح نسر، وكثيرا ما قاومت هذا الذي في داخلي أو خارجي... ولكن لم أفلح، ولذلك أستسلم وأقف في الهواء... وأشهر حوادث الطيران الإنساني ما رآه أهل مدريد، فقد جلس الملك فيليب الثاني، وطلب إلى «دومينك» أن يظهر كراماته، فوقف القديس

19) توما الأكويني (1225 ـ 1274) راهب دومنيكاني، معلم الكنيسة، وحجة في اللاهوت والفلسفة والتعليم الكاثوليكي المدرسي، وقد اطلع عى آرء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها من مؤلفاته العديدة «الخلاصة اللاهوتية» و«الخلاصة ضد الأمم» من يهود وغيرهم ردا على حججهم ضد الدين المسيحي.

دومينك، وارتفع تـدريجيـا، كأنـه في داخـل مصعـد خفي إلى أعلى، وظل معلقا في الهواء ساعات...

* * *

إن العلم الحديث قد اهتدى إلـى خلق منطقة انعدام الوزن على الأرض، ففي قـواعد إطـلاق سفن الفضاء نجـد قـاعات كبـرى، يتدرب عليهـا رواد الفضـاء... هذه القاعات قد جـردت من الجاذبية، فإذا نحن رأينا في التاريخ القديم، أن كثيرين مشـوا في الهواء... أي استطاعوا أن يخففـوا من جاذبية الأرض... فـلا بُـد أن نقـول : إنهم طبقـوا قـوانين أخـرى لا نعـرفهـا، إن أجسادهم ذات خواص نادرة، لا نعرفهـا، أو أنهم استطاعوا بتجارب نفسية أو معاناة وجدانية أن يكونوا أخف وزنا...

ولذلك، فـالعقل يقبل جداً أن يكـون المسيح قد سـار على سطح الماء، والعقل يقتنع، أيضـا، بالآيـة الكريمة التـي تقول : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام، إلى المسجد الأقصى**﴾.

ولا بد أن تكون لهؤلاء النادرين من الناس مزايا وخصائص فريدة، وأن هذه الخصائص لا تتوافر لكل الناس...

* * *

الكرامات : حسية ومعنوية :

لقد قسم ابن عربي في الفتوحـات المكية الكرامات إلى قسمين : حسية ومعنوية، أما الكرامات الحسية، فهي للعامة، ومن أمثلتها الإخبار بالماضي والحـاضر والمستقبـل، والمشي على الماء، وإمسـاك النـار، وطيّ الأرض، ونحو ذلك... أما الكـرامات المعنوية، فهي للخـاصة، وتنحصر في التمسك بآداب الشريعة قولا وعملا...

روى الخفاجي، عن هذه الكرامات وأنواعها، أن بعض الأئمة حدد أنواعها بعشرين نوعا من النوع الحسي... منها : انفلاق البحر، والمشي على الماء، وهذا النـوع كثير الحدوث... ومنها مقـام التصريف، وهذا النـوع كثير، لا

ينكره إلا معاند، من ذلك ما قاله عبد الوهاب بن أحمد الشعراني في كتابه : «الجوهر المصون، والسر المرقوم، فيما تنتجه الخلوة من الأسرار، والعلوم»، فيمشي الوالي على الماء والهواء، ويدخل النار، فلا تحرق له ثوبا ولا جسدا... إلى بقية الكرامات العشرين.

***

السطح المائي :

إن السطح المائي الساكن يسلك كما لو كان جلداً مرِنا مشدودا، وقد عرفت هذه الخاصية بعض أنواع البَقّ المائي منذ وقت بعيد، فهيأَت أقدامها لتلائم السير فوق الماء، وربما تكون قد شاهدتَها، وهي تجري هنا وهناك، فوق سطح بركة ساكنة... فهي لا تخترق السطح، بل لا تبتل أقدامها، وبوسعك، لو كُنْتَ حريصا، أن تضع إبرة صغيرة فوق سطح الماء، بحيث تبدو طافية، والواقع أنها ترتكز على قشرة الماء الخارجية، إذ أنها تغوص إذا ما أحدثت اضطرابا في السطح...(20)

وهذا موضوع يتناوله المختصون في دراسة ما يفعله التوتر السطحي، والجاذبية الشعرية، والتناضح أو الارتشاح الغشائي.

وهذا مظهر لتماسك جزيئات الماء، وهو أن تلك الجزيئات تجعل سطح الماء، كأنه غشاء قوي مرن، وهذه ظاهرة تعرف بالتوتر السطحي Capillarité فإنك لو وضعت في رفق إبرة من جديد، فوق سطح الماء، ظلت فوقه، وكأنها محمولة بغشاء يحول بينها، وبين أن تغوص فيه نظرا لزيادة كثافتها كثيرا عن الماء... وكثير من صغار الكائنات تستطيع أن تمشي مشيا فوق سطح الماء، وكأنها تمارس سحرا، كما أن بعضها الآخر يتدلى في الماء متعلقا بذلك السطح العجيب...

---

20) طومسون كينج ص : 22.

وإنك لـو شـاهدت قطـرة الماء تتحلب مـن الصنوبـر هابطة فـي تؤدة، وكأنها لؤلؤة صلبة مشدودة بسلك من فضة أدركت معنى التماسك والتوتر السطحي...

وتماسك الماء، وقابليته للالتصاق يجعلانه يصعد في الأنابيب الشعرية الـدقيقـة ضـد جـاذبيـة الأرض أي أنـه يكتسب خـاصيـة ثـالثـة هي «الشعرية»...(21)

لذلك فإننا نجد أن كثافة الماء تبلغ حوالي 800 ضعف، كثافة الهواء، من أجل ذلك، فإن المـاء يحاول أن يسحب إلى أسفل كل جسم يحـاول السير فوقه بسرعة، ما عدا خوارق العادة التي قدمنا، وسنقدم بعض النماذج منها والتي تبلغ أحياناً حد المعجزات.

* * *

في عام 262هـ، تـوفي عبد الله المروزي أحـد الأبدال،(22) وكان يقيم بقزوين، وكان يمشي على الماء، ويقف له نهر جَيحون.(23)

ويحكى أنه قيل لأبي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش (تـ : 328هـ ـ 940م) إن فلانا يمشي على الماء، فقال : «عندي أن من مكَنـه اللـه تعـالـى من مخـالفـة هـواه، فهـو أعظـم من المشي في الهواء»...(24)

ويحكى عن أبي يزيد البسطامي (تـ : 261هـ ـ 874م) أنه قيل له : فلان يمشي في ليلة إلـى مكة، فقال : «الشيطـان يمشي في سـاعـة من المشرق إلى المغـرب في لعنة اللـه، وقيل له : فـلان يمشي على الماء، ويطيـر في الهواء، فقـال : الطير يطير في الهـواء، والسمك يمر على الماء...، وقـد قال

21) «العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم»، «عالم الفكر» ص : 85.

22) آدم ميتز، ص : 47/2.

23) أبو المحاسن، ص : 37 عن آدم ميتز، ص : 51/2.

24) القشيري.

الليث بن سعد : لـو رأيت صاحب بدعـة يمشي على الماء ما قبلتـه» فقال الشافعي : إنـه ما قصر لـو رأيته يمشي على ا لهـواء ما قبلته، هكـذا ذكر الحافظ جمال الدين ابن الجـوزي البغدادي في كتابه(25)... وكان أبو سـهل التستري (تـ : 273هـ أو 283هـ) يعتد بـإظهار الكرامات، فكـان جزاؤه أن أضيف إليه كـرامات، ويحكى عنه أنـه قال : أكبـر الكرامات أن تبـدِّل خلقا مذموماً هي أخلاقك...

وجـاء رجل إلى سـهل، وقال لـه : إن النـاس يقولـون إنك تمشـي على الماء، فقال : «سل مؤذن المحلّة، فإنه رجل صـالح لا يكذب، قال : فسـألته، فقال المؤذن : لا أدري هذا، ولكنه نـزل الحوض في بعض الأيام ليتطهر، فوقع في الماء، فلو لم أكن أنا لبقي فيه...

وقد قال الجنيد رضـي الله عنه : «مشـى رجال باليقين على الماء، ومات رجال بالعطش، وهم أفضـل منهم...

وإنما صـار المنكر للكـرامات، منكـراً لها من طـريق مراعـاة الأسباب، فيستحيل عنده الطيـران في الهواء من غيـر حامل، والمشي علـى الماء من غيـر حائل، وغيـر ذلك من الكـرامـات، وقـد يقيض الله للـولي من لطفـه، ويسبِّب له ما أراد من الأسباب الحاملة له...(26)

ويقول الكتاني في «المستفـاد» : و«كان يقول أبو يعـــزى - يَلَنُّور ابن ميمون (تـ : 572هـ 1177م) لهؤلاء المنكرين كرامـات الأولياء؟ والله لو كنت قريبا من البحر، لأريتهم المشي على الماء عيانا»...(27)

وكان الولي الصالـح العابد الناسك، الزاهد المجاهـد، رافع لواء الإسـلام سيـدي محمد العيـاشي كلما سمع بظلم البـرتغاليين للمسلمين إلا تغيـر،

---

25) «تلبيسِ إبليس»، في باب : ذم البدع والمبتدعين، ص : 14.

26) «المقصد الشريف» لعبد الحق البادسي ص : 41.

27) «جذوة الاقتباس» ج : 2/ص 564، ط : دار المنصور.

وبات لا يلتذ بطعام ولا منام، ثم عزم على قصد الجديدة، فذكروا له، أن وادي أم الربيع، في نهاية المد والامتلاء، فلم ينته عن ذلك وسار حتى بلغ الوادي المذكور على مشرع أبي الأعوان، فوجده ممتلئاً جدا، لا يكاد يدخله أحد إلا غرق، فقال لأصحابه، وسائر من معه : «توكلوا على الله، واجتهدوا في الدعاء» ثم اقتحم الوادي بفرسه، وتبعه الناس، فعبروا جميعا، ولم يتأذ منهم أحد، وكان الماء يصل إلى قريب من ركب خيلهم، مع أن مد ذلك النهر حين امتلائه لا يدرك له قعر، كما هو شهير، وهذه كرامة عظيمة، وقعت له رضي الله عنه، وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضرا لها وشاهدها، ولم يقع مثل هذا فيما علمناه إلا للصحابة رضي الله عنهم، مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن، ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس...(28) وسيأتي الكلام عن هذه الفتوح في آخر البحث...، وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الأديب أبو عبد الرحمن بن أحمد المكلاتي مادحاً لسيدي محمد العياشي، ومشيراً إلى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر :

حديث العلا عنكم يسير به الركب
وينقله في صحفه الشرق والغرب

إلى أن يقول :

ولم أر بحراً جاوز البحر قبلكم
تجود لمستجدٍ أنامله السحب
وما يستوي البحران عندي، فإن ذا
أجاج لعمري في المذاق وذا عذب

وفي ترجمة الشيخ محمد اليستثني تحدث عنه عبد الحق البادسي(29) قال :

---

28) «الاستقصاء»، الناصري ص : 87/ج : 6. انظر : «التشوف» ص : 63 – 64.

29) المقصد الشريف، ص : 88.

حدثني الشيخ الحاج علي بن ماخوخ، قال : كان بين الشيخ محمد، وبين الشيخ أبي إسحاق بن عبيد النفزي الذي استوطن غرناطة، مراسلة، وكان يوجه إليه في كل سنة معجون الترنج من غرناطة، فتأخر سنة واحدة، فسأله الشيخ محمد : من يصل منكم إلى غرناطة إلى الشيخ أبي إسحاق، فيأتي من عنده بمعجون الترنج، قال : فتوجه أحد الفقراء، فجاز البحر بنفسه من غير قارب، وجاء بالمعجون في أقرب وقت.. فقلت : لم يسم لي الشيخ علي الذي جاز البحر، وأظنه هو... والله أعلم...

وفي ترجمة الشيخ أبي يعلى، وهو الفتوح بن أبي بكر المتيوي، ذكر البادسي(30) أنه حدثه بعض أصحابه، قال : قال أبو يعلى : قعدت يوما على حجر في وسط البحر أتفكر، في المشي على الماء، فنازعتني نفسي إلى ذلك، فقست ذلك، فغرقت، وخرجت، وقعدت مغتما، فرأيت شبه سحابة، قد أقبلت من ميناء سبتة، فما كان إلا قليلا، حتى وصل إلي رجل، فمشى على الماء حين قاربني حتى وصل إلي، وقال : يا أبا يعلى : هكذا يكون المشي على الماء... فقضيت العجب؛ من ذلك.!

* * *

وتذكر بعض المؤلفات، بما فيها المصادر الأجنبية، أن الولي الزاهد العلامة الواصل أبا العباس أحمد بن عاشر الأندلسي دفين مدينة سلا (ت : 765هـ 1364م) لما اعتذر ذات يوم لشيخه أبي عبد الله اليابوري الفقيه المغربي عن وصوله متأخرا للدرس، بأنه لم يجد مركبا يقطع عليه «وادي أبي رقراق» الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط، مكنه الشيخ سيدي أحمد اليابوري من بطاقة، كان يستطيع عندما يحملها معه من المشي على صفحة الماء...

* * *

30) المقصد الشريف ص : 110.

يقول الشيخ علي بن محمد المراكشي : سكنت بقوس مدة، فذكر لي عن سيد في الأقصور يعرف بيوسف الأقصوري، وهو من كبار مشايخ الصوفية، فأردت زيارته، فتخلفت عنه أياماً، فجئت يوما، فسمعت قائلا يقول لي : قم إلى الشيخ يوسف، فإنه خرج ليجتمع به، فلم أكذب، فخرجت إما أن ألقاه، وإما أن أمشي إلى منزله على وجه الزيارة، فمشيت على ساحل النيل حتى انتهيت إلى موضع المعدية، فلم أجد المعدي الذي يعدي الناس، فعدت أنتظره، فإذا الرجل قد أقبل من الجانب الآخر، وبيده عصا، فرمى برجله على الماء، وهو يخط بعصاه على الماء حتى صار إليّ، فتعجبت من كرامات الأولياء، وارتعبت منه.(31)

وقد تحدث عن أبيه، الشيخ الصالح محمد ابن أبي القاسم الصبان الفاسي فقال : «... فلما كان آخر يوم من شعبان من السنة المقبلة، ورأينا الهلال عشية هلال رمضان، وأقبل الرجل على عادته على الماء، فأحيا به الشهر كله على العادة المتقدمة، فلما صلى بنا صلاة العيد، وأراد الانصراف، قلت للشاب : قد كنت خرجت برسم الحج، وقد تعبدت هنا ما شاء الله، فأريد الانصراف، فكلم لي هذا الرجل، عساه يحملني معه إلى البر المتصل، فقام إليه وكلمه، فقال باسم الله، قال : فودعت الشاب وأمه، وسرت خلف الرجل أضع قدمي حيث يضع قدميه، فأحس الماء تحت قدمي مثل الرصاص...(32)

* * *

هكذا يبقى الولي متدرجا في معارج الكمال، فإذا أراد الله تعالى أن يزيده كرامة، نقله من حالة التوكل إلى حالة اليقين، ثم يقوى يقينه، وذلك تفضل سابق من الحق، وخصوصية، يختص برحمته من يشاء، و«كذلك

31) المصدر السابق ص : 76.

32) ترجمة ابن القاسم الصبان من كتاب المقصد الشريف ص : 66.

نُرِي إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين»،(33) فيريده الله المشي على الماء، والسير في الهواء، ويظهر له الجبال والرمال ذهبا وفضة، فلا يلتفت إليها، ويعرض عنها، وينأى بجانبه...

قال عبد الحق البادسي في ترجمة الشيخ أبي محمد المساري : حدثني الجمهور من بقوية عن الشيخ بأنواع الكرامات من المشي على الماء، والطيران في الهواء، وغير ذلك من طي الأرض، وآلف السباع،(34) وقيل لأبي طاهر العلام(35) يوما : إلى أين يبلغ الماء ممن يمشي عليه؟ فقال : أما أنا فإلى شراك النعل، وفيه يقول قائلهم :

قوم مشوا فوق المياه، وصيروا

من تحتهم مَتْن الهواء ركائبا

إن المشي فوق الماء ورد في كثير من الكتب التي تتحدث عن كرامات الأولياء، أو ممن اختصهم الله بالسير فوقه، وهي كثيرة، ونشير بصفة خاصة، إلى كتاب : «المقصد الشريف، والمنزع اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف» لعبد الحق ابن إسماعيل البادسي.(36)

* * *

بل إننا نقرأ في التاريخ الإسلامي جيشا عرمرما يخوض نهرا، فلقد كان المسلمون في فجر الإسلامي أقوياء، بإيمانهم، أقوياء بهذا الدين الذي كانوا يومنون به، أقوياء بأنهم كانوا يومنون بحقائق يكفر بها، أو لا يعرفها الآخرون...

---

33) سورة «الأنعام» رقم الآية : 75.

34) عبد الحق البادسي المقصد الشريف ص : 93.

35) أنظر ترجمته في المقصد ص : 89. أنظر أيضا نماذج من هؤلاء الذين لهم هذه الخصوصية في الصفحات : 123 ـ 128 ـ 138.

36) توجد نسخة منه بقسم المخطوطات التابع للمكتبة الوطنية تحت رقم D 1419، في مجموع من ورقة : 55 ـ 115، ولا سيما في صفحات 73 ـ 75 (وقد طبع أخيرا).

ونذكر هنا وقعة المدائن، لما بلغ سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه بجيشه إلى دجلة، وهي تفيض، وترمي بالزبد، وقف هنيهة وقفة تأمل، ووقفة استعراض، وقال لسلمان الفارسي، ماذا ترى؟ هل نخوض هذا النهر؟ أو ننتظر السفن؟ فقال سلمان رضي الله عنه : «إن هذا الدين لجديد، أي أن الله تعالى، اختار هذا الدين وقرر أنه سيظهره على الأديان كلها، وأنه يحي به الإنسانية التي ماتت، فأنا لا أصدق أن هذا الدين سينهزم، ويتراجع أمام نهر من الأنهار، ولماذا لا يخضع هذا النهر أمام هذا الدين؟ هذه العقلية المومنة هي التي كانت تسيطر على نفوس المسلمين، ثم قال له سلمان، ولكن أنظر في الجيش، هل ظهرت فيه ذنوب وانتشرت؟ فإذا رأيت أن هذا الجيش بعيد من هذه الذنوب، فصدق أن الله سبحانه وتعالى ناصرُه، وأنه سيتغلب على هذه الحقيقة، وكذلك كان، تقرأون في التاريخ أن جيش المسلمين قد خاض النهر، وكان المسلمون يتحدث بعضهم إلى بعض، كأنما يمشون على البر، فلما رآهم الفرس، قالوا، كما نقله الطبري بالنص، : «ديوان آصدند، ديوان آمدند» يعني جاء الجيش، جاء العفاريت...

ولقد قال المقري في نفح الطيب عن يوم افتتاح الأندلس عام 92هـ بقيادة طارق بن زياد : ذكر عن طارق بن زياد أنه كان نائما وقت العبور في المركبة، فرأى النبيﷺ، والخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يمشون على الماء، حتى مروا به، فيبشره النبيﷺ بالفتح، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد...

***

العلاء بن الحضرمي يقتحم البحر :

لم يزل العلاء بن الحضرمي مقيما في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل، وبلغه عنهم القيام بأمر الله، والغضب لدينه، فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي، أيقن أنه

لن يوتى من خَلْفِـه، بشيء يكرهه على أحد منهم من أهل البحـرين، وندب النـاس إلى دارين، ثم جمعهم وخطبهم، وقـال : إن اللـه قـد جمع أحـزاب الشيطـان، وشراد الحـرب في هـذا البحر، وقـد أراكم من آيـاته في البـر، لتعتبروا بها في البحـر، فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعـرضوا البحر إليهم، فإن الله قـد جمعهم، فقالـوا : نفعل، ولا نهاب واللـه بعد الـدهناء هَـوْلا ما بقينا....

اقتحام البحر : وبعد أن تجمع اللواء الثاني على الساحل، وعدده أربعة آلاف، اقتحم بهم العلاء ابن الحضـرمي البحر، فعبروه ومشوا فيـه مسافة يوم وليلـة حتى وصلوا إلى «دارين»، وهنـاك اقتحموا المدينـة، ودار قتال شديد بين المسلمين والكافرين، حتى أبـاد المسلمون المرتدين، وحلفاءهم المجوس، والـزُّط، ولم يبقوا على أحدٍ منهـم، ثم قادوا بالغنـائم والذراري، وكانت شيئاً عظيماً...

وفي خـوض الجيش البحر إلى دارين، وردت روايـات كثيرة تـدل على أنهم بعد دعاء دعـا به العلاء بن الحضرمي، ودعا بـه الجيش ـ حَبَس الله عنهم البحر، حتى عبروا، ورجعوا على اليابسة، وأن ذلك من آيات الله أكرم الله بها العلاء وجيشه، وكان العـلاء من كبار صالحي الصحابة، ومشهوراً بإجابة الدعوة، وروايات العبور هذه جاءت في عدة من أمهات التاريخ، قالوا فيها : «ثم ركب المسلمون في آثار المنهـزمين يقتلونهم بكل طريق، وذهب من فَرَّ منهم، وأكثرهـم في البحر إلى «دارين»، ركبوا السفن إليها، ثم شرع العـلاء في قسم الغنيمـة، ونقل الأثقال، وفـرغ من ذلك وقـال للمسلمين : إذهبوا بنا إلى «دارين» لنغزوَ من بِهَا من الأعـداء، فأجابوا إلى ذلك سريعا، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليها في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه، وهو

يقول : «يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا مُحي، يا قيوم، ياذا الجلال والإكرام، لا إلاه إلا أنت، يا ربنا»... وأمر الجيش أن يقولوا ذلك، ويقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة دمثة، فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقال عدوه، وقهرهم، واحتاز غنائمهم، ثم رجع، فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مُخبِراً، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع رجوع العلاء، فجاء بها، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم، فبلغ نَفْلُ الفارس ستة آلاف، والراجل الفين... وفي عبورهم البحر على تلك الصورة، قال عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلَّل بَحْرَهُ
وأنزل بالكفّار إحدى الجلائل
دعونا الذي شقّ البحار فجاءنا
بأعجبَ من فَلْق البحار الأوائل

فهم يرون أنها كرامة جاء الله بها على يدي العلاء بن الحضرمي...

وفي رواية : «أَتينا على خليج من البحر، ما خِيض فيه قبل ذلك اليوم، ولا خِيض بعد، فلم نجد سفنا، وكان المرتدون، قد أحرقوا السفن فصلى العلاء ركعتين ثم قال : يا حليم، يا عليم، يا علي، يا عظيم... أجزنا، ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال : جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة، فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم، ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، وفي رواية أخرى عن إبراهيم بن أبي حبيبة : حُبِس لهم البحر، حتى خاضوا

إليهم، وجاوزه العلاء، وأصحابه مشياً على أرجلهم، وكانت تجري فيه السفن قبل، ثم جرت فيه بعد...(38)

* * *

قوة الإيمان، وصلابة العقيدة :

لقد كانت النار تفقد خاصيتها وتفقد حقيقتها، وطبيعتها أمام هذا الإيمان، لأن الإيمان إذا كان أكثر التهابا، وإذا كان أكثر قوة، وإذا كان أكثر حقيقة من النار، فقد تكون تلك النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وعلى مَن أكرمه الله...

ونسوق قصة تدل على قوة الإيمان وصلابة العقيدة، ومتانة الدين لرجل صالح، ومسلم كامل هو أبو الخولاني الذي امتحن في دينه، ولحقته من الفِتن والبلايا والرزايا ما دل على عزة نفس، وصبر جميل، وقد ساق هذه القصة وبسطها أبو نعيم في الحلية، وابن الأثير في أسد الغابة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة وهي تشير إلى التربية الإسلامية القديمة التي أعطت للإنسان كرامته، وأحلته المحل الذي يستحقه في هذه الحياة...

فهذا أبو مُسلم الخولاني الذي كان يسمى بعبد الله بن ثُوَب، وهو من قبيلة «خولان» المشهورة في بلاد اليمن، كان رجلا ناسكا عابداً، يعد من كبار التابعين، أسلم في حياة الرسولﷺ وقبل وفاته، ولما جاء مهاجرا إلى المدينة، وجد الرسول عليه السلام قد مات، فهو لم يره، ولم يجتمع

---

37) ذكر ذلك ابن بشكوال، نقلا عن الناصري في «الاستقصا» ج : 1/ص : 97، و«النفح» ط 1949/1 ص : 2/239.

38) أنظر «حروب الردة» لمحمد أحمد باشميل ط : 1 ـ 1399 ـ 1979، ص : 234 ـ 235. انظر كتاب «التشوف، إلى رجال التصوف»، لابن الزيات ص : 63 – 64 – تحقيق : د. أحمد التوفيق.

به، كما هـو الشرط في الصحبة، لهذا فهـو غير صـاحب، جاء إلـى المدينة المنورة في خلافة (أبي بكر) الصديق رضـي الله عنه، فهو يمني من اليمن، ووقع له مع النبي الكذاب (الأسود العنسي) الذي ادعى النبوة في اليمن ما دل على قوة إيمانه وصدقه في ذلك الإيمان.

ذلك أن «الأسود العنسي» المذكور لمـا تنبأ في زمن الرسول محمدﷺ بعث إلى أبي مسلم ليحضر إليـه، فلما جـاءه قال له : أتشهـد أني رسول الله؟ فقـال له أبـو مسلم: ما أسمع، فقـال له الأسـود العنسي : أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم، فأعاد عليه الأسود العنسي قوله الأول، وأعاد عليه أبو مسلم قوله الأول كذلك، ووقع هذا بينهما مرات، فكل منهما تمسك بقولـه، ولما لم يؤمن أبـو مسلم الخولاني بالنبي الكـذاب الأسود العنسي وآمن بالـرسول الصادق محمدﷺ اغتـاظ لذلك الأسود العنسي وأمـر بنار عظيمة فأججت ثم ألقي فيها أبو مسلـم الخولاني، فلم تضره النار بشيء، وخرج منهـا بعد خمـودها فلم تحرق حتـى ثيابه، عنـد هذا قيل لـلأسود العنسي : أنفِهِ عنـك واخرجه من بلـدك وإلا أفسد عليك من اتبعـك، فأمره بالـرحيل والخروج من بلده، فخـرج أبو مسلم الخولاني من اليمن قـاصداً الهجرة إلى المدينة المنورة، فأتاها، وصل إليها وجد الرسولﷺ قد قبض، واستخلف أبو بكر رضـي اللـه عنه، فأناخ راحلته عند بـاب المسجد النبوي الشريف، ثم أتـى المسجد وقام يصلي إلى سـارية، فَـبَصُـرَ بـه عمر بن الخطاب رضـي الله عنه ـ وكان حاضـراً في المسجد ـ فقام إليه عمر وهو لا يعرفـه، غير أنـه سمع بما وقع لـه من المحن مع النبي الكـذاب الأسود العنسي، فقال له عمر : ممن الـرجل؟ فقال أبو مسلم : من أهل اليمن، قال عمر : مـا فعل الرجل الذي أحـرقه الكذاب بـالنار؟ قال : ذلك عبـد الله بن

ثوب، قال عمر : أنشدك الله أأنت هو؟ قال : اللهم نعم، فارتمى عليه عمر وقبله بين عينيه وبكى، ثم ذهب به إلى أبي بكر وكان جالسا في إحدى نواحي المسجد وأجلسه بينهما وعرفه به ثم قال : عمر ـ الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمدﷺ من فعل به ما فعل بإبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

ولقد وقع حريق ـ أيضا ـ في بيت زين العابدين بن الحسين، وهو ساجد، فجعل الناس يقولون له : يا بن رسول الله : النار، النار، فما رفع رأسه فقيل له في ذلك بعد تمام الصلاة، وقد انطفأت النار، فقال : «ألْهتني عنها النار الكبرى».

الفصل الخامس :

الطوفان

اختلف العلماء في كلمة «الطوفان» ومعناه، فعن أبن عباس : «الأمطار الغزيرة، المغرقة المُتلفة للزروع والثمار»، وبه قال الضحاك بن مزاحم، وعن ابن عباس في رواية أخرى هو «كثرة الموت»، وكذا قال عطاء، وقال مجاهد : الطوفان : «الماء والطاعون على كل حال»، وقالﷺ عن عائشة : الطوفان الموت».

* * *

ولا بد من أن نقدم بين يدي نَجْوَى هذا البحث للقارىء الكريم، وقبل الحديث عن موضوع الطوفان، نقول بأن الأرض متفاوتة الحظوظ من المطر، فمنها أماكن يكثر فيها، ومنها ما حظها منه قليل وهي كما قال أبو العلاء المعري :

فَرَبْعٌ يُخَطَّى الغمامَ
وَرَبْعٌ يُجَارُ، وَرَبْعٌ يُدَثْ

ويُدَثَّ، أي ينال قليلا من المطر،... وبالتالي فإن الماء يتوزع بصورة غير منتظمة على سطح الكرة الأرضية، إذ أن مجموع اليابسة لا تزيد على 149 مليون كلم² أي حوالي 2.29٪ من مجموع مساحة الكرة الأرضية بأجمعها، والتي تقدر بحوالي 510 مليون كلم² أي حوالي 8.70٪ من مجموع المساحة العامة للأرض، وبالإضافة إلى ذلك، فإن توزيع الماء واليابس لا يتجانس على نصفي الكرة الأرضية (في الشمال والجنوب) فأكثر نسبة في اليابسة تقع في النصف الشمالي، بينما النسبة العالية من الماء تتركز في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية...

* * *

وإن متناقضات العالم كثيرة ومدهشة، فبينما ينحبس المطر تماما في بلد ما، نجده في قطر آخر، يسقط بغزارة إلى درجة يصبح نقمة على الخلق، والزرع والضرع، ويبيت الغيثُ عيثاً.!!!

والرِّزق كالماء، بين الناس مُنقَسِمٌ
هذا غريقٌ، وهذا يشتهي المطرا

أو كما قال أبو تمام :

وإذا تأملتَ البلاد، رأيتها
تثري كما تثري الرجال وتُعدم
حظ تعاوره البقاع لوقته
وادٍ به صِفرٌ، وآخر مفعم

وهذا امرؤ القيس يشبه فرسه، في وثبها، بالسحاب الذي يسير فوق الأودية، فيتخطى بعضها، ويمطر البعض الآخر، حيث يقول :

لها وثبات، كصوب السحاب
فَوَادٍ خِطَاءٌ، ووادٍ مُطِر

وما أحلى ما قاله الحسين بن سراج :

بُثَّ الصنائع لاتحفَلْ بِمَوْقِعِها
فِيمن نَأى، أو دَنَا، ما كنت مقتدرا
فالغيث ليس يبالي حيْثُمَا انسَكَبَتْ
منه الغمائم تُرباً، كان، أوْ حَجَراً

* * *

فالماء صديقُ الإنسان وعَدُوُّهُ، خادِمُه وسيدُه، فأحد الناس يموت في الصحراء، لأنه لا يستطيع، حتى على قطرات من الماء، تحفظ له حياتَه، بينما يغرق آخر، لأنه لا يستطيع الإفلات من الماء الزائد عن حده، ونحن نتحكم في الماء بواسطة المسالك والقنوات لتحويل الصحراء الجرداء، ذات الرمال الوعساء، إلى حديقة غناء، ذات أزهار فيحاء، بينما هو يفيض في ظروف أخرى، ويتلف بيوتنا، وحقولنا على الرغم منا...

لذلك فهناك مناطق تعيش بلا تساقط الأمطار لسنوات عدة، وتنشد الماء فلا تجده، فقد ظلت «أكوبك» في الشيلي تعاني القحط والجفاف أربعة عشر عامـا، وتعيش مدن الصحراء الكبرى وجنـوب جمهورية مصر، والجـزيرة العربية، ووسط استراليا وصحاري آسيـا الوسطى فترات حادة جافة، من امتساك السقيا، وتوقف الحيا، وهـي تنشد الماء والمعجزة... ولكن الطبيعة الشحيحة تأبى أن تستجيب لآهات الجفاف القـاتل، والتربة الجرداء، والحر اللافح، والجو الخانق... بينما نجد في الطرف الآخر جهاتٍ تعيش خصوبة ممرعة، تَشْكُو غزارة الماء وتعيش تحت رحمة الفيضانات المخربة المدمرة، والطوفـان العارم المبيـد الذي يشكل خطـراً على الأرواح والممتلكات، وأداة تخريب لا تَـذَرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته طـافيا فوق السطح كـالغثاء، وقد أهلك الحرث والنسل...

ومن المُفيـد أن نذكر هنـا، وفي هذا المجـال أنه حتى في المـدن التي تعتمـد على أخطار أكيـدة في سـدٍّ احتياجـاتها مـن الموارد المـائية، فـإن الظروف المناخية المتغيرة قد تثير المتاعب، وتخلق من المشاكل ما لا يكاد يتوقعه النـاس، ففي عام 1950، مثلا، انخفضت الميـاه في خزانات مـدينة «نيويـورك» بحيث اضطر عمـدة المدينة إلى تأجيـر عمال لإسقـاط المطر الاصطناعي من الغيوم المنزرعة لهذا الغرض...

* * *

ويثير تباين توزيع المياه ـ من حيث الزمن ـ مشكلات تتعلق بالضبط والاستعمال... ففي أحيان كثيرة لا تتوافر المياه حينما تقوم الحاجة إليها أو أنها لا تتوفر بالكميات المنشـودة، ولذلك يتعين نقل المياه بواسطة أنابيب أو قنوات من مصدرها، وحتى نقطة استهلاكها.

أما الجفاف فيمثل أقصى طرف في مشكلة المياه، فمن المؤكد أن مئات الآلاف من البشر، ومن الماشية قد هلكوا في إقليم الساحل الإفريقي، وفي شمال «إثيوبيا» خلال عام 1975، وكذلك بعض المناطق الكبيرة في إفريقيا الغربية بسبب الجفاف الذي استمر فترة طويلة، كما تعرضت أروبا الغربية إلى أسـوأ فترة جفـاف عرفها الإنسـان خلال صيـف عام 1976، ما أضر

بالحرث والماشية، والزراعة والصناعة؛ أما الفيضانات فهي تمثل الطرف الآخر في مشكلة المياه، كذلك تتعاقب الفيضانات والجفاف في نفس المنطقة مما يترتب عليه نتائج مدمرة وآثار سيئة، وعواقب وخيمة بالنسبة للأراضي المنجرفة التي نزعت عنها تربتها السطحية الخصبة من جراء التآكل والتعرية...

وقد أسست لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية في آسيا والشرق الأقصى مكتب مكافحة الفيضانات، وتشجيع الإنماء المائي منذ عام 1949.

التحكم في فيضان الماء :

يلاحظ في كثير من البلدان بأن مياه الأمطار في مناطق المدن تجد الآن طريقها مباشرة إلى شبكات مصارف المياه، وبعد ذلك تتدفق عبر أقصر طريق ممكن إلى أقرب نهر، ويترتب على ذلك أن فيضان مثل هذه الأنهار يزداد، وهي ظاهرة لم تكن موجودة قبل نمو المدن واتساعها...

ففي أحد الأودية «بألمانيا» تسبب هطول الأمطار في ارتفاع منسوب مياه هذا الوادي مرتين في إحدى السنين... وأظهر بحث أجري في الولايات الأمريكية بأن الفيضان بات يحدث بصورة متكررة، ويشكل خطرا أكبر على مناطق المدن التي تقع غالبا بالقرب من الأنهار...

وتزداد درجة الفيضان بحسب نطاق اتساع المدن وتطورها، وحدثت بالقرب من «مرسيليا» في فرنسا في منطقة تشهد حركة عمران ضخمة منذ خمسة عشر عاما... وقيل إن الإسمنت كان العامل الرئيسي في هذه الكارثة وأصبح من الأهمية بمكان التحكم في فيضان الأنهار، وذلك عن طريق بناء السدود وخزانات المياه، وبات إلزاما تشييد هذه السدود والخزانات الاصطناعية لتؤدي دور الموانع الطبيعية التي تمت إزالتها...

وبعد؛ فما عن طوفان... نوح وسفينته؟

إن قصة الطوفان اليهودية لا تقبل دفـاعا، وهي تستغرق في المبالغات والمغالات والسذاجة، ولا يسلم بصحتها في الـوقت الحاضر إلا رجل يفكر في القـرن العشرين بعـد الميلاد تفكيـر الـذين كانـوا يعيشون في القـرن العشـــرين قبل الميـــلاد... رجلٌ يتمتع بعقل كعقـــول الأطفـال، وأحـــلام العصافير، وتصديقٍ ساذج كتصديق العجائز.

وإننا سنعتمد الاعتماد الكلي في قصة الطـوفان على ما ورد في كتاب اللـه عز وجل، ثم بعـد ذلك نثبت ما أوردتـه الثوراة في مسألـة الطوفـان لنعقِّبَ عليها، وندحض افتراءها...

الطوفان... وسفينة نوح!!

نجد حديث الطـوفان في القرآن يتكرر في أَكْثَـرِ من موضع، مع الكلام على جهاد النبي نوح عليه السلام، فيذكـر لنا القرآن، أن هذا الطوفان، كان عقابـاً لقوم نوح حين كذبـوا نبيهم، ولم يأخذوا بما جـاء به من الحق، ولم يسمعوا لما أراد لهم من الخير.

والقـرآن يـذكـر العقـوبـات الطبيعيـة التي سلطت على الأمم المكـذبـة لاستثارة العبـرة، واستجاشـة الموعظة والتـذكير بما أصـاب الذين كـذبوا رسلَهم من الآفات، وقد تكرر حديث الطوفان في سورة هود، وقص القرآن علينا في بداية الأمر دعوة نوح، عليه السلام، قومه إلى عبادة الله وحده.

* * *

وكان قـوم نوح قـد عكفوا على عبـادة غير اللـه، واتخذوا لهم أصنـاما يعبدونهـا من دونه... وقـد بذل نُوحٌ عليـه السلام منتهى وُسْعـه، واجتهد بغاية، إمكانه أن يتّبعه قومُه في الإيمـان بالله، وكان كلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلـوا أصـابعهم في آذانهم، واستغشـوا ثيابهم وأصـروا واستكبـروا استكبارا!!

* * *

ولما بلـغ نوح درجة اليـأس من إيمان قـومه بعد خمسيـن وتسعمائة سنة، على ما نصه القرآن، أقامها فيهم يـدعوهم ولا يألوهـم نصحا، كان ما قصه الله بقوله :

﴿وأُوحي إلى نـوحٍ، أنـه لن يومِنَ مـن قومِك، إلا مَن قَـدْ آمَن، فـلا تَبْتَئِسْ، بما كانوا يفعلون﴾ وتوجه نـوح إلى ربه بالدعـاء عليهم فقال : **«رَبِّ، لا تَـذَرْ على الأرض من الكـافريـن دَيارا، إنك إن تـذرهم يُضلـوا عبادك، ولا يلِدُوا إلا فاجراً كَفّارا».**

* * *

وأخيرا أمـره الله بعمل الفلـك لتكون أداة لنجاتـه ومن معه مـن الغرق العتيد أن يأتي على القـوم، فصاروا إذا مروا عليه سخروا منـه ومن عمله، ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه، أن علموا أنه يعمل تلك السفينة لينجوَ بها ومن معه من العذاب النـازل بهم استبعادا منهم لوقوعه؛ فكـان هو، أيضا، يسخـر منهم، ومن غفلتهم عن الحق، وبـلادتهم عن أخذ الحيطـة لأنفسـهم باتباعه بإحسان، وتنجية أنفسهم، وصار يتهددهم بذلك العذاب المهين!!

* * *

فلما أتم نوح عدته، وجاء الموعد، ورأى الأمارة التي بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان، وهو أن يفور تَنُّـور أهله الذين يعملون فيه الخبز، بأن يَنبَثِقَ الماء فيه... أمره الله تعـالى أن يحمل في السفينة أهله، ويدخل فيها من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين وأهله إلا زوجه!! وأن يأخذ معه من آمن من قـومه، وكـانوا قليـلا، قيل كانـوا ستة، وقـالوا، بعضهم كـانوا أربعين رجلا وامرأة، فلما استووا على ظهـر السفينة، حلت عزاليها السماء، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياه السفينـة ومَن فيها، ومكثت ما شاء اللـه أن تمكث إلى أن غـرق كل مـا على الأرض من إنسـان وحيـوان، ثم استقرت السفينة على الجودي...

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه، وكان في معزل عنه، وقال : ﴿**يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين!!**﴾ فأبى أن يلبي نداء والده المشفق، لأنه لا يثق بصدق والده من أن كل من كان خارجا عن السفينة هالك... «**قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**» فهلك ذلك الولد...

* * *

وأراد نوح أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله، فقال : «**رب، إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكمُ الحاكمين**» فرد الله عليه بأنه ليس من أهله... وعاتبه في أن يسأله ما ليس له به علم، إذ كان من حق نوحٍ أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم، فاعتذر نوح عن ذلك، وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه، إلى أن تمت المدة التي لم يكن للسفينة أن تقر فيها على الأرض، واستوت السفينة على جبل الجُودِي من «دِيار بكر» وخرج مَن في السفينة وبارك الله فيهم، فكثروا، وملأوا الأرض، ولم ينسل مَن كَانَ مع نوح من غير أبنائه، قال الله تعالى : ﴿**وجعلنا ذريتَه هم الباقين**﴾ وهكذا رسا الفُلْكُ أخيرا على جبل «إرارات» وانبعثت الحياة من جديد...

يقول الله عز وجل، في سورة هود :

﴿**واصنَع الفلكَ بأعيننا وَوَحْينا، ولا تُخَاطِبْني في الذين،ظلموا إنهم مغرقون، ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخِروا منه!! قال: إن تسخروا منا، فإنا نسخَر منكم، كما تسخَرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزِيهِ ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم، حتى إذا جاء أمرُنا، وفارَ التَّنُّور، قلنا : احمِل فيها من كل زوجين اثنين واهلَك، إلا مَن سبق عليه القول، ومَن آمن، وما آمن معه إلا قليل!!!؛ وقال: اركبوا فيها باسْم اللهِ مجراها ومُرساها، إن ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم، في موجٍ كالجبال، ونادى نوحٌ ابنَه، وكان في مَعْزِلٍ، يا بني اركبَ معنا، ولا**

تكن مع الكافرين! قال سآوي إلى جبل يعصِمُني من الماء، قال: «لا عاصم، اليوم، من أمر الله إلا من رحم»، وحال بينهم الموج، فكان من المغرقين، وقيل : يا أرض أبلعي ماءك، ويا سماءُ اقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بُعداً للقوم الظالمين، ونادى نوحٌ ربَّه، فقال : ربِّ إنّ ابني، من أهْلِي، وإن وعدَكَ الحق، وأنتَ أحكم الحاكمين... قال : يا نوحُ إنه ليس من أهلك، إنه عملٌ غير صالح، فلا تسألني ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون مع الجاهلين، قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم.. وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين، قيل : يا نوح، اهبط بسلام منا، وبركاتٍ عليك، وعلى أمم ممن معك، وأمم سنمتعهم، ثم يمسُّهم منا عذابٌ أليم...﴾

* * *

ويجدر بنا بعد أن أتينا بهذه الآيات البينات من سورة «هود» أن نطرح، كغيرنا، عدة تساؤلات يقتضيها المقام، وهي :

1 ـ أين الجودي الذي استوت عليه سفينة سيدنا نوح؟

2 ـ ما حجمُ سفينة نوح.

3 ـ ما هي مسألة نوح في ابنه؟ وهل كان ابنه حقيقة؟

4 ـ ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الهالكين من آبائهم؟

5 ـ هل عم طوفان نوح الكرة الأرضية؟

* * *

أين استوت سفينة نوح ؟

الجواب عن السؤوال الأول، فالتوراة تذكر بالإشارة إلى أن السفينة استقرت بجبال «أَرَارَاتْ»، ويسلم الجميع بأن «أراراط» لم تكن تعني في ذلك الحين جبلا محددا، بل منطقة واسعة جدا، سميت فيما بعد «أرمينيا»، وهي تشمل أجزاء من تركيا الحديثة وإيران والعراق والاتحاد السوفياتي ومآت من القمم...

وفي الحقيقة فإن معظم المسلمين، مع عدد كبير من النصارى واليهود الشرقيين، لا يعتقدون أن الفلك رسا على ما يسمى اليوم جبل «أراراط»، لكن الأرمن، الذين عاشوا حول جبل «أراراط» منذ فجر التاريخ كانوا دائما متأكدين تماما من أن الفلك استقر هناك...

وبما أن «أراراط» أكثر الجبال ارتفاعا في تلك المنطقة كلها، فلا بد من أن تكون قمته هي الأولى التي برزت فوق الماء، وبالتالي المكان الذي رست فيه السفينة...

إن جبل «أراراط» أو «أغري داغ» كما يسميه الأتراك، يستثير الوقار، لا شك في أن هناك جبالا كثيرة تفوق علوه البالغ 5,165 مترا، لكنها محاطة بجبال مخفوضة تحد من جلالها...

أما «أراراط» فينتصب منعزلا متشامخا إلى ارتفاع 4,267 مترا، فوق السهول في أطول منحدر متناسق في العالم، ويبلغ قمة تكتسي بالجليد الأبدي والثلوج والسحر...

* * *

إن الأساطير عن مثل هذا الطوفان قديمة ومستمرة كالزمن، فمنذ 6,000 عاما على الأقل، أي قبل كتابة التوراة بوقت طويل، كان الشرق الأوسط مسرحا لقصة مثيلة لسفر التكوين تطلق فيها على نوح أسماء مثل «اينا بشتيم» أو «كسيسوثروس« ودامت فيها السيول الجارفة ستة أو أربعة أيام بدلا من أربعين يوما، وتقول الرواية البابلية، إن الآلهة أغرقت الجنس البشري لسبب بسيط، هو أن الإنسان قام بضوضاء صاخبة حرمت الآلهة النوم!!!

* * *

أما الأرمن فكانوا واثقين من أن السفينة رست فوق قمة جبلهم المقدس، وكانوا مقتنعين كذلك بأن أحداً لم يتسلق القمة على الإطلاق، أو

يستطيع أن يصل إليها بالنظر إلى ما هي عليه من الارتفاع والرهبة، وقد ذهلوا عندما قام الأستاذ الألماني الروسي «ج.ج. فريدريك باروت» متجاهلا محرماتهم بتسلقها عام 1829م؛ وهناك عشرات المتسلقين بلغوا القمة بعد «باروت».

أما الزعيم بين «الأثريين» فهو «إيرل كامينغز» من مدينة «فارمنتغون» من ولاية نيو مكسيكو الأمريكية الذي تسلق «أراراط» خمس مرات، وأن ملفاته الواسعة عن ألغاز الفلك موجودة ومتوافرة لأي باحث محتمل، وهي تنطوي على كل شيء ابتداء من الترجمات لقصص الطوفان السومري المحفورة في لوحات صلصالية منذ آلاف السنين، وانتهاء بقصاصات من جرائد الأمس؛ وأن بعض مواده هي مخطوطات علمية، أما أغلبيتها فهي غامضة ومنسوبة بأفكار التمنيات الذاتية، هذا ما كتبه الأستاذان «كريستيان هيرالد»، و«غوردون غاسكيل» في مجلة، المختار.

* * *

هناك حكاية شعبية في الأردن، وخصوصا في منطقة «الكرك» جنوب الأردن، تقول : «إن سفينة نوح استقرت على أحد الجبال الذي يقع غرب «مدينة الكَرْك»، وبوُسع أي مواطن كركي أن يثبت لزائره ما يؤكد «الحكاية» بأن يدله على الجبل الذي تأخُذُ قمته شكل السفينة الحجرية، ويقول لك : «ها هو الجبل الذي استقرت عليه السفينة، وإذا سألته عن أي دليل علمي أو تاريخي يؤكد ذلك، ينظر إليك مستهجنا، لأنك تلقي بظلال من الشك على حكاية شعبية توارثها الناس جيلا بعد جيل...

والحكاية بطبيعة الحال، تبتعد كثيراً وكثيراً جدا، عن المنطوق التاريخي والعلمي الذي يحدد قمة جبل «أرارات» في تركيا في أقصى شرق الأناضول كمكان محتمل لرسو سفينة سيدنا نوح بعد الطوفان...

* * *

رائد الفضاء الأمريكي «جيمس إيروين» أول من سار فوق سطح القمر عام 1971، كَرَّس حياته في ما بعد، لتسلق جبل «إرارات» في محاولة للوصول إلى قمته للبحث عن السفينة الراسية، والتي قاومت الطوفان...

«إيروين» حاول الوصول إلى قمة الجبل أربع مرات خلال سنوات السبعينات، ولكن محاولاته أسفرت عن لا شيء، رغم أنه أعلن في المرة الأخيرة في عام 1987 أنه لن ينزل عن الجبل، إلا بعد العثور على آثار السفينة الأسطورية، لكنه قرر العدول عن أبحاثه، والاستمرار في رحلته، وهو على مقربة من القمة بسبب حالة الإرهاق الشديد التي أصابت أحد رفاقه من جراء الارتفاع.!

ويُعتبر «أيروين» واحداً من العلماء الأصولين المسيحيين في أمريكا، والذين يتخذون من مدينة «سبرينجر» في ولاية «كلورادو» مقراً لهم، ووضعوا صوب أعينهم البحث عن السفينة معتمدين على ما جاء في «سفر التكوين» من أنها رست في نهاية الطوفان على قمة جبل «أرارات»

وبطبيعة الحال، فإن جمعية «إيروين» ليست الجمعية الوحيدة التي تحاول العثور على سفينة نوح فوق قمة «أرارات» انطلاقا مما ورد في سفر التكوين «العهد القديم» بهذا الصدد، حين حاول رجال دين مسيحيون، وعلماء أصوليون على مدار أكثر من ثلاثة عقود، التنافس فيما بينهم للوصول إلى قمة ذلك الجبل، بحثا عن السفينة إلى حد أن الأمريكي «رون وايت» من مدينة «ناشفيل» بولاية «تنسي» الأمريكية، قام برحلة على رأس مجموعة من الأصوليين المسيحيين إلى هناك، وخرج بنظرية جديدة تقول : إن السفينة ليست على قمة بركان «أرارات»، بل تقع على بعد حوالي ثلاثين كليمترات جنوب البركان...

ورغم تأكيدات «وايت»، فإنه لم يستطع في ما بعد إثبات ما ذهب إليه... وأما الأمريكي الأصولي «مارفن ستيفنز» الذي قام بمحاولات مماثلة، فقد دخل في جدل حاد مع «ايروين» ومع «وايت» حيث تقول

وجهة نظره، بأن السفينة ليست على القمة، وليست بعيدة عنها في الجنوب كما ذكر «وايت» بل أكد «ستيفنز» بدوره أن السفينة تقع على سفح الجبل على ارتفاع (1585) مترا...

وفي ضوء التنافس الأصولي المسيحي في البحث عن سفينة الطوفان، تظل حقيقة السفينة خالدة لا لبس ولا شك في وجودها حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم(1)... ولكن المشكلة في ما يبدو تكمن عند عدد من المغامرين الغربيين الذين يعشقون مزاوجة الحقائق الدينية بحقائق مادية ملموسة، وذلك على اعتبار أن «سفر التكوين» ورد فيه فصل عن المكان المحدد الذي رست عليه سفينة نوح، إلا أن جهود البحث والتنقيب في نفس المكان المزعوم أثبتت حتى الآن أنها لا تختلف كثيرا عن الحكاية الشعبية المتوارثة، وإن كانت حكاية أهل «الكرك» قادرة على الأقل أن تقدم الدليل الملموس على وجود السفينة... ويبقى بعد ذلك أن تصدق ما ذهبت إليه الحكاية، أو تنتظر كي يثبت الأصوليون المسيحيون المتنافسون أنهم عثروا على السفينة...

وقد أجاب عن هذا السؤال، أيضا، المرحوم الأستاذ العالم الجليل عبد الوهاب النجار مدرس التاريخ الأسلامي بكلية أصول الدين، وناظر مدرسة المرحوم عثمان ماهر باشا في كتابه القيم «قصص الأنبياء» حيث قال : «إن جبل «الجودي» في نواحي «ديار بكر» من بلاد الجزيرة، وهو يتصل

---

1) وهو استقرار السفينة على جبل الجودي في العاشر من المحرم يوم عاشوراء، فصامه نوح ومن معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه شكرا لله تعالى... استوت السفينة على الجودي، وبقيت عليه أعوادها... وفي الحديث الشريف أن النبيﷺ قال : «لقد بقي منها شيء، أدركه أوائل هذه الأمة «وقيل إن الجودي اسم لكل جبل ومنه قول ابن زيد ابن عمرو بن نُفَيل :

سبحانه، ثم سُبْحَاناً يعودُ له
وقبلنا سَبَّح الجودي والجَمَدُ

ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد عليه السلام.

بجبال أرمينية... قال في القاموس : «والجودي : جبل بالجزيرة، استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة «أراراط».

أما الجواب عن السؤال الثاي الذي يتضمن «حجم سفينة نوح»؟

شكل الفلك لا يصفه سفر التكوين إلا بأنه يشبه السفينة، بل كل ما يذكره هو صندوق خشبي مستطيل وضخم، قادر على العوم، تحت وطأة الريح والموج... لكن أي صندوق هو؟ إن طوله 274 مترا، وعرضه 46 مترا، وارتفاعه 27 مترا، ولو أخذنا أقصر ذراع عند القدماء، لظهر الفلك لنا بطول 137 مترا، وبعرض 23 مترا، وبارتفاع 14 مترا أي نصف قياس سفينة «كوين ماري».

***

أما شكل الفلك في القرآن أو حجم سفينة نوح، فيقال بأن حجمها وأبعادها لم ينص عليها في القرآن، وإنما وصفت بأنها : «الفلك المشحون» وبأنها : «ذاتُ ألواح وَدُسُرٍ» أي مسامير...

أما التوراة فقد ذكر حجمها في صفحة 6 تكوين 14 : «أصنع لنفسك فلكا من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل وخارج بالقار، 15 وهكذا تصنع ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعا عرضه، وثلاثين ذراعا ارتفاعه، 16 وتصنع كُواً للفلك، وتكمله إلى مد ذراع من فوق، وتضع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية، ومتوسطة، وعلوية تجمله» : «التوراة».

أما السؤال الثالث والمتعلق بمسألة «نوح في ابنه؟ وهل كان ابنه حقيقة؟

وأجيب. أما كُونه ابنه، فظاهر القرآن أنه ابنه حقيقة، وإنما نفى كونه من أهل نوح، لأن النجاة إنما تكون للمؤمن، فأخذ نوح بظاهر قوله تعالى :

﴿**إنا منجوك وأهلك**﴾ وغفل عن شرط النجاة، وهو الإيمان بنبوة نوح، وما جاء بـه من الحق، وأن الأهلية الحقيقيـة تكون معـدومة الثمـرة مع الكبر، ومجانبة الإيمان، ومخالفة الداعي إليه، فهي وسيلة لاغية وسبب منقضب، وهو الرأي الذي مال إليه عبد الوهاب النجار صاحب الكتاب المذكور؛

وقال آخرون : إنه كان ابنَ إمرأته من غيره، ولم يكن ابنا حقيقيا له، بل كان ربيبـاً نشأ على أن يناديـه نوح بلفظ ابنه، وكـان كافـراً وظن نوح أن وجوده في حجره يدخله في أهله الذين وعد من الله بنجاتهم...

وقال غيرهم : إنه كان من الزنا، ونوح لا يعلم بذلك، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى : ﴿**إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح**﴾ وبقوله تعالى : ﴿**ضرب اللــه مثلا للـذين آمنوا امـرأة نوح، وامـرأة لوط، كـانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النــار مع الداخلين**﴾ والذين يخالفونهـم يستبعدونه ويعدون أن تكون امرأة أحـد الأنبياء زانية، لما في ذلك من الهجنـة على النبي، وقد فات هـؤلاء، كما قال الشيخ عبـد الوهاب النجـار، أن الكفر أشد من الـزنا ذنبا، وامـرأة نوح قد ضربهـا الله مثلا في الكفر، ومن أتى الـذنب الأكبر، يهون عليه أن يأتي بما هو أصغر منه، قال عبد الوهاب النجار : وإن كنت لا أقول إنه من الـزنا، وإنما أنا أناقش مبدأ عصمة نســاء الأنبياء فقط وما كان من الأمر، فـالمناقشة غير مجديـة، ولا نخلص منها إلى رأي قاطع في الموضوع، وإنما هي احتمالات، وقد علمتم ميلي الرأي الأول وهو أنه ابنه حقيقة...

* * *

ولعل الذين يـريدون إبعاد ابن نـوح الهالك عنه يرون عظيمـا أن يكون ابن النبي المرسل كافرا، فهم يريدون إبعاده عنه بكل وسيلة... أما الأستاذ عبد الـوهاب النجار، فلا يـرى بُعداً في ذلك، ولا غضاضـة منه على النبي،

وأي فرق بين أن يكـون ابنه كـافرا، وبين أن يكـون أبوه كـافرا، وقـد كان إبـراهيم مرســلا نبيا، وأبـوه كافـرا يعبد الأصنـام، وينحتها، ويبيعهـا من عبـادها... وهـؤلاء اليهود أبنـاء يعقوب بـن إسحاق ابن إبـراهيم، قد كفـر بعضـهم، ولعنهم اللـه، وهم بنـو الأنبيـاء : **﴿لُعِنَ الـذين كفـروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾.**

بقي السؤال الرابع، والذي يبحث عـن ذنب الأطفال من قوم نوح... لماذا هلكوا مع الهالكين؟ ومـا هو ذنبُهم؟ فهل أُثموا مع الآثمين آبائهم وأمهاتهم؟

من القواعد العامة أن «لكل نفس بما كسبت رهينة»، «ولاتزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى»... وقد درجت عادة الله وسنتـه أن المصيبة لا تصيب الذين ظلموا خاصة؛ فإذا علم الظالمون المشـركون بهلاك أولادهم معهم، فإن ذلك مما يقطع نياط قُلوبِهم، ويزيد في تعذيبهم وتبكيتهم، على أننا في كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمـراض، وليس ذلك عقابا بالأطفـال على ذنوب ارتكبوها، وجـرائم اجترحوها أو آثـام اقترفوها، لكن ذلك مـن باب وجود المسبب عنه وجود سببه، وتلك الأسباب هي العلل والأمراض التي هي جند الله : «**وما يعلمُ جنـودَ ربك إلا هو**» والنبي عليه السـلام يقول : «**أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال : نعم، إذا كَثُر الخبث!!**»

وقد تكلف بعض المفسرين والعلماء فقـالوا : إن الله تعالى أعقم أرحام نساء قـوم نوح قبل الطـوفان بأربعين سنـة، فلم يولد لهـم في تلك المدة مولود، وبذلك اشترك جميع قومه في الإثم والضلال، وهم مكلفون، فحقت عليهم كلمـات ربك صِدقـا وعَدْلا، لا مبـدِّل لكلمـاته، وهـو السميع العليم، فذاقوا وبال أمرهم، وحاق بهم الهـلاك، وسِـيـمُـوا الخسف والهوان، ولهم عذاب أليم...

والسؤال الأخير والخامس هو، **«هل عَمَّ الطوفان الكرة الأرضية؟»**

قد تحدث الأستاذ عصام الدين حفني ناصف في كتابه «اليهودية في العقيدة والتاريخ» عن مدى ما وصل إليه طوفان نوح في بقاع الأرض فقال: «إن صناع التوراة لم يرقهم أن يكون شأن نبيهم العِبْري نوح هينا كشأن النبي العربي صالح، ولم يُرضِهم أن ينحصر طوفان نبيهم وراء حدوده المحلية، ولم يقنعوا بأقل من إغراق الكوكب الأرضي من أكنافه الأربعة، ورأوا ألا تكون قصة الطوفان قصة مستقلة، قائمة بنفسها، فوصلوها بغيرها، ليجعلوا منها فصلا هاما في ملحمة صهيونية يهودية طويلة مفادها، أن الله اختبر عباده فأبدى بنو آدم من بادىء الأمر كثيرا من سوء السيرة، وخبث السريرة، وما فتئت ذرية آدم تزداد على الزمن ارتداغا في الأوحال، وإيغالا في الآثام حتى أصبحت لا تطاق فلم يجد خالق الأرض مندوحة عن إغراقها : ما عليها ومَن عليها، لم يستحيي من بني آدم كلهم غير نوح وبني نوح وزوجاتهم، فجماع البشرية في الوقت الحاضر هم بنو نوح، كما أنهم بنو آدم...

على أن الطوفان الذي أغرق الناس لم يغرق الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ومن ثم لم يبرح الناس سادرين في مهاوي الغواية، لا ينبو عنهم في ذلك سوى بني إسرائيل، فاتخذهم الله شعبا مختاراً له، وارتضى لهم الصهيونية شعارا، وإبادة جيرانهم العرب مذهبا، وواثقهم على أن يقطعهم أخصب الأودية المعروفة في ذلك الزمان، وسائر البقعة الوسيطة من الأرض المترامية بين النيل والفرات.

«في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلا : لِنَسْلِك أُعطِي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»...

* * *

إن قصـــة قوم نــوح في القرآن الكـريم لمختلفـة في الأهمية كثيـرا عن قصص عاد وثمود وغيرهم بل هم سواء :

﴿ألم ياتكم نبـأُ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمـود والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا اللــه، جاءتهم رسلهم بالبينات فـردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا : إنــا كفرنا بما أُرْسِلْتم به، وإنا لفي شك ممـا تدعونا إليه مريب﴾.

وهكذا عـرض القرآن الكـريم لطوفان نـوح غير مـا مرة، وذلك عنـدما استغلظ أمر المشــركين، ولقي الرسول منهم عَنَتــاً فادحا، نـزلت آيات من القرآن تتـرى تندرهم بوخامــة عاقبتهم، وتبصرهم بمـا حل بأقوام قبلهم، بغوا على أنبيائهم فأهلكهم الله بوسائل شتى...

* * *

وإن مســرح الأحداث في كل قصـــة من قصص القرآن لم يكن يتجـاوز قرية واحدة أو بضع قُرَى متجاورات، وليس يشذ الأمر عن ذلك فيما يتصل بقوم نــوح، فقد أهلك الله قـريتهم بالطـوفان، أي بفيضان عـارم من دجلة والفرات كـان عنيفا مخيفا، كـذلك الذي دهم أهل العـراق في أوائل من عام 1839، إذ طمت أمـواه الرافـدين، فطغت في شــوارع بغـداد وما إليهـا حتى ناهزت مترين، وركبت البلاد، حتى كـانت السفن تمخر فيها، وكان المرء لا يبصر أينما ضرب ببصره غير لُجَّة، لا يـدرك الطرف مداها، ولا يبرز منها غير ذُرَى المآذن، وشطب النخيل، وهو سعفها الأخضر.

على أن الأستاذ عبد الوهاب النجار، أجاب بأن العلماء يميل إلى عمومه؛ ويقول علماء الجيـولوجيا، إننا كلما بحثنـا في أعالي الجبال، وجدنـا بقايا حيـوانيـة من الأحياء التــي لا تعيش إلا في المــاء، وهذا يستـدعي وجـود طوفان على هذه الجبال، بل عدد من الطـوفانات لوجود الاختلاف في عمر

هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها، ويكون قد عمّ، ويستأنس لذلك بقوله تعالى : **﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾**.

* * *

ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاما، بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه، وإما بقية بقاع الأرض، فلم يعمها هذا الطوفان، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم. وأنتم تعلمون أنني غير واثق من التاريخ الذي تقدره التوراة؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعدا يشمل ما يدعيه أهل الهند...

وعلى كل حال، فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول، فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحا، ومن معه في الفلك، وجعل ذريتَه الباقين، فالعموم محتمل، والخصوص محتمل...

والذين يميل إليه الأستاذ المرحوم عبد الوهاب النجار أن يكون الطوفان خاصا، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشرا في جميع الكرة، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا، وبقي نوح وذريته...

متى ابتدأ الطوفان؟ ومتى انتهى؟

ذكرت التوراة أن الطوفان ابتدأ في السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه السلام... وأن نوحا مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما... بل إننا نجد كثيرا من الأنبياء وغيرهم في غابر الأحقاب والأزمان، وفي دنيا

الماضي البعيد عمروا عمرا مديدا... طالما أننا لا نجد في العصور المتأخرة من عمر عمرا مثل تلك الأعمار...

فكيف تفسير ذلك؟

هناك عدة آراء، وهي أن الأقوام الأولين كانوا كل شهر عاما، فإذا قالوا ألف ومائتي سنة، فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا.

قال تعالى في سورة المعارج : ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾. يقول تعالى في الآية التي قدم فيها الملائكة، لأنهم في عالم الأرواح، واتبعهم بأرواح المومنين، فإنها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعدها الملائكة، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله، ومهبط أمره في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سني الدنيا، وليس ذكر الخمسين ألف سنة، ولا ذكر سنة للتحديد بالمدة، بل المقصود أن مقام القدس الإلاهي بعيد المدى عن مقام العباد...

فهذا هو العروج الذي تعرجه الأرواح، وهذا العروج لا نهاية له، فليعد بألف بخمسين ألف سنة، أو فليعدَّ بأضعافها، فالمقصد المراتب العظيمة... ولا مفهوم للعدد...

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ قال : «هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك... قال الأمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة عن ابن سعيد قال : «قيل لرسول اللهﷺ : «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة... ما أطوَل هذا اليوم!!؟ فقال رسول اللهﷺ : «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا...»

وقال تعالى في سورة الحج : **﴿ويستعجلونك بالعذاب، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾**.

السنن واحدة، وسيكون ما سيحل بكم مضاهيا لما حل بمن كان قبلكم، وإذا قلتم قد طال العهد، ولم يحلّ العذاب... فأين العذاب؟؟!!

إن الله حليم، وألف سنة عنده، كيوم عندكم، بل ليس عند ربك صباح ولا مساء، بل الصباح والمساء والزمان تحت أمره، والسموات مطويات بيمينه، وعلى ذلك ينفذ وعده بعد أمدٍ طويل عندكم، قريب عنده، كما قال **﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾** إن كل ما هو آت قريب، وذلك إشارة لعذاب الآخرة، فإذا تأخر عشرين ألف سنة مثلا، فهي كعشرين يوما عندكم، وهذا شيء قليل... ولا يكون ذلك، إطلاقاً، إخلافاً للوعد...

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال : «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت : «وما مقدار نصف يوم؟ قال : «أو ما تقرأ القرآن؟ قلت : «بلى» قال : **﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾**.

وعن سعد بن أبي وقاص عن النبيﷺ : إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد، وما نصف يوم؟ قال : «خمسمائة سنة».

وعن عكرمة عن ابن عباس : **﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾**، قال : «من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض» وقد نص عليه أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية» وقال مجاهد : «هذه الآية كقوله : **﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾**.(2)

---

2) للكندي فيلسوف العرب : «رسالة فيما حكى من أعمار الناس في الزمن القديم» [ج : 6 ص: 539 هدية العارفين].

وقد روى بن جبير عن ابن عباس رضي اللـه عنهم أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة...

قلنا إن الأقوام الأولين كانوا يحسُبون كل شهر عاما.

هذا أبو العلاء المعري، يعجب من اختلاف الناس في العقائد والفرائض، والمحللات والمحرمـات، واشتراط المهور في الزواج، وإباحتـه في السَّبايا، فيما المـوت واحد، يأتي على الجميع لا يفـرق بين حاكم ومحكـوم، بل إنه يقول بأن الناس تجـاوزوا الاعتقادَ والعُرف إلى المعقول والمحـال، فأحالوا المعقـول، وقبلوا المحـال، نظير الأعمـار التي بلغت مـآت السنين، ولعلهم اعتبروا الشهر عاما، بدأ بـالهلال، وانتهى بالمحاق، وإلا كان الخلل، إما في الخبر، وإما في العقل! فَحُمِّلُوا المُثْقِلات، وتحملوا المشقات العِظام، ثم بليت ظهورهم في بطون القبور.

أسمعه يقول :

إختـــلاف قـــد عَمَّنَـــا فـي اعتقـــادٍ
وصـــــلاةٍ لـــــرّبِنـــا وَطُهُـــورِ
ونســـــاءٌ مَمْهُـــورةٌ في البَـــرَايَـــا
وسبـــايـــا سيقـت بغيـــر مهـــور
ورأيـت الحِمَـــــام يأتـي علـى العــــا
لَـــمِ من قـــاهـــرٍ، ومِن مَقْهُـــور
ورَوَوْا للمعمَّـــــــرين أمــــــوراً
لَسْتُ أدري مــــا هُنَّ فـي المشهـــورِ
أتـــــرُاهُم فِيمَـــــا تَقَضّى مـن الأ
يـــامِ عَـــدُّوا سِنِيَّهُـمْ بِـــالشهـــور
كلمـــــا لاحَ للعيـــــونِ هـــلالٌ
كـــان عـــامـاً لـديهِمُـوا في الـدهـور

هكـــــذا ينبغـي؛ وإلاَّ فـــــإن الـــــ
ـــعقل يُـــثْنَى في حـــالـــة المبهـــور
حُمِّلـــــوا المُثْقِـــــلات ثُمَّتَ أَضْحَـى
في بطـــون الأحـــداث بـــالـي الظهـــور

* * *

هذا رأي مقبـول ومعقول، وهنـاك رأي يأخذ به الأستـاذ عبد الـوهاب النجار، وهـو أنه لا يـرى مانعـا من أن يعمر آدم، ومـن قرب منـه أعمارا طـويلة، لأن النـوع الإنسانـي كان في بـدء نشأتـه لم يحمل همومـا، ولم تعتـوره الأمـراض المختلفـة، ولم تنهكـه قـوة الأطعمـة التي لا يقـدر على هضمها، فكان من المعقول أن يعيش طويلا، وأمـا نحن وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرنا فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الأنساني الأمراض وطحنته الأدواء، فالواحـد منا عصارة آلاف الأمراض التي انتابت آبـاءَه وأمهاتِه، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل...

ويقول بعض علمـاء الألمان وغيرهـم : إن إنسان هذا الـزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتبع نظاما خاصـا...

ونجـد في الأدب الكبير لابن المفقع مـا يـؤكد هـذا المعنى، قال : «إنـا وجدنا الناس قبلنـا أعظم أجساما، وأَوْفَرَ مع أجسامهم أحـلاما، وأَشَدَّ قوة، وأحسنَ بقوتهم لـلأمور إتقانا، وأطـول أعماراً، وأفضلَ بأعمارهم لـلأشياء اختيارا...

فكان صـاحب الدين منهم أبلغ في أمـر الدين عملا وعلمـا من صـاحب الدين منا، وكان صـاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل...

ووجدنـاهم لم يرضـوا بما فـازوا به من الفضل الـذي قُسِمَ لأنفسـهم، حتى أشركونـا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخـرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وضـربوا الأمثال الشـافية، وكفونا به مؤونة التجارب والفِطَن...

وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يُفتَحُ له الباب من العلم، أو الكلمةُ من الصواب، وهو في البلد غير المأهول، فيكتُبُه على الصخور مبادرةً للأجل، وكراهيةً منه أن يسقط ذلك عمَّن بعده، فمنتهى عِلم عالِمِنا من هذا الزمان، أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان مُحسِنِنا أن يقتدي بسيرتهم...

* * *

وإنِّي لعلى خلاف مع ابن المقفع في بعض ما أورده؛ إن معارف الإنسان ومعلوماته اليوم بلغت حدا لم تبلغه في الماضي، إلا أن هذا الفيض من المعارف والمعلومات، جعل الإنسان حائرا، لا يَدْرِي ماذا ينتقي؟ وهذه الحيرة مردها إلى سوء أساليب التربية الفكرية التي تهتم بنقل المعلومات دون الاهتمام بتدريب العقل أو الذكاء على التفكير القويم... القضية ليست في المعارف الكثيرة، بل في غربلة هذه المعارف والربط بينَها، واستنتاج القاعدة التي ينبغي اعتمادها للعمل... لتكوين مثقفٍ حَقاً وصدقا...

قصة طوفان نوح من التوراة...

ذكرت قصة طوفان نوح بتفصيل في التوراة بعبارات واسعة حيث لجأ كتابها إلى محاولة إسقاط مروءة الشعوب المعروفة لهم، فألصقوا وبزعمائها من المخازي ما يسف بهم إلى دركات أحط من درك اليهود وأقاموا في سفر التكوين سلسلة من المصافي تحجز كل مصفاة منها شعبا من الشعوب بعد أن يحمله الأحبار المؤلفون من ضخام الأوزار ما تضيق إزاءه ثقوب المصفاة عن إمراره.. وكان طوفان نوح هو المصفاة الأولى، وقد سدت الطريق في وجوه بني آدم ليقتصر المرور على بني نوح، وهم طلائع بني إسرائيل...

وَإنَّ قصة طوفان نوح في التوراة تخالف تماما ما جاء في القرآن الكريم مخالفة سلبية، بمعنى أنها سكتت عن بعض الأشياء المذكورة في القرآن فلم تتعرض لها... فهي لم تتحدث عن :

1 ـ مسألة ابن نوح، واسمه كنعان...

2 ـ مسألة زوج نوح، لم تذكر أن نوحا كانت زوجته كافرة، وهلكت مع قومه الكافرين الهالكين، بل ذكرت أنه أمر أن يدخل مع قومه الكافرين الهالكين، بل ذكرت أنه أمر أن يدجل زوجته السفينة مع من دخلها من المومنين، فدخلت ونجت، وهذا ليس دليلا على أن نوحا لم تكن له زوجة كافرة... لاحتمال أنه كان له زوجتان، إحداهما كافرة هلكت، والأخرى كانت مومنة نجت...

3 ـ إن القرآن لم يتعرض لعموم كل الأرض بالطوفان، والتوراة تعرضت لذلك، ونصت على أن الأرض قد علاها الماء خمس عشر ذراعا، وباد كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير وذبابات على وجه الأرض، والقرآن لم يذكر إلا إغراق قوم نوح وامرأته، وأنه جعل ذريته هم الباقين.

قصة الطوفان في الأدب العربي :

ليس في الكتاب الكريم، بعد ذكر التكوين، واقعٌ أخطر من الطوفان في عهد نوح؛ ولا شك أن عرب الجاهلية نقلوا الخبر عن أهل الكتاب، ولا سيما النصارى، منهم الأعشى الكبير حيث قال يمدح إياساً، ويشبهه بنوح في صنع سفينتِه(3) :

جزى الإلاه إياساً خير نعمته
كما جزى المرءَ نوحاً بعد ما شابا

3) «شعراء النصرانية» ص : 389.

في فلكـــه، إذ تبــــدّاهـــا ليصنعهـــا
وظل يجمـع ألـــواحـــا، وأبْـــوَابَـــا(4)

ومنهم أمية بن أبي الصلت، روى الجاحظ له في كتاب الحيوان، والمقدسي في كتاب «البدء» أبياتاً منها قوله يذكر نجاة نوح وأهله، وحلوله على جبل الجودي الذي فوقه نزلت سفينته على ما قال العرب :

إلى أن يفـــوتَ المـــرءُ رحمــــة ربِّـــه
وإن كـــان تحت الأرض سبعــون واديـــا
كـــرحمـــة نـــوحٍ، يـــوم حَلَّ سفينـــةً
لِشِيعَتِـــه، كـــانـــوا جميعـــا، ثمـــانيـــا
فلمـــا استنـــار اللــــهُ تَنُّـــور أرضـــه
فَفَـــارَ، وكـــان المـاء في الأرض ســـاحيـــا
تــــرفع في حَبْـــــري، كأن أطيطَـــــهُ
صَـــريفُ محـــالٍ، يستعيـــد الـــدواليـــا
على ظهـــــر جَـــوْنٍ لـم يُعَـــدَّ لــــراكبٍ
سُـــــرَاه، وغيـمٍ ألْبِسَ المـــــاء داجيـــا

ومثلُها قوله :

مُنجي ذي الخيــــر من سفينــــة نـــوحٍ
يـــوم بـــادت لبنـــان من أخــــراهـــا
فـــــارتَنُّـــــورُهُ، وجـــــاش بمـــــاء
طمَّ فــــوق الجبـــال حتى عــــلاهـــا
قيل للعبـــد سِـــرْ، فـــاســـر وبـــاللـــ
ـــهِ، علـى الهـــول سيـــرُهـــا وسُـــرَاهـــا
قيل : فـــاهبِط، فقـــد تنـــاهت بك الفلـــ
ـــك على رأس شـــاهق مـــرســـاهـــا...

4) «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» القسم 2 ص : 261، للأب لويس شيخو اليسوعي.

الماء لضبط وقياس الزمن

كان سكان الريف، قديما، وفي دنيا الماضي السحيق، لا يحتاجون إلى مثل هذه الآلات الساعاتية التي أصبحت في متناول الجميع، يستعملونها لضبط الوقت، وقياس الزمن... فقد استغنوا عنها قرونا طويلة، وآمادا بعيدة... لأن الطبيعة الخلابة حبتهم بشدوِ الطيور، وزقزقة العصافير، وتغريدها في ساعات معينة طرفي النهار وَزُلَفًى من الليل...

وقد كان الفلاحون في القديم يبدأون كفاحهم اليومي وسط المروج الممرعة، والروابي الخضر، والحقول الخصبة، والزهور الجميلة، والرياحين ذات العطر والشذا، التي تتفتح وتنغلق في مواقيت معينة، وساعات منتظمة ألِفُوها، واعتادوا عليها أحقابا وأزماناً... هَدَاهُم إليها الصانع القادر الحكيم، فاستطاعوا من خلال هذه الظواهر الغريبة معرفة الزمن، وتحديد الوقت، لضبط العمل...

«فما تَرى في خلق الرحمان من تفاوت... فارجع البصر هل ترى من فطور.؟!»(1)

ولم يقتصر الإنسان على سماع شدو الطيور، وقوقأة الدجاج، ومشاهدة الزهور لتقدير الزمن... بل إن الصينيين القدماء قدَّروا وقتهم، إن لم يكن أثناء الليل، فعلى الأقل من الفجر حينما ينشق عمودُه إلى أن تغيب الشمس في حواشي الأفق، بالتطلع إلى عيون القطط، فقد شاهدوا، ملاحظين، حدقة عيون الجنس الفليني تنكمش في ضوء النهار، وتتمدد في ظلام الليل بانتظام عجيب مدهش... ففي الصباح تكون حدقة العين بيضوية، بعد أن كانت مستديرة أثناء الليل، فهي تنكمش وتتقلص من

1) سورة تبارك ـ الملك، الآية رقم : 3

الصباح حتـى الظهيرة إلى أن تصير مجـرد مستقيم أفقي، ولكنهـا تتحول تدريجيا بوضوح إلى شكلها البيضـي من الظهر حتى المسـاء...

* * *

والعجيب أن سكان الريف لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه الآلات التي نستخـدمهـا اليوم، لأن أعمـالهم لم تكـن تتطلب الدقـة والضبط كمـا هـو المطلوب اليوم، فقد استغنوا عنها قرونا طويلة... فالطبيعة البديعة عَوَّضتهم بتغريد الطير، وشدو العصافير، وهديل الحمام في ساعات منتظمة...

* * *

إن اليـوم والشـهر والفصل والسنـة تقسيمـات طبيعية للـزمن من صنع العلي القديـر، استنبطها الإنســان ـ بقوة فضـوله ومـلاحظاتـه ـ من تلك المشاهـدات الفلكية التي يحيط بهـا هذا الكـون الرحيب، كحـركة الشمس، والكـواكب السيـارة في أفـلاكهـا، وأوجه الأقمـار والنجـوم في مســارهـا ومســالكها، وهـذا فضل من اللـه عظيم... **﴿وآيـةٌ لَهُم الليلُ نسلخُ منـه النهـارَ، فإذا هُمْ مُظلِمُون، والشمـسُ تجري لِمُسْتَقَـرٍّ لَهَـا، ذلك تقديـرُ العزيزِ العليم.**(2) **والقمر قدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عـاد كَالْعُرْجُونِ القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمرَ، ولا الليلُ سَابِقُ النهار، وكلٌّ في فلكٍ يَسْبَحون﴾**.

* * *

وبعد قيـاس الزمن بضياء الشمس والظـلال أثناء النهار، شعـر الناس بحاجتهم إلـى وسيلة لمعرفـة الوقت أثنـاء الليل، والأيام الملبـدة بالسحب والغيوم صنعوا الساعات المائية والرملية...

فكيف استطاع الإنسان القديم أن يصل إلى هذه الكشوف؟ وكيف وصل اليوم إلى قياس الدقائق والثواني وأجزائهـا؟ بعد أن كان يقدر الزمن باليوم

---

2) سورة يس، الآية رقم : 38 ـ 40.

أو نصفه أو ربعه أو ساعاته عن طريق الظلال، أو تسرب الماء، أو نزول الرمال، أو احتراق الشموع؟

***

أفلاطون أول من اخترع الساعة المائية :

إن أفلاطون هو أول من اخترع الساعة المائية، وكان لها صوت يوقظه في الصباح.،(3) ويقول المؤرخون بأن الساعات المائية كانت قد نشأت، أصلا؛ في مصر، وكان الإغريق والرومان، يطلقون عليها إسم «كليبسيدرا» Clepsydra أي الساعة المائية، ويستخدمونها في تحديد الخطب التي تلقى في ساحات المحاكم، وهي فكرة وجيهة، حبذا لو طبقت اليوم...

ومن هذا الاستخدام للساعات جاءت عبارات : «يحافظ على الماء»، To goc Water، «ويضيع الماء» To waste Water، التي تشير إلى الخطباء الذين كانوا يحافظون على الوقت، أو يضيعونه...(4)

فالساعة المائية شاعت عند الكلدان والهنود، فهي كالساعة الرملية، بإبدال الرمل بالماء، وكانت أقل دقة منها، لأن اختلاف الجو برداً وقيظاً، كان ينقص معدل الماء...

واشتهر في تلك العصور كثيرٌ من المهندسين العرب الذين تخصصوا في صنع الساعات، وكانوا يديرون آلاتها بواسطة الماء، إلى أن جاء ابن الشاطر (تـ : 777هـ) المهندس الدمشقي فَسعَى في ترقيتها، وتوصل لجعلها صغيرة الحجم بالنسبة لغيرها من الساعات، وأصبحت تعلق على الجدران، ولا تحتاج آلاتها إلى الماء، فكانت أقرب ما تكون إلى الساعات المستعملة اليوم.

***

3) يوجد كتاب «ساعات آلات الماء التي ترمي بالبنادق» وهو مقالة «لارشميدس». ـ «كشف الظنون» ج : 2، ص : 1423.

4) طومسون كينج ص : 146.

وهكذا اهتم المسلمون بآلات تحديد الوقت، فاستفادوا مما كان موجودا من العلوم السابقة بهذا الخصوص، وطـوروا وابتكروا ما يناسب حاجاتهم، وذكر الإمام أبو حامد الغزالي كيفيـة «المنجانة» بأوعب ما يكون في كتابه: «المقصد الأسنى، في شـرح أسماء الله الحسنى»، عند شرحـه لاسم الله: «الحكيم»...(5)

ومهمـا تعددت أسـاليب قياس الـوقت، فإن الأجهـزة المستعملة كـانت بحسب نظامين :

1 ـ الساعات الزمانية : وهي تقسيمات تتماثل من حيث العدد لا الفترة الزمنية التي تقيسها بالمقارنة مع بعضها.

2 ـ السـاعات المسـتـوية، وهي التي تقـيس ساعـات منتظمة مثل ساعتـنا.

وساعة ابن الهيثم،(6) تختلف عن عدد كبيـر من الساعات التي شـرحها من عمل في هـذا المجـال، لـذلك خصهـا : الخازن، في «ميـزان الحكمـة» بـالذكـر، حيث قـال : إن أحـد المعانـي التي لا يستغنى عنه فـي معرفـة الأوقـات، وفي تقديـر الحركـات، وتحصيل أجزاء الـزمان، هي آلات المـاء والرمل التي يستخرج بهـا مقادير الساعات، وقد عملهـا الناس عمل صور كثيرة، إلا أنهـا تخرج السـاعات والأجـزاء الكبار من الساعـات، وليس في جميع ما يخرج أجـزاء الساعات الواحدة التي هي مسـاوية لأجزاء الفلك إلا «البنكان» الذي ذكرها ابن الهيثم...(7)

---

5) الجزنائي ص : 53 ـ ولأبي عمر محمد بن عبـد الواحد غلام ثعلب (تـ : 345هـ) «كتاب الساعات [كشف الظنون ج : 2، ص : 1423].

6) مخطوط لم ينشر لأبي علـي بن الحسن ابن الهيثم أحد الثلاثة الأعـلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وهم البيروني وابن الهيثم وابن سينا...

7) الخازن، عبد الرحمن، «ميزان الحكة» ص : 153/4.

ويسمى المخطوط : «رسالة في البنكام»(8) والبنكام أو البنكان، أو المنجانة بلسان عرب المغرب مصطلحات يقصد بها الساعة...(9) ويحتل المخطوط المذكور الصفحات من (138 ـ 140)، وهو مكتوب بِحِبْرٍ قهواني بسطور متراصة مزدحمة الكلمات... وقد قدمه الأستاذ «معمر أُولكر» مدير مكتبة مخطوطات السليمانية بإسطنبول...(10)

* * *

تركيب الساعات المائية :

تتركب الساعات المائية التي عرفها المصريون واليهود والبابليون والإغريق والرومان قبل التاريخ المسيحي؛ كما وصفتها أثينا في ذلك العصر، من آنية فخارية أو معدنية تملأ بالماء، ثم تعلق في كوة خاصة غير نافذة، وتوضع في جوار الآنية بالقرب من قاعها أنبوبة رفيعة يتسرب منها الماء قطرة قطرة، ويتساقط، في إناء آخر مقسم إلى أقسام تبين الوقت.

وقد كان العيب الأكبر في دقة هذه الساعات هو تناقص معدل التدفق كلما هبط الماء... ويمكن تصحيح هذا العيب بإضافة الماء حتى يحتفظ بمستوى ثابت، وقياس الماء المنصرف، أو بجعل المقطع العرض للإناء أكبر في قمته منه في قاعه، وهو الحل الأنسب...

---

8) يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية، ولفظ «بنكام» فارسي معرب، والبنكام، تنقسم إلى رملية، وإلى بنكامات مائية (ج : 1/ص : 255 كشف الظنون).

9) يراجع كتاب : «مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية» للأستاذ ماجد عبد الله الشمس ص: 49 ـ 50، وقد نشر الأستاذ ماجد المخطوط كاملا في مجلة «النفط والتنمية» في العدد الخاص «عن التنمية في العراق عبر العصور» عدد : 7 ـ 8 مارس 1981.

10) ومن الكتب المصنفة في علم «البنكامات» : «الكواكب الدرية، والطرق السيئة، في الآلات الروحانية في بنكامات الماء» للعلامة تقي الدين الرّاصِد.

وبعد انتهاء اليوم، جمعوا الماء، وقسموه إلى 24 جزءاً، ثم قاسوا الجزء الواحد، فكان مجموع الماء الذي ينزل في ساعة... صنعت، أيضا ساعة أفضل منها، إنها الساعة المائية الدقاقة التي أهداها الخليفة العباسي هرون الرشيد إلى شارلمان كما سياتي...

وكانت هناك ساعة مائية في الأسكندرية حوالي عام (135 ق.م) تدور بواسطة عجلات مائية تحرك شاخصا صغيرا، يحمل مؤشرا يشير به إلى الساعات المكتوبة، فوق مقياس مدرج...

وفي عام 1904 عثر الأثريون على ساعة مائية تشابه هذه الساعة إلى حد بعيد في «مقابر الكَرْنَك» وهي معروضة بمتحف القاهرة، بعد ترميمها وإعادتها إلى حالتها الأصلية... وتعتبر هذه الساعة الفرعونية، تحفة رائعة نادرة في الفن، وهي عبارة عن إناء من «الالبستر» على شكل مخروطي ناقص قطر قاعدته الصغرى 23 سنتمترا، والكبرى 6.44 سنتمترا، وارتفاعه 6.30 سم، زخرف سطحه الخارجي بزخارف بديعة بالأحجار الملونة والكتابة الهيروغليفية، وقسم الارتفاع حول المحيط إلى ثلاثة أقسام متوازية، وقد جُزِّء القسم السفلي، منها إلى ستة أجزاء يحوي كل منها شهرين من شهور السنة، رسمت على القسم الأوسط نقوش تدل على أيام الأسبوع... أما القسم العلوي، فنقشت عليه الكواكب والنجوم الثابتة في أبراجها لتحديد موضع الشمس خلال السنة كلها... وحافة الساعة بارزة مقسمة حول محيطها الدائري إلى أقسام توضح شهور السنة مرتبة حسب الفيضانات العالية، ونقشت على محيط الجدار من الداخل منحنيات تبين الزمن في الأيام القصيرة والطويلة سواء أكان ذلك شتاء أو صيفا...

* * *

عِنَايَةُ الكتاب التاسع بالساعات المائية :

عني الكتاب التاسع لفترفيوس بالمزاول أو الساعات المائية، ولم يعثر على نص يوناني لكتاب «فيلون»(11) في «الحيل الروحانية»، «وميخانقات الماء» إلا بالعربية، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديده من جهة، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى...(12)

* * *

عرب الجاهلية.. واهتمامهم بأمر التوقيت...

اهتم عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشؤون حياتهم اليومية، فالزراعات فرضت عليهم الالتفات إلى تقلبات الجو، كما أن الأعياد، وأمور العبادة، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتماداً على الفلك والنجوم والأنواء، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة، مكن عرب الجاهلية في تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين باسم خاص، فساعات النهار هي الذرور، والبزوغ، والضحى، والغزالة، والهاجرة، والزوال، والدلوك، والعصر، والأصيل، والصبوب، والحدود، والغروب، وساعات الليل هي : الشاهد، والغسق، والعتمة، والفحمة، والموهن، والقطع، والجوشن، والعبكة، والتباشير، والفجر الأول، والمعترض، والإسفار.(13)

وقد تحدث عبد الرحمان بن عيسى الهمذاني في كتابه،(14) عن ساعات النهار وساعات الليل، فقال حكاية عن تسمية العرب : يقال لأول ساعة من النهار **الصباح** ثم **البُكُور**، قبل طلوع الشمس، ثم **الغَدَاة** بعد طلوعها، ثم

---

11) «فيلون» Philon. (20 ق.م ـ 54م) ولد في الإسكندرية؛ فيلسوف يهودي، حاول أن يفصح عن معتقده الديني مستعينا بتعابير الفلسفة اليونانية. كان يكثر استعمال الطريقة الرمزية، له تأثير على آباء الكنيسة الشرقية.

12) جواد علي : «المفصل، في تاريخ العرب قبل الإسلام» 8/469، ابن سيده : المخصص 9/44.

13) «أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب» مقالة، علم الميقات لدافيد كنج ـ 391.

14) «الألفاظ الكتابية» ص : 287 ـ 288.

الضحى، ورأدُ **الضحى**، ثم **الإشراق**، ثم **الضحاء**، ثم **الشروق**، ثم **الزوال والجنوح**، ثم **الهاجرة والهجيرة** ثم **الظهيرة**، ثم **الرواح** بعد ذلك، ثم **الأصيل**، ثم **المساء** بعد ذلك، ثم **العصر والقصر**، ثم **الطُّفول والطَّفَل**، ثم **العشية**، وهو آخر ساعة من النهار...

ويقال لأول ساعة من الليل : **الشفق**، وهو وقت صلاة المغرب، ثم **العشاء** بعد ما يغيب الشفق، ثم **العتمة** بعد ذلك (إذا اشتدت ظلمة الليل، وهدأت العيون) ثم **السَّحْرَة** بعد ذلك، ثم **الغلس**، ثم **التنوير** بعد الصلاة...

وقد اشتق من هذه الكلمات الدالة على ساعات الليل والنهار، أفعال استعملوها في تعابيرهم، فيقاول : غَلَسَ القوم، إذا ارتحلوا في وقت الغَلَس، وغلَّسنا في الخروج، وبَكَرُوا، وأبكروا، إذا ارتحلو بُكْرَة، وغدوا : إذا ارتحلوا بالغداة، وأضحوا : إذا خرجوا وقت الضحى، وراحوا : إذا ارتحلوا بالرواح، وظهروا : إذا ارتحلوا وقت الظهيرة؛ وهجروا وتهجّروا : إذا ارتحلوا وقت الهاجرة...

وهكذا فرضت ظاهرة شروق الشمس وغروبها على الإنسان القديم فترات زمنية معينة نظم وفقها حياته، فعمل في النهار، وسمى له ألفاظا دالة استمدها من حركات الشمس، ونام في الليل، وسمى له ألفاظا استمدها من حركات النجوم أو ظهور القمر، أو للقيام في جنح الليل لعمل أو لأداء العبادة...

كيف تسير هذه الساعة المائية؟

تسير هذه الساعة المائية على النظام التالي :

يملأ الوعاء بالماء كل ليلة؛ فيتسرب بحساب دقيق من ثقب رفيع بالجدار بالقرب من القاع... وينخفض منسوب الماء داخل الوعاء مبينا الوقت بواسطة التقسيمات الهندسية الداخلية التي أشرنا إليها، والتي تبرهن على غزير علم، ومعرفة بالأرصاد الفلكية...

ولقد أدخِلَتْ على الساعة المائية تعديلات متتالية : فصنع «ارشيمدس»(15) ساعته المشهورة المحتوية على تروس هيدروليكية لأول مرة، كما صنع «كتسيابيس» في الإسكندرية عام (150 ق.م) ساعته المائية التي طبق عليها نظرية «الأواني المستطرقة» المعروفة في علم الطبيعة لأول مرة... وكان ملك الفرس «شاهبور» الأول (241 ـ 272) يملك ساعة مائية عظيمة مصنوعة من زجاج الكريستال حتى إنها كانت مضرب الأمثال من ناحية الفن الزخرفي في عصرها...

وقد أشار الكاتب الإغريقي «بليتارك»(16) Plutarque (145 و50 ـ 125) الذي كان من حكماء اليونان ومؤرخيهم، في بعض كتبه إلى آلة «هيدروليكية» تشابه ساعة الإسكندرية، وذكر «يوليوس قيصر» عندما تحدث عن بلاد الإنجليز أنه شاهد هناك عددا كبيرا من الساعات المائية...

وتحدث الجيزويت الفرنسيون والأسبان قبل التاريخ المسيحي عن الساعات المائية التي شاهدوها في بلاد الصين واليابان والجزر المجاورة... فالساعة المائية عرفت قبل مولد عيسى عليه السلام بـ ...مائة عام على الأقل، واستخدمت في جميع الأمم المتحضرة، وتعددت أشكالها وأنواعها في عصر، »بومباي» لدرجة أنها كانت تعد من قطع الأثاث الضروية في كل منزل...

* * *

---

15) أرشميدس Archiméde (278 ـ 212 ق.م) ولد وتوفي في صقلية. عالم يوناني له الاكتشافات العديدة، والقانون المعروف باسمه.

16) بلوتارك Plutarquc، من حكماء اليونان ومؤرخيهم، تعلم في «أثينا»، رحل إلى آسيا، ومصر، وسوريا، له : «سير الرجال العظام».

ساعة هارون الرشيد المائية :

لا نستطيع التحدث عن آلات الزمن التاريخية دون ذكر الساعة المائية التي أهداها هرون الرشيد إلى الملك «شارلمان» Charlemagne (742 ـ 814) ملك الإفرنج، وإمبراطور الغرب وأول من بَسَطَ حمايته على الأرض المقدسة، لأنها تعد من أشهر الساعات التاريخية التي ما زال الناس يذكرونها إلى الآن، كلما تحدثوا عن الساعات... وتعتبر ساعة هرون الرشيد كإحدى عجائب الصناعة لدقتها، وفخامة روعة زخارفها... وقد وصفها كاتم سر الملك شرلمان وصفا جذابا، فقال : «إنها مصنوعة من النحاس الأحمر المطلي بالذهب، بها عدة تروس، وإنها تبين الوقت على ميناء، وتدق الساعات على جرس عند سقوط كرات صغيرة من الحديد يساوي عددها عددَ الساعات التي تدقها، ويبينها المؤشر، وان بها اثنتا عشر نافذة تفتح من تلقاء نفسها عند الدق، ويخرج من كل نافذة فارس يتحرك حركة عسكرية حول نفسه، فيعود مرة أخرى، فيختفي داخل جهاز الساعة».

وظن الناس من عجبهم أن فيها شيطانا يحركها، ويأتي بهذه الأعاجيب، وعقب ظهور هذه الساعة العجيبة، قام أحد الكهنة بفرنسا بعد ذلك بسنوات قليلة بتقليد ساعة مشابهة لها، ولكنها كانت أكثر عظمة ودقة من كل الساعات المائية التي صنعت حتى ذلك الحين... فكانت تبين الوقت والشهور وأيام الأسبوع وأوجه القمر والظواهر الفلكية الأخرى، ولم يكن ينقصها سوى الثقل المحرك...

وهكذا تعد الساعة التي أهداها الخليفة هرون الرشيد إلى شارلمان، وساعة المسجد الأموي بدمشق تحفا علمية غاية في الدقة، وقمة في الصنعة... ومن صانعي الساعات العرب المشهورين نذكر ابن الشاطر،(17)

---

17) علاء الدين بن الشاطر، موقت بالجامع الأموي بدمشق (تـ : 1375م) ألف عدة كتب في الفلك منها : «مختصر في العمل بالاسطرلاب، ورُبُع المقنطرات، وربع المجيب» مخطوط في لندن.

ومحمد بن نصر القسرواني، والمهذب بن النقاش، وأبا العز الجزري المعروف.

* * *

هكذا ظلت الساعات المائية الآلات الوحيدة التي استعملها القدماء لقياس الزمن في أرصادهم الفلكية بجانب مراقبة النجوم ورصدها، ولم تكن تلك الساعات تحقق رغبة علماء الفلك، لقصور دقتها، فراحت هي الأخرى في ذمَّة التاريخ، بعد أن استخدمت 700 سنة منذ عصر «بومباي» حيث لم يحدث أي تطور في آلات قياس الوقت طوال هذه الحقبة من الزمن...

وقد استمر استخدام الساعات المائية في بعض البلدان حتى اكتشف «جاليليو»(18) أن الوقت الذي يستغرقه بندول ذو طول معين لإعمال ذبذبة يكون ثابتا، سواء أكانت الذبذبة طويلة أم قصيرة... وأدت هذه المعرفة إلى ضبط الساعات التي تدور بالأشغال أو الزنبرك بطريقة دقيقة يمكن الاعتماد عليها.

* * *

إن الساعة المائية التي صنعها البابليون كانت أحيانا غير دقيقة، وذلك لتأثرها بالرياح وحرارة الجو وبرودته... فابتكروا الساعة الرملية، وهي عبارة عن وعاءين يتصل أحدهما بالآخر من خلال فتحة ضيقة تسمح بمرور قدر معين من الرمال... وهذا الرمل يمر خلال مدة زمنية معينة...

ولعل من أبرز وظائف الساعة المائية اتخاذها كأداة لتنظيم، وضبط الفترة التي يترافع فيها المحامون أمام القضاء، أو يخطب فيها السياسيون في الاجتماعات حيث كان يراقب الساعة المائية ضابط يوزع الزمن

---

18) غاليليو Galileo (1564 ـ 1642) أحد كبار علماء زمانه بالحساب والفلك والفيزياء، من مخترعاته «ميزان الحرارة»، اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس.

بـالقسط بين النـاس تحقيقا للعـدالـة، وكـان المحامـون في ذلك العصـر يحتجون قائلين : «إن الماء يتسرب بسرعة، وأنهم تحت رحمته».

ولم يكن حراس الساعة المائية بعيدين عن الشك والشبهات، وقيل إنهم تحـايلوا، وتـلاعبوا لإطـالة أو اختصـار الوقت المحـدد للمرافعـات حسب أهوائهم، واتسعت الاتهامات الموجهة إليهم بعد المظالم التي كابدها الناس، ويئسوا من الإصلاح يوم رأوا أن «شيشرون»(19) لم يتحدث أكثر من نصف ساعة للدفـاع عن «رابيربيس»، بينما تمكن الادعاء من توجيـه اتهاماته إلى «مليون» أكثر من ساعتين...

وجديـر بالذكر أن الألمـان قلدوا ساعة الاسكنـدرية المائية لطـرافتها، فشاهد الزائرون بـالمتحف الوطني الألماني «بمونيخ» هذه السـاعة المائية المقلدة، كما أن الكثيـرين من رواد حدائق «مونت بينسيو» الشهيـرة بروما يعرفون ساعتها المائية التي تؤدي عملها إلى الآن...

* * *

ساعات مائية مغربية :

لقد عرفت كثير من الأقطار، قديما، الساعات المائية، واستعملتها لضبط أغراضها، وتحديد مواقيتها... وكان المغرب بين تلك الأقطار، أكثر استعمالا لهذا النوع من الساعات المائية...

ومما تجـدر الإشارة إليه أن المـرينيين، وجهوا عنـاية خاصـة لمشاكل الميـاه، سواء كـانت بقصد المنفعـة، أو للـزخرفـة، إما في داخل مبـانيهم الخاصة، كالبِـرَك والأحواض والصهاريج وغيرها، وإما للعمـوم كالمساجد والصوامع والمدارس والنواعير والنافـورات... وفي إمكاننا أن نشاهد، حتى

(19) شيشرون : Ciceron (107 ـ 43، ق.م) من رجال السياسة في رومـا، ومن أفصح خطبائها، من أشهر خطبه، الدفاع عن مِيلُو، وعن مُورينا، والطلب بمحاكمة كاتيلينا.

الآن، آثار بعض هذه الساعات في بعض شوارع مدينة فاس، أو في غرفة بصومعة جامعة القرويين..

فنهاك ساعة مائية بمدينة فاس، وبالمدرسة البوعنانية تأسست هذه الساعة المائية عام 1357م وبما أنها تعتبر من قديم الزمان ساعة مصلصلة تبرز مميزاتها فيما يلي : فهذه الساعة المائية لها ثلاثة عشر من الأجراس الموضوعة على الحوامل، ولها اثنا عشر من النوافذ الموضوعة تماما فوق بين الحوامل... ويلاحظ أن أجهزة الإرسال تركت آثارا مرئية... ويقال بأن الأشغال قائمة على قدم وساق، اليوم، من أجل إصلاح وترميم الجبس والخشب المنقوش...

وقد اقترح المهندس الأستاذ عبد الهادي لحلو مشروعا لاستخدام الساعة المائية بالمدرسة البوعنانية بمدينة فاس، وذلك بالتعرض إلى طريقة جديدة تعتمد على تحويل الطاقة المائية إلى طاقة آلية (ميكانيكية) بدون استعمال طاقة تكميلية، مع إمكان استغلال بعض الأدوات التي كانت موجودة في عصر المرينيين... وسيصدر الماء من مجرى يكون محله في دار المكانة، ومزود مباشرة من واد فاس...

وتمتاز الساعة المائية التي بجامع القرويين نسبيا عن غيرها بخصائص خاصة، وقد تم صنعها عام 1317م، ويبلغ طولها ثلاثة أمتار، وعلوها ستون سنتم، وهي مصنوعة من خشب الأرز المنقوش والمصبوغ، وتقع في قمة صومعة القرويين، وتتركب من أجهزة تتصل بأربعة وعشرين باباً، ولها جرس لإعلان كل ساعة من اليوم، ثم إن طريقة عمل هذه الساعة المنقولة عن المخطوطات اليونانية المحفوظة في خزانة الإسكندرية بمصر، ماثلة لطريقة الساعات المائية في أثينا وروما، ويمكز وصفها كما يلي :

يجذب الماء الصادر من خزان، فتحة الأبواب بارتباط مع السلسلة، والتي تحدث دويا للأجراس والوقت هو وظيفة الأبواب المفتوحة والذي تعلنه الرنات المتعددة...

* * *

وفي أيام الفقيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول، عمل المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من فخار بالقبة العليا، وفيه الماء، وجعل على وجه الماء طنجيرا من نحاس فيه خطوط وأنقاب، ويخرج منها الماء بقدر معلوم إلى أن يصل للخطوط، فتعلم بذلك أيضا، أوقات الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها، وذلك في عام 686هـ.

وقد وصف علي الجزنائي في كتابه(20) : ساعة مائية بمدينة فاس صنعت بغرفة لمعرفة الأوقات، فإن الشيخ المعدل أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصنهاجي النطاع أحدثها هناك، ورسمها له أبو عبد الله محمد بن الصدينية «القرْطسُوني»، وتطوع بعض المسلمين بالإنفاق فيها عام 717هـ وذلك أنه جعل في ركن الغرقة عن يسار المستقبل جبحا من خشب الأرز، وجعل في داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلا من الآخر، وجعل الماء في الأعلا منهما، وبأسفله أنبوب من نحاس مموه بالذهب، محكم العمل يهبط منه الماء في البدن الأسفل بقدر معلوم، وجعل جوف الجبح مقَطسا، ورسم في جانبي التفطيسة بروج الأفلاك والأشهر العجمية والساعات ودقائقها، وجعل في الوسط مسطرة رسم فيها أيضا الساعات ودقائقها، وأوقات الليل والنهار، وجعل المسطرة معلقة في خارج من الجبح يجري في حفر التفطيسة المذكورة طالعا وهابطا، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل جسما مجوفا من نحاس على هيأة الأترجة معلقا في الطرف الذي يلي من الغلور، فإذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي

---

20) «جنى زهرة الآس»، ص 51.

يجتمع في البدن الأسفل، طلع طرف الغلـور الخارج من التفطيسة، وطلعت بطلوعـه المسطرة، وكلما طلعت بطول الأزمـان ظهر فيها الـوقت المطلوب، فإذا تم النهار والليلـة المقبلة لـه رد الماء من البـدن الأسفل للبدن الأعلى، وعلق المسطرة كما كانت...

وقد غفل عن ذلك... إلى أن تقدم للنظر في الأوقـات، والرعاية للمؤذنين أبـو عبد اللـه محمد بن محمـد بن العربي رحمـه الله عـام 747هـ، فجدد «المنجانة» المـذكورة على وجه أتقن من الوجـه الأول، ولم يزل يجتهد في ذلك صدر إيالـة المتوكل ابن عنان رحمه الله، فأكثر الاجتهـاد في خدمته، وجعل خـارج الجبح المذكـور، تجاهـه المستقبل له دائرة، وعليهـا شبكة، كشبكة الأسطرلاب، ورسومه تدور متى طلعت المسطرة المذكورة، ويعرف بها أيضا أوقات الليل والنهار... وأعد هناك، أيضا، رمليات لاختبار الأوقات وجملة اسطرلابـات، موقف ذلك على من يستعمله، وينظـر فيه أجزاء الليل والنهار...

وحكى أن السلطان أبـا عنان بن أبي الحسن المريني صعد الصـومعة، ليعتبـر في المدينـة وترتيبهـا... ووقف على «المنجانـة»، وما اتصل بهـا، فاستحسن ذلك، وأنعـم على الناظر فيهـا بمرتب، وسع عليـه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام، وذلك في عام 749هـ، ومما قيل في مثل هذه المنجانة :

روح من المــاء في جسـم من الصفـر
مـولـد بلطيف الحـذق والنظـر
مستعبـر لم يقـف عن عينـه سكـن
ولـم يبت مـن ذوي ضغـن على حـذر
وفي أعـاليـه حسبـان يفصلـه
للنـاظـرين بـلا ذهن ولا فكـر

إذا بكى دار في أحشانه فلكٌ
خاف المسير، وإن لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنا
بِها، فيوجد فيها صادق الخبر
نقضي بها الخمس في وقت الوجوب، وإن
غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
محدد كل ميقات تخبره
ذوو التمييز للأسفار والحضر
وَمُخْرِجٌ لك بالأجزاء ألطفها
من النهار وقوس الليل والسحر
نتيجة العلم والتفكير صوره
يا حبذا بدع الأفكار في الصور(21)

وأجزم أن هذه القصيدة الأخيرة... برمتها مأخوذة من قصيدة للشاعر كشاجم في وصفه البنكام، يقول في مطلعها :

روح من الماء في جسم الصُّفُرِ
مؤلف بلطيف الحِسِّ والنَّظَرِ
تَنْشَالَهُ حركاتٌ في أسافله
كأنها حركاتُ الماء في الشجر(22)

* * *

21) جذوة الاقتباس ص : 55/1. ـ ولأبي علي الحسن المراكشي (تـ: 660 ـ 1262) مصنف هو : «جامع المبادىء والغايات، إلى علم الميقات» يتحدث فيه عن التوقيت وفي صنع الساعات الشمسية، أي المزاول [كراتشكوفسكي ج 1/113].

22) الديوان ص : 243ـ وانظر : العمدة لابن رشيق ج: 2/ ص : 1069.

ومن المهم أن نسمع في هذا الصدد أن الساعات المائية لم تقتصر على القواعد المغربية ولكنها تجاوزتها حتى إلى المدن الصغيرة بل إلى الأقاليم الصحراوية حيث نجدها تستعمل لضبط المياه على الواحات والحقول.

وهكذا وجدنا مثلا في مدينة «فِكيكْ» اثنين وثلاثين ساعة مائية تتكون – على نحو ساعة ابن الحباك في جامع القرويين – من حوض مليئ بالماء يطفو على سطحه إناء في شكل نصف كرة من النحاس، على حجم معين يوجد في أسفله ثقب يتسرب إليه الماء قليلا قليلا حتى إذا امتلأ وقع في الحوض.. وحينئذ تنتهي الساعة التي تسمى في اصطلاح المنطقة «الخرُّوبة»، وهي كما نرى تعتمد على قياس الماء بالزمن لا بالحجم كما نجده مثلا في المناطق الصحراوية الأخرى.

* * *

ساعات مائية في القطر السوسي :

وكما في عهد المرينيين كان إلى عهد قريب، وبالقطر السوسي في المغرب ساعات مائية رومانية، لعلها من بقايا الآثار الرومانية عند السوسيين... وقد قص علينا خبرها المرحوم الأستاذ محمد المختار السوسي في كتابه(23)، وذلك أنه في سنة 1345هـ وهي سنة جوع وقحط في سوس، نزل الأستاذ المختار في «تيمولاي العليا» وأطلق له القائد من أملاكه الواسعة هناك ثلاثة وعشرين بستانا و 175 طاسة ماء لتسقى بها البساتين، والمقصود بالطاسة : نصيب خاص من الماء، والعادة عند غالب أصحاب العيون الجارية في سوس أن يقسموا مياهها ستين قسمة متواطئا عليها، بين الليل والنهار، وتوازي ستين طاسة بحيث لا تزيد ولا تنقص على أربع وعشرين ساعة، وهي التي في الليل والنهار ـ والطاسة هي التي

23) المعسول : ج : 20، ص 152.

يكون بها ميزان الماء، وهي إناء صغير مصنوع صنعا خاصا من النحاس، فيثقب قعرها ثقبا صغيرا، فتجعل في سطل ماء، فيتسرب الماء من الثقب من أسفلها شيئا فشيئاً حتى تمتليء، فتغطس في ماء السطل، فهي الطاسة الواحدة وعلى مثلها قسمت الساعات الستون المتواضع عليها التي يقسم عليها الماء بين الليل والنهار، فيجتمع الناس دائما بالمناوبة في مكان خاص معلوم عندهم ليلا ونهارا، وهو مجتمع أهل القرية الدائم، فكلما امتلأت الطاسة يصرخ الصارخ بذلك... فيسمعه من يسقي بالماء في الحقول، فيعلم أن الطاسة قد انقضت، فإن انقضى ماؤه، يبادر من تليه نوبته، فيميل الماء من أعلى المجرى إلى حقوله أيضا... وهكذا دواليك، ثم تباع الطاسات وحدها وتشترى، فلكل إنسان طاسته أو طاسة واحدة أو نصف الطاسة أو ربعها، وقد وسم في وسط الطاسة داخلا : النصف والربع بخطوط مستديرة محبوكة الصنع، فلكل نصيبه الذي في ملكه، وقد عم هذا العمل غالب سوس... وقلنا فيما سبق إن هذه الساعة المائية رومانية الأصل، وهي من بقايا الآثار الرومانية عند السوسيين، وفي رأس كل سنة يجتمع الناس ليجربوا الثقب في أسفل الطاسة، أبقي على حاله أم اتسع، فإن ظهر منه اتساع أصلحوه حتى يرجع كما كان، وهذه الطاسة تسمى (تَانَاسْت) أي النحاسية، لأنها لا تصنع إلا من النحاس... والكلمة كما ترى عربية شلحت...

* * *

لقد ألف الناس الساعات، وسعدوا بها مع أَنها تعد سويعات أعمارهم!! ولم يقنعوا بهذا، وشاؤا الاستماع إلى توالي ساعات ليلهم، ولعلهم شاؤا التخلص من مشقة التطلع إلى الساعات نهارا، وقد أرهقتهم وألهتهم مشاغل الحياة فاخترعوا الساعات الدقاقة لتنبئهم بأنغامها عن الوقت، لأن العلم كلما تقدم، والفكر كلما ارتقى نمت الحضارة، وازدهرت المدنية، وعمّ

الترف، وما الساعات الدقاقة سوى سلسلة المحاولات والابتكارات التي قام بها الفنيـون في صبر وَجَلَد، ولولاهم مـا أحطنا بأسرار هذه المختـرعات العجيبة التي تقع عليها أبصارنا أينما سرنا في كل مكان...

ومعرفة الـزمن عن طريق السمع فكرة قديمة، لأن الحـاجة أم الاختراع، فقد صنع «أفلاطـون» في أثينا (400 ق.م) ساعـة مائية، تعلن الـوقت ليلا بأنغام النـاي،... وكذلك فعل الصينيون، كما أهـدى هرون الرشيد سـاعته الـدقاقـة التي طبقـت شهرتهـا الآفـاق إلى الملـك شارلـمان، كما هـو معـروف.

* * *

وأخيرا... وبفضل اكتشاف المعادن الجديـدة صنعت ساعات ضد الماء «وُوتـر بروف» يستخـدمهـا السباحـون بكثـرة، وتحرص المصـانع على اختبارهـا اختبارا دقيقـا للتأكد مـن أن قطرة مـاء واحدة لا تتسـرب إليها، فتقضي عليها...

* * *

وفي الأعـوام الأخيرة، شـوهد إعـادة بناء سـاعات الجَـزَرِي بمناسبـة المهرجان الإسـلامي العالمي بالمملكة المتحدة، حيث جرى هـذا المهرجان في أبريل عام 1976، وقد كـانت اللجنة التي عهـد إليها بأمر إعـادة البناء، تتألف من د.دايفد توماس (متحف العلوم) والسيد فرانسيس ماديوس مدير «متحف تـاريخ العلـوم» بأكسفـورد، والسيـد ثـورتـون، والسيـد هـاوارد والدكتور «دونالـدهيل» صاحب كتاب الساعات المائية العـربية الذي صدر مـؤخرا بالأنجلـيزية عن معهـد التـراث العلمي العربي بجـامعـة حلب - سوريا.

الفصل السابع :

الماء في.. المنام

دَلَّت المشاهـدات والمُعَايَنَـات والتجارب على أن لكل حُلم يـراه الإنسان في منامه، معنىً خاصا.. ولكي يستطيعَ الحالِمُ أن يفسرَ حُلمه، وجب عليه أن يعرف دلائل المرئيات، ثم يـربط بعضَـها ببعض، وعندئد يستقيم معنى ومغزى الحُلم...

وليس كل إنسان يستطيع أن يفسر الأحلام تفسيراً حقيقيا، ولكن الذي يستطيع ذلك هو الذي منحه اللـه موهبة إلاهية... وهذه الموهبـة المولدية، فيها رؤية بَصَرية، وفيها إعلام لأمور غيبية يستطيع بها صاحبها أن يسلط روحه بطبيعتهـا على تفسير الأحلام، وأن يفســرها تفسيرا مـلائما ينطبق على الحقيقـة، ويأتـي بـالغيبيـات... وأمـا من ليس فيهـم هـذه الخـواص المولدية، فكثيرا ما تكون أجوبتهم كاذبة...

* * *

ومِن أصحاب هذه الخاصية المولدية سيدُنا محمدﷺ، وكذا سيدنا آدم، وسيدُنا يعقـوب، وسيدُنا يوسف، وكذا كثيـرٌ من الصحابة، وذوي الفضل؛ وهذه الموهبة المولدية، قال عنها رسول اللهﷺ في حديثه الصحيح : «إن منكم محدثين، وإن منهم عمر» أي أن عمر يخبر بالأمور الغيبية، فالشخص الموهوب بتلك المزية الخاصة، والمـوهبة المولدية إن سلط روحَه على أيٍّ أمر يمكنه أن يفعلَه، ويأتي بالغيبيات...

* * *

والأديان السماوية تؤكـد، بصفة زائدة، أن لِبعض الرؤى والأحلام قيمةً تَنَبُّئِيّة... فـالتوراة والإنجيـل والقرآن، حافلـة بالـرؤى ذاتِ القيم التنبـؤية،

والتحقيقات، الحتميـة... ففي القرآن الكريم قـوله تعالى : في دخـول مكة، **﴿لقد صَـدَقَ الله رسُولَـه الرؤيا، بـالحقِّ، لتدْخُلُنَّ المسجـدَ الحرامَ إن شاء اللـهُ آمنين مُحَلِّقِين رؤوسَكم، ومُقَصِّرِين لا تخافـون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾**(1) وفي قوله تعالى : **﴿يا أَيُّها المَلأُ افْتُونِي في رؤيايَ إن كنتُم للرؤيا تعبُرون﴾**، «وهذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ قد جعَلَها رَبّي حقا»(2) وقال عليه السلام : «من لم يـومن بالرؤيا الصـالحة، لم يـومن باللـه، واليوم الآخـر»؛ وقالﷺ : «أصـدقُكم حديثـاً، أصدقُكم رؤيا»، وفي التوراة ـ سفر التكوين ـ الأصحاح السابع والثلاثون أخبار بحُلم يوسف وقصتِه مع إخوته، كما هو معلوم...

* * *

ويقول عليه السلام : «أعبرُ أمتي للرؤيا أبو بكر، وأسماء بنت عميس»، وفي الصحيحين ذكر مُرائي تقـدم أبو بكر لتعبيرهـا، ثم سأل رسول الله عن تعبيره، فقال : «أصبت بعضا، وأخطأت بعضـا».. وفي ترجمة أبي بكر من «تاريخ الخلفاء» للسيـوطي، وكان الصديق غاية في علم تعبيـر الرؤيا، وكـان يُعَبِّر الـرؤيـا، في زمن النبي عليه السـلام... وتـرجم في الإصايـة لأسماء بنت أبي بكر، فقال : كان عُمَرُ يسألها عن تعبير الرؤيا، ونقل عنها أشياءَ من ذلك، ومن غيره...

ومن شرح الشيخ زروق على الرسالة : قيل لمالك : أيعبر الرؤيا من لا علم لـه بها؟ قـال : «أبالنبـوَّة يلعب؟!! قـال جسُّوس : أي لأن النبي عليـه السـلام جعل الـرؤيـا من أجـزاء النبـوة، وقـد أخـذﷺ الحكم من مُـرَائي أصحابـه، كما في رؤيا الأذان، ورؤيـا ليلة القدر، وكل ذلك بنـاء على أنها وحي، كما أشار إليه القرطبي، ونقله الأُبِّي...

---

1) سورة الفتح : الآية رقم : 27.

2) سورة يوسف : الآية رقم : 100.

وقال الشيخ أبو الحسن التازي عليها، فإن قيل، فالذي ينظر في الفروع التي وضعها من ألف في تعبير المنام كعلي بن أبي طالب القيرواني وغيره، فيجد نص من رأى، والجواب عليه قبل هذا كالمقلد في الفروع، ينظر نص المسألة وجوابها، وقد يغلط في التنظير(3)...

* * *

والكتب المنسوبة إلى ابن سيرين في علم تعبير الرؤيا من أهجى ما كذب على السلف، ولا يتصور من التابعين أن يكون هذا أولَ ما أَلَّفُوا فيه من أبواب العلم... والتصنيف إنما شاع بعد ذلك...

قال الشهاب المرجاني(4)، ألف فيه علماء الإسلام، أي علم التعبير، إبراهيم بن عبد الله الكرماني، ثم صنف فيه علماء الإسلام، وأكثروا... ونسب الغالب منها، في زماننا هذا إلى ابن سيرين... ولما تكلم ابن القيم(5) على الذين أنكروا من السلف التدوين ما نصه : «وكان ابن سيرين وأصحابُه لا يكتبون الحديث، فكيف بالرؤيا»، فإذا كان ابن سيرين لا يرى كتابة الحديث، فكيف يدون تعبير الرؤيا(6)، وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي، وللحسين الخلال الحافظ كتاب : «طبقات المعبرين»، ذكر فيه خمسة آلاف وخمسمائة معبر من المشاهير الذين ضربوا في هذا العلم، وأخذوا منه بقسم، وجعلهم خمسة عشر قسما، الأول من الأنبياء، والثاني من الصحابة، والثالث من التابعين، والرابع من الفقهاء، والخامس من المؤلفين... وهكذا صنفت كتب كثيرة جداً في علم التعبير، فهناك : «الآثار الرابعة، في أسرار الواقعة»(7) للشيخ تاج الدين علي بن محمد ابن الدريهم

3) التراتيب الإدارية 1/16.
4) «وفَيَات الأسلاف وتحية الأخلاف» ص : 298.
5) «الطرق الحكمية» ص : 256.
6) التراتيب الإدارية 1/26.
7) «كشف، الظنون» ج : 1 ـ ص : 9.

الموصـلي (تـ : 762هـ)، و«أرجـوزة في تعبـير الرؤيـا على صفـة خـلـق الإنسـان»(8)، للشيخ أبي الحسن ابن السكن المعافري، و«أصول دانيال» (9)، وإرشاد جابر المغـربي؛ و«البدر المنير، في علم التعبير» (10) للشيخ شهاب الـدين أحمـد بن عبد الـرحمن المقـدسي (تـ : 697هـ)، وهـو من الكتب المتوسطة، وشرحه الحنبلي؛ «وبيان التعبير» (11) لِعَبْدُوس بن عبد الله بن عبدوس العبدري الهمداني (تـ : 490هـ)؛ و«تحفة الملـوك في التعبير» (12) مختصـر للشيخ أبي العباس أحمـد بن خلف بن أحمد السجستـاني، وهي على تسع وخمسين مقالة؛ و«تعبير بن أشعث (تـ 360هـ) أي إسماعيل بن أشعث، «وتعبير ابن المقري» (تـ : 523هـ)، و«تعبير ابن سهل المسيحي»، وهـو عيسى بن يحيى المسيحي الجـرجـاني الطبيب النصـراني(13)، و«التعبير المـاموني»، أي محمد هرون بن العبـاس البغدادي (تـ : 572هـ) وهناك «تعبيـر أرسطو ـ وأفـلاطون ـ إقليـدس ـ بطليموس ــ الجاحظ ـ جالينـوس»..

يخلص من هـذا، أن تعبير الـرؤيا هـو علم يتعرف منـه المناسبـة بين التخيلات النفسانية، والأمور الغيبية لينتقل من الأولى إلى الثانية، وليستدل بذلـك على الأحوال النفسـانية في الخارج، أو علـى الأحوال الخارجيـة في الآفاق، ومنفعتُه البشرى أو الإعذار بما يرونَه.

وأورد أبو الخير في فروع العلم الطبيعي، وذكر فيه أيضا ماهية الرؤيا وأقسامها، وكذا فعل ابن صدر الدين.(14) وصنف عبد الغني بـن إسماعيل

---

8) كشف، ج : 1/ص : 62.

9) كشف، ص : 113/ 1.

10) كشف، ص : 231/ 1.

11) كشف ،ص : ج 1/ ص : 260.

12) ج : 1، ص : 375، كشف.

13) ج : 1 ـ ص : 416.

14) كشـف، ج : 1/ص : 416، وللعالم ابستمـولوجي الفيلسـوف الفرنسي جـاستون بـاشلار GASTON Bachelard (تـ : 1962) «الماء والأحلام» عام 1942.

النابلسي كتاباً بعنوان : «تأثير الأنام، في تفسير الأحلام» الذي طبع مرات عديدة.(15)

* * *

وقد وجدت عدة أماكن في العالم لتفسير الأحلام، وتعبير الرُّؤى المنامية... وتدعيما لتعبير الرؤيا المنامية تعبيراً دينيا وعلميا، فقد قامت هيآت علمية متخصصة على سبيل التطوع الخالص باسم المكاتب العلمية لتعبير الرؤيا المنامية لدراسة أحوال الرائي، دراسة ميدانية، وتعبير رؤياه على أساس ديني وعلمي وروحي، وقد ضَمَّ هذا المكتب نخبة صالحة من العلماء في مجالات الدين والطب وعلم النفس والاجتماع المتخصصين والمهتمين بشؤون الأحلام في الشرق العربي...

* * *

وقد ذكر علماء هذا الفن أن المضمون الكامن للحُلم، هو ما ينطوي عليه الحلم من مغزى ودلالة، وهو عبارة عن الأفكار الدفينة، والرغبات اللاَّشعورية، والنزعات المكبوتة التي تعيش في الأعماق، والدوافع الحقيقية التي تحاول البروز إلى السطح، والتي تفصح عن نفسها بصورة رمزية في الحليم...

فالفتاة المراهقة الصغيرة تحلم بابن الجيران يقطر لها قطرة في عينها، مثلا، فالمضمون الكامن للحلم، من وجهة التحليل النفسي، هو مضمون جنسي يفصح لأول وهلة عن رغبة جنسية... والرغبة الجنسية للحالمة أفصحت عن نفسها في هذا الحُلم بصورة رمزية موحية متخفية أو مقنعة...

وهناك تحليل وظيفي، وهو يعني في تفسير الأحلام بالمضمون الصريح أو الظاهر للحُلم ـ هو الحلم كما يراه الحالم، وكما يرويه،

---

15) «الأدب الجغرافي عند العرب» لكراتشكوفسكي ج : 2/ص : 758.

وهـو عبارة عن صـور بصـرية، مثل رؤيـة وروايـة الحلم السابق بلفظـه وصورته.

* * *

التحليل الاجتماعي في تفسير الأحلام :

التحليل الاجتماعي في تفسيـر الأحلام يُعْنَى بمضمون الحلم الظـاهر والكامن، إذ هـو يهتم بروايـة الحلم الظاهـرة الصريحـة، كما رآهـا الحالم، ويهتم فـوق ذلك، بما ينطـوي عليـه الحلم من دلالـة ومغزى في المجـال الاجتمـاعي من الإفصاح أو التلميح في الـرؤيا عن التنبيهـات والتحذيـرات والتوجيهـات والـبُـشْـرَيات والتنبؤات، وفي الأحـلام العاديـة عن الأفكار الدينية والرغبـات اللاشعورية، والنزعات المكبـوتة، والدوافع الحقيقية التي أفصحت عن نفسها بصور رمزية في الحلم.(16)

ومما لا ريب فيه أن من الأحلام مـا هو متنفس لما يحتبس في النفس، ومنها مـا هو مجرى لآمال وتطلعـات، ومن تم دار حولها منذ القـدم كلام كثير، وتصارعت الآراء والنظريات في منشئها وتفسيرها، والتعبير عما فيها من رموز، وعن صحتها أو كذبها...

وفي كتاب «التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام»(17)، ينقل عن ابن سينا ما يلي : «إن الأحـداث منقوشة في لـوح محفوظ في العـالم العلوي، وفي وُسْع بعض الناس، الاتصـال به عن طريق مخيلتهم القويـة، فيقع لهم هذا أثناء نومهم... واللـوح المحفوظ، مرآة نقشت عليها المقاديـر بغير حروف، ولو ظهـرت تجاههـا مرآة أخـرى لانكشف فيها صـورة الأولى إلا إذا قام بينهمـا حجاب، وليست المـرآة الثانيـة إلا القلب، والحجـاب هو الشهـوات والحواس، وينجلي هذا في اليقظـة، أما النوم ففيه يـرتفع الحجاب ويزول، وبذلك تظهـر في مرآة القلب صور اللوح المحفـوظ، وتنكشف للنفس آفاق

16) «تفسير الأحلام من وحي الدين» تأليف د. عبد المنعم بدر، والأستاذ أحمد الصباحي عوض.
17) ص : 73؛ للدكتور توفيق الطويل.

العالم المجهول، فـإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النـوم في أعظم حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب».(18)

***

وكما قدمنا فإن أسلافنـا أسهموا في بحث الأحلام والاهتمام بها، حيث تركـوا لنا تراثـا كبيرا نستَهْدِي بِهِ ونستـرشد، وفي مقدمـة رعيلهم العالم الموهوب محمد بن سيرين إمام التعبير عند المسلمين (تــ : 105هــ) الذي له «تعبير الرؤيا»(19)، وللشيخ عبد الغني النابلسي : «تعطير الأنام، في تعبير المنـام»، وبهامشـه : «منتخب الكلام، في تفسيـر الأحلام» لابن سيـرين، و«الإشارات في علم العبارات» لابن شاهيـن... وغير أولئك كثير من العلماء الذين أثروا المكتبات الفكرية بآرائهم وأبحاتهم في موضوع تعبير الرؤى...

***

وجاء العصـر الحديث، وظهـر علماء في الميـدان، وتفاوتت فيهم الآراء والأفكـار في دلالـة الـرؤى والأحـلام، وتعـددت النظـريـات في بـواعثهـا وأسبـابهـا... حيث استـردت الأحـلام مكـانتَهـا في ظِلِّ العلم والتجـارب، باعتبـارها ظاهـرة إنسانية كبـرى، وأخذت الصدارة من تفكيـر الإنسـان... فباسم العلم المادي الحديث نزل إلى ميـدان الأحلام «سيجموند فرود»(20)

---

18) المصدر السابق، ص : 32.

19) موجود في الخزانة العامـة بالرباط، قسم المخطوطات، تحت رقم : D 1527 تكلم عنه سركيس في معجمه ص : 126 ـ 127.

20) «فرويد» Freud (1856 ـ 1939) طبيب فيلسـوف نمساوي، يهودي مـؤسس طريقـة التحليل النفساني.. أفرط في أهميـة الدوافع والعواطف و«التحت شعورية»، وأهميـة العوامل النفسية لا سيما في طور الطفولة.

في عام 1912 أسس فرويد جماعة سرية كلفت بالسهر على أرثدوكسية التحليل النفساني. وقد منح لكل واحد من السبعة أعضاء، حجرا محفورا ومنقـوشا، تم تركيبه في خام الشعارات الذي يضعونه في الأصبع كرمز غامض.

إن «فيليس غروسكيرت» الذي سبق وأن ألف سيـرة ذاتية رائعة عن «ميلاني كلين»، يسجل في كتـاب «فرويـد والجماعـة السريـة» التشتت المحتـوم لهذه الجمـاعة والطـرق التي تفصل بين الإخلاص والخيانة.

صدر هذا المؤلف عن (Puf) ويقع في 242 صفحة.

وقدم نظرياته عن العقل الباطن، والعقل الواعي، ورغبات الجنس المكبوتة، وأصبحت الأحلام في تقديره تعبيراً عن الرغبات والنوازع في العقل الباطن، فلا يكاد العقل الواعي يفقد رقابته، حتى تنبعث هذه الرغبات الحبيسة المكظومة المضغوطة، وتحاول أن تحقق في النوم وفي الخيال ما عجزت عن تحقيقه في دنيا الواقع، وعالم الناس...

* * *

وبالرجوع إلى عدة مصادر في موضوع تعبير الرؤى المتعلقة بتفسير الماء، موضوع دراستِنا، في المنام، استطعنا أن نجمع، من عدة مصادر ومظان ومراجع هذه المعلومات عن تفسير ما يراه الرائي في منامه بقصد الاسترشاد والاستيناس ما دامت النفس البشرية تتطلع إلى حل رموز الغيب المحجب، وتستشرف، في لَهَفٍ وشوق، إلى كشف المستور، ومعرفة المصير المجهول فيما يَطْرَأُ لَهَا أو يتصل بها لتسير في الخَطِّ اللاحب الصاعد للحياة...

فما هو تفسير رؤية الماء في المنام، موضوع الدراسة، وما هو تعبير مشتقاته، وكل ما يتصل به؟

فإذا رأى شخص الماء في منامه، فإن ذلك يدل على حياة طيبة وسعادة راضية، وأمل مطمئن، ومال وفير وزيادة خير، وهو ترويح لقوله تعالى : ﴿**هو الذي خلق من الماء بَشَراً، فجعله نَسَباً وصِهْراً**﴾، فإن كان الماء صافيا غزيرا دل على رخص الأسعار، وإقامة العدالة؛ وشرب الماء في المنام سلامة من العدو، وسنة طيبة لشاربه.. وشرب الماء بكثرة في الحُلم دليلٌ على حسن الحظ وطول العمر... كما أن السير على الماء في الحُلم دليل على النجاح في الأعمال، قال ابن سيرين : «الماء في النوم فتنة في الدين» لقوله تعالى: ﴿**ماءً غدقاً لنفتنهم فيه**﴾ وهو بلاء، لقوله تعالى: ﴿**إن الله مبتليكم بنهر، فمن شَرِبَ منه**﴾.

ومن رأى أنه **يشرب الماء** صافيا في قدح نال خيراً من ولده وزوجته، ومن رأى أنه يعطي الماء في قدح، كان ذلك دليل ولد...

أما إذا كان **الماءُ قذرا**، وعلى هيئة أمـواج متلاطمة فهو علامـة متاعب يجـب الكفـاح في ا لتغلب عليهـا خصوصـا إن كنت ظمآن جـدا، وتروي ظمأك بشـرب الماء، كما أنـه من رأى أنه سقط فـي ماء راكد، فهـو حَبْسٌ وغمّ...

والأشـربة في المنـام على أنـواع، فكل شـراب أصفر اللـون دليل على المرض، أما شراب البنفسج دليل على الشفاء؛ وشراب العسل والتفاح، وما يماثلها من الأشـربة الشهية للأغنياء خير، وللفقـراء رديء!! وشرب الدواء دليل على زوال المرض، إن كـان الرائي مـريضا، وعلى وجـود المرض إن كان الرائي غير مريض...

والشراب الملين للطبيعة دال على الكرم، وأدويـة الصداع في المنام دالة على معالجة الخصوم والأعداء، وكذلك الأشربة المثلجة...

وقد ذكـروا أن رؤية **المطر في المنام** خيـر ورزق ورحمة، فإن كـان خفيفا دل على الثروة والسعادة، وإن كام مصحـوبا برعدٍ دَلَّ على المتاعب والأخطار، وإن كـان خاصـا بمكان معلـوم دل على حزن أهلـه أو على هم يعرض للرائي بسبب فقد من يعز عليه، وإن كان المطر عامّاً مؤذيا دل على المتاعب الكثيرة... ومَن رأى أن السماء قد أمطرت، وقطر ماء الغمام من كل جانب، فإن الناس ينالون سعةً وسرورا، وتنفجر العيون... كما أن من رأى المطر في دارِه، وخاصة دون الناس، نال منفعة وخيراً وكرامة...

ورؤية **الفيضان فـي المنام** تـدل على سوء الحظ، وتـرتبط القضايـا الخاسـرة به، فإن كـان كثيرا، فإن الـرائي سيقابل خطـرا أو متاعب، أو أن غريمـا سيأخذ منه حبيبته... وإن كـان ماء الفيضان نظيفـاً، فإن المتاعب ستكون بسيطة...

أما إن كان الماء قَذِراً، أو مليئا بالطين، فإن المتاعب ستطول، وإن حُلْم الرائي بأنه يعوم في أعلى الماء، فإنه سيتغلب على المتاعب والصعوبات.

ورؤية **البحر في المنام** يدل على ملك قوي، وهو للتاجر متاعه، وللتلميذ أستاذه، وللعامل رب عمله، فمن شرب منه تعلم بقدر ما شرب، فإن عبر البحر سابحا، غنم مال عدوه، وشفا من مرضه إن كان مريضا...

وقد ذكر الأستاذ «أحمد الصباحي عرض الله» في كتابه تفسير الأحلام» أن رجلا رأى في إحدى جزر «المانش» في منامه أن جماعة من الناس وقعوا، وهم في البحر، خطر جسيم، وأنهم يستنجدون به، ويستغيثون من الصخور، ثم قام مرة أخرى، فتكرر الحلم بصورة أبلغ في الألم، فلما كان اليوم التالي ذهب إلى الميناء، وأدلى بالخبر إلى زملائه، فلم يميلوا إلى تصديقه، ولما أَلَحَّ عليهم امتَطَوْا زَوْرقاً فَمَرَّ به إلى بعض الصخور البعيدة، وهناك أبصروا بأشخاص أو شكوا أن يموتوا جوعا، وكان نتيجة لهذا الحلم أن بنيت منارة لهداية السفن في ذلك المكان...

ورؤية **النهر في المنام**، إن كان ماؤه رائقا، والشمس مشرقة ساطعة، فهو علامة طيبة بخلاف ما إذا كانت به صُخُور كثيرة، فهناك متاعب، وإن كان به طين كثير فهناك فشل، وقالوا، إنه لا يحمد الشرب، في المنام، من النهر، لقوله تعالى : ﴿**إن الله مبتليكم بِنَهَرٍ**﴾ وإذا جرى الماء في سوق، والناس يتوضأون منه، وينتفعون بمائه، فذلك عدل السلطان في رعيته، وإن جرى فوق الأسطحة، ونزل إلى الدور، بل قماش الناس، فذلك جور من السلطان في رعيته أوعد ويطغى على الناس.

ومن شرب من نهر **النيل في المنام**، نال ذهبا بقدر ما شرب، ومن رآه نال سلطانا وقوة...

أما إذا ارتوى إنسان ماءً في ا لمنام، فهو يدل على اليسر بعد العسر، وقضاء الحاجة، والغنى بعد الفقر...

والحلم ببحر هائج يَعُبُّ عُبَابُـه، وتصطخِب أمواجُه علامـة متاعب في الحب أو العمل سواء كان الرائي بداخله أم على الشاطيء تصدمه الأمواج...

وقد يحلم الإنسـان بأنه يسبح في المـاء، فالحلم بأنـك تسبح جيدا أو بقوة في ماء صافٍ حُلم طيب، علامة نجاح عظيم في الحب والحياة والعمل، فإن كـان السـابح عـالمـا بلغ في العلم حـاجتـه، فإن سبح، ثم رجع إلى الساحل فإنـه يطلب العلم، ثم يتركه... وقيل السباحـة حبس؛ فمن رأى أنه يسبح في البحر، فإنـه يحبس ويناله ضيق في حبسه، ويمكث فيـه بقدر صعوبة السبـاحة أو سهولتها وبقـدر قربه من البحر... والحلم بـالسباحة بصعـوبة أو أن المـاء به طين أو حشـرات أو أنك تكـاد ترفع رأسك فـوق الماء، فإن هذا كله معناه تحذير من فشل وقلق...

ومن رأى **في المنـام أنه قـد غرق** في البحـر، فإنـه يغرق في دنيـاه ويستغني، وإن خرج من البحر، ولم يغرق دل ذلك على الصلاح، ومن رأى أنه غريق، فإنه دليل على ارتكاب أخطاء، والأحلام التي تشاهد فيها شخصا آخر يغرق دليل على حسن الحظ، أمـا إذا كنت أنت تغرق ، فهذا دليل على متاعب قد لا تتغلب عليها...

وأن حلم الإنسان بأنه **يستحم بماء نظيف**، فهو وعـد لك بسعادة مع عواطـف طيبة، أما إذا كـان الماء قـذِراً، فإنه ينبـيء عن سماع أخبـار غير سارة... كما أن الأحلام التي تظهر فيها المياه مشوبة بالقاذورات دليل على أن الناس يتحدثون عن مـاضيك، ولكن إذا ألقيت عليك، كانت دليلا على ما ينتظرك من مرض!!

أما **حلم البئر** في التأويل والتعبير، فهـو مالٌ أو علمٌ أو تزوجٌ أو رجل ضخم... فمن رأى أنه حفر بئراً، وفيها ماء تزوج امرأة مُوسِرة، ومَكَرَ بها، وأن رأتـه المرأة في منـامها فهـو رجل حسن الخلق، وإن رآه الـرجل في منامه، فهو امرأة ضـاحكة مستبشـرة، فإن كان ماء البئر نظيفاً، فإن رؤياه

حسنة جدا... وإن حلمت أنك تُخرج الماء من البئـر، فإنه وعد بالنجاح في عمل جديد... أما الحلم بالبئر الخالي من ا لماء، فهو علامة فشل، أما حلمك بإنك وقعت في بئر، فإنه تحذير من مرض، أو خطر يهددك...

ورؤية الناعورة في المنام خادم يحفظ أموال الناس في السر والنواعير والدواليب تفسر على دوران التجارة وانتقال الأحوال.

والعسل في المنام دليل النقـاء والطهارة، فإن كـان في الشتاء بـالماء البارد دل على الهموم والأمراض...

ورؤية **الثلج في المنام** دليل على حسن الطالع، وكثرة الأرزاق، وعلى الشفاء مـن الأمراض.. إذا اغتسل الحالـم به... وربما دل الثلج والنـار على الألفة والمودة والمحبة، لأن النار لا تذيب الثلج، والثلج لا يطفيء النار...

وأكل الثلج في المنـام يدل علـى ألسعي وراء الثروة... وإذا كـان الثلج قذرا دل على المتاعب لآكله... أما إذا رأيت ثلجا، أو كنت تكسره، فإنه علامة طيبة، لأنك إن كنت غير متزوج، بإنك ستكون موفقا في زواجك عندما يتم، والثلج الغـالب تعذيـب السلطـان رعيتـه، وأخـذ أموالهـم وحفـاءه لهم، وقبح كلامـه لهـم لقوله تعالى : ﴿**فأنـزلنـا عليهـم رجـزا من السماء**﴾ قيل ثلجاً.

وإن **حلمت أنك تتزحلق على الثلج**، فإنه إنذار لك، بأن أحسن أمانيك في خطر عدم التحقيق، ولو أنك إن كنت تتزحلق جيدا، والثلج بهيجا منظره وسهلا، فإن الفشل سينتهي وتوفق.

ومن **رأى ثلجا نزل من السماء**، وعم الأرض، فإن كان ذلك في أماكن الزرع، وأوقات نفعه، دل على كثرة النـور، وبركات الأرض وكثرة الخصب، ووفرة النماء حتى يملأ تلك الأماكن بالطعام والنبات كامتلائها بالثلج...

والحلم بتناول المثلجات دليل على السعادة في المستقبل... أما الحلم بإن الأطفال يتناولون المثلجات، فإنه يدل على ربح نقود.

و**الجليد في المنام** في وقته إذا رىء يـدل على ذهاب الهمـوم والغموم وإرغام الأعداء والحســاد.. وإذا جلد الماء وأهلك الشجـر، وسد الأبواب دل على إبطال المعاش، وتوقف الحال، وتعذر الأسفار...

ومن رأى نفسه **بجوار بركة**، ماؤها نظيف، فإنه حظ سعيد، وبخلاف ذلك إن كـان ماؤها غيـر نظيف، فإن كان معـه صديق، فإن السعـادة في انتظارهما...

وإذا حلم الإنسان **بأنه ركب قاربـا في بركة**، حسن أيضـا، ولكن إذا رأيت قاربا يغرق فمعناه المتاعب والمشاق...

وإذا حلم الإنسان **ببخت** كان هـذا دليلا على مركز هـام ستصل إليه، وهـذا إذا كانت الميـاه هادئة... أمـا إن كانت هـائجة، فإنـه يدل على فقـد مكانتك...

وقد ذكـروا أن من رأى **في المنام أنــه توضأ** وضوءه للصلاة، فإنه يامن مما يخافه من عدوه، ومن رأى أنــه اغتسل، فإنه يظفر بشـيء كان قد سـرق منه، وإن رأى أنــه توضأ، ودخل في الصــلاة، فإنه يخـرج من هم كبير... ومن رأى أنه صلى بغير وضوء، فإن كـان تاجرا فإن تجارته ليس لها رأس مال، وإن كـان صانعا، فليس له مأوى، وإن كـان صاحب ولاية فليس له جند... والوضوء صالح في كل الأديان... وأمان من الله تعالى...

والحمام في المنام يـدل على بيت أذى، فمن دخله أصابه هم لابقـاء له من قبل النساء، لأن الحمام محل الأوزار، والحمام اشتق اسمه من الحميم – فإن كان الـرائي مغمومـا ودخل الحمام، خـرج من غمه، فإن اتخـذ في الحمام مجلسا، فإنه يفجر بإمرأة، ويشتهر أمره، لأن الحمام موضع كشف العورة...

وَزَبَد الماء إذا رىء في المنـام فـإنـه يـدل على شـيء لا ينتفع بـه.. **والسحاب** يدل علـى الإسلام الذي بـه حياة النـاس ونجاتهم، وهـو سبب

رحمة الله لحمله الماء الـذي به حياة الخلق، وربما دل السحاب على العلم والفكر والحكمـة والبيان لمـا فيها من لطف الحكمـة... وقد ذكـر المعبرون للرؤيا المنامية المتعلقة بالسحاب أشياء كثيرة...

والساقية في المنام تدل على مجرى الرزق ومكانـه وسببه كالحانوت والصناعـة والسفر ونحو ذلك... وربما دلت علـى القروح لمدها بـالماء في مجراه مع سقيها للبساتين، وبما دلت على محجة طريق السفر... ومن رأى سـاقية مملـوءة زبلا وكنـاسة، وقـد غسلها، وأزال مـا فيها فإنـه يحتقن، ويسهل طبيعته...

والماء **في الغدير** دليل على مكايد وغدر...

وفسقيـة المـاء في المنـام ما يتوقـاه الإنسـان من الفسـق، وربما دلت الفسقيـة على المـرأة الجميلة الجليلـة، إن كـان فيها مـاء، فهي ذات مـال...

وقربة الماء في المنام سفر، وربما كانت امـرأة تحمل وتسقط، وتدل على الفكر والغنى، وتدل القربة على الدخول في المضايق.. ومن رأى قربة مملوءة ماء في منزله، فامرأته حامل...

والندى في ا لمنام يدل على بِشارة...

ونجد في الجزء الثاني من كتاب «حيـاة الحيوان» للدميري فصلا عقده في تعبيـر الـرؤيـا وهي تخص البحـر، وشرب المـاء منـه، والمشي فيـه والغـوص فيه، والسبـاحة فيـه، وكذلـك البحيرة في الـرؤيا، والنهـر وعين الماء...

فالبحر في الرؤيا يعبـر بهلك وحبس لمن وقع فيه، ولم يمكنه الخروج منه، وبِرجل عالم وكريم، فيقال : بحر علم، وبحر كرم، ويعبر بالدنيا، فمن رأى كأنه قاعد على متن البحر، أو مضطجع عليه، فإنه يداخل ملكا ويكون منه على خطر، لأن الماء لا يومن الغرق فيه...

ومن رأى أنه شرب من ماء البحر نال مالا من الملك، فإن شربه كله نال مال الملك...

ومن رأى البحر من بعيد، ولم يخالطه، فإن ذلك أمر يفوته...

ومن رأى أنه شرب من مائه، وله شريك فإنه يفارقه لقوله تعالى : **﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾**.

ومن رأى كأنه يمشي في البحر في طريق يابس، فإنه يأمن مِن الخوف لقوله تعالى : **﴿فأضرب لهم طريقا في البحر يبَسا، لا تخاف دركا ولا تخشى﴾**.

ومن رأى أنه غاص في البحر ليخرج شيئا من الدر، فإنه يدخل في غامض العلم.

ومن قطع البحر سبحا إلى الجانب الآخر، فإنه ينجو من هول وغم.

ومن سبح في البحر في زمن الشتاء ناله هم من قبل ملك، أو أصابه مرض، أو يحبس، أو يناله وجع من الرياح.

وإذا دخل البحر ولى درس الناس، وبل القماش أو أكل وحشه طعام الناس، فإن الملك يظلم أهل تلك ا لناحية، وربما دل على طول الشقاء في تلك السنة لا سيما إذا كان مضطربا كثير الموج فإنه يدل على مضار كثيرة...

والبحيرة في الرؤيا تدل على القضاة والولاة والموالي الذين يفعلون الأشياء بالأمر... والبحيرة الصغيرة تدل على امرأة غنية... والبحر إذا كان هادئا دل على البطالة... والبحيرة للمسافر تدل على تعذر السفر...

وأما النهر في الرؤيا، فإنه يدل على رجل جليل... فمن دخل في نهر، فإنه يخالط رجلا من الأكابر، ولا يحمد الشرب من النهر... وقيل إنه يدل على سفر لمن دخله، لأن ماءه منقل مسافر...

ومن رأى أنه وثب من النهر إلى الجانب الآخر، فإنه ينجو من هم، وينصر على عدوه، والدخول في النهور دخول في عمل السلطان.

وإذا جرى الماء في الأسواق، والناس يتوضأون، وينتفعون به، فذلك عدل من سلطان... فإن جرى فوق الأسطحة، وبل قماش الناس في دورهم، فذلك جور من السلطان أو عدو يطغى على الناس كما تقدم...

ومن رأى نهرا خرج من داره، ولم يضر أحدا، فإنه معروف منه يصل إلى الناس... ومن رأى أنه صار نهرا، فإنه يموت بنزف الدم...

ثم قال الدميري(21) فصل : «وأما رؤية عين الماء، فإنها كرامة ونعمة، وبلوغ أمنية، إذا كان الرائي مستورا...

ومن رأى كأن عينا نبعت من داره، دل على مشترى جارية، فإن خرجت من ا لدار إلى ظاهرها، فإنه مال قد ذهب...

والماء الراكد في الدار هم باق!! فإن كان صافيا، فهم على صحة جسم، ولا يكره من العيون إلا ما ركد ماؤه ولم يجر... ومن شرب من ماء عين أصابه هم، فإن كان باردا، فلا بأس به.. والله أعلم...

---

21) حياة الحيوان، ج : 2 ص : 222.

الماء والعرافون(1)

في استطاعـة الساحر والعراف، فـي بلاد العرب وغيرهـا، وفي العصر الجاهلي مداواة العاشق، وإماتة عشقه بوصفة يعطيها إليه تقضي على حبه الجامح قضاءً تاماً، تسمى «السُّلْوَانـة» والسلوان، وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يغتسل بهـا الإنسان أو يشربهـا، فتنطفىء في الحال، أو بعد أمد، كل نيران للحب مُؤججة في قلب العاشق... وقد قال ابن الأعرابي: السلوانـة : خَرَزة للبغـض بعد المحبة، كمـا تحدث عنهـا اللحيانـي فقال : السُلوانة والسُلوان خَرَزة شفافة إذا دفنتها في الرمل، ثم بحثت عنها رأيتها سوداء يُسقاها الإنسان فتسليه...

والسلوانـة هي شيء من تـراب قبر، أو خَـرَزة تسحق ويشرب مـاؤها، فيـورث شـاربهـا سلـوه، وتكون الخَـرَزة شفافة تدفن في الرمل فتسود، ثم تستخـرج لسحقهـا وشربهـا، وقـد يكتفي بصب مـاء المطـر على تلك الخـرزة لسقي العـاشق ذلك المـاء الذي يسمـونـه «السلـوان» ليشفَى من العشق، ولا بد أن يكون لاختيار الماء، وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجـة العشق سبب يمكن تفسيره، بأنـه لغسل قلب الميت وإمـاتة الحب فيـه...

حكى محمـد بن حيان قـال(2) : حضـرت الأصمعي، ونُصيـر بن أبي نصير يعرض عليه بالري، فتدارسوا هذا البيت لرؤبة :

مُسلمٌ لا أنسـاك مـا حيـيتُ　　　لو أشرب السُّلوان ما سليتُ

ما بي غنىً عنك، وإن غنيت

---

1) أنظر مقدمة ابن خلدون، وانظر، أيضا : بلوغ الأرب، ج : 3، ص : 306.

2) لسان العرب المحيط، للعلامة ابن منظور، ج : 2، ص : 196.

فيما عَرَضَ عليه، فقال لنصير : ما السُّلوان؟ فقال : يقال إنه خرزة تسحق ويشرب ماؤها، فيورث شاربه سَلْوَة... فقال : أسكُت لا يسخر منك هؤلاء، إنما السُّلوان مصدر قولك : سلوتُ، أسلو، سلواناً فقال : لو أشرب السلوان، أي السلوّ، شرباً ما سلوت...

ويقول الجوهري : السُّلوانة بالضم : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر، فشربها العاشق سلا...

شربت على سلوانة ماء مزنة

فلا وجديد العيش، ياميُّ، ما أسلو

واسم ذلك الماء السُّلوان، والأطباء، يسمون ذلك الماء «مُفَرِّح» ومنه: «عين السُّلوان» : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس(3) ومنه ما أنشده «طعين عفراء»، عُروة بن حزام :(4)

خليلي من عُلْيَا هلال بن عامر

بصنعاء عُوجا اليومَ وانتظراني

ولا تزهدا في الذُّخر عندي وأجملا

فإنكما بي اليومَ مُبْتَلِيَانِ

ألِمَّا على عفراء إنَّكما غداً

بشحط النوى والبين مُعترفان

فيا واشيَيْ عفراء ويحكما بِمَنْ

وما وإلى من جئتُما تَشِيانِ

بِمَنْ لو أراه عانياً لفديتُهُ

ومن لو رآني عانياً لفداني

3) القرطبي ج : 1/ص : 408.

4) عروة ابن حزام أحد ا لمتيمين الذين قتلهم الهوى، قيل لا يعرف له شعر إلا في «عفراء» ابنة عمه عقال بن مهاصر. ولذلك اثبتنا له هذه القصيدة اليتيمة.

أغـــــركمـــــا مني قميصٌ لبستُـــــهُ
جـديـــدٌ وبُـــرْدَا يَـــمْــنَـــةٍ زَهيــانِ
متــى تكشفــــا عنيِ القميص تبيَّنــــا
بي الضُّـــــرَّ مـن عفـــراءَ يــــا فَتَيـــانِ
إذن تـــريــــا لحمـــاً قليـــلاً وأعظمـــاً
بَـــلِــــيْــــنَ وقلبــــاً دائِمَ الخَفقَـــانِ
جعلت لعـــــرَّاف(5) اليمـــامـــة حكمـــهُ
وعـــراف نجـــدٍ إن همـــا شفيـــاني(6)
فمـــا تَـــرَكـا من رُقْيَـــةٍ يَعْــرفــانِهـا
ولا شَـــرْبَـــةٍ إلاَ وقــــد سَقيـــاني
وَرَشَّـــا على وجهي من المـــاء ســاعـــةً
وقـــامـــا مع العُـــوَّاد يبتــــدرانِ
وقـــالا : شفـــاك اللــه، واللـــهِ مـــا لنـــا
بمـــا ضُمِّنَتْ منـك الضلـــوعُ يَــــدَانِ...
فَـــرُحْــتُ من العــــرّاف تسقُطُ عِمَّتَـي
عَن الــــرأس مـــا ألتـــاثُهـــا بِبِنَـــان
فَـــوَيْلِي علـى عفـــراءَ ويـــلاً كأنـــه
على الصـــدرِ والأحشـــاء حـــدُّ سِنَـــانِ
أُحِبُّ ابنـــةَ العـــــذري حبـــاً وإن نأتْ
ودانيت فيهـــا غيـــر مـــا هــــو داني
إذا رام قلبي هجـــرهـــا حـــالَ دونَـــهُ
شفيعـــانِ من قلبـي لهـــا جَـــذِلاَنِ

5) عرّاف اليمامة : هو رباح بن عجلة، وعراف نجد : الأبلق الأسدي.
6) اللسان : 19 ـ 118 وما بعدها.

إذا قلت : «لا» قـــالا : «بلى» ثـم أصبحـــا
جميعـــاً على الـــرأي الـــذي يـــريـــانِ
فيـــا ربٌّ أنت المستعـــانُ على الـــذي
تحمَّـــلْـــتُ من عفـــراء منـــذُ زمـــانِ
كـأن قطـــــاةً عُلِّقتْ بِجنَـــاحِهَـــا
على كبـــدي مـن شـــدَّةِ الخَفقـــانِ
وقـــد تـــركت عفـــراء قلبـي كأنـــه
جنـــاحٌ غـــرابٍ دائمُ الخفقـــانِ

وقال آخر :

سقـــونـي سلـــوةً فسلـــوت عنهـــا
سقى اللـــه المنيـــة مَن سقـــاني

أي سلوت عن السلوة، واشتد بي العشق ودام، وقال الشمردل :

ولقـــد سقيت بسلـــوةٍ فكأنمـــا
قـــال ا لمـــداوي للخيـــال بهـــا ازدد

* * *

في عام 322هـ 934م ظهر «بباسند» من أعمـال «الصغانيان»، وهي من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح ـ رجل ادعى النبوة، فقصدهُ فوج، واتبعه خلق كثير، وحارب من خالفـه، وكثر أتباعه من أهل الشاش ـ طشقند ــ كان صاحب حيل ومخاريـق، فكان يدخل يده في حـوض ملآن بالمـاء، ويخرجها مملوءة دنـانير، إلى نحو ذلك، ولما كثـر جمعه، وخيف شره، أنفذ إليه الحاكم جيشا، فحاربوه، وضيقوا عليه، وقتلوه(7)...

---

7) ابن الأثير، ج : 8 ـ ص : 216.

مقتطفات طريفة، وحِيلٌ مسلية :

أوردت مجلة : «تاريخ العرب والعالم»،(8) مقتطفات طريفة وحيل مسلية، ومفيدة من مخطوطة(9) : «كتاب الحيل»(10)، لأبناء موسى ابن شاكر، تلك المخطوطة التي تحتوي على وصف لمائة حيلة متنوعة، منها المفيدة المسلية السهلة التركيب، ومنها الغريبة المعقدة الصعبة التحقيق، ولكن جميعها إن دلت على شيء، فإنما تدل على عمق في التفكير، وسعة في الخيال، ودراية عميقة في المعلومات العلمية، حتى إن هؤلاء الإخوة استطاعوا تطويع النظريات العلمية، وفقاً لرغباتهم الشخصية، وتبعا لأهوائهم، فسرحوا بعيدا في خيالهم، وحاولوا تحقيق ما تاقت إليه أنفسهم من حيل، وما راود خيالهم من تركيبات...

وقد اعتمد أبناء موسى بن شاكر في وصف هذه التركيبات على أسس، ومبادىء علمية صحيحة، ورثوها من الدراسات النظرية التي وضعها اليونان في هذا المضمار، غير أن أبناء موسى لم يكتفوا بالنظريات، بل حللوها، وأظهروها إلى حيز الوجود بتطبيقها فعلا، لذلك حاولوا تركيب كل ما هو مهم ومفيد في حياتهم العملية إلى عامة الشعب، لذلك أن مخطوطتهم هذه، إلى جانب مخطوطة «آلة الزمن» تعتبر من أهم المخطوطات في علم الحيل الميكانيكية...

وقد بقي هذا العمل مهملا في الفترة الزمنية الواقعة ما بين الحضارة اليونانية، والحضارة العربية، ورغم كل ما أعطاه بنو موسى من اهتمام لهذا العلم، فإن العلماء العرب أهملوه من بعدهم، ولم تظهر دراسات في هذا المجال إلا في القرن الثاني عشر ميلادي مع العالم الميكانيكي المشهور ابن الرزاز الجزري الذي ترك لنا كتابا ضخما في علم الحيل

---

8) العدد : 49 ـ أكتوبر عام 1982، وقد كتب البحث د. منى سنجقدار شعراني.

9) المخطوطة موجودة في مكتب الفاتيكان تحت رقم : 317.

10) كشف الظنون، ج : 2 ـ ص : 1415.

تحت عنوان : «كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل» وهذه نماذج من الحيل السحرية :

1 ـ هذا إبريق نستطيع أن نصب منه، ومن فتحةٍ واحدة، تارة ماءً حارا، وطوراً ماءً بارداً.

2 ـ وذلك إبريق آخر نحاول صب الماء فيه بصورة متواصلة، فيتقبل، أما إذا قطعت الصب، وأعدته مرة ثانية، رفض استقبال الماء...

3 ـ هذه جرة تحتوي عدة أنواع من الشراب دون أن تمتزج، وتستطيع أن تصب منها، ومن فتحة واحدة النوع الذي تريده...

4 ـ وتلك جرة أخرى تصب منها مقداراً معينا من الماء، ثم ينقطع الصب تلقائياً، ثم تصب ثانية نصف المقدار، وهكذا حتى يفرغ كل ما فيها دون حاجة إلى مكيال معين.

5 ـ هذا تمثال وحش يرفض شرب الماء، إذا لم تشرب الحيوانات الصغيرة...

6 ـ وذلك تمثال آخر يزمجر غاضبا إذا حاولت بقية الحيوانات أن تشرب.

7 ـ هذا قدح، يخيل للناظر إليه بأنه فارغ، وإذا ما ناول الشرب منه، روى ظمأه.

8 ـ وهذا آخر تراه ملآنا، ولكنك لا تستطيع الشرب منه...

9 ـ وهذه إجانة تصب فيها رطلا أو رطلين من الماء، وتستطيع أن تروي ألفاً أو ألفي دابة...

10 ـ وتلك أخرى يصب فيها الماء في فم تمثال، فإذا أخذت منها مقداراً معينا من الماء، صب التمثال من نفسه كمية مماثلة، وإذا أخذت كمية أكبر غضب التمثال، ولم يصب شيئاً...

11 ـ وهذه المجموعة الضخمة من الجِرار والأباريق والقناني والاجانات انتقل أبناء شاكر إلى حيل أكثر حيوية، فوصفوا فوارات على أشكال

مختلفة، هذه فوارة على شكل ترس، وأخرى على شكل سوسنة... ثم تطرقوا إلى وصف القناديل، فهذا قنديل يتغذى من نفسه، ولا ينطفىء مطلقا... وهذا سراج يخرج الفتيل من نفسه، ويصب الزيت من نفسه، وكل من يراه يظن أن النار لا تاكل الفتيل.

* * *

العرافون والسحرة بمدينة فاس :

لقد تحدث الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بـ «ليون الإفريقي» عن العرافين السّحرة الذين كانوا بمدينة فاس، وهم كثر، حيث قسمهم إلى مجموعات ثلاث...

فالمجموعة الثانية، وهي مجموعة العرافين الذين يسكبون الماء في قصعة مطلية بالدهان، ويسقطون في هذا الماء قطرة زيت، وبعد أن تصبح هذه شفافة، يقول العرافون : «إنهم رأوا فيها، كما يرون في المرآة، عصابات من الشياطين قادمة بعضها خلف بعض، كأنها كتائب جيش تعسكر وتضرب خيامها... ويأتي بعض هذه الشياطين عن طريق البحر، والبعض الآخر عن طريق البر.

وعندما يرى العراف أنهم استراحوا، يطلب منهم أشياء يود معرفتها، فيجيبه الشياطين بإشارات يومئون بها باليد أو بالعين.

قال الحسن الوزان : «فما أشد غباء الذين يعتقدون في مثل هذه الخرافات، ويضع هؤلاء العرافو القصعة أحيانا بين ولد عمره ثمانية أو تسعة أعوام، ويسألونه في ما إذا رأى الشيطان الفلاني أو غيره... ويجيبهم الطفل السَّاذج : «نعم» ولكنهم لا يتركونه يتكلم، وللكثير من الضعفاء ثقة بهؤلاء العرافين تجعلهم ينفقون عندهم بدرات أموالهم(11).

---

11) «وصف إفريقيا» ص : 265، ـ ط : السعودية.

ونعطي مثالا آخر من فرنسا، ومن العالم الفرنسي «ميشل نوسترا داموس»[12] الذي عاش في القرن السادس عشر (1503 ـ 1569) والذي كان يواجه الوباء والأمراض ويشفي الناس، والذي كانت له وصفات لا يقرها الأطباء... وقد اشتهر هذا العالم بأنه يعالج الناس روحيا، فكان يلمس المرضَى ويعطيهم بعض الماء الدافيء والكثير من الأعشاب وعند ما اجتاحت الأوبئة فرنسا شمالا وجنوبا كان هذا الرجل يعطي الأمل، ويخفف الأوجاع..

لقد كان هذا الطبيب يجلس في غرفة مظلمة في منتصفها منضدة خشبية، عليها كوب من الماء، وهو يغمس أصابعه في الكوب، ويضع قطرة على جبهته، ثم أخرى على خديه، ثم بعض الماء يلقيه على قدميه العاريتين، وأخيرا يغمس طرف الثوب في الكوب، ويظل يحملق في الماء ساعات، ويمد يده إلى الورق، ويكتب، ثم يرتمي على الفراش نائما حتى الظهيرة، وهو في مدينة باريس...

لقد توقع هذا الرجل عدة أحداث غريبة، وقع بعضها ـ وما زال ـ في القرن العشرين، وقد تنبأ بما يحدث في الصحراء المغربية، فقد جاء على لسانه : «أن القوات البربرية سوف تأخذ أرضا من إسبانيا، وسوف تسيل الدماء» كذا...

إن «نوستراداموس» يذهب إلى غرفته، ويحملق في كوب الماء، ويقول إن سطح الماء، يتحول بسرعة إلى صفحة متحركة ــ تماما كشاشة السينما ـ وعليها تجري الأحداث في كل اتجاه، وعلى فترات متباعدة،

---

12) نوسترادميس (Michel de Nostre-Dame) Nostradamus ولد بسان ريمي دي پروفانس (Saint-Rémy-de-provence) (1503 ــ 1566) بصالون (Salon) طبيب فلكي، فرنسي صاحب كتاب (Centuries astrologiques) 1555، وهوْ عبارة عن رواية تاريخية، ضمنه تنبؤات كاذبة بقالب غامض معقد انخدع به العامة، وقسم الكتاب حسب القرون، وقد تم تعيينه طبيبا خاصا للعرر التاسع.

عشـــرات السنين، أو مـــآت السنين، وهـــو يصف الـــذي يـراه ويقـــول «نوستراداميــوس» : إن عندي موهبة، هــذه الموهبة عبارة عــن قوة... القوة تمْلأ جسمي كله، تهزني بعنف، وأسمع صــوتا، وأرى نورا.. ولا أعرف إن كنت أنا الذي يرى أو أن أحدا يـرى لي، ويرى بي، أو كنت أنا الذي أسمع الأصوات أو أن قوة أخرى تسمع لي أو تسمعني، كل هذا يجري أمام عيني على سطح الماء الذي يشبه شريطا يتحرك(13).

* * *

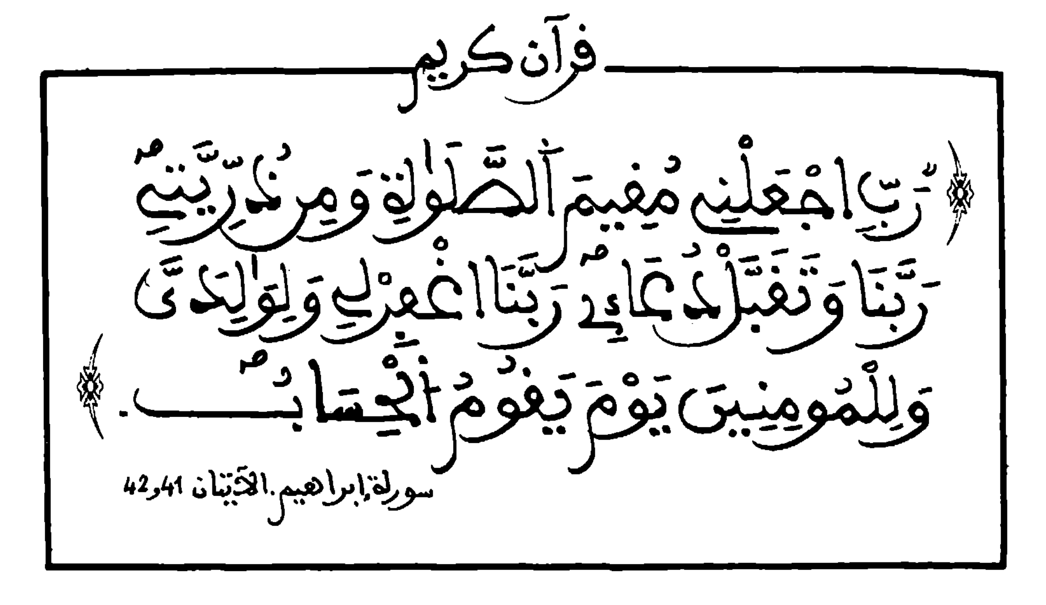
ففي الربــاعيات الثــانية، ينقل لنا الطقــوس التي يستعملها في العــرافة والتكهن.. أولا، هذه القواعد كانت تستعمل منذ القرن الرابع الميلادي، وبين قواعد «لامبلكــس»، في كتابة الأسرار المصرية، (1546)، ونجد في كلامه عناصر ومكونات ممارسة السحر: الـوقت، ليل، المكان غرفة كهفية، أمامه إناء من نحاس فيــه ماء موضوع على حامل صـغيـر ثلاثي الأرجل، يصدق العــراف في المــاء، حتى يـرى المــاء قـد تعكـر وتضبب، ثم تبـدأ صـــورة المستقبل بالظهور، يضـع صولجانه في وسـط الماء، يبلله، ويرش منه الماء على أهداب ثوبــه وقدميه..فيحس بالخوف من تلك الطاقــات التي استنارها في داخله..

فالأمر إذن، طقس من العرافة والكهانة والسحر والتنجيم والعلوم الخفية والسريانية التي اشتهر بها عصـــر الطبيب الفرنسي «نوسترادموس»، وبلغ فيها أوج الاستعمال.

* * *

والحمد لله رب العالـميـن ..

13) «لعنة الفراعنة» للأستاذ أنيس منصور.



قرآن كريم

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

سورة إبراهيم. الآيتان 41 و42

دعاء

سُبحانكَ اللّهمَّ وبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أن لاَ إلهَ إلّا أنتَ
أَسْتَغْفِرُكَ وأَتوبُ إليكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ
نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فإنّه لاَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا أنتَ.

فهرس المحتويات

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

عمل إنساني نبيل

الفصل السادس :

وقوف المياه في العهد الإسلامي

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

مؤسسة السقايات

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الإيداع القانوني: 1996/1214

مطبعة فضالة

زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)

الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)